

الْفُتُوَّةُ عِنْدَ الْعَرَبِ

أَوْ أَحَادِيثُ الْفَرُوسِيَّةِ وَالْمَثَلِ الْعُلْيَا

تأليف

عَمْرِ الدَّسُوقِي

أستاذ الأدب ، ورئيس قسم الدراسات الأدبية
بكلية دار العلوم — جامعة القاهرة

الطبعة الثالثة

مستند المطبع والنشر

مكتبة نهضة مصر بالجيزة

١٨ شارع كامل مندي

مقدمة

الطبعة الثالثة

ظهر هذا الكتاب في طبعته الأولى سنة ١٩٥١ ، ومستقبل الأمة العربية يكتنفه الغموض وتُغشيه الأحداث ، ومحنة فلسطين وما صاحبها من غدر وخيانة ، وما ترتب عليها من جراحات دامية تركت قلب الأمة العربية يتنزى ألماً ، لا تزال تحز في النفوس ، وتملك المشاعر ؛ ولا يدري العرب السبيل إلى غسل الكرامة للهانة ، وتضميد الجرح الدامي ، وكشف الطريق إلى مستقبل باسم ، وقد تأمر بهم أعداؤهم من الخارج ، وحكامهم وملوكهم وأمرائهم وذوو النفوذ فيهم من الداخل ؛ وخيل لأشد الناس إيماناً بالعروبة وأعجافاً أن العرب جنس قد أنهكت الأحداث ، وفكت به أدواء الأمم ، وأنه لا أمل فيه ولا رجاء له ، وأن طول استكاثته للاستعمار قد قضى على ما بقي من نخوته الماثورة، وأن التغنى بالعروبة يجلب السخرية والزراية .

بيد أني كنت من المؤمنين حق الإيمان بالقوة الكامنة في هذه الأمة ، وبأنها ستنهض من بين الأطلال فارعة عملاقة تعيد مجدها المندثر ، وتحقق أملها المرجو: تبني وعمر في كل ميادين الحياة لتباهض موكب الحضار على أسس متينة من وحي سياستها وتقاليدها وتراثها المجيد بعد أن تحطم أغلال الاستعمار وتتححر من ربة العبودية والتبعية .

ولقد آمنت منذ عشرات السنين بمبدأ لم يخامرني فيه يوماً من الأيام شك ،

وهو أن قضايا الأمة العربية لن تسير في الطريق الصحيح نحو الحل إلا إذا تصدرت مصر موكب القومية العربية ، وعملت جاهدة على رَأْب الصدع ولم الشمل ، وتوحيد القوى ، وتجميع المشاعر المبعثرة صوب هدف واحد هو إقالة هذه الأمة من كبوتها والسير قُدماً في طريق الوحدة الشاملة لتؤدي رسالتها السامية نحو نفسها ونحو الإنسانية جمعاء .

قد كانت مصر إبان الحن الشداد التي مُنيت بها الأمة العربية في تاريخها حسن الأمن والطمانينة الذي يلوذ به العرب في فزعهم ، والدرع الذي يقيمهم خوائل الأحداث ، ويرد شرور الأعداء ، فتكسرت عليه موجات المغول ، واحسر طوفان الصليبيين . ولجأت إليها لغة الضاد حين كادت تلفظ أنفاسها ، فأوتتها في أزهرها وتعهدها بالعناية حتى دبت فيها الحياة ، وعاد إليها شبابها وروقتها ؛ وهي تحتل من العالم العربي واسطة العقد ، وتزخر بالخيرات . وفيها من القوى المادية والمعنوية والروحية ما يشتد به ساعد العروبة ، وتقوى على درأ عاديات الزمان .

واقذفطن المستعمرون إلى هذه المكاة التي تتمتع بها مصر فحاولوا أن يعزلوها عن شقيقاتها ، بالدس والمكيدة ، وإثارة الأحقاد والفتن أو اصطناعها ؛ حتى تظل قوى العرب مبددة وشعوره مفرقة ، وأمايهم مشتتة .

ولقد كان يحز في نفسى ، ونفس كل عربى صادق العروبة يرجو لهذه الأمة الخير ، أن تظل مصر بمعزل عن قضايا القومية العربية . حتى كانت كارثة فلسطين، ورأت مصر ألا سبيل إلى العزلة ، وأن الخطر جاثم على أبوابها ، وأن خطبه

يشتد كل يوم توازره مؤامرات الغرب وأطماعه وكيدته للعرب ، وأن لا سبيل إلى الخلاص إلا بتوحيد الشعور العربي كله كي تُردَّ هذه القلدة العزيزة من الوطن النالى إلى جسم الأمة العربية الدامى ، وحتى يزول شبح الخطر الجاثم بين ظهرانيهم ، يتخذ الاستعمار بثورة إفساد ، ومركز تخريب ودسائس ، وقنطرة يعبر عليها لتحقيق أطماعه ومآربه الخسيسة .

ولكن كيف السبيل إلى توحيد القوى ، وجمع الشمل ، وتركيز الشعور نحو الهدف ، ورجال العهد البائد قد تردوا في حمأة الفساد ، ورائت على قلوبهم وعقولهم غشاوة فلم يدركوا الأوضاع الصحيحة ، بل ظلوا في غواياتهم ساديين حتى أشرفت مصر على التردى معهم في الهاوية، وتراكت في سمائها سحب الأحداث كسفًا كسفًا ، وأربد الأفق واضطربت الأمور والعدو اللدود قابع على أرض القناة يتسم في سخرية من سياستها الكسيحة ، ويتربص بها الدوائر ، ولم تكن حائر البلاد العربية أحسن حالاً أو أهدأ بالاً .

في هذا الوقت العصيب ظهر كتاب (الفتوة عند العرب) دليل الرجاء الذى لم يصوّح ، والأمل الذى لم يتبدّد ، والإيمان الذى لم تزعزعه الأحداث ، بأنه سينبلج من بين هذه العتمة الخالكة نور وهاج ينير السبيل ، ويكشف الهدف ، وأن هذه الأمة لم تُرْزَأْ بالعقم ، بل كلما حَزَبَها الضر ، وحاوَبَها الشر ، وأطبقت عليها ظلمات الأحداث ، وتسرب الرجاء من النفوس أدركها الله بأحد بنى الأفذاذ ، ينهضها من كبوتها ويقيها من عثرتها ، ويمسح بيد عزمه وحزمه وخيره وبرّه جراحات الزمان وسكّات الأحداث ، ويكشف بهدى بصيرته

(و)

ونور عقيدته لها الطريق ، ويزيل بقوة إرادته ركام الأحداث ، ويدفنها دفناً
جيداً في درج السؤدد القوة .

وهذا ما حققته الأيام، فكادت الثورة المصرية سنة ١٩٥٢، كانت بذرة صغيرة
التقطها جمال عبدالناصر وصحبه الأبرار من خنادق معركة فلسطين فلقبت أرضاً خصبة
قوية ، فمت وترعرعت ، وهم يحوطونها بالصاية ، ويتمهدونها بالرعاية ، ويسترونها
عن أعين الفاسدين والعابثين ، فلما اشتدت الأزمات وتوالت النكبات وتهاوت
الوزارات وأطبق اليأس وتبدد الأمل ، خرجت الثورة إلى النور عملاً كاملاً وثمرة
ماضجه ، فتقبلها الناس بفرحة من أوشك على الهلاك مسغبةً وظمناً فوحد الطعام
الشهى والماء العذب الذلال .

كادت الثورة المصريه نقطه تحول كبير في مستقبل الأمة العربية، إذ أعلنها جمال
عبد الناصر مدوئية في الآفاق : «أن مصر جزء من الأمة العربية » فدفعها بذلك إلى
مكاتها المرموق في موكب العروبة ، وحاضمت الثورة معارك عديدة في سنى الميادين
وخرجت مظفرة قوية من كل معركة : اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية . حققت
الجللاء ، ونهضت بالجيش وحطمت احتكار الأسلحة ، وقضت على الإقطاع ، وخطت
في ميدان التصنيع والاقتصاد خطوات حبارة .

ورأى العرب في سنى ديارهم هذه الهبة الفارعة ، وأيقنوا أن مصر القوية
هى درعهم المتين عند الشدائد وأنحن فتحاوب أكثرهم مع سياستها المستمدة من
كيان الامة العربية وأوضاعها ، فلما أمت القناة ، وفقد الأعداء رتدهم ، وتسوها

(ز)

حرباً تتعواء غادرة ، وحشدوا لها الأساطيل وهيالق المدمرات والنفاثات وحفاظل
الجيوش ، تنمر العرب أن حرب بور سعيد حريهم ، وأن الأعداء يتآمرون على
هذا الأمل الضخم ليحطموه ولما تخن ثمراته ، نفاضوا المعركة مع مصر كل على قدر
جهده وطاقته وإيمانه بالقومية العربية ، وكان أكثرهم حماسة وأتددم إيماناً ،
وأعظمهم تضحية سوريا الحبيبة موئل العرونة وحصنها المكين ؛ وانتصرت مصر
وانتصر العرب في معركتهم ضد العدر والخيانة والاستعمار والصهيوية ووضعت
أنوف الأعداء في الرغام ، ولما يفيقوا بعد من دوار الهزيمة والخزي .

ثم كانت الخطوة الموقفة الرشيدة في سبيل الأمل المنشود وهو وحدة العرب
الشاملة ، تلك هي قيام الجمهورية العربية المتحدة حين توحدت مصر وسوريا ،
وكان عجيباً ألا يتحدا ، وهما فيما سلف من أحقاب التاريخ ما اتحدا إلا حقاً
المعجزات .

يارب يوم فيه مصر وسوريا رداً التار فكان يوماً ألقا
في عين جالوت غضباً غضبة كشفت عن الشرق البلاء المحققا
يارب يوم حيش مصر وسوريا صدّ الصليبين فيه فوقها
حطين تشهد أما عرب إذا فرق الأسود من الردى لن نفرقا
وحدثهما الآلام والآمال ، وحدثهما الشعور بالخطر والعمل على الطمر ، وحدثهما
إيمانها بالقومية العربية وبضرورة الجد في ساء صرحها الشامخ ، وإعادة مجد
الأسلاف البادح ؛ فكانت وحدثهما عيداً للعروبة أي عيد ، ورح به الأصدقاء
وغص الأعداء ، وطاشت منهم الأحلام ، وتمددت الأوهام . وباتوا في هم مقعد

(ح)

مقيم ، لا يقر لهم خاطر ، ولا ينمض لهم جفن ، يدبرون المسكايد ويبرمون .
المؤامرات ضد القومية العربية ، ذلك العملاق الجبار الذي اسيقظ بعد أن طالت
هجمته ؛ ليرد الحق المهضوم ، ويغسل الشرف المسكوم ، ولكنهم سيبيءون
بالخية والعار وسيرد الله كيدهم في نحورهم ، وستظل القومية العربية مندفة إلى
الأمام بخطاً متزناً قوية رشيدة ، حتى تحرر بلاد العروبة من كل عبودية وتبعية ،
وتبوئها في ظل الوحدة الشاملة مكاتها المكيمة بين الأمم ، وتنتشر بين الناس .
رسالة المحبة والحرية والسلام .

طافت بذهنى كل هذه الأحداث وأنا أقدم الطبعة الثالثة من كتاب (الفتوة
عند العرب) إلى قراء العربية الذين قابلوه منذ ظهوره بالحفاوة والترحاب ،
ووازنت بين حالته في طبيعته الأولى حين كان يتحسس طريقه في دروب مُضلة
مظلمة ، وسماء العروبة محتكرة الجو وأفقها قريح الجفن ، والمشاعر متنافرة ،
والخطوب متكاثرة ، وبين حالته اليوم وقد أسفرت سماؤها عن صبح بسم ، وأمل
مشرق ، ومستقبل زاهر ، على الرغم من المتخلفين الوانين عن اللحاق بالركب ،
وعلى الرغم مما يُدبر لها في الشرق والغرب ، وعلى الرغم من النفوس الضعيفة التي
خلبها الزيف ، وغرر بها الطموح المبتسر ، وما راحت نلققه من ترهات وأباطيل
ضد القومية العربية ورائدها العظيم .

وضع كتاب الفتوة عند العرب الأسس النفسية والفلسفية والتاريخية للقومية
العربية ، وهى لا تزال فكرة تراود الأذهان وتعمل في النفوس ؛ وهناك من
يسكرونها ، وكتيرون يحبونها ، وقاليون من يعرفونها ويحاهدون في سبيلها .
وعلى الرغم من هذا فقد حظى بالاشجيع والتقدير من قراء العربية في كل صقع مما

يُلْهِج لسانى بالشكر والثناء ، ويزيدنى إيماناً بما فى هذه الأمة من قوى كامنة ستزيدها الأيام صقلاً ومضاء ، وبحسبى أن مؤتمراً جمع أدباء العروبة من مختلف أقطارها عقد فى (الكويت) منذ شهور ليبعث فى شئون الفتوة العربية ، وأن منظمات الشباب فى الجمهورية العربية المتحدة صارت تسمى منظمات (الفتوة) وسبأنى اليوم الذى يعرف فيه كلُّ عربى أمجاده ، ويمتز باتسابه للعرب ، ويعرف ما يتخرص به أعداؤهم عليهم فيفحمهم بالبرهان الناصع والحجة الدامغة ، وسيزيده ازدهار القومية العربية واطراد نجاحها مصاء فى الحجة ونصاعة فى الدليل ، وثباتاً فى الإيمان وعملاً دائباً على عزتها وبصرتها ، وسيراً حثيثاً نحو تأدية رسالتها السامية والله الموفق للصواب .

عمر الدسوقي

المعادى : فى ٦ من يونية ١٩٥٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وبه نستعين

مقدمة

الطبعة الأولى

الأمة العربية اليوم في يقظة عقلية وسياسية لا ريب فيها ، وقد قضت رَدَحًا طويلاً من الزمن في غفلة تامة ، وجهل مطبق ، واستكانة غريبة للحوادث التي صَبَّت فوق رأسها تباعاً منذ أن مزقت أوصال الدولة العباسية ، فغشيتها من الهم ما غشيتها ، وفقدت على توالى الأيام مقوّمات شخصيتها ، ونسيت ذلك الماضي المجيد الذي تألق في سماء التاريخ نوراً ساطعاً باهراً ، اهتدت به الإنسانية في مهيع التقدم والمدنية ، بعد أن كانت تتعثّر في حِندس الجهالة والبغى . وقد العرب الثقة بأنفسهم ، وشكوا في قدرتهم على استرجاع ذلك المجد .

أثرهم اليوم ، وهم في نشوة اليقظة ياتفنون إلى ذلك الماضي العريق والتراث التاييد ؟ فيلتمسون منه راداً يغذى مشاعرهم ، ويتبّت إيمانهم بأنفسهم ، ويدعّم شخصيتهم . رَيْفَعِيهِ إِلَى دَرَج مُجْدٍ دَفْعاً حَمِيداً ، وبهبههم لعزة ، والقوة المعنوية ؛ حتى يَتَبَيَّنُوا أمام تيار الغرب الجارف ، فلا يكتسحهم في طيات أمواجه ، وتعود الأمة العربية مسيخة مسوّهة لا هي بالعربية فيحترمها ، ولا هي بالعربية فيها بها ؟

الأمم ، وفستت الصلوات بين الأمم ، وصارت القوة لا العدالة شريعة الحياة ،
واندلمت نيران الحروب فتذوق حرها المحاربون والأمنون على السواء .

ولقد فُتنَ بعض شبابنا بلألاء الحضارة الغربية ، ودعا دعوة منكرة إلى
أن تقطع كل صلة لنا بالعرب وبالحضارة العربية ، وبالمثل التي قررتها ؛ لأنه
لا يعرف إلاّ الذر اليسير عن حقيقة العقلية العربية ، وعنه كنه أخلاقهم
ومثلهم العليا وحضارتهم ، ولأنه رأى الغرب قوياً بمادته غلاباً بآله ، يستعمر
الأمم التي نسيت ماضيها ومجدها ، والتي لم تحاربه في علمه وتنسيقه وترتيبه ؛
ونسى أنه مكوفه على نفايات الحضارة الأوربية ، وقطعه كل صلة له بماضيه ،
إنما يسعى للتهلكة ، وأنه يأخذ السموم التي فتكت بهذه الأمم ، وأودت
بمجتمعاتهم ، وأدهبت من قلوبهم الحمية ، فاحملت أخلاقهم ، وازدروا كل
معاني النخوة والسرف وقوة الكفاح ، وداسوا الفضائل ، واستهانوا بمعاني
الحير . ولقد قدمت لنا الحرب العالمية الماضية نماذج لهذا الانهيار الحاقى : فؤمة
متوحشة لا تؤمن إلاّ بالبطش والقهر ، كأنها وحوش الغاب انطفت من
مغاورها تغتلك نكل من يتصدى لها ، وأخرى فزعت ، وتملك الرعب أزمة
فؤارها ، ولم تحداها من أخلاقها عاصماً يدرأ عنها عادية السر ، ولا حصماً يلجأ
إليه إبان المحنة ، فحزرت صاعره قبل أن يصم ، وآثرت أن تحتبط بترائها المدي
عن أن تحول جومات صادقات في ميدان اسرف وحسد ، فكانت منلارورياً
للتدسور وتحلل الأخلاق . ونحن اليوم نرى احب محاب من صراع الغرب
رالمادى الفناكة المنسرة بين نيه ، برصلاه في وصورى لسعادة وسعيه
الحثيت لقضاء على مدينته انى ساه على . دة .

أما نحن العرب فتملك ثروة روحية جليلة تكرم في الإنسان معنى الإنسانية ، وترفع في عينه قيم الفضائل الجميلة ، وتوثق بين بنى الإنسان رابطة من الأخوة الصادقة ، وتقيم ميزان العدالة الاجتماعية بين الطبقات على أساس من الرض والتعاون ، وتضع لأصول المشكلات حلولاً ترتكز على الحق لا على الهوى ، وإن من العقوف لجدنا وديننا ، وللإنسانية ألا نتقدم إلى الدنيا بهذه الثروة الروحية علّاها تهتدى إلى سواء السبيل .

إن أقوم طريق سلكه ، ونحن نرى هذه الفتن الدامية ، هو أن نقبّس من علم العرب ومدنيته ما يمكننا من أن نعيش في باهنية ورفاهية ، ويساعدنا على درء العدوان ، وصد نزوات الطامعين المعتدين ؛ حتى نعيش أحراراً كراماً أمجاداً ، وأن نستعيد من ماضى العرب الجميل ، وإنسانياتهم الخيرة ، معاني الفضيلة والخير ، فلا تنسينا مدنية الغرب المثل العليا التي يجب أن يهدف لها المجتمع الإنساني ، والتي كانت طابع العرب أيام تاريخهم الذهبي .

وتجد الأمة العربية اليوم ، وهي في طريق اليقظة العقلية والسياسية عوائق جمة تعترض سبيلها ، وتبطل عزمها ، وتحاول أن تثنيها عن هدفها ، بل حرباً مريرة قاسية ، تعتمد على الغدر والحيلة ، والكذب والفاق ، والقوة والقهر ، لتحمد هذه الجذوة التي اشتعلت بعد خمود ، وتقف هذا التيار الذي تدفق بعد ركود ، وتزلزل عقيدتها في نفسها . وظهر العرب مظهر الأمة المفسكة المسحلة التي لا تصلح لوجود . حرباً يشنها العرب الذي استمرأ منها الدعة والطامأبيه إلى بطش وعدوانه ، رقوطه وساطاته ، فظل أمداً غير قصير يحدعها عن نفسها ، ويستنزف دمه ليسمن ويتخمر . فكيف يتيح لها اليوم أن تستكمل يقطتها ، وتقف على قدميها ، وتستعيد مجدها ؟

وحرباً يوقد أوارها اليهود الذين لفظتهم ديار الغرب بعد أن ضاقت بهم
خزناً ، ومشتت مكرهم وجشعهم وثقافتهم ، وكفرانهم بالنعمة ، ومكنت لهم من
أرضنا يتخذون منها وطناً مزعوماً .

وحرباً يهيجها ذوو الأثرة منا ، الذين لا يراعون في أمتهن ضميراً ولا رحمة ،
ولا ينظرون للخطر المحدق بها من كل صوب ، فيسعون إلى المجد الزائف ،
والتملك البغيض ، بتقطيع أوصال هذه الأمة بعد أن التأمت ، والتمكين للأعداء
بإذكاء نار الفرقة بين أبناء العروبة ؛ جرياً وراء شهوة عارمة لا تعرف للعقل
سلطاناً ، ولا تقدر عواقب تلك الزوة الطائشة .

ولعل من خير ما يقدم للأمة العربية اليوم هو بعض صفحات مشرقه مجيدة
من تاريخها العظيم ، تفيض بالخير ، والسخاء ، والرحمة ، والعدل ، والشجاعة ،
والرفق ، والبطولة ، والوفاء ؛ فتعرف نفسها على حقيقتها ، وتستمد منها القوة
في كفاحها المير مع عدائهم الفادرين . فتسير بحطى ثابتة صوب الهدف المنشود ؛
ولعل تلك الفضائل التي تكمن في قرارات قومنا ، والتي تحلى بها أسلافنا
تظهر مرة أخرى للوجود ، فيرى العالم وحياً آخر للإنسانية ، غير ذاك الوجه
البغيض الذي تسيطر عليه المادة . ويتكلم بلغة الحديد والنار .

هذا وتندم ، يسمع عن ذلك المضي الحيد ، ولا يعرف كيف يصل إليه ،
وكيف يتمثله ، وهو مطمور مغفور في ثيابا الكتب القديمة ، قد علاه غبار
الآرون ، وسجل لغة تموء عن مستواه وإدراكه ، وفي صورة موحزة حائلة
اللون . وهيئات أن يبعث مثل ذلك المضي في نفسه لإعجاب ، ويدفعه إلى
التقليد ولاحتذاء ، وهو على حاله مات .

فإذا تقدمت اليوم إلى الشباب العربي بأحاديث القوة والفتوة والقروسية ،
والمثل العليا عند أسلافه الأجداد ، وأخذت هذه الصور الصغيرة الحائلة ، وكبرتها ،
وجلوتها حتى تبدو وانحة السمات ، نضرة زاهية ، فإني ولا ريب أحقق رغبة من
رغباته ، وأضع بين يديه نماذج للإنسانية في أوج سموها النفساني ، لتكون
له قنوة ، وليؤمن إيماناً راسخاً بأنه من قوم لهم في المجد والفضيلة باع طويل
وقدم ثابتة .

ولعل بذلك أمهم في خدمة الأدب العربي ، فأعرض بعض صفحاته عرضاً
جديداً ، وألبس بعض صورهِ لباساً قشياً ، وأزبل عنها صدأ الدهر ، وحوادث
الأيام ، محافظاً على سماتها وقسماتها الطبيعية الصحيحة دون تزييد إلا ما يقتضيه
سد الرق ، وإيضاح اللون ، ويتطلبه الفن .

ولعل بعض شبابنا الذين يهفون إلى استلهام الأدب الغربي بمحنه ورزاياه
ونفاياته وسمومه ، ويعرضون عن استلهام الأدب العربي بعظمته وقوته
وكبرياته ووضوحه يرون أنهم حادوا عن الجادة ، وأنهم ظلموا الأدب العربي
لجهلهم بذخائره ونفاثه ، واغتروا بالأدب الغربي ، وهو نتاج بيئة غير بيتنا ،
ومجتمع قد كثرت علة وأوصابه ، وتعقدت مشكلاته وأدواؤه ونحرت فيه
الآفات التي تصيب الأمم المترفة ، المتكالبة على المادة ، أدب ولده الاضطراب
النفسي ، والكبت ، والحرمان والضيق ، والظلمة — ظلمة الجو وظلمة الحياة —
نجاه سحماً ودنياه تمش في ملت المدارس الأدبية الحديثة : من (واقعية)
تحدري تصوير حط الغرائز لدنيا في الإنسان ، إلى (رمزية) مبهمة غامضة
لا يعرف باره من وراثتها فكرة أو معنى ، ولا تعي مجتمع أو إنسان ، إلى

(سرىالية) مخرقة تهذى بمخرعبلات العقل الباطن ، وهواجس اللاوعى ، وتحتفل بأضغاث الأحلام ، وتنكر المنطق والعقل والشعور ، وأوضاع المجتمع والدين والفضيلة .

والا كان الحديث عن الفتوة العربية يذكركنا بالفروسية العربية إبان القرون الوسطى رأيت أن أمهد لهذه الصور الأدبية ، ونماذج الفتوة يبعث تاريخى يوضح معنى الفتوة عند العرب فى جاهليتهم ، وكيف تغنى الشعراء بأحلاف الفتيان الأماجد وفضائلهم ، وكيف أن هذا المجتمع البدائى كان فيه من التراحم والتعاون ، والأخذ بيد الضعيف والمنكوب والمكروب ما تتضامل أمامه أرقى مجتمعاتنا التى طفت عليها المادية اليوم .

ثم كيف هذب الإسلام معانى الفتوة الجاهلية ، وأسبغ عليها من هديه وروقه ، ثم كيف تطورت هذه الفتوة الإسلامية حتى صارت وفقاً على طبقة خاصة من الناس ، لهم تقاليدهم وتعاليمهم وزيهم .

ووازمت بين هذه الفتوة العربية ، وبين الفروسية العربية ، واجتهدت فى تعرف الصلة بينهما ، وإلى أى حد زائر فرسان العرب ، بتقاليد الفتوة العربية .

أما صور الفتوة العربية ذاتها . فقد وجدت مبه فى ثيابا كتب الأدب والتاريخ فيفضنا راحراً . وحرث فى أيها أختار وأيها أدع . هـن تركت بعض الصور الفتاة ، ونماذج الأحدة ، والأمنة القوية ؛ فذلت لآنى لا أستطيع فى كتابى هذا استيعاب كل ما تحددت به لأدب والتاريخ عن أسلافنا وفرسانهم وأنصالحهم .

على أن أحاديث هؤلاء الفرسان وأخبارهم ، ونوادير فتوتهم كانت مبشرة
في كتب شتى ، ولها روايات عدة ، فاجتهدت أن أجمع شتات هذه الأخبار
والأحاديث وأن أوّلف بينها حتى تخرج الصورة زاهية واضحة . ثم وضعتها
في إطار جديد يحجبها للقراء ، ألا وهو الإطار القصصى .

هذا جهد المقل أقدمه لشباب العروبة ، أرجو أن يحقق ما أصبو إليه
والله الموفق للصواب .

عمر الدسوقي

مارس ١٩٥١

معنى الفتوة

الفتوة في اللغة من الفناء وهو الشباب . والفتى في الأصل الشاب ، فالفتوة هي القوة ؛ لأن الشاب مصدرها عادة ، ولقد سموا الليل والنهار فتیان لقوتهما ، ومن أقوى من الليل والنهار في إذلال كل عزيز ، وإضعاف كل قوى ؟ ومن ذلك قول الشاعر :

مالبث الفتیان أن عَصَّابه ولكل قُفْلٍ يسراً مِفْتَاحا
ومنه قول الآخر :

يا عَزَّ هل لك في شيخ فتى أبداً وقد يكون شبابٌ غير فتیان
أى هل لك في شيخ قوى المنة ، سليم الجسم ، متين البنيان ، يفوق بقوته بصير الشباب ، ومن ذلك قول الآخر :

إذا عاش الفتى مائتين عاماً فقد ذهب اللِّدَاذَةُ والفتاء
واستقوا الفتوة من الفتاء بمعنى الشباب تدل على أن الفتى لا بد أن يكون قوياً شجاعاً ، فيه عزم ومضاء ، وهذه صفات الشباب ، ويقول الشيخ المسن تَفَتَّيْتُ ، إذا تحاق بأحلاو الفتیان : من القوة الجسمية ، واحتمل المشاؤ ، والمهارة في الطعن بالرمح ، والصرب بالسيف . قال العبدُ الزَّمانی^(١) وقد طعن بالرمح طعنه أودت برحلين :

أيا صعة م شيخ كبير يَعمَنُ مالى^(٢)

(١) العبد الزمانی : هو شهل بن شيبان بن ربيعة بن زمان الحنفي من فرسان ربيعة وشعراؤها المشهورين ، حضر حرب البسوس .
(٢) اليعن : الشيخ الهرم .

تقيم السَّامَ الأعلى عَلَى جَهْدٍ وإِعْوَالٍ^(١)
تَفْتِيْتُ بِهَا إِذْ كَرِهَ الشُّكَّةَ أَمْثَالِي^(٢)

ولكن الفتوة تطورت إلى معانٍ أخرى غير القوة الجسمية ، فاستعملت
بمعنى السخاء والكرم ، قال صاحب القاموس : الفتى : الشاب والسحرى الكريم ،
والفتوة : السخاء والكرم .

وفسرها صاحب الأساس بأنها الحرية والكرم ، والحرية نغى الشجاعة ،
والقوة وإماء الضم .

وقال القشيري^(٣) : « أصل الفتوة : أن يكون العبد ساعياً أبداً في أمر
غيره » . ونقل عن الفضيل أنه قال : « الفتوة الصفح عن عثرات الإخوان »
والخارث المحاسبي يقول : « الفتوة أن تُنْصَفَ وَلَا تُنْصِفَ » وقال غيره :
« الفتوة إظهار النعمة وإسرار المحنة » .

وهكذا استعملت الفتوة في القوة المعنوية قياساً على القوة الجسمية .
فالحرية والكرم والسعى في أمور الناس ، وقضاء حاجتهم ، وإظهار النعمة
وإسرار المحنة ، وأن يصف المرء غيره ، وينكر نفسه ، كل هذه صفات الرجولة
الكاملة ولذلك قال القتيبي^(٤) : « ليس الفتى بمعنى الشاب والحدث ، وإنما
هو معنى الكامل لجُزْءٍ من زُحُل ، يدلُّك على ذلك قول الشاعر :

(١) لَيْتَهُ يَعْنِي : أَيْ لَا يَرْحَى مِنْهَا شَفَاءً ، وَأَرَادَ بِالْأَمَلِ أَنَّهُ قَتَلَ رَئِيسِينَ .

(٢) الشُّكَّةُ : مَا يَلْبَسُ مِنَ السَّاحِ .

(٣) راجع لرسالة القشيري (٤) لسان العرب .

إن الفتى حَمَّالٌ كلُّ مُلَمَّةٍ ليس الفتى بِمُخَمَّلٍ الصبيان .
ويؤيده قول عبد الرحمن بن حسان :

إن الفتى لفتى المكارم والعلا ليس الفتى بِمُخَمَّلٍ الصبيان^(١)
وقول شاعر الحماسة^(٢) .

قلت لها لاتنكرينى قَلْبًا يسود الفتى حتى يشيب ويصلما

والحق أن العرب تعنى بالفتوة : الشجاعة ، والإيثار ، والسخاء ، والوفاء ،
وكثير من الصفات الحميدة . والفتى عندهم هو السيد الذى قال السُّدُود والشرف
بمخلاله الكريمة ، وأفعاله العظيمة ، ويقال : هذا فتى الحى أى سيده والكامل
الجزل من رجاله ، قال ابن أُهْبَان الفَقَّعْسَى يرثى أخاه :

فتى الحى ، إن تلقاه فى الحى ، أو يرى سوى الحى أو ضمَّ الرجالَ المشاهدُ
إذا نازعَ القومَ الأحاديثَ لم يكن عَيًّا ، ولا رنًا على من يقاعدُ^(٣)
طوبلُ بجد السيف ، يصبح بطلُهُ تخيف ، وجاديه على الزاد حامدُ^(٤)
أى أنه اتصف بالفتوة والرئاسة ، سواء كان فى الحى بين قومه ، أو خرج
الحى فى غير قومه ، أو فى محفل من المحافل ، ومشهد من المشاهد ، حيث يوجد
الأشراف والرؤساء ، فهو فى كل هذه الأماكن فتى ، أى سيداً .
ثم وصح صفاته بأنه متحدث غير عيبى اللسان ، وليس به كبير . وهو

(١) المخلع : الذى لا يثبت على حال واحدة ، يكون مرة سخيًا وأخرى كزًا ، وتارة
مقدمًا ، وأخرى جانيًا ... الخ .

(٢) الحماسة لأبى تمام ج ١ ص ١١٧ .

(٣) أى ليس عيبًا ولا متكبرًا .

(٤) حميصاً : جانيًا . وجاديه : طالب جوده .

طويل القامة ، فارس ، يؤثر ضيفه على نفسه ، ويشكره حتى يحمده زاده ،
ويشكره على قرانه ، ويبيت هو جائعاً .
وقال آخر من شعراء الحماسة :

ألا لا فتى بعد ابن نائيرة الفتى ولا عُرْفَ إلا قد بولى فأدبراً
أى ذهب الفتوة والرئاسة بعد ابن نائيرة ، كما ذهب المعروف وأدبر .
وهم يدعون الفتى عند الشدائد ، وفي الللمات ؛ قال طرفة بن العبد .
إذا القومُ قالوا من فتى خِلْتُ أبى دُعيتُ فلم أكسل ولم أتبلد
وقد وصف طرفة نفسه ، وعدد مسجاياه في قوله بعد ذلك :

ولستُ بحلالٍ التلاعِ مخافة ولكن متى يسترد القومُ أُرْفِدِ
فهو كريم ، لا يابجأ إلى محارى الماء من رموس الجبال ، حشية أن يراه
ضيف ، ولكن ينزل إلى الوادى ويرفد كل من طلب رفده :

وإن بنى فى حلفه القوم تلقى وإن تقتنصنى فى الحوايت نصطد
أى أنه من ذوى الرأى والمشورة ، ومن يطلب اللذة بشرب الحمر فى
الحوايت ؛ ليسقى غيره كرمًا .

وسعت منه بعد ذلك أنه فارس شجاع ، يابى الصيم ، ويحمده الأعداء :
وإن أدع فى الحلى أكن من حمتها وإن يك الأعداء بالجهد أجهد^(١)
إذا ابتدر القوم السلاح وحدنى ميعاً إذا بلت بقائه يدي^(٢)

(١) الحلى : الأمر العظيم الخليل ، وأكن من حمتها : أى من يدفع ويقاوم
(٢) ابتدر القوم : سارعوا ، منيعاً : لا يوصل إليه . ست بقائه يدي : أى طعن به
بدي . وتعسكت من قائم السيف وقبضه .

ويذكرنا قول طرفة : « من فتى » يقول بشامة بن حَزْن النهشلي .
لو كان في الألف منا واحدٌ فدعوا (مَن فارس ؟) خالهم إياه يسنوناً
فهم يدعون الفارس في الملقات والشدائد ، كما يدعون الفتى ؛ فكأن الفتى
هو اتقارس الشجاع ، وإن كان الفتى أعم معنى :
ومن الكلمات القرية من الفتوة المروءة ، وهي كلمة تداولها العرب كثيراً ،
ولقد وضع البيروني^(١) الفرق بين المروءة والفتوة بقوله : « المروءة تقتصر على
الرجل في نفسه وذويه وحاله ، والفتوة تتعداه وإياها إلى غيره . والمرء لا يملك
إلا نفسه ، وقنيتَه التي لا يُنازَع فيها أنها له ، فإذا احتمل مغارم الناس ،
وتحمل المشاي في إراحتهم ، ولم يضمن بما أحل الله له ، وحرّمه على من سواه ،
فهو الفتى الذي اشتهر بالقدرة عليها ، وعُرف بالحلم ، والعفو ، والرزاقية ،
والاحتمال ، والتعظيم بالتواضع ؛ رقى إلى العلياء وإن لم يكن من أهلها ،
وسوّد باستحقاق لا عن حلود دار » .

ويؤيد قول البيروني من أن الفتى لا يحتاج إلى النسب العريق في وصوله
إلى السيادة والشرف قول ابن هرمة :
قد يدرك الشرفَ الفتى ورداؤه حاقٌّ ، وحبب قيصه مرقوع
وقال البيروني : « ولهذا حدثت الفتوة بأُمرها بشر مقبول ، وبأُمرها مبذول ،
وعفافٌ معروف ، وأذى مكهوف » .
إذا المرء لم ينهض بنفس إلى العلا فليس العظام البليت معخر

(١) هو أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني المتوفى سنة ٤٣٠ هـ في كتابه « الجواهر
في معرفة الجواهر » طبعة حيدر أباد الدكن سنة ١٣٥٥ هـ س ١٠ ، ١١

وربما أفرط الفتى فتجاوز إفراط إيثار الغير على الملك إلى بذل النفس
أنفـسـة من تحمل العار ، أو دفعاً للظلم ، وحفظاً لحق الجوار ، إما بالبسالة
كالذكورين في صمالك العرب ، فمنهم الذين فدوا أضيافهم والمستجيرين
بهم بأنفسهم ، حتى إن فيهم من خرج به فعله إلى سحق أو خنق ، من
حماية الجراد النازل حول حباته ، وقتاله دون صيدها ، وإما بالكرم والسماحة
كحاتم الطائي الذي غرر بنفسه في هبة الرمح لخصمه ، وقد أشقى على الهلاك ،
وبلغت نفسه التراى ، فاحتال باستيهابه الرمح ، فاستكف حاتم عن ردّه
ودفعه إليه ، وكعب بن مامة الإيادي بإيثار القرين بحصته من الماء المقسوم
بالخصى ، إذ قال : أسقى أخاك اليمري ، فسقاها إياه ؛ حتى هلك هو عطشاً .
يمجود بالنفس إن صن الحواد بها والجود بالنفس أقصى غاية الجود
وقال آخر :

وليس فتى الفتيان من راح واعتدى لشرب صبوح أو لترب غبوق
ولكن فتى الفتيان من راح واعتدى

لصر عدو أو لفع صديق

ومن هذا يرى أن الفتى أعم من العارس ، وأن الفتوة كذلك أعم من
العروسية ، وأعم من المروءة ؛ فقد يكون العارس تسحافاً ولكنه غير كريم ،
أو يكون معتدياً طائفاً ، أو ترّقا طائشاً ، أو حياً غادراً ، وليس كذلك الفتى
عدا العرب .

أما در المروءة فيتعلى كثر من الصفات الحميدة ، ولكنه كما يقول البيروني :
« تقتصر المروءة على الرجل في نفسه ، ودويّه وحاله » .

وعلق البيروني على قول علي بن الجهم :

ولا عار إن زالت عن الحر نعمة ولكن طاراً أن يزول التحمل
بقوله : « عى بالأول الفتوة ، وبالأخير المروءة » فالحر قد تزول عنه
النعمة ، لأنه أنفق ماله في سبيل سواه ، وآثر غيره بما ملك يده ؛ حتى عاد
فقيراً معدماً ، فلا عار عليه حينذاك ، ولكن العار أن نخزل نفسه ويصل
إلى الاستدال ، بل عليه أن يظهر التعفف ، ويخفى الصيق فإن فعل ذلك فهو
من أهل المروءة .

وإن كانت المروءة قد أخذت أحياناً^(١) بعض معاني الفتوة كما
في قول بنار :

ولا بد من شكوى إلى دى مروءة يواسيك أو يسليك أو يتوحم
وقال الجرحاني في التعريفات : المروءة هي قوة النفس ، مبدأ لصدور
الأفعال الحملة عنها ، المستتعة لمدح سرعاً وعقلاً وعرفاً .

وقال في التعريفات عن الفتوة : « الفتوة في اللغة الكرم والسعاء ،
وفي اصطلاح أهل الحقيقة هي أن تؤثر الخلق على نفسك بالديا والآخرة » .
وهو يشير إلى معنى النبوة عند المتصوفة ، وليست هي الفتوة عند العرب
في أول نشأتها كما سذكر فيما بعد عند تطور معنى الفتوة في الإسلام .

وقد رأى حولد تسبير في كتابه « المروءة والدين » : أن المروءة عند
أهل الجاهلية كانت تقابل الدين في الإسلام ، ثم قامت مقام مبدأ معصوى
تدور عليه الأخلاق الكريمة ، من حيث أنها كانت تجمع بين السعد والوؤ

(١) راجع بحثاً عن المروءة للدكتور بشر «رس في مباحث عربية ص ٦٣

(م — ٢ الفتوة عند العرب)

وحفظ الجوار ، والأخذ بالتأثر^(١) .

فجولد تسهير يقرب معنى المروءة من معنى الفتوة ويجعلها شيئاً واحداً تقريباً ، وإن كانت لا تزال الفتوة على الرغم من هذا التقريب أعم . وتعريف ابن قتيبة للفتى بأنه الكامل الجزل من الرجال هو ما أراد العرب من هذه الكلمة

قال أبو البلاء في يزيد بن مزيد الشيباني يرثيه :

يوم البقيع حوادث الأيام	نعم الفتى فجعته به إخوانه
طلق اليدين مؤدب الخدام	سهل الفناء إذ حلت ببابه
لم تدر أيهما ذوو الأرحام	وإذا رأيت صديقه وشقيقه
	وقالت الخنساء ترى صخرأ :

أطعمكم وحاملكم تركم	لدى غرباء منهمد رجاها
ليبك عليك قومك للمعالي	وللهيحاء إنك ما فتاها
	وقد مدح دريد بن الصمة يزيد بن عبد المدان بقوله :

إذا قارعوا عنه لم يقرعوا	وإن قدموه لكبتن نطح
وإن حضر الناس لم يخزهم	وإن وازنوه بقرن نبج
فذاك فتاها وذو فضلها	وإن نابج بفخار نبج
	وقال أوس بن حجر يرثى فضالة بن كندة :

إن الذي جمع السباحة والسج	لدة والحزم والقوى جُمعا
الألمى الذي يظن بك الظا	ن كأن قدرأى وقد سمعا
وانحرف المتلف الرزأ لم	يمع بضعف ولم يمت طبعاً

والحق أن الفتوة تعنى الشامل الآتية :

الشرف ، والسخاء ، والشجاعة ، والوفاء بالوعد ، والحلم ، وحماية الضعيف ، وإغاثة الملهوف ، والتواضع ، والعفو ، والرزانة ، وقوة الاحتمال .

وقد أخذت كلمة الفتوة معنى جديدة في الإسلام ، وإن حافظت على المعنى العام لها في الجاهلية ، قال ابن عربي في الفتوحات المكية^(١) : « الفتى ما بين الثامنة عشرة والأربعين من العمر ، ويتصف بالقوة ، والأخلاق الحميدة ، ويستخدم قوته في خدمة الله ، ونصرة الضعيف ، وليس له عدو ، ولكن له حساد ومنافسون » .

وقال في مكان آخر من الفتوحات المكية عند الكلام عن معرفة مقام الفتوة وأسراره :

إن الفتوة ما ينفك صاحبها	مقدماً تتدرب الناس والناس
إن الفتى من له الإينار تحاية	حيث كان فحمول على الراس
ما إن تزلزه الأهوا بقوتها	لكونه ثابتاً كالراسخ الراسي
لا حزن يحكمه ، لا خوف يشغله	عن انكارم حال الحرب والباس

فالفتوة عند المتصوفة قد زادت عن معناها الأصلي عند العرب ، واستخدمت في أغراض دينية ، وسدري في بعد كيف طورت في الإسلام إلى شاء الله .

أما الفتى عند العرب فهو من كملت فيه صفات سيده ، وآله خُلقه

(١) راجع الفصل ٤٢ من الفتوحات للمكية عن الفتوة والفتيان .

لأن يكون زعيم قومه ، وملجأهم في كل ملّة ، هو من أراد ذو الأصبع
العدواني من ابنه أسيّد أن يكون بوصاته له :

« ألنّ جانبك لقومك يحبوك ، وتواضع لهم يرفعوك ، وابسط لهم
وجهك يطيعوك ، ولا تستأثر عليهم بشيء يسوّدوك ، وأكرم صغارهم ، كما
تكرم كبارهم يكرمك كبارهم ، ويكبرُ على مودتك صغارهم ، واسمح
بمالك ، واحم حريمك ، وأعزز جارك ، وأعن من استعان بك ، وأكرم
ضعيفك ، وأسرع النهضة في الصريح ، فإن لك أجلاً لا يعدوك ، وصنّ وجهك
عن مسألة أحدٍ شيئاً ، فبذلك يتم سوّدوك »

الفتوة عند العرب

- ١ -

نشأة الفتوة

نشأت الفتوة عند العرب نشأة طبيعية في الصحراء الشاسعة ، كما تنبت الأزهار البرية العريقة الشذا في مجرى السيل على سفح الجبل ؛ فالصحراء قد فرضت على العرب أخلاقاً خاصة ، وألزمتهم بتقاليد لا يستطيعون عنها جِوْلاً ، صارت لهم على مر السنين جيلة وطبيعة وفطرة ، وصارت عنواناً لهم بين العالمين .

ولا عجب فالصحراء : فضاء منسع رحيب ، يملأ جوانب للنفس خشية ورهبة ، وبحر من الرمال المختلفة الألوان لا ساحل له ، وجبال جرداء سامقة يرتد عنها البصر وهو حسير ، وصخور صماء عاتية ، ونمى قوية محرقة تصب شآبيب من سواظ يتلظى لهباً ، وريح زفوف ، وسيول متدفقة ، وماء عذب ، وظل كريم . فهذه الطبيعة الخشنة قد انعكست على نفس العربي قوة وصرامة وجلداً ، لا يرهبها ، ولا تتضعع نفسه أمام خبروتها ، لا يخشى الليل ورهبتها ، ولا يفزع من السفر وشده وقسوته ، وما هو إلا أن يعزم على أمر فلا يرد عنه عزيمته شيء مهما عظم :

إِذَا نَمَّ هَمًّا لَمْ يَرِ الْيَسْ عُمَةً عَالِدٍ وَلَمْ يَصْعَبْ عَلَيْهِ الرَّاكِبُ
جَلِيدٌ كَرِيمٌ خِيَمُهُ وَطَبَاءُهُ عَلَى خَيْرِ مَا تَنَى عَلَيْهِ الضَّرَائِبُ^(١)

(١) الحيم : الطبيعة والحيلة ، والصرائب : الطوائف .

لم يكن العرب في البادية يسكنون القصور المحصنة . أو البيوت المسورة ، ولم يكن لهم شرطة يسهرون عليهم ، أو حامية تصد عنهم الغارات ، بل كانوا يقيمون في بيوت من الشعر والوبر تهزها الريح كلما هبت ، ويجرفها السيل إذا تدفق ، وليس لهم حارس إلا مقابض سيوفهم ، وأسنة رماحهم ، وليس لهم حى إلا ظهور خيولهم ، وإلا شجاعة قلوبهم ، وعِظَمُ نفوسهم .

يعيش العربي في خطر دائم في أحضان تلك الطبيعة القاسية ، تعصف الريح فتسقى الرمال ، وتقوض بيته ، وتُكفى قدره ، وتطفى ناره ، ويهدر السيل فيجتاح داره ، وينقر إبله . وتبخل السماء فيشح زاده ، ويهزل نعمة ، ويهدده الجوع في حياته ، ويجوع الوحش فلا يجد أمامه إلا النعم والإنسان يسكن بلحهم مساعاربطنه . ولذلك أرهفت حواس هذا العربي ، ونمت نمواً عظيماً ، ولا ريب في أن نماء الحواس وقوتها ، وتأديتها وظيفتها الطبيعية على خير وجه ، يزيد في قوة العقل وحسن تصرفه ؛ لأن الحواس هي الطريق الذي تدلف منه للمعلومات إلى العقل ، فإذا كانت مرهفة قوية ، غير بليدة أو مضطربة ، كان ما يصل إلى العقل صحيحاً واضحاً ، فأدى عمله تاماً متقناً ، وصحت نظراته إلى الأشياء ، وحكمه على الأمور ، وتفسد ببلادة الحواس وانقباضها آلة العقل ، وتفسد بفساد العقل القدرة الإيجابية في الحياة ، ويقطع التصرف الإرادى المحكم ، وتضيع صورة العدل في وزن الأشياء واستثمارها .

ومن البدهي أن احالة النفسية وإيدة الحالة الحسية ، وأن اضطراب الحس مفضى إلى اضطراب أعمال الجسم : من التنفس والهضم والتمثيل ، والانتظام الجسدى ، يسيرون الاضطراب فيه إلى الهلاك والتحلل .

فسعة المجال في الصحراء أمام حواس الإنسان ضرورية لتربية هذه الحواس ،
والحواس السليمة النامية تؤدي إلى قيام الجسم بوظيفته الطبيعية أداء منتظما
لا اضطراب فيه ، كما تؤدي إلى وجود عقل سليم ، وحكم صحيح ، وحياة معتدلة .
لقد أفاد العرب من رحابة الصحراء وبعد آفاقها حدة ظاهرة في البصر تميزوا
بها عن سواهم ، وقوة في السمع كادت تبلغ درجة الكمال ، وأما حاسة الشم
فكانت موضع نخارهم ، والفضل في قوة هذه الحاسة عندهم يعود لتعرضهم
المباشر للرياح فوق ظهور الإبل ، وعلى صهوات الخيل ، وفي ظلال الخيام التي
لا تمنع الريح والنسيم عنهم .

إن ضيق المجال أمام الحواس لا يؤدي إلى إسهالك قوى الجسم وإضعافه
بحسب ، بل يؤدي كذلك إلى التردى في مهواة الضعف العام في عصبه ومشاعره
ومعقولاته ، بل وفي رزقه ، وينتهي به الأمر إلى الرضى بالذل ، وإلى العجز عن
وقاية نفسه من الظلم^(١) .

صار العربي في صحرائه يشتم الخطر قبل قدومه ، ويعرف عن الطبيعة
وأحوالها وتقلباتها ما لا يعرف كثير من الناس في حياتنا المتمدية متحضرة ،
وهو لا يسلم لهذه الطبيعة ، ويروح في نوم عميق ، وإلا صار فريسة لها أو
لوحش القلابة .

ولقد علمته هذه الصيغة الصبر وجد والكفاح من حق حتى صار كما يقول
تأبط شراً^(٢) :

(١) راجع التصوف في نظر الإسلام لأحمد صبرى شومان ص ٨٢ وما بعده .

(٢) هو ثبات أبو زهير من بني قهم . اشتهر بسرعة عدوه وشدة فتكه ، وكان من

شعراء الصعاليك .

قليل التشكى للمهم يصيبه كثير الهوى شتى النوى والمسالك
يظلل بمؤامة ويمسى بغيرها جحيشا ويعرورى ظهور المهالك^(١)
ويجعل عينه ربيثة قلبه إلى سائة من حد خلق صائك^(٢)
أو كما يقول أبو كبير الهذلي^(٣) يصف تأبط شرا :

فإذا بذت له الحصاة رأيته يزو لوقعها طمور الأخيل^(٤)
أمد أكسته الصحراء أخلاقاً فطرية عالية ، والفطرة في الإنسان هي الخير ،
وفي ذلك يقول « السيرتيلر » : « من الجلى أن الناس في المجتمع البدائي يعيشون
في مستوى خلقى عالٍ ، وهذا حتى يسترعى الانباه ، لأنه يبين ما يسمى الخلق
الفطرى أو الخلق الطبيعى ، وفي هذا المجتمع لا نرى للديانات أى تأثير أخلاقى
قوى كما نراه في المجتمعات المتحضرة . فالخلق الذى لا مريه فيه أن معاملة بعضهم
بعض قلما يتأثر بأمر سماوى أو خوف من عقاب الهى^(٥) » .

إن الفضيلة لا تتوقف على المعرفة ، وليست هي المعرفة كما يقول سقراط ،
ولكن الفضيلة الحق هي العمل بها ، والحياة الماضية ذاتها ، حتى لقد دعا فلاسفة

(١) المؤامة : المعازة التى لاماء فيها ، والجحيش : المنفرد ، ويعرورى أى يركب
ظهور المهالك .

(٢) الربيثة : الرقيب ، وسلة : مرة من سل السيف إذا حرده ، والأخلق : الأملس ،
والصائك : الناطع ، والعى : أن العين رقيب القلب ، فإذا كرهت العين شيئاً نهبت القلب
فاستل سيف .

(٣) هو عامر بن حابس أحد بني سعد بن هذيل وهو شاعر محضرم صحابى .

(٤) نداء الحصاة : رماه بها ليعرف مقدار استفراقه في نومه ، وطمور الأخيل : أى
يثب كما ثبت السقر .

(٥) Anthropology. vol. 11. p. 135. by Sir E. B. Tylor.

القرن الماضي في أوروبا مجتمعاتهم الفاسدة التي لوئتها المدنية إلى أن يتخذوا من « البدائي النبيل » نموذجاً في الأخلاق يحتذونه^(١) .

إن الحياة في المجتمع البدائي ترينا بوضوح عجيب صدق النظرية المهمة التي يتركز عليها علم الأخلاق ، وهي : أن السعادة والفضيلة يسيران معاً ، وفي الحق إن الفضيلة هي الطريق إلى السعادة^(٢) .

لقد خامت الصحراء بقوانينها الصارمة على العربي خلق الفتوة ، والفتوة مجموعة من الفضائل النفسية صُهرت في بوتقة الصحراء ، حتى صارت حلية نادرة الحبات ، تحلى بها هؤلاء العرب منذ عرفهم التاريخ . وسنبين في الفقرات التالية سمات الفتوة كما عرفها العرب ، وكيف كانت أثراً من آثار بيئتهم .

(١) نفس المرجع ص ١٣٦ .

(٢) نفس المرجع السابق .

٢ — الشجاعة

عاش العربي في الصحراء وهو في جهاد مستمر ؛ وكفاح طويل صرير ،
محافظة منه على حياته ، فليس بالصحراء من معالم الحياة إلا النذر اليسير ،
وليس بها أنهار جارية ، أو وديان خصبة ممرعة ، أو حدائق غناء ، إلا في أمكنة
قليلة تعتمد على الغيث ، وبعض العيون المتفجرة ، ولذلك اشتد حرصه على
الماء وسعى في سبيله سعياً متواصلاً لا هوادة فيه ، واقتضى ذلك منه رحيل
دائم في فيافي واسعة ، يواجه مخاطرها في كل ثنية ، ويستقبل تغيرات الطبيعة
أينما سار .

ومن يكُ مثلي ذا عيال ومقترأً من المال يطرح نفسه كلّ مطرح
ليبلغ عذراً أو يصيب رغبةً ومُبلغ نفسٍ عذرها مثل منجح
فامتزج بهذه الطبيعة والصحراء امتزاجاً تاماً ، وصار قلبه جَلْدًا لا يرهب ،
ولا يفزع ، وصارت عنده مناعه ضد الضيم والتبدل ، لأنه إن كف عن السعى
في سبيل الماء الذي هو قوام حياته هلك مسغبةً وظمأً . لذلك عظمت قوى
الكفاح في العربي ، كما عظمت ثمرات هذه القوى في نفسه ، فصار من أصبح
أهل الأرض بنية ، وأوفرهم قوة ، وأروعهم قامه ، وأببهم عافية ، وأكثرهم
إحماً لا يَمَلُّ لا يطأ من انتداتد والمشقات . وقد جعله هذا الصبر الذي فرضته
عليه الصحراء عِدلاً لمنرات من الدس من حبث الطاقة البشرية ، بل عدلاً
لمناب من هؤلاء الذين يقتنهم ظلاً ساعة ، أو جوع يوم ، أو صرة شمس
تصهم داهلاً وتقضى عليهم .

وأول ما تتطلبه الشجاعة من صفات أن يكون الفتى قوى الجسم ، عظيم الصبر ، شديد الجلد ، وهل مثل السعى الدائم في سبيل الرزق ، والرحلة المستمرة في الهواء الطلق ، وتحت أشعة الشمس ، وتخطى الحزون ، وجوب الفقار ، والركوب المستمر على ظهر الراحلة أو الجواد ، عوامل تصح بها الأجسام وتقوى ؟ يعيش العربي في الصحراء تغمره الشمس بضوئها النافذ إلى قرار بدنه ، وناهيك بالشمس تفاء من كل مرض ، وغذاء لكل جسد ؛ وشمس الصحراء زاهية قاسية تذيب رموس الضباب ، ولكن العرب اعتادوها ولأءموا بين شدتها وحياتهم ، وعرفوا أثرها العظيم في صحة أبدانهم حتى لقد سئل أحد الأعراب « كيف البدو فيكم ؟ » فقال : « نأكل الشمس ونشرب الريح » وفي شدة أثر الشمس ووقع حرورها في الأجسام العربية يقول سويد اليشكري

كم قطعنا دون سلمى مَهْمَهَا نازح الغور إذا الآل لمع^(١)

في حرور يبيض اللحم بها يأخذ السر فيها كالصنع^(٢)

ولا جدال كذلك في أن هواء الصحراء هو أصح هواء يحيا فيه إنسان ، ولقد كان العربي يعيش دوماً في هذا الهواء ليلاً ونهاراً ، نخبأوه تحقق فيه الرياح ، وهو في دأبه وكده في سبيل الحياة يستقل الرياح ألبما توحه ، والهواء للإنسان كما لا يستطيع العيش إلا به ، وإذا كان الهواء نقياً صافياً كان

(١) سويد بن أبي كاهن اليشكري من شعراء ربيعة وهو محضرم وكانت قصيدته هذه

التي مطلعها :

بسطت رابطة احبل لنا فوصلنا الحبل منها ما انقطع

تسمى القيمة . الآله : السراب .

(٢) الصقع : حرارة تصيب الرأس .

أنقى للدم ، وأجلب للقوة ، وأصح للجسم . وهل مثل هواء الصحراء التى لم تفسدها المدنية بمصانعها وزحمتها هواء ؟ .

لقد توفرت للعربى إذاً عوامل الصحة من شمس ساطعة ، وهواء نقي ، وعمل هو ، أو فرضت عليه بيئته عوامل أخرى ساعدته على تمام الصحة وكمال القوة ، فجعل قوام غذائه اللبن ، واللبن هو الغذاء الكامل الذى يتضمن كل ما يتطلبه الجسم من العناصر الصالحة للتغذية ، وفى صورة يسهل على الجسم الاستفادة منها ، كما أنه لا يترك بعد هضمه فضلات تبهد الكلى أو تزيد حموضة الجسم^(١) ؛ وكان يطحن الحبوب بالرحى ، ويبقى معها عند صنع الخبز قشورها ونخالها ، وهذا الخبز هو أصح أنواع الخبز دون نزع .

ولم يكن العربى ممن يفرط فى الطعام أو يفتن فى طهيهِ أو يكثر من ألوانه ؛ لأن بيئته لم تكن تساعد على ذلك لو أراد ، والإفراط فى الطعام ، وكثرة ألوانه ، والافتتان فى طهيهِ مما يحلب الأدواء الكثيرة للأجسام .

ونحن نعانى فى حياتنا لل المدنية اليوم كثيراً من الأمراض الفتاكة ؛ لأن أطعمتنا لا تسير على قانون الفطرة والبساطة ، ولأننا عنينا بها أكثر مما يجب ، حتى تكون شهية لذينة ، وإن لم تكن غنية بعناصرها المفيدة .

وفضلاً عن هذه العوامل الطبيعية التى عملت على تقوية جسده ، فقد استنزمت الصحراء منه أن يكون قوى البنية ، أيداً شديداً العضل مفتول الساعد ، لأن النزاع على المرمى والماء وهما قوام هذه الحياة ، كان على أشده فى تلك البيئة اتى طالما نجحت فيها السماء بمائها ، فكان يدفعه الحرص على الحياة

(١) راجع كتاب الأفضية للأستاذ حسن عبد السلام .

هو وقومه ، والفرار من الموت جوعاً وظمأً إلى الغارة على جيرانهم الذين أوتوا فضلاً من خير أو مرعى ؛ حتى لا تضار نعمهم فيهلكون بهلاكها . وقد يكونون عرضة لمن يغير عليهم طمعاً في مآلهم ، إذا حزبه الضر ، وألهم معدته الجوع ، وخشى الفناء والهلكة . وكانوا يبتغون الماء ، ويرتادون منابت العشب ؛ ليرعوا أنعامهم التي عليها بلاغهم في ربيهم وحولهم ، وشبّعهم ، فتنازعوا على المرعى وتدافعوا على النجعة ونشبت بينهم دواعي الخلاف التي كثيراً ما تنتهى بالاحتكام للسيف ، والاحتكام للسيف يقتضى يداً قوية متينة التركيب ، وجسماً مفتولاً لا مترهلاً ولا هزيبلاً ، وأصبح من دواعي فخارهم لكل هذه الأسباب الطبيعية والضرورية أن يكون الفتى :

فَتَى قَدْ قَدَّ السِّيفُ لَامْتِضَائِلُ وَلَا رَهْلُ لَبَّاتِهِ وَأَبَاجِلُهُ^(١)

إِذَا جَدَّ عِنْدَ الْجَدِّ أَرْضَاكَ جَدَّهُ وَذُو بَاطِلٍ إِنْ شَتَّ أَرْضَاكَ بَاطِلُهُ

يَسْرُكَ مَظْلُومًا وَيَرْضِيكَ ظَالِمًا وَكُلُّ الَّذِي حَمَّاهُ فَهُوَ فَاعِلُهُ^(٢)

والشجاعة تقتضى أن يكون الفتى ذا عزيمة وحزم ، لا يتردد ولا يتنوم ، وإلا قضى عليه ترده ، وتقاعسه ، فهو ينجز فرساناً شجعاناً ، فلا بد أن يكون قوى الجنان نافذ الرأى ، ذا بصيرة فى المآزق .

إِذَا نَقَمَ لَمْ تُرْدَعِ عَزِيمَةُ هَمِّهِ وَلَمْ يَنْتَ مَا يَتَى مِنْ لَأْمَرِهِ ثُبَا

إِذَا هَمَّ أَلْقَى بَيْنَ عَيْنَيْهِ عَزِيمَهُ وَكَتَبَ عَنْ ذِكْرِ الْعَوَاقِبِ جَانِبَهُ

وَلَمْ يَسْتَشِرْ فِي رَأْيِهِ غَيْرَ نَفْسِهِ وَنَمْ يَرْضُ إِلَّا قَائِمُ السِّيفِ صَاحِبُهُ

(١) الرهل : الاسترخاء ، واللبات : جملة وهى المنحروعل القلادة ، والأبجل :

جمع أبجل وهو عرق غليظ يكون فى الفخذ والساق .

(٢) أى يأخذ بيدك إذا كنت مظلوماً ويرضيك بمعاوئته لك أو النصيحة إذا كنت ظالماً

أو يكون كما وصفه لقيط بن يعضر الإباضي:

لا مُتَرَفًا إِنْ رَخِيَ الْعَيْشَ سَاعِدُهُ وَلَا إِذَا حَلَّ مَكْرُوهُ بِهِ خَشَعًا
لَا يَطْعَمُ النَّوْمَ إِلَّا رِيثَ يَبْعَثُهُ هَمٌّ يَكَادُ حِشَاءَ يَقْطَعُ الضَّلَاعَا
مُسَهَّدُ النَّوْمِ تَغْنِيهِ أُمُورُكُمْ يَرُومُ مِنْهَا عَلَى الْأَعْدَاءِ مُطْلَعَا
مَا تَنَفَّكَ يَحْلِبُ هَذَا الدَّهْرَ أَشْطَرَهُ يَكُونُ مَتْبَعًا طَوْرًا وَمَتْبَعًا
فَلَيْسَ يَشْفُلُهُ مَالٌ يَثْمَرُهُ عَنْكُمْ وَلَا وَلَدٌ يَبْنِي بِهِ الرُّفْعَا
مُسْتَنْجِدًا يَتَحَدَّى النَّاسَ كُلَّهُمْ لَوْ صَارَعُوهُ جَمِيعًا فِي الْوَغَى صَرَعَا
ثُمَّ إِنَّهُ ذُو حِيلَةٍ ، إِذَا حَدَّ الْجَدُّ رَأَيْتَهُ يَعْتَمِدُ عَلَى قُوَّةِ سَاعِدِهِ ، كَمَا يَعْتَمِدُ
عَلَى فَاذِ بَصِيرَتِهِ ، وَحَسَنَ تَأْتِيهِ لِلْأُمُورِ ، يَعْرِفُ غَايَتَهُ ، وَيَتَحَقَّقُ مِنْ هَدَفِهِ
دُونَ تَهْوُرٍ أَوْ بِلْدٍ .

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَحْتَلِ وَقَدْ جَدَّ جَدُّهُ أَضَاعَ وَقَاسَى أَمْرَهُ وَهُوَ مُذْبِرٌ
وَلَكِنْ أَخُو الْحَزْمِ الَّذِي لَبَسَ بَازِلًا هُوَ الْخَلْطُ إِلَّا وَهُوَ لِلْقَصْدِ مَبْصِرٌ
فَذَاكَ قَرِيعُ الدَّهْرِ مَا عَاشَ حَوْلُ^(١) إِذَا سُدَّ مِنْهُ مَنَخِرُ جَاشٍ مَنَخِرٌ^(٢)
إِنْ الْحَيَاةُ فِي الصَّحْرَاءِ عَوْدَتُهُ أَنْ يَعْتَمِدَ عَلَى نَفْسِهِ فِي الشَّدَائِدِ وَأَنْ يَسْأَلَ
نَفْسَهُ فِي كُلِّ أَمْرٍ : مَا يَصِيبُنِي مِنَ الْعَمَلِ فِيمَا عَرَضَ مِنَ الْأُمُورِ ؟ فَهُوَ يَلْقَى عَلَى
نَفْسِهِ تَبْعَةً ثَقِيلَةً ، لَا يَتَوَّأ كُلُّهُ أَوْ يَنْتَظِرُ مِنْ سِوَاهُ أَنْ يَبْدَأَ الْعَمَلَ ، وَإِلَّا قَضَى عَلَيْهِ :
كُلُّ فِتْنَةٍ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ الْمُسْتَوْثُونَ الْأَوَّلُونَ عَنْ سِتُونَ نَفْسًا وَعَشِيرَةً وَقَبِيلَةً فِي الْحَرْبِ ،
وَفِي الرُّفْدِ وَإِكْرَامِ الضَّيْفِ وَتَحْمِيلِ الدِّيَارِ ، وَفِي الْحَصُومَاتِ . وَإِذَا بَلَغَ
الْأَفْرَادُ فِي مَجْتَمَعٍ مَا هَذَا الْمَدْرُ مِنَ النُّعُورِ بِالتَّبَعَةِ زَحَرَتْ حَيَاةُ الْمَجْتَمَعِ بِحُلَائِلِ

(١) قَرِيعُ الدَّهْرِ : الْمَحْرَبُ لِلْأُمُورِ . الْحَوْلُ : أَنْصَرُ ذُو الْحِيلَةِ . وَسُدَّ مِنْهُ مَنَخِرٌ :
أَيُّ إِذَا صَارَتْ سُلْطَةُ الْمَلِكِ وَحْدَهُ لَمْ يَمُتْ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِهِ .

الأعمال ، وتبارى الأفراد في التجويد والإلتقان ليميز بعضهم عن بعض ؛ لأن مجرد العمل لم يعد ميزة . وهذه لعمري هي الحياة الصحيحة التي تفضي إليها صحة الأبدان والحواس والعقول . وعلى العكس من ذلك المجتمعات الحضريّة التي يتواكل فيها الأفراد ، وينتظرون من سواهم البدء ، وتنقلب الأعمال أمانى وآمالاً ، وأحلاماً وخيالات وأوهاماً .

وإذا ضاقت عليه السبل ، ولم يجد من الموت بدءاً رأى من العار أن يفر ويؤلى ظهره للمحن والشدائد ، بل عليه أن يقتحم غمراتها ، وأن يعتمد إلى حيلته ودهائه أو إلى سيفه يفرج به الكربة ويزيل الغمة ، فلعلّ في ذلك نجاهه ، لأنه لا يدري إذا هرب كم بقي له من العمر :

ولم بدر إن جِئنا من الموت حَيضةً^(١) كم العمر باقى والمدى متناول^(٢)
إذا ما ابتدرنا مازِقا فَرَحتَ لنا بآياتنا بيض جاتها الصياقل^(٣)
إسهم يفضلون الموت على العيشة الذليلة ، والرضا بالضميم كما قال المتنبي :

ألم تر أن المرء رهين مئة صريع لعافى الطير ، أو سوف يُرْمس
فلا تقبلن ضياء مخافة ميته وهوتن سها حراً وحللك أملس
وما المأس إلا ما رأوا وتحذثوا وما العجز إلا أن ضاموا فيجلسوا
في الست لأخير بتمتلقون الحياة العريية ، فالس في ميران الحق : أعمال
صالحة يرونها من أنفسهم فتحدثون عنها . ويحزون بها ، فيدأ به يستطيعوا
العمل الذي يفخرون به ويتحذثون عنه ، ثم حصعوا ، وفقدوا التدبر عن
العمل . وجلسوا للضميم ، فذا هو العجز .

(١) جئنا : حدا من الموت :

(٢) البيض : السيوف ، والصياقل : ج صيقل وهو صانع للسيف .

إن الحياة جهاد ، وصراع وجلاد . ومن يغشاها موطنًا نفسه على الفلج والغلبة في معيشتها أو الموت دون هدفه كان النُجح حليفه ، والفوز نصيبه ؛ لأن الإنسان إذا لم يحب الموت وهو في معترك الحياة آثر السلامة ، وتجنب مواطن الظفر ، وسار بلا إرادة تبعًا لتلك المواطن وتلمسها ؛ وخروج المرء عن إرادته يدعوه إلى الخضوع لإرادة غيره من الذين يلتمس إرضاءهم ليحيا . وهذا الضغط على النفس هو الذى يجعل للمرء نقابًا على وجهه فوق رغباته ، وينشئ له خزانة في أسفل عقله ياتى فيها بحطام آماله ، ويقبر بها أمانيه المكبوتة .

ولما كانت نفس العربى سليمة قوية تبعًا لسلامة جوارحه ، وصحة حواسه ، ولم تتعرض لما يفسد فطرتها كانت نفسًا خيرة ، والخير يأتى إلا الظهور والوضوح ؛ ولذلك نرى الفتى العربى ينفر من الضغط على نفسه ، لأن الخير الذى فيه لا يقبله ، وبذلك يأتى الضيم ؛ لأن الضيم فى أية صورة من صورهِ نوع من الضغط^(١) ، وإبائهُ الضيم وفوره من الذل جعله محبًا للموت ، فخير له أن يموت شجاعًا من أن يعيش ذليلاً جبانًا ، بلا إرادة . وعندما يأتى الموت لا يحد أمنيّة فى الحياذ إلا قد قضاها فلا يأسى على شيء فى هذه الدنيا . ولا يحرص على البقاء ، وبهذا صار قويًا عزيزاً .

فإنى فى الحرب الضروس موكلٌ بإقدام نفس ما أريد بقاءها متى يأتى هذا الموت لا تُنف حاجة لنفسى إلا قد قصيت قضاءها

(١) التسوف فى نظر الإسلام لأحمد صبرى شومان ص ١٢٨ .

بل إنه يرى في إقدامه على الموت حياة ؛ لأنه سيذكر بالخير إن مات ،
أو ينتصر في المعركة إن عاش :

تأخرت أستبقى الحياة فلم أجد لنفسي حياةً مثل أن أتقدما
فلسنا على الأعقاب تدمى كلومنا ولكن على أقدامنا تقطر الدماء^(١)
وبقول زيد الخيل :

أنا الفارس الحامي الحقيقة والذي له المكرمات والآهى والمآثر^(٢)
وقومى رهوس الناس ، والرأس قائد إذا الحرب شبتها الألف المساعير
فلست إذا ما الموت حوذر ورده وأترع حوضاه وجمّح ناظر^(٣)
بوقافة يخشى الخوف تهيباً يبعأدنى عنها من القبّ ضامر^(٤)
ولكننى أغشى الخوف بصعدتى مجاهرة إن الكريم يحاهر^(٥)
ويقول دريد بن الصمة :

أبى القتل إلا آل صبة إنهم أبوا غيره والقدر يحرق إلى القدر
وتقول الخنساء :

نهينُ النفوس ، وبذل النفوس من يوم الكريمة أبقي لها
إن بيع النفوس رخيصة في ميدان القتال دفاعاً عن العرض أو ذوداً عن الحرمات
هو أقصى ما تصل إليه النفس الإنسانية في شدة عتها ، وهو أكبر دليل على إيمان
ثابت بمصير النفس الإنسانية وكريمها ، وفي ذلك يقول البرذع بن عدي :

(١) الأعقاب : ج عقب وهو مؤخر القدم ، والكلوم : ح كلم وهو الجرح .
(٢) الحقيقة : كل ما يدافع عنه . (٣) جمّح ناظره : شرد من الخوف .
(٤) القب : إما وسط المعركة أو رئيس القوم ، وضاير : جواد مدوب صابر .
(٥) الصعدة : قنطرة الرمح .

وأجعل مالى دون عرضى إنه على الوُجد والإعدام عرض مُنَمَّع
وأصبر نفسى فى الكريهة إنه لدى كل جنب مستقر ومصرع
ويقول أبو قيس بن الأسلت الأوسى :

لا نألم القتل ويخزى به ال أعداء ككيل الصاع بالصاع
ولا بدع إذا وصل العرب فى صحرائهم إلى هذه المنزلة من الشجاعة فإن
طبيعة الخصب والرخاء ، واعتدال المناخ ، ويسر الحياة ، تميت فى النفس الإنسانية
حوافز الكفاح والنضال ، فتموت من وراء ذلك كثير من الفضائل ، ويصبح
انكباب الناس على ما تحت أقدامهم من لذات القوت ، ومتع النساء ، وما يصحب
التفانى فى صيانة اللذات والمتع من شهوة بناء القصور ، وغرس الحدائق ، وصناعة
التحف ، وزخرفة الأوانى عاملا من عوامل الحرص على الحياة ، وعدم الرغبة
فى المخامرة والمخاطرة ، والجنون عن منازلة الأبطال فى ميادين القتال .

وليس كذلك العرب فى الصحراء ، فلا مجال للاكتناز والغنى المفرط ،
وليس ثمة قصور ودور وإنما هى أخبية تطوى ومتاع قليل . أضف إلى هذا إيمانهم
— من واقع الحياة — بأن الأجل محدود ، لا يغنى فيه حذر من قدر ، ولا ينفعهم
نقاعهم فى ميدان القتال شيئاً . كل هذا جعلهم يتخذون من الموت سبيلاً للحياة ،
وملاً لقلوبهم شجاعة فائقة واستهتاراً بالمخاطر . ولعلَّ عنتره قد عبر عن هذا المعنى
أجمل تعبير وأتمه نقوله :

بكرت تخوفى الختوف كأتى أصبحت عن غرض الختوف بمعزل
فحببها إن شئيلة منمَّال لا بد أن أسقى بكأس المنهل

فَاتَّقِنِي حِيَاءَكَ لَا أَبَالِكَ وَأَعْلَى أَنِّي أَسْرُؤُ نَسَامُوتٍ إِن لَّمْ أَقْتُلْ
كَأَنُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى الْمَاءِ وَالْمَالِ وَالْفَنِيمَةِ ، وَالْقِتَالِ عَلَى الْمَاءِ وَالْفَنِيمَةِ قَانُونَ
الْفَطْرَةِ فِي بَقَاءِ الْأَصْلَحِ ، وَكَانَتِ الْعَصْبِيَّةُ الْقَبِيلِيَّةُ شَدِيدَةً بَيْنَهُمْ ؛ حَتَّى لَا يَذْلُوا ،
وَيَتَخَطَّفُهُمُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ، وَتَسْتَبَاحُ حَرَمَاتُهُمْ ، وَيَتَنَهَكُ حِمَامُهُ^(١) . وَلَقَدْ عَبَّرَ عَنْ
هَذَا الْمَعْنَى عَمْرُو بْنُ بَرَاقَةَ بِقَوْلِهِ :

وَمَنْ يَطْلُبُ الْمَالَ الْمَمْنَعُ بِالْقَنَا بَعَثَ ذَا غَفَى أَوْ تَخْتَرِمُهُ الْخَارِمُ
وَكُنْتُ إِذَا قَوْمٌ غَزَوْنِي غَزَوْتُهُمْ فَهَلْ أَنَا فِي ذَا يَأْلَهُمْدَانُ ظَالِمٌ
مَتَى تَجْمَعُ الْقَلْبُ الذَّكِيُّ وَصَارِمًا وَأَنْفًا حَمِيًّا تَجْتَنِبُكَ الْمَظَالِمُ
وَكَانَتْ كُلُّ مَعْرَكَةٍ تَسْتَتِيعُ ثَارًا ، وَكُلُّ ثَارٍ يُلِدُّ مَعْرَكَةً ، وَالثَّارُ كَانَ حَقُّ الْأَبْنَاءِ
لِلْآبَاءِ أَوْ حَقُّ الْآبَاءِ لِلْأَبْنَاءِ ، أَوْ لِلرَّءِ لِعَشِيرَتِهِ وَذَوِيهِ ، أَوْ الْقَبِيلَةِ لِأَفْرَادِهَا
الْمُدَافِعِينَ عَنْهَا حَتَّى لَا تَهَانَ وَتَسْتَذِلَّ وَتَسْتَأْصِلَ .

وَلَوْلَا الْحُرُوبُ عَلَى الثَّارِ مَا اسْتَرْجَعَ الْمُهْزُومُ مَكَانَهُ مِنَ النَّصْرِ بَعْدَ الْهَزِيمَةِ ،
وَمَا شَفَى الْمَوْتُورُ صَدْرَهُ مِنْ حَفِيزَةِ الْوَتْرِ ، وَمَا أَخَذَ الْوَاقُونَ بِالْوُدِّ حَقُوفَ الْبَازِغِينَ
مِنْ خِلَانِهِمْ وَحُلَفَائِهِمْ وَإِخْوَتِهِمْ ، فَلَا تَذْهَبُ الْجَنْدِيَّةُ بِدُونِ قِصَاصٍ^(٢) .

وَلِذَلِكَ كَثُرَتْ حُرُوبُهُمْ وَتَعَدَّدَتْ أَيَّامُهُمْ ، وَفِي حُرُوبِهِمْ مَرْنٌ عَلَى أَعْمَالِ
الْفَتْوَةِ ، وَإِظْهَارُ مَزَايِدِ الشَّجَاعَةِ وَحَسَنُ بِلَاقَتِهِمْ . لَقَدْ كَانُوا يَفْرَحُونَ بِالْخَطُوبِ
وَالشَّدَائِدِ ؛ فَقِيهَا امْتِحَانِ لَشَجَاعَتِهِمْ ، وَبِلَاءِ مَقْدَرَتِهِمْ عَلَى مِقَارَعَةِ خَوَاصِّ

(١) الْبَاطِنَةُ الذِّيَابِيُّ لِلْعَوَافِ م ٥٩ . (٢) فَسِ الْمَرْجَمِ م ٦٠ .

وصلاحهم للبقاء والسيادة ، وتنويه بذكركم بين قومهم وسواهم ، وفيها عزة لهم
ولقبيلتهم ، فيها بها الأعداء ، ولا يطمعون فيها . وفي الخطوب مغنم عاجل ،
ومجد آجل ، فلا تعجب إذا سمعت شاعرهم يقول :

ما تعتريني من خطوب مُلْمَةٍ إِلَّا تَشْرَفَنِي وَتَعْظُمُ شَانِي
أَوْ مَا يَقُولُ الْآخَرُ :

وإذا حُجِلَتْ عَلَى الْكَرِيهَةِ لَمْ أَقْلُ بَعْدَ الْعَزِيمَةِ لَيْتَنِي لَمْ أَفْصَلْ
كَانَ الْفَتَى الْعَرَبِيَّ يَقْتَحِمُ الْخَطُوبَ بِقَلْبٍ ثَبَتَ ، وَشَجَاعَةً بِالْفَةِ الْمَدَى ، وَاتِّقَا
مِنْ شَجَاعَتِهِ وَبَأْسِهِ وَدُرْبَتِهِ وَخُنْكَتِهِ فِي حُمَيَّا الْقِتَالِ ؛ لِأَنَّهُ يَبْنِي مِنْ اقْتِحَامِهِ
الْمُكَارَهَ الْحَمْدَ وَالصِّيتَ ، وَالْبَقَاءَ فِي عِزَّةٍ وَحَرِيَّةٍ :

إِذَا خَامَ أَقْوَامٌ تَقَحَّمَتْ غَمْرَةٌ يَهَابُ حُمَيَّاها الْأَلَدُ الْمُدَاعِيسُ (١)
لَعَمْرُ أَيْيِكَ الْخَيْرِ إِنِّي لَخَادِمٌ لَضَيْقِي ، وَإِنِّي إِنْ رَكِبْتُ لِفَارِسٍ
وَإِنِّي لِأَشْرَى الْحَمْدِ أَبْنَى رَبِّكَهُ وَأَتْرَكَ قَرْنِي وَهُوَ خَزْيَانُ نَاعِيسٍ
وَلَا يَعْنِي اقْتِحَامُهُ الْخَطُوبَ وَحُبُّهُ الْمَوْتَ تَهَوُّراً وَطِيْشاً ، وَلَكِنَّهُ كَانَ إِلَى
شَجَاعَتِهِ هَذِهِ حَذراً يَقْظاً فِي مِيدَانِ الْقِتَالِ ، لَا يَسْتَسْلِمُ لِسُلْطَانِ الْغَفْلَةِ ، وَإِذَا أَنَهَكَهُ
التَّعَبُ وَلَعِبَ بِخَفْوَتِهِ الْيَوْمَ لَا يَخْضَعُ لَهُ خَضُوعَ مَنْ يَتْرَكَ أَرْزَمَةَ أَمْرِهِ فِي يَدِ الْمَقَادِيرِ
وَالْقُرْصِ ، وَلَكِنَّهُ يَأْخُذُ مِنْهُ بِحَذَرٍ ، وَيَهْبُ مِنْ سِنْتِهِ حِينَ يَجِدُّ الْجِدَّ سَوِيّاً قَوِيّاً :
وَإِذَا يَهْبُ مِنْ الْمَلَامِ رَأَيْتَهُ كَرْتُوبَ كَعْبِ السَّاقِ لَيْسَ بِزُمْلٍ (٢)

(١) خَام . جَبَزَ ، وَالضَّرَّةُ : الْعُدَّةُ . وَالْحَمِيَا : لَشَدَّةُ كُنْكَتِكَ ، وَالْأَلَدُ : الشَّدِيدُ
الْمُخْصُومَةُ . الْمُدَاعِيسُ : مِنَ الدَّعَسِ وَهُوَ الطَّعْنُ .
(٢) الْكَرْتُوبُ : الْقِيَامُ وَالْإِتِّصَابُ ، وَالزُّمْلُ : الضَّعِيفُ .

ما إن يمس الأرض إلا منكبٌ منه ، وحرف الساق طي المحمل
 وإذا رميت به الفجاء رأيت يثوى مخارمها هوى الاجدل^(١)
 وإذا نظرت إلى أسرة وجهه برقت كبرق العارض المتهلل
 صعب الكريهة لا يرام جنبه ماضى العزيمة كالخمام انقصل
 يحى الصحاب إذا تكون كريهة وإذا هم نزلوا فآوى العيل

إذا هب من نومه رأيت رتوبه وقيامه وانتصابه فى استوائه وشدته مثل
 كعب الساق ، لا لين فيه ولا ضعف ، كأنه الرمح الردينى صلابه ومثانة . إنه
 ينام نوماً عجبا فيمس الأرض بأحد منكبيه وبحرف ساقه ، لا يستغرق فى نومه
 أو يستلقى على ظهره ، ثم هو غير سمين بل تراه مطوياً كأنه حماله السيف ؛ وإذا
 قذفت به فى فجاء الأرض وطرقها الواسعة رأيت يهوى وينقض على جبالها كأنه
 الصقر العتيد . وإذا نظرت إلى وجهه رأيت مشرقاً كأنه البرق الساطع ، لم تنل
 منه الصعاب أو تكفكف من غربه الأسفار ، وهو فى الحرب صعب المراس
 شديد الوطأة ، لا ينال جنبه أحد لمناعته ، وهو ماضى العزيمة كالسيف القاطع ،
 وهو عماد أصحابه يوم الوغى ، يذود عنهم لفرط شجاعته وقوة عزيمته ، ومثانة
 ساعده ، وخبرته بالحروب وتحمله التبعات ، وهو مؤاوم إذا نزلوا ، يصدق عليهم
 من سيب يده ، وفضل كرمه .

ولم تكن البيئة الصحروية وحدها التى أكسبتهم هذه الصفات الحميدة ،
 والشجاعة المثالية ، ولكن كان للأمهات العربيات فصح كبير فى تنشئة أولادهن
 طلاب مجد ، وأمثالا عالية فى الشجاعة . فأرأدت كات مدرسة قيمة لشجاعة فى هذه

(١) معارم : ج مخرم وهو منفع أم الحس ، والأحسن : اصغر .

البيثة الوعة ، وما يكتنفها وقبيلتها من أخطار تهددها في كل حين ، وهي تدرك
كذلك قيمة القتى الشجاع عند القبيلة ، وأنها تنتظره ليذود عنها ، ويندرك
أعدائها ، ويكسب لها المجد والشرف ؛ فلا يسبى نساؤها ويمتن فتياتها ،
ويستذل شيوخها ، ويهزم رجالها ، ولذلك كانت ترضعه مع لبنها صفات المجد ،
وطلب السؤدد ، فينشأ والرجولة ملء إهابه والعزة تفيض من فؤاده ، والأنفة
من الصغائر ترسم على صفحات وجهه .

كانت المرأة العربية ترقص ولدها بأشعار ناصعة جميلة ، وتوحى له بالخير ،
وتغريه بالمجد . استمع إلى « شيماء » ترقص محمداً الكريم في بادية بنى سعد :

يا ربنا أبق لنا محمداً حتى أراه يافعاً وأمرداً
ثم أراه سيداً مسوداً واكبت أعاديته معاً والحسد
وأعطه عزاً يدوم أبداً

واستمع إلى أم الفضل بنت الحارث ترقص ولدها عبد الله بن العباس :

ثكلت نفسي وثكلت بكرى إن لم يسد فنهراً وعير فهر
بالحسب الوافى وبذل الوفر حتى يوارى في ضريح القبر
واستمع إلى هند بنت عتبة زوج أبي سفيان ترقص ولدها معاوية بقولها :

إن بنى مغرو كريم محب في أهله حلیم
ليس بفحاش ولا لثیم ولا بطخور ولا سئوم^(١)
صخر نى فبره زعيم لا يخلف الظن ولا يخيم^(٢)

(١) الصخور : الضيف غير الجلد .

(٢) يخيم : يجبن . وصخر نى فبره : هو صخر بن حرب أبو سفيان والد معاوية .

وكانت « منقوسة » ابنة زيد الخليل ترقص ولدها من دريد بن الصمة
فدعوه إلى التشبه بأبيه أو أخيها في القروسية والبطولة . وكانت ترى أن أباهـا
« زيد الخليل » أكبر من أن يدركه ابنها من دريد بن الصمة ، فكانت ترقصه
وتقول له :

أشبه أخى أو أشبهن أباكأ أما أبى فلن تنال ذاكا
تقصر عن مناله يداكا

وإذا كانت المرأة موتورة نشأت ولدها تنشئة طالب الثأر ، ولفته منذ
حدثه الأولى كيف ينتقم من أعدائه وأعداء أمه وعشيرته ، وهـا هي ذى « كنزة
المنقرية » تغذى ولدها « تملة » أفويق الوتر والقصاص فى قولها :

فإن بك ظنى صادق وهو صادق بتملة يحبسهم بها محبسا أرلا^(١)
فيا شمل شمر واطلب القوم بالدى أصبت . ولا تقبل قصاصا ولا عقلا^(٢)
لم يكن هؤلاء النسوة يدللن أولادهن ذلك الدلال الذى يصنف
شخصيتهم ويسىء إلى مستقبلهم ، بل كن يدفعن بهم إلى طريق الشرف ،
والرئاسة ، واحتذاء آثار الأبطال ، ولذلك طهر بين العرب كثير من الفتيان
ذوى الشخصية القوية ، والنفوس المعدة لسم ذروة المجد ، ولا أدل على ذلك
من ملك لشخصيات العظيمة البهرة التى متبهرت فى إسلام حين دت
للـعرب دول عظيمـة ، وطب خـكيم جـديد حـرة وسـيرة . وعمولا زرة فتجت
تلك العفريات الكامنة ، وظهرت على مسرح التاريخ متفـة على غير مال

(١) أرلا شديداً ، أى أنه سيحيط بالأعداء . ويحصرهم ويثأر منهم .

(٢) أى لا يقبل الدية

سبق في قيادة الجيوش ، والقضاء ، والخلافة ، والتنظيم المبتكر . ولا شك أن هذا كله يرجع إلى النشأة الأولى ، وإلى الحياة التي تشربتها نفوسهم في الحداثة : حياة تجعل منهم شخصيات بارزة ، فكثرة الرعاية والتدليل للأطفال في حداثتهم تخرج شخصيات ضعيفة^(١) ، وهذا مالم يفعلوه نساء العرب مع أولادهن .

ومما دعا إلى كثرة الشجعان بين العرب امتداح الرأي العام للشجاع القوى الذي يلبي النداء زميلاً إذا دُعِيَ للنجدة أو كانت قبيلته أو عشيرته أو حلفاؤه في محنة . وللرأي العام سلطان قوى يتأثر به الفرد وتتأثر به الجماعة . والعرب كانوا يمتدحون الشجاع ، ويهزءون بالجبان الهيابة الرعديد ، الذي يخيم عن الذود عن المحارم ، وينكص على عقبيه في حومة الوغى .

إذا فكر شخص ما في نفسه الخاص أو وقع جاره القريب دفعه الرأي العام ، والحرص على مصلحة المجموع إلى أن يبعد هذه المنفعة الخاصة ، وأن يضحي بماله أو بنفسه في سبيل الجميع ، إن القبيلة تستطيع مجتمعة أن تسحق الخسيس النذل الجبان ، وأن ترفع إلى أوج الشهرة والفخر هذا الذي غامر بحياته في سبيلها^(٢) ، فأى فتى يحجم إذا كان لا بد من الإقدام إلا من تبدل حسه ، وفسدت نفسه ، والعرب كانوا على النقيض من ذلك تهيبهم البيئة وتُعددهم الأمهات ، ويدفعهم الرأي العام لأن يكونوا نماذج خيالية في الشجاعة والاستبثار بالموت .

تمداعتني العرب — كما رأينا — بأجسامهم ، فاكتملت قوتهم ، وعظم

(1) Anthropology. by R. R. Marett, p. 237 .

(2) Anthropology. by Sir E. B. Tylor. Kt. V. II. p. 137.

احتمالهم للخطوب والشدائد ، وتعودوا خوض الغمرات والحن ، واستهانوا بالحرب والموت . وقد تطلبت منهم الحروب الكثيرة التي شبت بينهم أن يعنوا عناية خاصة بأدوات الظفر والقتال . وأول هذه العدد — بعد القوة الجسمية — جوادٌ أصيلٌ ، يعرف كيف يصبر في المعركة ، والسيوف تقطع وتلع من حوله ، والسهم تصب عليه ، ويعرف كيف يقدم ، ويشق تحجب الغبار ، ويكر بصاحبه ، لا يحفل أو يكبو أو يرتد عن المعركة .

شديد مجامع الكتفين طرْفٌ به أثرُ الأُسنة كالطوب^(١)

ولهذا اعتزوا بالخيـل ، وعرفوا لها منزلتها ، وعدوها بمثابة أولادهم ، وكان يهنئ بعضهم بعضاً إذا ولدت فرس ، ويحتفلون بتقدم المهر المولود احتفالا يدل على عظيم مكانتها في قلوبهم ، فحينما تضع الفرس وليدها تجتمع الأسرة حولها ، وتستقبله بالصياح والتهليل وإمارات الفرح ، لأنه هبة من الله وبركة منه ، ثم يأخذ أحد أفراد الأسرة بين ذراعيه ويسير به مدة في موكب صاخب . وبهذه الطريقة يتعود المهر منذ شأته الأولى ألا يخاف شيئاً ، وأن يكون هادئاً وسط الميدان وقعة السلاح وجلبة الجيوش ، ثم يعود به إلى أمه ، وهنا يقول رب الأسرة اللهم اجعل الوليد مصدر سعادة وبركة وصحة لنا ، فيؤمن أفراد الأسرة على دعائه^(٢) .

ولقد فضلها بعضهم على أولاده ، يجوعون ولا تجوع . ولا بدع فهي التي تحمي الأسرة ، وتجلب لها الرزق ، وبها يدافع رب الأسرة عن عياله .

(١) البيت لضبعة الميـسى . الطرف : الكريم من الخيل ، والطوب ، تلهم السيف .

(٢) Général Darma. Les chevaux du Sahara. p. 91.

مقداة مكرمة علينا يجاع لها العيال ولا تجاع^(١)
وما يدل على إعزازهم لخيولهم الأصيلة أنهم كانوا يضمنون بها أن يختلط نسبها
بغير الأناث المعركة في النسب ، بل يختارون لها إناثاً مشهورة معروفة بنجابتها .
وإن اختيار أنثى غير مُنسبة لجواد أصيل كتزويج رجل أبيض شريف
من زنجية دميمة^(٢) .

ولا عجب فالخيل من أقوى عدد العربى وسط الصحراء وهى التى تجلب
لهم الخير .

الخير ما طلعت شمسٌ وما غربت معاقٌ بنواصى الخيل معقود
وهى معاقلم التى يلجئون إليها إذا جد الجد ، كما قال لبيد :
معاقلنا التى ناوى إليها بنات الأعوجية والسيوف^(٣)
ولذلك قال أخو بنى عامر يحذر قومه من إهمالهم لخيولهم ، وعدم عنايتهم
بترويضها ، وإعدادها فى كل آونة لخوض غمرات القتال :

بنى عامر : ماذا أرى الخيل أصبحت بطاناً ، وبعض الضر للخيل أمثل
بنى عامر إن الخيول وقايةٌ لأنفسكم والموت وقت مؤجل
أهينوا لها ما تكرمون وباشروا صيانتها ، والصون للخيل أمثل

(١) البيت لعبيدة بن ربيعة التميمى وقد طلب منه أحد الملوك مرسة (سكاب) فنعمها
منه وقال لعبيدته المقصور :

أبيت الأمن إن (سكاب) علق نفيس لا يعار ولا يباع

(٢) Delard, L'Art équestre 1859

(٣) الأعوجية : نسبة إلى أعوج جواد أصيل مشهور عند العرب .

متى تكرموها يكرم المرء نفسه وكل امرئ من قومه حيث ينزل
ومما يدل على عنايتهم بالخليل ، وإعزازهم لها تمييزها بأسماء ، كأنها أناس عاقلة
ولا سيما العتاق منها ، وقد كان لزيد الخليل ستة جياد أشاد بها في شعره وهي :
المصّال ، والكُميت ، والورد ، وكامل ، ودؤول ، ولاحق . ومن الخيول
المشهوره أعوج ، والوجيه ، وداحس ، والغباء ، والنعامه وغيرها ، وقد ألف أكثر
من كتاب في الخيول المنسبة المشهوره ، وكانت كتب الخليل من أول ما ألف في
العربيه ^(١).

وقد بلغ من معزتهم لها أنهم كانوا يذودون عنها في حومة الوغى ؛ لأنها
تخوض بهم المعركة ، فإذا أصابها شيء ضعف الفارس ، وقلت مناعته ، ولذا وجب
عليه حمايتها .

أقيه بنفسى في الحروب وأتقى بهاديه بئى للخليل وصول ^(٢)
فهذا الفارس يرى في الجواد خليلاً له ، وأى خليل أصدق من هذا الذى
يرافقه والموت دان ، والسيوف تقطر منها المنيا ، ويصبر معه على السراء ، وينجيه
من البأساء ، وينبادل وإياه المنفعة على حد قول ضبيعة العبسى :

يقينى باللبان ومنكبيه وأحميه تمطرّد الكعوب ^(٣)
وأدفيه إذا هبت سمّال كليل حرجف عند الغروب ^(٤)

(١) راجع كتاب نخبه عقد الأجياد في الصانعات الحيات تأليف محمد باشا نجل الأمير
عبد القادر الجزائرى ، وراجع كذلك مشاهير الحيات في الجاهلية والإسلام لأحمد زكى باشا
وراجع بلوغ الأرب للأوسى الجزء الثانى ، وراجع الفريد ، والأهاني وغيرها .

(٢) هادى القرى : صدره وعنقه .

(٣) اللبان : الصدر ، ومطرّد الكعوب : الرمح .

(٤) الحرجف : الريح الباردة الشديدة الهبوب ، رنبس : المبلولة من الندى .

أقول آخر:

أتقى دونه المنيايا بنفسى وهو ينشى بنا صدور العوالى
فإذا مت مكان ذاك ترائى وسيخالا محمودة من سيخالى^(١)
وكان الجواد يخوض المعصية كما يخوضها الفارس ، ويصبر على حرها ، إذا
كان أصيل العرق . يُشخن بالجراح فلا يتفر ، أو يلين ، كما وصفه
عنتره بقوله :

إذ لا أزال على رحالة سابع نهّد ، تعاورة الكماء مكلم^(٢)
ما زلت أرميهم بغرة وجهه ولبانه حتى تسربل بالدم
فأزور من وقع القنا بلبانه وشكى إلى بعبرة وتمحم^(٣)
لو كان يدرى ما المحاورة اشتكى ولكان لو علم الكلام مكلمى
بل كانوا يعودون الخيل أن تطأ القتيل ، وتجهز عليه ، مثل فرس زيد
الخيّل الذى طلع فى أثناء المعركة فأخذه بنو الصيّداء فصلح عندهم فناشدهم زيد
الخيّل أن يردوه وقال لهم :

يابنى الصيّداء ردّوا فرسى إنما يُفعل هذا بالنيل
لا تُذيلوه فإنى لم أكن يابنى الصيّداء لموى بالمذيل^(٤)
عودوه كالذى عودته دلج الليل وإيطاء القتيل^(٥)

(١) السخال : ج سخلة وهى ولد الشاة .

(٢) الرحالة : سرج من حبل الشاة . نهّد : غليظ ، تعاورة : هذا يطعنه مرة ،
وذاك أخرى ، والكماء : ج كى وهو التام السلاح . ومكلم : به كلوم وجروح كثيرة .

(٣) أزور : مال : ولانه : صدره . (٤) أذاله : أهانه ولم يحسن القيام عليه .

(٥) انظر مذهب الأعانى ج ٢ ص ٧٩ .

ويقول زيد الخيل واصفاً إحدى غاراته على بنى فزارة ، ومشيراً إلى ما قام به جواده في المعركة :

ف زلت أرميهم بغرة وجهه وبالسيف حتى كلّ تحقّ وبلداً
إذ شكّ أطرافُ العوالي كبابه أقدمه حتى يرى الموت أسودا
كانت الخيل جنةً القربان في حومة الوغى ، يعدون بها ويكرون ، وتحميمهم
من طعنات الرماح ، وحد الظبي . وإذا اشتدت المعركة وحى وطيسها ، وضاق
المعترك نزولاً عن الخيول ، وهم لا ينزلون عنها إلاّ إذا كانوا شجعاناً واثقين من
قوتهم وفتوتهم ، وخبرتهم باستعمال السيوف ، فلا ينزل إلاّ أولو البأس
والنجدة والشدة . استمع إلى ربيعة بن مقروم يصف فرسه في المعركة ، وكيف
نزل عنه حين دُعى للنزول :

وإذا جرى منه الحميم رأيت يهوى بفارسه هوىً الأجدل^(١)
وإذا تعال بالسياط جياذها أعطاك ثأبته ولم يتعلل^(٢)
ودعوا نزال فكنت أول نازل وعلام أركبه إذا لم أنزل
فهم لشجاعتهم لا يعتصمون بظهور الخيول ، بل حالهم في القتال على الخيل
كحالهم بدونها ، ومن أنس في نفسه الشجاعة والمقدرة على القتال وهو راجل
نزل ، ومن رأى أنه في مأمن على ظهر جواده ، وأنه إن نزل لن يكون
مفاجئاً اعتصم به ، ولذلك كان من دواعي نفخهم أن ينزلوا عن الحيل حين
تشتد المعركة ، ويلتحم الفريقان ، ويضيق المجال أمام الجياد حتى لا يستطيع

(١) الحميم : العرق ، وهو أيضاً الاء الحار . الأجدل : الصبور .

(٢) إذا كانت بعض الحيل تحتاج لأن تضرب بالسيار لجواده لأصاكه يعطيه خير
ما عنده من العدو بدون حاجة إلى تله أو صرب أو حت .

العدو وفي هذا يفتخر الليل بقله :
 لم يطيقوا أن ينزلوا فنزلنا وأخو الحرب من أطلق النزولا
 ومدح الباذغة بنى غسان بقله :
 إذا استنزلوا عمن للطعن أرقلوا إلى الموت إرقال الجمال المصاعب ^(١)
 هكذا كانت الخيل عند العرب أصيلة مفرقة ، متخيرة ، قوية ، متينة
 التركيب ، تلام الفتي القوى الصلب ، الذي أعد نفسه لحُميا الحروب وأوارها :
 والحرب لا يبقى لها محمها النخيل والمراح
 إلا الفتي الصبار في الدحدات والفرس الوقاح ^(٢)
 والكر بعد الفر إذ كره التقدم والنطاح
 ولذلك كانوا ينشئون الخيول تنسئة خاصة :
 تميم فلوانه فأكمل حاتم قتم وعزته يداه وكاهله ^(٣)

* * *

ويحتاج الفتي لاستكمال عدة الغلبة والظفر بعد قوته الحسمية ، ومرايه على
 حتمال استنق ، وحوض المكاره ، وبعد جواده الفاره المعرو السبا . . إلى
 نكة تامة يعدها للتابات : سيف عصب ، ورمح لذن ، ودرع ساعة ، ويصا
 تلمع ، كما أعد عبد القيس بن حفاف الرمحى عدته حين قال :
 وأصحب أعددت للنايبات عرسا بريئا وصنبا ثقيل ^(٤)

(١) أرموا : أسرعوا . والمصاعب : مصعب وهو العجل من الإبل .

(٢) الوقاح : الشديد الخافر . (٣) فلوانه : وطمانه .

(٤) النكة : السب القاطع ، وصلة : مصقولا لامعا محلوا .

ووقعَ لسانِ كحدِّ السَّانِ ورعاً طویل القِصاة عَسُولا
 وسافه من حياء الدرو ع تسمع للسيف فيها صليلا
 كتن الفدير زهته الدبور يحرق المدحج منها المضولا
 وقد يزيد في عدته القوس والسهم ليرى بها ، وليكون كامل الشكة
 محتاطاً لكل ما يطراً عليه مثل حُسَيْل بن سَجِيح الضبي حين أعد نفسه :
 بمطردٍ لدنٍ صحاح كعوبه وذى رونق عَصَب يُفد القواسا
 وبيضاء من سجع ابن داود نثرة تخيرتها يوم اللقاء لللاسا
 وجريمة منسوبة وسلاجيم خفاف ترى عن حدها السَّم قالبا
 فعدته رمح مستقيم لدن يهتز في يده ، صحاح كعوبه ، وسيف له رونق
 وماء ، قاطع بتار يفد أعالي الخوذات ، ودرع بيضاء عريقة في القدم من سجع
 سليمان بن داود محكمة التسح حتى ترد السهم والظبي ، وقد تخيرها يوم اللقاء
 ملبسه ، سم قوس متحذة من شحر الحرم فهي متيعة بدرة ، وهي كذلك منسوبة
 معروفة الأصل ، وسهم طوال ، خفاف ، تقذف السَّم ، كما وصفها سويد
 ليستكرى بقوله :

وارميا والأعادي شهيدٌ سالٍ دات سم قد تقع
 به كيات تيكّة المدرس وعدته كما قال ريد الحيل :
 يوم لا من سحر و الحر ب سوى نصر أسمر سأل^(١)
 ولجام في رأس أجرد كجند ع حوب وأبيض قص^(٢)

(١) الأسمر: الرمح . السال: قفى يهتز ، يصفه بأنه لدن حتى لا يفسد .

(٢) أجرد : قصير الشعر وهي من صفات البردة و حر . فصل : قاصع من

صفات السيف .

وَدِلَاصٍ كَالنَّهْيِ ذَاتِ فَضُولٍ ذَاكَ فِي حَلْبَةِ الْحَوَادِثِ مَالِي^(١)

أَوْ كَمَا قَالَ مَالِكُ بْنُ كَعْبٍ الْخَزْرَجِيُّ الْأَزْدِيُّ يَصِفُ عُدَّتَهُ :

عَلَى فُضْفَاظَةٍ كَالنَّهْيِ سَابِغَةٍ وَصَارِمٍ مِثْلَ لَوْنِ الْمَلْحِ مَصْقُولٌ
وَلَدَنَةٌ فِي يَدٍ سَمَاءٍ تَقْلِبُهَا بِعَامِلٍ كَشَهَابِ النَّارِ مُوَصُولٌ
أَوْ عِدَّةُ عَمْرُو بْنِ مَعْدٍ يَكْرِبُ الَّتِي يَقُولُ فِيهَا :

أَعَدَدْتُ لِلْحَدَثَانِ سَابِغَةً وَعَدَاءٌ عَلَنَدِي^(٢)

نَهْدًا وَذَا شَطْبٍ يَتُّ دُ الْبَيْضِ وَالْأَبْدَانِ قَدَا^(٣)

وَلَعَلَّكَ تَتَخِيلُ فِتْيَانَ الْعَرَبِ وَهُمْ فِي سِلَاحِهِمْ هَذَا :

قَوْمٌ إِذَا لَبَسُوا الْحَدِيدَ كَأَنَّهُمْ فِي الْبَيْضِ وَالْحَلْقِ الدَّلَاصِ نَجُومٌ

وَقَدْ يَطُولُ لِبَسَهُمْ لِهَذِهِ الْعِدَّةُ ، فَتَصْدَأُ عَلَى أَجْسَادِهِمْ ، وَقَدْ تَكُونُ لَهُ

رَائِحَةٌ كَرِيهَةٌ كَمَا وَصَفَهُمُ النَّابِغَةُ بِقَوْلِهِ :

سَمِكِينَ مِنْ صَدَا الْحَدِيدِ كَأَنَّهُمْ تَحْتَ السَّنَوَرِ جِنَّةُ الْبَقَارِ^(٤)

وَالسُّهْكَةُ هِيَ الرَّائِحَةُ الْكَرِيهَةُ الَّتِي تَنْشَأُ مِنْ اخْتِلَاطِ الْعَرَقِ بِالْحَدِيدِ

وَصَدَّاءُ ، وَالسَّنَوَرُ السِّلَاحُ التَّامُ . فَكَأَنَّهُمْ بِرَائِحَتِهِمْ هَذِهِ وَسِلَاحِهِمْ الْكَامِلِ

جَنَّةُ وَادِي الْبَقَارِ .

وَكَانَ الْعَرَبُ عَامَةً يَسُونُ بِالسِّلَاحِ ، وَيَحِبُّونَ اقْتِنَاءَهُ ، وَيَفْتَنُونَ فِي

اخْتِيَارِهِ . وَلَا عَجَبُ فَإِنَّهُمْ فِي بَيْتَةِ تَقْدِيرِ السِّلَاحِ وَمِصْفَعَتِهِ ، فَفَضْلًا عَنْ أَنَّهُ

(١) دِلَاصٍ : الدرع المصماء ، والنهْي : الجدول . ذات فضول : سَابِغَةٌ .

(٢) عَلَنَدِي . غليظ شديد يصف جواده .

(٣) نَهْدًا : ضخمًا طويلًا . البسر : الخوقة ، والأبدان : الدروع .

(٤) الْبَقَار : وادي اشتهر بأن الجن تسكنه .

عدتهم في الحروب ، فإنه جدٌ ضرورى لهم في الصيد ، وللصيد في جزيرة العرب منزله فكثيراً ما يحتاجونه لغذائهم ، بل إن منهم من يعتمد عليه في معيشته : يصطادون الطباء ، وحر الوحش ، والوعول البرية ، وبقر الوحش وغيرها .

ومما يدل على عظيم مكانة السلاح عندهم أنهم يقرنونها بأحب شيء لديهم وهو النساء ترى ذلك في شبيهاتهم ، فالقوس إذا رنت وخرج عنها السهم ذكرتهم بالثكلى المعولة كما يقول الشنفرى :

إذا زَلَّ عنها السَّهم رنَّتْ كأنها مرزاةٌ ثكلى ترنُّ وتُفولُ
ونظراتُ المحبوبة تُصمى كما تصمى السهام ، والرمح في لدونته وسموته يشبه المحبوبة في عودها . حتى وصفوا المحبوبة بأن قدَّها سمهرى ، والسمهرى هو الرمح نسبة إلى سمهر صانع الرَّماح .

أما السيوف فإذا لمعت فإنها تذكركم بابتسامة الحبيبة كما قال عنتره :
ولقد دكرتكِ والرمَّاح نواهل منى ويض الهد تقطر من دمي
فوددت تقبيل السيوف لأنها لمعت ككبارى ثفرك التيسر
ولكن جمهرة فتيان العرب يؤثرون السيوف على سواها ، ويعدونهم أفصح أسلحتهم :

وَنُؤِثِّتُ عِسا جَرَبِ حِزْتِ نَشِيءٍ سَالَتْ عَقْرِيَاءُ بِهَا الدَّمُ (١)
عَشِيَّةٌ لَا غِيَّ رِمَاحِ مَكَانِهِ وَلَا الدَّبَلُ إِلَّا الشَّرَفُ الْمَصْمُ (٢)
وفى ذاك يقول عنتره :

(١) عقرباء : منزل من أرض اليمامة قريب من قرقر .
(٢) المصمى : الأصم أنه نسة إلى مشارف الشام وهي ترى ترممة من الرعب القاسر واحداً مشرف مثل حير ودومة الجندل .

أَكْرَ على القوارس يوم حرب ولا أخشى المهنّدة الرّقاقا
وتطربني سيوف الهند حتى أهيّم إلى مضاربها اشتياقا
ولقد سأل عمر بن الخطاب عمرو بن معد يكرب عن السلاح ، فقال : يسأل
أمير المؤمنين عما بدا له . قال : ما تقول في الترس ؟ قال : هو المجن ، وعليه تدور
الدوائر . قال : فما تقول في الرمح ؟ قال : أخوك ، وربما خانتك فاقصف ، قال :
قالبيل ؟ قال : منايا تخطيء وتصيب . قال : فما تقول في الدرع ؟ قال : مثقلة
للراجل ، مشغلة للفارس ، وإنها لحصن حصين ، قال : فما تقول في السيف ؟
قال : هناك لأمّ لك . فضربه عمر بالدرة ، وقال : بل لأمّ لك ^(١) .

ومما يدل على محبتهم للسيف كثرة الأسماء الدالة عليه ، حتى قاربت المائة ،
وكانت هذه الأسماء صفات ، والصفات تكثر للشيء حين تزيد العناية به ، والتغنى
بمحامده وآثاره ، ولا عجب فكثيراً ما احتكموا للسيف في خصوماتهم كما قال
الشميذر الحارثي :

ولكنّ حكم السيف فيكم مسلّطٌ فرضى إذا ما أصبح السيف راضيا
ولقد بالغوا في امتداح سيوفهم ، قوصفوها بالحدة ، وقوة المضاء والقطع ،
قال الباقية :

فهم يتساقون الميّة بينهم بأيديهم يبيض رِقاؤُ المضارب ^(٢)
يليرُ فضاضا بينما كلُّ قونسٍ ويتبعها منهم فراش الحواجب ^(٣)

(١) لمتد امرئيدس ٥٠ (٢) البيض : السوف .

(٣) فضاضا . ما انقص وتفرق ، والقونس : أعلى البيضة التي توضع على الرأس من
العولاذ وهو . رماس الحواجب : العظام الرقيقة التي تكون في أسفل الجمجمة فوق الخنك
والحنق . والسيرب يسمة يعود على (كل قونس) .

فالسيف لحدتها ، وقوة ضرباتهم بها تطير كل بيضة من القولاذ قطعاً ،
وبعد أن تطيح بالخوذة تطير العظام الرقيقة للجمجمة ، وليس ذلك لحسب ،
بل لها :

تَقْدُ السَّلَوقُ الْمَضَاعَفَ نَسْجُهُ وَتَوْقُدُ فِي الصَّفَّاحِ بَارَ الْجُبَابِحِ (١)
فهذه السيوف لمضاعفها ، وشدة الضرب بها تقطع الدروع المضاعفة
والنسج ، ثم تنفذ من بدن العدو ، حتى تصل إلى الأرض فتقذح الشرر من
الحجارة العراض .

على أن مثل هذه القوة التي مكنت الفارس العربي من أن يقذف بحد
سيفه درع خصمه وينفذ إلى بدنه حتى تصل ضربته إلى الأرض ، وتقذح
بها الشرر قد ادعى مثلها لشارلمان « قَدْ قَدَّ الْفَارِسُ وَفَرَسُهُ بِضَرْبَةٍ مِنْ حَدِّ
سَيْفِهِ ، مَعَ أَنَّهُ كَانَ لَا سَاحِدَ دَرَعًا يَنْغِي كُلَّ جَسَدِهِ مِنْ قُوَّةِ رَأْسِهِ إِنِّي أَخْصَصُ
قَدَمِيهِ (٢) » .

وكان الفتى العربي إذا رأى أن خصمه قد حاد عن طريقه ، وتجنب
خُلبَ سيفه ، هجم عليه حتى يصل إليه ، وهذا منتهى الشجاعة والبأس . استمع
إلى شاعرهم يقول :

إِذَا الْكُرَّةُ تَحَوَّأُ أَنْ يَصِيْبَهُمْ حَدَّ الْعِجَاقِ وَصَدَّ أَيْدِيهَا
وَمَرَكَبُ الْكُرَّةِ أَحْيَا مَفْرَحَهُ عَمَّ الْحَمَاطُ وَأَسِيْنَةُ تَوَايِدِ

(١) السلوقي : الدرع نسبة إلى سوق من ساحل أوطاكية . شاء . والخرع . وثقة وقد
هذه كركي ما . والصفاح : الحجارة العراض . والجباب : دباب ، جمع الجباب .

(٢) Chateaubriand, Études Historiques, t. VI, Siècle des barbares (٢)

وإلى الأخنس بن شهاب بن شريق التغلبي :

وإن قصرت أسيافنا كان وصلها خطانا إلى أعدائنا فنضارب
وفي الحق إن الفتى العربي كان في شجاعته ، واشتهاره بالموت منقطع النظر ،
لو رأيت أنه وقد حى الوطيس وهو يحول ويصول ، ويقتحم غمرات الموت ،
ويتحدى أسباب المنيّة في جرأة وقوة لحسبته من الجن .

فإنك لو رأيت الخيل تعدو عوابس يتخذن النّفع ذّيلا
رأيت على متون الخيل جنا تقيّد مغانما وتقيّد نيلا
أو كما قال النابغة :

بكلّ مُجَرَّب كالليث يسمو على أوصال دِيَالٍ رِفْنٍ^(١)
وجُرْد كالقداحِ مُسَوِّمَاتٍ عليها معشر أشباه جن^(٢)
أو لحسبته أسداً يدافع عن أشباله وعرينه ، أو بحراً متدفقاً ، أو سيلاً جارفاً
على حد قول عوف بن عطية بن الخريج :

ألم تر أننا مِرْدَى حروب نَسِيلُ كَأَنَّا دُقَّاعُ بَحْرٍ^(٣)
ونلبس للعُدو جلود أسد إذا نلقاهم وحلود مُنْمَرٍ
أو قول خدّاش بن زهير بن ربيعة :

فعاثنا الكُفَاة وعاقبونا عِرَاكُ النُّمْرِ واجهت الأسود
كان الفتى إذا قويت مُنَّتُهُ ، وكَلَّتْ عُدَّتُهُ ، ولَبَّى بقاء الواجب في ميدان

(١) الأوصال : ج وصل وهي المفاصل . وذبال : كثير شعر الذيل ، ورفن : طويل الذيل .
(٢) الحرد : الخيل القصيرة الشعر في جسدها وهو من علامة العتق . شبه الخيل الضامرة
بالمهائم ، ومسومات : سمات ، لها دراية بالحرب .
(٣) مِرْدَى حروب : تمذف بأنفسنا في آتونها المشتعل .

الوغي ، لا يحسب للحياة حساباً ، ويعد من الشرف البالغ ، أن يقتل دون عرضه ، وحسبه ، وجاه . ولذلك فهو يقاتل غير مفكر في الموت ، لأنه شيء طبيعي في الحرب .

فما في تساقى الموت في الحرب سُبَّةٌ على شاريه فاسقنى منه واشرابا وهذه ظاهرة في الشعوب القوية التي تصمد لبلاء الدهر ، وتصهرها الحوادث في بوتقتها ، وتعدّها الأيام للسيادة والشرف . كان العرب يقاتلون تدفعهم حمية شديدة وقلوب جريئة ، وتؤيدهم مهارة فائقة ودربة تامة ، وسيوف إذ هزوها لم تكبُّ ، وإذا ضربوا بها لم تنبُّ ، وتعدو بهم جيادٌ معلّمة ، وخيولٌ مطهّمة ، ولا تراهم يبكون على من قتل فيهم إبان المعركة قتلة الشرف ، مع عظم الفجيعة ؛ لأنه أدى ما تفرضه عليه طبيعة الحياة .

ولا تراهم وإن جلت مصيبتهم مع البكاة على من مات يكرها وكان بعض الفتيان لفرط اعتدادهم بأنفسهم ، ووثوقهم من شجاعتهم ، مع كثرة عدائهم ، وطلاب الوتر منهم ، يميزون أنفسهم بشارات وعلامات تدل عليهم في حومة القتال ، يتحدون عدائهم ، ومن يريدون أخذ الدار منهم ، فكأنهم يقولون لهم : ها نحن أولاء إذا استطعتم معنا صبراً ، أو نلتهم منا وترأ ، أو كات لديكم الشجاعة ثمة لما . استمع إلى طريف بن تميم يقول :

أو كـ و ردت عكاذ قبيبةً بعنوا إن عريفهم يتوسم
فتوسموني إني أدا دكم لك سلاحى في احردت معني
تعتى الأعر وفوق حدى كزة زعن ترد سيف وهو مدمم^(١)

(١) أرت : الدرع المنينة . زعن : نية وسنة محكمة .

أو إلى الحَصِين بن الحمام أَرَى يقول :

فلست بمبتاع الحياة بسبةٍ ولا مُرْتَقٍ من خشية الموت سُلماً
ولكن خذوني أيّ يومٍ قدرتم على فجزوا الرأس أن أتكلم
بآية أنى قد فَبَحْتُ بفارس إذا عَرَدَ الأَقوامُ أَقبل مُغْلماً^(١)

وكانت بعض القبائل تميز نفسها في الحرب بزي خاص ، أو إشارة معينة
لتعرف من بين حلفائها ؛ اعتداداً منها بقوتها وبلاغتها ، وثقتها بالنصر ، يدل
على هذا قول عمرو بن كلثوم :

على آثارنا بيض حسانٌ نحاذر أن تُقَسَّم أو تهوا
أخذن على بعولتهن عهداً إذا لاقوا كتاب مُغْلِمينا
ليستلن أفراساً وبيضا وأسرى في الحديد مُفَرَّبيا

ويدل على ذلك ما روى عن يوم التَّاءة^(٢) الذي هزمت فيه قبائل
غطفان بنى عامر . ومن حديث هذا اليوم أن بنى عامر خرجوا يريدون
غطفان ؛ أخذاً بترّة قديمة ، فأصابوا من نعم عبس وذبيان ما أرضاهم ، ثم عادوا
إلى ديارهم فضلوا سبيلهم ، في وادي التَّاءة ، وأرسلوا رجلاً إلى قبه الجبل عليه
يكشف لهم عن متلك يهتدون به إلى ديارهم ، فرأى فوارس يحثون خيولهم صوب
بى عامر ، فأخبر قومه بذلك ، فقالوا صفهم ، فقال أرى قوماً كأنهم الصبيان على
متون الخيل ، أسه رماحهم عند آدان خيلهم ، قالوا : تلك فزارة . قال : وأرى
قوماً بصاً حَمَداً^(٣) ، كذب عليهم ثياباً حمراً ، قالوا : تلك أشجع . قال وأرى

(١) عرد الأتوام : حاموا وحسوا عن المعركة وهربوا .

(٢) عردها اليوم في المقعد المريد ح ٣ . وفي ابن الأثير ح ١ ص ٢٩٤

وفي الأثرى ح ١٠ ص ٣١٣ .

(٣) بص : جميع من الرجال ، وقيل السدي .

قوماً نسوراً ، قد علوا خيولهم آخذين بعوامل^(١) رماحهم يجرونها : قالوا : تلك عبس^(٢) أتاكم الموت الزئام^(٣) .

وعلى الرغم من تلك الشجاعة الفائقة البالغة حد التهور ، ومن الاستسار في القتال والحرص على الموت ، والقوة العارمة التي كانت تحرك سيوفهم ، وتدفع رماحهم ، والمهارة والدرية والخبرة في غيوق السهام والرمي عن القوس ، فإن هؤلاء الفتيان الذين سنوا على أديم الصحراء ، وتضوعت فضائلهم كما تصوع الخزامى كانوا على تماثل في الحرب ثم عن إسائية متأصله ، وعن قدرة عقلية غلبة ، تمكهم من كفكفة نزواتهم ، والحد من سريتهم ، وعدم الاسترسال في الانتقام أو الأخذ بالنار تلبية لنداء العقل ، أو العاطفة البيلة ، أو عملاً بالثقة ليد الحرية المتوارثة ، وهي تقاليد شريفة ، تدل على أريحية ورجاحة بصيرة .

كان العرب لا يقتلون عيون الأعداء وحواسيسهم ، بل يطلقون سرايحهم إذا أسروهم ليستو عدوهم تدايح قوتهم واستعددهم ، وهم يصدرون في هذا عما كن في قلوبهم من حراة وتحد ، ولأن طبيعهم يثبي العذر كـ يثبي إلا المخهرة بالعداوة :

ردسوا فارساً ممد عسا . فم يلدو عرسهم بد .
 - - - - - كـ يسك - - - - - حصة لدرشه ، - - - - - دوه ؛
 شجاعة مد وكره مس .

محرمه أكحال حتى سى - - - - - تهـ ونخوره

(١) حامل الرمح وعامته : صدر دون الد ر .

(٢) مرارة وأشجع وعبس : قد ثل من عداوا

(٣) الزئام : سكرية .

حرامٌ على أرماحنا طعنٌ مدبرٌ وتندقُ منها في الصدور صدورها
بل منهم من عكى على حصه بعد مصرعه ، كما بكى قيس بن زهير على
حذيفة بن بدر في حروب داحس والخبراء في قوله :

تعلم أن خير الناس ميتٌ على جحر الهبالة لا يريمُ
ولولا ظلمه لظلت أبكى عليه الدهر ما طلع النجوم
وفي قوله :

شفيتُ النفس من حمل بن بدر وسيفي من حذيفة قد شفاني
شفيت بقتلهم لغليل صدرى ولكى قطعت بهم بناني
بل كانوا ينصفون أعداءهم ، ويعترفون بقوتهم وجلدهم وصبرهم ، وإخائهم
فيهم . ويعاملونهم بعد المعركة معاملة الند الكريم للند الكريم ، ويعلمون أن
الحرب سجال ، يوم ينتصرون فيه ، وآخر يكبو فيه جدُّهم . استمع لقول عباس
ابن مرداس السلمي ينصف أعداءه :

فلم أر مثل الحي حياً مُصَبِّحاً ولا مثلاً يوم التقينا فوارساً^(١)
إذا ما شددنا شدة نصبوا لنا صدور المذاكي والرماح المداعيس^(٢)
إذا الخيل جالت عن صريع نكرها عليهم فما يرجعن إلا عوابسا^(٣)

(١) مصباحاً . يفار عابهم وقت الصبح وهو وقت لا يكونون فيه مستعدين للقتال .
(٢) المدكن : ح . مذك . وهي الخيل الباسية الس . والكاملة القوة : المساعس : من
يصدرون عن أي فتوا في وحوادثها وصدور الخيل . والرماح المداعس .
(٣) لا يمكنني بأن يصرح بهم . أحداً ، بل أنكر عليهم بخيولنا . فترحم تلك الخيول
طاعة بجره . لا بد من ذلك في هذه من خصوصاً .

أو قول عبد الشارق الجهني :

فلما لم ندع قوساً ومهماً مشينا نحوهم ومشوا إلينا
 شددنا شدةً قتلنا منهم ثلاثة فتية وقتلنا قتيلاً
 وشدوا شدة أخرى فجروا بأرجل مثلهم ، ورموا جؤينا
 وكان أخى جوين ذا حفاظ . وكان القتل للفتيان زنا
 فأبوا بالرماح مكسرات وأبنا بالسيوف قد انحنينا
 وكان الفتى إذا وعد عدوه المنهزم وعداً وفى به له كأن يكف عنه حتى
 يشرب ، أو حتى يتناول رمحاً أو سيفه . فلا تغلبه شهوة النصر لضرب الضعيف ،
 أو الأعزل ، بل يعد ذلك نذالة وخيصة ، وزرابة بشجاعته . وهاك مثلاً نكتفى به
 يدل على وقائهم ، وتحكمهم فى عواطفهم :

حنق عمرو بن الإطنابة ملك الحجاز على الحارث بن ظالم المرسي لقتله خالداً
 ابن جعفر الكلابي وهو نائم انتقاماً لمقتل زهير بن جذيمة سيد عبس ، وقال
 عمرو بن الإطنابة يتوعد الحارث بن ظالم :

أبلغ الحارث بن ظالم الرء ديد واناذر الذور عدياً
 إنما يقتل النيام ولا يق نل يقظان ذا سلاح كيا
 ومعى شكتى : معايل كالج ر وأردت صرماً مشرفياً^(١)
 لو هبضت البلاد أسيدت الفة ل كما يئسى أسى النسيب

فلما بلغ الحارث شعره زدد حقةً وغيفاً ، فسر حتى أتى ديار بني الحزرج .
 ثم دنا من قبة عمرو بن الإطنابة ، ووردى أيها لماك ثلثي ذبي جار مكثور^(٢) ،

(١) المعايل : ج . ميلة وهي فصل عريض طويل يحفر في السمسم .

(٢) مكثور : مغلوب .

ونخذ سلاحك ، فأجابه وخرج معه ، حتى إذا برز له عطف عليه الحارث ، وقال أنا أبو ليلى - معرفاً بنفسه - فاعتركا ملياً من الليل ، وخشى عمرو أن يقتله الحارث ، فقال له : يا حارث ، إني شيخ كبير ، وإني تعتريني سنة ، فهل لك في تأخير هذا الأمر إلى الغد ، فقال : هيهات ! ومن لي به في غد ؟ فتجاولا ساعة ، ثم ألقى عمرو الرمح من يده ، وقال : يا حارث ! ألم أخبرك أن الناس يغلبني ، لقد سقط رمحي فاكفف . فكفف ، ثم قال عمرو : أنظرنى إلى غد ، قال : لا أفعل ، قال : فدعنى آخذ رمحي . قال : خذه . قال : أخشى أن تعجلنى عنه ، أو تفتك بى إذا أردت أخذه . قال : وذمة ظالم لا أعجلتك ولا قاتلتك ، ولا فتكت بك حتى تأخذه . قال : وذمة الإطنابة لا آخذه ، ولا أقاتلك . فانصرف الحارث إلى قومه . وقال يرد على شعره :

بلغتنا مقالةُ المرءِ عمرو فأقننا وكان ذاك بدياً
قد هممنا بقتله إذا برزنا ولقيناها ذا سلاح كياً
غير ما نام تعلل بالخال م معداً بكفه مشرفياً^(١)
فمننا عليه بعد علو بقاء وكنتم قديماً وفيها
هذه هي الشجاعة العربية التي تحلى بها فتيانهم ، وكانت من أبرز صفاتهم : شجاعة فيها قوة ، وتحد للنية ، وفيها دُرْبَةٌ وتفوق في استعمال الأسلحة المختلفة ، وفيها إنسانية وكرم وإصاف للأعداء ، ووفاء للوعد .

وود ظلت هذه الفضيلة السامية ميزة للجنس العربي في شتى الأقطار التي نزع نسبه بعد الفتح لإسلامي . ولم يفقدها إلا بعد أن ضافرت عوامل عدة على إضعافه وإفقد نفسه ، وقد عهد بالصحراء البيئة الطبيعية له .

(١) وهو من المعانيح ١ ص ١٢٠ .

(٢) الكرم

ومن أبرز الصفات التي يتحلى بها الفتي الكرم . بل إن كثيراً ممن عرفوا الفتي عند العرب قالوا : إنه الشاب السخي الكريم ، والفتوة هي الشباب والكرم . والكرم من السجايا التي نبتت في الصحراء ، ونمت نمواً طبيعياً ، واحتلت منزلة سامية في نفوس العرب ، وهو على ثلاثة أنواع : كرم اليد ، وكرم القلب ، وكرم العقل .

١ - كرم اليد

وهو من الصفات التي ترشح صاحبها للسيادة والرئاسة ، وذلك لأن الحياة في الصحراء — كما ذكرنا آنفاً — فيها قسوة عظيمة على قاطنيها ؛ فكثيراً ما تشح السماء ، وتحذب الأرض ، ويلوح شبح الفاقة والجوع في بعض أنحاء الجزيرة العربية ، فإن لم يتقدم من عنده فضل من غنى أزاد لإيقاد حياة سكان تلك البقاع المجذبة هلكوا جوعاً ومسغبة .

معظم العرب الكرم ؛ لأنهم جميعاً معرضون مثل تلك المحن التي تصيبهم بين آونة وأخرى ، وحي لا يجدون حيلة إلا بتقدم ذوي اليسار واجود لإغااثهم . فكأنهم بتعصيتهم الكرم ، يرتقيهم لأسخياء يرتسبونهم ، يدفعون عن كينهم وحياتهم .

ثم إن الكرم دليل الحرية الحقيقية ، رغبة في راحة امرئ لا اعتداء

أكثر من الأخذ ، وهى العناية والتفكير فى حياة غيرك من الناس^(١) . ولا شك أن الذى يعطى أكثر مما يأخذ ويعنى بشئون سواه ، ويفكر فى أمرهم وحياتهم ليرأب ما بها من صدع ، ويسد ما بها من ثلمات ، ويخفف ما هى عليه من بؤس وما تعانىه من ألم ، هو المرشح الذى تقدمت به صفاته للرئاسة ، فليس الرئيس سيداً يأمر وينهى ويتحكم ويتملك ، ولكن الرئيس الحق هو الذى يحسن القيام على شئون مرءوسيه ولذلك شاع بين العرب هذا المثل المشهور «سيد القوم خادمهم» .

وإن سيادة الأقوام فاعلم لها صُعداء مطلبها طويل
أترجو أن تسود ولن تغنى وكيف يسود ذو الدعة البخيل
فالرئيس إذاً يجب أن يكون فتىً خُراً كريماً . وقد مر بنا تعريف صاحب الأساس للفتوة بأنها الحرية والسخاء . ولعله غنى تلك الحرية الخلقية التى ومحنهاها ، فالبيئة الصحراوية المجذبة هى التى رشحت الكرماء للسيادة والرئاسة . ثم إن الصحراء العربية مترامية الأطراف ، والسفر فيها شاق عسير ، ودروبها مضلة ، ومهما تزود المسافر فى طريقه ، فهو عرضة لأن ينفذ زاده من طعام وماء ، فإذا صُدت فى وجهه أحياء العرب التى يأوى إليها هلاك فى هذه القيافى ، وانقطع به السبيل .

وإذا لم يعمل الكرماء على نخدة هؤلاء الذين امنحوا بنفاد زادهم ، أو ضلوا طريقهم وتقطعت بهم السبل ، تعطت الحياة فى الصحراء ، وكسدت تجارتها ، وورد الناس صيفاً فى معيشتهم ، لأن كثيراً من لبسهم ومأكلهم

(1) Anthropology. by R. R. Marett, p. 241.

وزيتهم ، وآلات قتالهم يجلبها التجار من خارج الجزيرة ، كما أن فضل ما ينتجونه من
قبر وتمر وغيرها يباع في البلدان المجاورة . فمن مصلحتهم العامة تيسير السبل على
هؤلاء الذين يعبرون الصحراء فرادى وجماعات ، حتى لا يهلكوا جوعاً . ولقد عبرت
غنية بنت عفيف أم حاتم الطائي في ردها على من لامها على كرمها عن هذا المعنى ،
وهو أنها ذقت الجوع مرة فآلت على نفسها ألا ترد بعد اليوم جائعاً بقولها :

لعمرك قديماً عضنى الجوع عضه فآليت ألا أمنع الدهرَ جائعاً
فقولاً لهذا اللأثمى اليوم أعفنى وإن أنت لم تفعل فعضى الأصابع

هذا وقد كثرت الحروب بين العرب في سبيل العيش ، فاختلّفوا على المرعى
والماء ، وزادت حرارة الصحراء في حدة انقاعهم ، واستجابتهم لدواعي القتال ؛
ولذلك تراهم مغيرين أو مغاراً عليهم . وفي الغارات تتعرض نعمهم للنهب ،
فيفقدون بذلك المورد الذي يقوم بأودهم ، وينكبون في مقومات حياتهم ، فإن
لم يسرع الكرماء لإصلاح حالهم تعرضوا للهلاك المبين .

ويظهر فضل الأسخياء من ذوى اليسار عند طول الحرب ، واستداد الضائقة
بالمتحاربين حتى يملوا القتال ، ولا يدفعهم إلى الاستمرار فيها سوى اللحاج
والدود ، هالك يتقدم أحواد الحى وعقلاؤهم فيصحون ذات البين ، ويتحصون
ديات القتلى بالغة ما بأت حتى يرضى الفريقان ، وتحتن ندمه . وبصبح حال
القبيلتين بعد أن أفسدتها الحرب .

كل هذه الأسباب جعلت العرب يشيدون بكرمه ، ويخفون عليه
برود الحمد والنساء موشاة مفوفة ، وصار من يعمل به التقي عربى أن يكسب
هذا الحمد وهذا النساء .

لقد كان الكرم أول الأمر قانوناً فرضته طبيعة الصحراء . ثم صار سجية متأصلة فيهم . وفضيلة من الفضائل السامية التي تصدر عن تفكير سليم ، وتوضع في موضعها المناسب . قال : أكرم بن صيفي في حكمه :

« خير السخاء ما وافق الحاجة وخير العفو ما كان بعد المقدرة »

فليس كرمهم سفياً وخرقاً ، أو إسرافاً ، وإنما هو البذل في الوقت الملائم للشخص المحتاج إليه ، في الظرف الملائم . وهذه هي الفضيلة التامة ، وهي وسط بين قيصتين كما عرفها أرسطو ، فالكرم وسط بين البخل والإسراف ، ولا تكون فضيلة إلا إذا صدرت عن تفكير واختيار ووضعت في موضعها الملائم لها^(١) .

لقد كان الكرماء يجودون ، وكان المعتفون والضيغان يثنون عليهم ، ويسجلون هذا الكرم في أشعارهم ، وأهون بزاد يقدم للمحتاجين والعائنين ومن انقطع بهم السبيل ، أو نكبهم الدهر بعد ميسرة ، أو أصابتهم محنة السماء وجذب الأرض إذا كان جزاؤه مدحاً يخلد الذكر ، ويرفع الاسم ، ويذيع الشهرة ، ويعلى في المنزلة ، ويبوى صاحبه ذروة الشرف والرئاسة ، على حد قول شاعرهم :

فأوسعني حداً وأوسعنه قرىً وأرخص بحمدٍ كان كاسبه الأكلُ
ومن الضيعى أن البخیل الذي يرد قاصده ، وهو لن يلجأ إليه إلا مضطراً ،

(١) روح History of Ethics. by Sidgwick. p. 61 and The Nicomachean. Ethics. Aristotle's Ethics p. 34—26.

لن يسلم من لسانه وسيكون بخله ألدوة تشيع بين العرب ، فيعرفون أنه خرج على القانون الفطري الذي فيه نجاتهم وحياتهم . ولذلك كانوا يتقون هذا النذم ما استطاعوا إليه سبيلا حتى وإن باتوا على الطوى ، وقدموا آخر ما عندهم لضيفهم ، كما قال أحدهم :

وعرضى أبقي ما أدرت ذخيرةً وبطنى أطويه كلى ردائيا
أو كما قال عمرو بن الأهتم

وكل كرم يتقى النذم بالقرى وللحق بين الصالحين طريق
لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها ولكن أخلاق الرجال تضيق
وليس للمال في ذاته غرضا يهدفون إليه إذا لم يُعن صاحبه على الكرم ، وإغاثة الملهوف ، وكسب الحمد ، واتقاء المذمة ، وحماية العرض من أن يلوكه الناس حين يصفونه بالبخل والكزازة . كما قال حسان بن ثابت :

أصون عرضى بمالى لا أدنسه لا بارك الله بعد العرض فى المال
أحتال للمال إن أودى فأكسبه ولست للعرض إن أودى بمحتال^(١)
أو كما قال الآخر :

أجلك قوم حيث صرت إلى الغنى وكل غنى فى القلوب جليل
وليس انعى لا غنى زين المتى غنىة يقرى أو غداة ينير
وكثيراً ما لامهم بساومهم على إسرفهم فى نكرم ، ويوتهم فى حاد إلى ما يبذره للضيوف ، ولقد رد هؤلاء الأسخياء على ستم من غلات المال فى

(١) أودى : ذهب ، أى هو يستطيع استرجاع المال منه وسكده ، وسكه لا يسترجع العرض ، إذا طعن فيه وشاع بين الناس بخله .

سبيل الضيف — وإن هلك العيال — مفخرة تخلد الإنسان . أما البخل والشح وكرازة اليد فعارٌ أى عار . وليس للمال بمخلد صاحبه إذا هو شح به .

ألا بَكَرتِ مىّ علىّ تلومنى تقول ألا أهلك من أنت عائله
ذرىنى فإن البخل لا يُخلدُ الفتى ولا يُهلكُ المعروف من هو قاعله
ويقول آخر لأمه ، وقد عاتبته على جوده :

أرىنى جواداً مات هزلاً لعلىّ أرى ما ترينَ أو بخيلاً مُخلداً
ويقول ثالث ، وقد عدله أهله على كرمه :

بكر العواذل بالسّوادِ يلغنى جهلاً يقنن : ألا ترى ما تصنع ؟
أقنيتَ مالك فى السّفاه وإنما أمرُ السفاهة ما أمرُك أجمع
إلى أن يقول :

لتنوبَ نائباً فتعلم أننى ثمنٌ يُغرّ على الثناء فيُخدعُ
إنى مُتّسم ما ملكتُ فجاعلُ أجرأ لآخرة ودنيا تنفع
ومن أحسن ما قيل فى هذا الموضوع قول قيس بن الخطيم ، وقد بين أن
الحرص لا يغنى الإنسان ، بل إن الجود قد يكون سبيلاً للغنى ، فينمو المال
ويزداد ، وإن الغنى غنى النفس وإن كان صاحبها فقيراً ، وأن فقر النفس شقاء
لصاحبه ولو كان ثرياً :

ولا يُعطى الحريصُ غنىّ لحرص وقد ينمى على الجود الثراء
غنىّ النفس ما عمّرت غنىّ وفقرُ النفس ما عمّرت شقاء
وليس دافع ذا البخل مالٌ ولا مُزّر بصاحبه السّخاء

وقد كانوا يحودون لأهم يلتذون بالجود ، وصنع المعروف ، ويرون فى

الكرم لئلا لذاته ، بغض النظر عن الثناء والحمد والذكر الحسن ، وذلك
— طبعاً — حين يصير الكرم عادة وجيلة لا يستطيع صاحبه إلا أن يكون
كريماً ، على حد قول حاتم الطائي :

وقائلة أهلك بالجد مالنا ونفسك حتى ضرت نفسك جودها
قلت دعيني إنما تلك عادتي لكل كريم عادة يستعيدنها
أو على حد قول الآخر :

ولم أر كالمعروف أمّا مذاقه فخلو ، وأمّا وجهه فجميل
ولا ريب أن شعور العربي باللذة والسعادة حين يعطى ، أو يقرب ضيفه ،
ويزيل ما به من وحشة ، ويطرد ما ألم به من مسغبة وجهد ، يدل على أن عادة
الكرم قد تأصلت في نفسه ، وأنه لا يجود أداء لواجب ، أو إطاعة لقانون ،
أو خوفاً من قدح ، أو طمعاً في محبة ، وإنما يجود لأن الجود يشبع في نفسه
رغبة ، ويدخل عليها مسرة . وهذه هي الغاية القصوى في تربية الفضيلة ،
وناهيك بالكرم فضيلة اجتماعية ، تحتل الشرائع والقوانين على حمل الناس
عليها ، وتعويدهم إياها ، تارة بالزكاة ، وأخرى بالضرائب حرصاً على منفعة
المجموع ، وإيجاد مجتمع يسوده الرضا والهناء ، حين يشعر الفقير أنه موضع
عناية الثرى ، وأنه يدفع بعض منه ليواسيه ويبره ، ويدأبه ويعمه ، وحين
يشعر الغنى أنه أدى بعض ما يجب عليه نحو أخيه في إنسانية والوطن .
وكثيراً ما احتال الأغنياء على التهرب من دفع الزكاة أو الصرية ، لأن
نفوسهم لم تعمر بعد بهذه لأخوة الإنسانية ، وقد ثبتت فيهم النزعة الإنسانية
أو الوطنية .

أمّا هذا العربي ربيب الصحراء فقد وصل إلى ما تطمح إليه اليوم أرقى المجتمعات البشرية ، وتجده هدفًا عزيز المنال في ذلك العالم المادى ، على الرغم من سطوة القانون وعزته . لقد كان لبعض هؤلاء الأجواد من العرب فلسفة خاصة في الكرم يردّون بها على من يلومهم ويصدرون عنها في كل أعمالهم ، فهم يحودون عن فكرة وعقيدة ؛ هذه الفكرة هي أن الرجل إذا كزّت يده في حياته ، واكتنز المال ، فلن يأخذ معه في قبره منه شيئًا ، بل سيذهب إلى القبر صفر الكف ، وأن ماله سيقتسمه وارثوه من بعده ، وقد يسعى أحد ورثته لا كتساب الحمد بالبذل والعطاء ، بينما هو لم يكسب في حياته إلاّ المذمة ، وإهانة العرض ، فهو يشقى في جمع المال ؛ لينال غيره الشرف وحسن الأحدثوة وذلك نهاية الحق في نظرهم .

وعلى الرغم من أن هذه الفكرة غير بعيدة النور ، بل هي مما يصل إليه كل إنسان بالغًا ما بلغ من العلم . إلاّ أن جمهرة الناس لا يهتمون بها ، وتطلبهم على تصرف شئونهم في الحياة أمور أخرى ، تنسيهم في غمرة المعترك الديوى وجهادهم فيه ساعة الموت ، ومصيرهم بعد الفناء وترك الدنيا ، فلا يزدادون إلا كزازة . ومنهم من يفتن لهذه الفكرة ولكن يكون لها في نفسه أثر عكسى ، فيكب على اللذات المهلكة ، ويبعثر ماله ذات اليمين وذات الشمال ، كما فعل طريقة بن العبد حيث يقول :

وما زال تشرابي الخمر ولذتي وييمى وإفائق طريقي ومُتَلَدِي
إلى أن تحامتنى العشيرة كلها وأُفَرِدْتُ لإفراد البعير المعبد^(١)

ألا أيُّ هذا اللأئى أحضرَ الوغى وأن أشهد اللذاتِ هل أمت مُخلدى
فإن كنتَ لا تسطيعُ دفعَ منيتى فدعنى أبادرُها بما ملكتَ يدي
أما منطقُ الأجواد من فتیان العرب فهو المنطقُ السليم ، وهو خير ما يدل
على رقيهم الخلقى ، ونظرتهم الصائبة في الحياة . استمع إلى حاتم الطائي يقرر
هذه الفكرة في وضوح وقوة :

فنفسك أكرمها فإنك إن تهين عليكَ فلن تلقى مدى الدهر مُكرِما
أهنُ للذى تهوى التلادَ فإنه إذا متَّ كان المالُ تنهباً مُقسِما
ولا تشقینْ فيه فيسعدَ وارثُ به حين تغشى أغبر الجوف مظالمنا
يقسمه غنما ويشرى كرامة وقد صرّفتَ في خط من الأرض أعظما
قليلاً به ما يحمدُ ذكَّ وارث إذا نال مما كنتَ تجمع مغنما
وقد كرر هذا المعنى في غير هذه القصيدة بقوله :

أماوى لا يُغنى الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوماً وضاً بها الصدرُ
أماوى إن يُصبح صدای بقررة من الأرض لا مالا لدى ولا خمرُ
رعى أن ما أنفتُ لم يك ضرفى وأن يدي مما بخلتُ به صفرُ
هذا وقد بلغ العرب في الكرم غاية لم تصل إليها أمة من الأمم قديماً
وحديثاً ، فإذا أعطوا أعطوا على النديه ، وأسرعوا في البذل بدون تلوم .
أو تسويف ، أو بذل وعود ، ولو لم يعرف السائل ، ويحتقرون ما منحوا
ولو استكثره طالب الرشد ، وفي ذاك يقول شعرهم مدحاً حتى سن هؤلاء الأسخياء :
قد كنتَ تعطينى الجزيلَ بدهة وأنتَ استكترتُ من ذاك حافر

ويقول زهير بن عروة المازني :

فَنعمَ بنو العم والأقربون لدى حُطْمَةِ الزمن المنحل^(١)
ونعم المواسون في النائبا ت للجار والمُعْتَفَى الرَّمْل^(٢)
ونعم الحماة الكفاة العظيم إذا غائظ الأسر لم يُحَلَّل
ميامين صُبْرٌ لدى المعضلات على موجع الحدث المعضل
مباذيل عفواً جزيل العطاء إذا فضلة الزاد لم تُبَذَّل
هم سبقوا يوم جرى الكرام ذوى السبق في الزمن الأول

بل كنت ترى أحدهم يَبْشُ وَيَسْرُ ، ويتهلل وجهه إذا جاءه من يطلب
منه حاجة ، كأنما هو الذي أصابه المعروف ، لا الذي أعطاه ، على حد قوله
زهير بن أبي سلمى في هرم بن سنان الأرمي :

وأبيضَ فياض يده غمامة على مُعْتَفِيهِ ما تَعَبُ فواضله
تراه إذا ما جثته متهللاً كأملك عطيه الذي أنت سائله
أو قول الآخر :

وإملك لا تدري إذا جاء سائل أنت بما تعطيه أم هو أسعد
ولعل مبعث هذه المسرة ، أن الفتى العربى يشعر — حين يقصد الناس
رفده — أنه صار ركناً مكباً من أركان المجتمع في القبيلة ، أو في أحياء العرب ،
يلجأ إليه الرمالون والضعفاء وطلاب الحاحات ، وأنه سائر في طريق الحد الذي
يوصله إلى سيادة قومه ورؤاستهم ، فإذا وصل إلى تلك المنزلة حافظ عليها

(١) حطمه : يتبع الماء وصمها وسكون الطاء : السنة الشديدة .

(٢) الرَّمْل : صلب العطاء ، والرمل : من لا زاد عنده .

حما وسعه جهده وماله بالبذل وإرضاء الناس ، فيجعل الكل ، وينغيث الملهوف
 ويفك العاني ، ويطعم الفقير ، وينصف المظلوم . ذلك لأن السيادة لم تكن
 مبنية على الغلبة والقهر والاستبداد ، وإنما كان منشؤها الاحترام والإجلال ،
 لما امتاز به الرئيس من صفات دفعته إلى الصدارة في مجتمعه هذا . ومن أقوى
 هذه الصفات الكرم ، لأن حاجة القوم إليه أشد ، فهم ينزلون الرئيس منزلة
 الوالد الذي يحو عليهم ، ويرعى شئونهم .

فلهذا كله كانوا يرحبون بالضيف ، ويسعدون للقياء . كانوا ييشون
 للضيف أحيانا وهم يعلمون جد العلم أنهم في ضيق وعسر ، وأن ليس في استطاعتهم
 تقديم ما يتكافأ مع أريحياتهم ، ولكن البشر والإيناس في عرفهم يذهب الوحشة ،
 بل هو بعض الفرى ، لأن الأمر ليس زاداً يؤكل لحسب ، وإنما هو إلتعار
 الضيف في هذه البادية الواسعة بأنه نزل بين أهله . وقد يكون أهله في مسيرة
 فيقدمون له طعاماً طيباً ، وقد يكونون في معسرة فيقدمون له ما عندهم ، وقد قال
 حاتم طيء في هذا :

ضاحك ضيفي قبل إزال رحله ويُنصب عدى والمحل حديب
 وما الخصب للأضياف أن يكتر القرى ولكننا وجه الكرم حصيب
 يترام في غاية الأسف والهم ولألا إذا نزل بهم صيف ، وليس عندهم
 ما يقدمونه ، . . . حدث الحضيّة مع صيته الذي سحله في قصصه المشهورة
 نقي مطلبها :

طوى ثلاث عاصب العان مُرَمِل يبر . . . عرب . . . ما كن رسماً
 أربع ديس على تَصص نكرم فيه شع ن الحضيّة . وتولاده . يسوقو

طعاماً منذ ثلاث ليال ، ولم يعرفوا للبر مذخاقوا طعاماً ، وقد عصب بطنه من الجوع ، وهو يبدياء موحشة ليس بها أنيس ، فإنه حين رأى شبح الضيف من بعيد كثرهته وحزنه ، ولم يعد يفكر في نفسه وأولاده ، وكيف يحتال لهم ، بل أخذ يفكر في ضيفه هذا ، ويناحي ربه الله يرزقه بما يقرى به ضيفه .:

رأى شبيحاً وسط الظلام فراحه فلما رأى ضيفاً تشمر واهتما
وقال : هيا رباه ضيف ولا قرى بحقك لا تحرمه تاليلة الأحما
بل أعجب من موقف الخطيئة موقف ابنه على حداثة سنه ، وما به من سغب ونصب حيث قال :

وقال ابنه لما رآه بمخيرة أيا أبتى اذبحنى ويسر له طعام
ولا تعتذر بالعدم عل الذى ترى يظن لنا مالا فيوسعنا ذما
ولقد تعجب بعد هذا لموقف الخطيئة ، فإنه هم بذبح ابنه إكراماً لضيفه لولا أن رأى قطعاً من الأذن الوحشية عن بعد كأنما أرسلتها العناية الإلهية فداءً للصبي الكريم :

فروى قليلاً ثم أحجم برهة وإن هو لم يذبح فتاه فقد هتما
وبينا هما عنت على البعد عانة قد انتظمت من خلف مسحلها نظماً^(١)
فانظر إلى أى حد بلغوا فى العناية بالضيف ، وتقديته على الأهل والولد ، وذلك لأنه لا يأتهم إلا وهو محتاج قد عضه الجوع ، واشتد به السغب ، واقطعت به السيل ، وأولادهم وأهلهم يقدرون ما هم فيه من ضنك وضيق

(١) العناية : القطيع من حر الوحش . والمحل : حمار الوحش .

يد ، لكن هذا الغريب لا يعرف أمرهم على حقيقته ، وقد يظن بهم كزازة فيوسعهم ذمًا ، لأنهم انتهكوا قانون الصحراء ، وواجب الرّفد والضيافة .

وقصة (١) حاتم الطائي مع أولاده الذين تركهم ينامون ، وهم يتضاغون من الجوع ، وحديثه مع امرأته يعاظمها كي تنام ، ثم مجيء جارتته تشكو له ما وصلت إليه وأولادها من المسبغة ، وذبحه فرسه ، وإطعامه الحى جميعاً ، مع معزته لفرسه ، واحتياجه إليها ؛ إكراماً لهذه الجارة وأولادها ، وتركه بنيه وزوجته بدون طعام . بل تركه نفسه ، وعدم مسّه شيئاً مما قدمه للحى — لدليل على هذا الإيثار المعجيب الذى لا نرى له ضرباً إلا بين هؤلاء العرب الذين عاشوا فى الصحراء ؛ فعلتهم كيف يميّتون غرائز الأثرة ، وحب التملك ، وحب البقاء .

ولا ريب أن مجتمعاً تسوده هذه الروح ، ويوجد فيه أمثال هؤلاء الكرماء الذين يقدرّون واحب الإنسان تحاء أخيه الإنسان ، ويمدون للمعوزين والمحتاجين والمعدمين يد انساعدة بدافع نفسى ، ووازع إنسانى ، ويصدرون عن طبيعة خيرة ، ونفوسٍ تأصل فيها النبيل . لهو مجتمع جدير بان يسود . وتقدير : « إن العرب جميعاً أعلنوا الحرب على الفاقة والعوز . شكوا المحتجون أمرهم لذوى اليسار والسعة فطاردهم هؤلاء الفقراء ، وأمضوهم وابلاً من سهم كرمهم حتى ركم أمامهم طائلاً لرحمة ، وردوه على عقبيه . بعد أن كسوه بالذهب والحرير ، واستلوا من صدره البغصاء والخسء ، فصا له يهيج بالمدح المستعجب ، والثناء العطر (٢) » .

(١) القصة فى المقد الفريد ج ١

Wa yf Ghali, Tradition Chevaleresque des Arabes. p. 231. (٢)

كان الأجواد الموسرون إذا أعطوا أعطوا غداً لا يؤدّون ، ولا ينظرون
للمستقبل ولا يفكرون في العواقب ، فلا يبقون على ما بأيديهم . استمع إلى
الناطقة الجعدي يمدح فتى كريماً :

فتى كملت خيراته غير أنه جواد فما يبقى من المال باقياً
واستمع إلى آخر كلما أثرى جاد بماله ، ثم هو يشكو من أن ماله يقصر عن نداءه .
إني وإن لم ينل مالي مدى خلقي فياض ما ملكت كفاي من مال
لا أحبس المال إلا ريثاً أثلفه ولا تغيرني حال إلى حال
واستمع إلى آخر يمدح فتى كريماً كلما أثرى تخرق ، وأتلف ماله في الجود
فتى إن هو استغنى تخرق في الغنى وإن قل مال لم يضع متنه الفقر
بل إن أحدهم ليطالب المال حتى ينفقه في سبيل الكرم ، ويكتسب به
حسن الأحدثه :

كريم رأى الإقتار عاراً فلم يزل أبا طلب للمال حتى تمّ ولا
فلما أفاد المال عاد بفضلته على كل من يرجو جداه مؤملاً
وقال الآخر :

دعيني للغنى أسمى فإني رأيت الناس شرهم البخيل
وليس معنى هذا أن كل الكرماء كانوا من ذوى الغنى واليسار ، ولكن
الكريم عندهم هو الذى يحود ، وما عنده قليل ، ويسخو بكل ما يملك وهو
في أشد الحاجة إليه . وهذا أكبر دليل على تأصل صفة الكرم في نفسه ؛ إذ
تتناهى غريزتان قويتان ، حب البقاء وحب التملك ، وهو بانتصار كرمه على

هاتين الغريزتين العائيتين اللتين لهما أكبر الأثر في حياة الإنسانية ، يبرهن على سمو نفس ، وقوة عزيمة ، وعلى أنه رجل فضيلة من الطراز الأول . ولهذا ضربوا المثل بكرم هؤلاء العرب الجفاة في صحرائهم ، وتضاءلت أعمال الخلفاء والموسرين فيما بعد أمام كرمهم ؛ لأنهم كانوا يحدون والزاد قليل ، والمال معدوم ، وليسوا بأرباب سلطان وصولان ، ولقد قال أحدهم :

جُهد المقلّ إذا أعطاك نائله ومكثرت في الغنى سيّان في الجود
لا ، بل إن جهد المقل في نظر النصفين خير من مكثر الغنى ؛ لأن الأخير إنما يعطى من فضل ماله ، يعطى وهو يعلم أنه لن يموت مستغبةً وجوعاً ، ولهذا قال للقمع الكندى فأجاد :

ليس العطاء من التّضول سماحةً حتى تجود وما لديك قليل
وقال آخر :

سأقدح من قدرى صيباً لجارتى وإن كان ما فيها كفافاً على أهلى^(١)
إذا أنت لم تُشرك رفيقك في الذى يكون قليلاً لم تشركه في الفضل
ومن سمات كرمهم أنهم لا يمنون به ، ولا يذكرون صنيعهم ، ولا يفخمون به ، بل يحقرونه ، وهم يعلمون أن المن يطل جميل ما فعلوا ، ويشوه الخير الذى قدموا ، ومن أمثالهم : « أحمى معروفك بإمارة ذكره ، وعظمه بالتصغير له^(٢) » ولا يلتبس عليك ما تسمع من نخارهم بكرمهم ، وعدم منهم على من كرموه ،

(١) سأقدح : سأعرف وأعطى بالقدح . والكفاف : ما يكف الإنسان عن السؤال
ويكون على قدر الحاجة لا يزيد ولا ينقص .
(٢) العقد الفريد ص ٦٥ ج ١ .

فهم يفتخرون بالكرم من حيث هو صفة ، ولكنك لا تسمع منهم أبداً أنهم
أكرموا فلاناً ، أو قدموا يد المساعدة لفلان ، بل يدعون فعلهم يعلن عن
نفسه ، ويتفنى به ضيوفهم ، وأسرى أياديهم . يفتخرون بالكرم عامة ليخثوا
غيرهم على مكارم الأخلاق .

ولولا خلال سَنَها الشعر ما درى بناءُ العلا من أين تأتي المكارم
وليبرهنوا على أنهم سادة ، ولكن لا يفسدون صالح أعمالهم بذكر
حوادث معينة :

المتعمون وما منوا على أحد يوماً بنعمى ولو منوا لما مانوا^(١)

وقال ربيعة بن مقروم يمدح مسعود بن سالم بن أبي سلمى :

وقد سمعتُ بقوم يُحمدون فلم أسمع بمثلك لا حلاً ولا وجوداً

ولا عفاً ولا صبراً لناثبةً وما أبى عنك الباطل البیدا

لا حلك الحلم موجود عليه ولا يُلنى عطاؤك في الأفوام منكوداً

وقال الخطيئة :

أولئك قوم إن بنوا أحسنوا البنا وإن عاهدوا أوفوا وإن عقدوا شدوا

وإن أنعموا لا كدروها ولا كدثرا وإن أنعموا لا كدروها ولا كدثرا

وقال ذو الإصبع العدواني :

إني لعمرك ما بابى بذى غلق على الصديق ، ولا خيري بمنون

ولا اسانى على الأدنى بمنطلق بالمنكرات ولا فتكى بأمون

لا تخرج النفس منى غير مُغضبة ولا ألين لمن لا يبتغى لى

(١) مانر : كذبوا .

ولقد قالوا : « للمعروف خصال ثلاث : تعجيله ، وتيسيره ، وتستيره ، فمن أخل بواحدة فقد بنحس المعروف حقه ، وسقط عنه شكره ^(١) » .

وعلى من يمنون ، وهم في كثير من الأحيان لا يعرفون الطارق الغريب ، الذي يدلف إلى أبياتهم طالباً الرِّقْد ، لا يعرفون له اسماً ولا نسباً ؟ وكيف يمنون وهم مُعرِّضون لأن يكونوا في مثل موقفه هذا يوماً من الأيام ، حين تجذب الأرض ، أو تطوح بهم القياfi والفقار إبان الرِّحلة ؟ :

وَمُسْتَبِحَ بَاتِ الْعَدَى يَسْتَبِيهُ إِلَى كُلِّ صَوْتٍ ، فهو في الرحل جانح ^(٢)
فقلت لأهلي : ما بُغام مطيئة وسارٍ أضافته الكلاب النواجح ^(٣)
فقالوا : غريبٌ طارقٌ طَوَّحَتْ به متون القياfi والخطوب الطوارح
وهو يضيفهم ولا يعرفهم ، ويدعونه أباهم ، وليس بينه وبينهم نسب ، ولا يحاول أن يعرفهم ، وإنما هو يؤدي الواجب بشهامة وأريحية ؛ لأنه لا ينتظر شكراً على كرمه . أو لا ينتظر منهم في مستقبل الأيام جزاء . وإن كانوا سيحفظون له هذه اليد ، وسيتغنون بسخائه . وفي ذلك يقول مُرَّةُ ابن محكان التميمي السَّعْدِي :

أَدْعَى أَبَاهُمْ ، وَلَمْ أَقْرِفْ بِمِهِمْ وَقَدْ عَمَرْتُ وَلَمْ أَعْرِفْ لَهُمْ نَسَباً

(١) المقد الفريد ج ١ ص ٦٥ .

(٢) المستبج : من يطلب نباح الكلب يستهدي به في طريقه . ويستبيبه : من يقيه إذا ضل . والجانح . المائل :

(٣) البغام : مد الصوت بالحنين ، وأضافته الكلاب : جاوبته على نباحه بنباح مثله كدعوه لأن يقدم .

ويقول آخر :

حَضَاتُ لَهُ نَارِي ، فَأَبْصِرْ ضَوْءَهَا وَمَا كَادَ لَوْلَا حَضَاةُ النَّارِ يُبْصِرُ^(١)
دَعَتْهُ بَغِيرِ اسْمِ هُلُمٍّ إِلَى الْقَرْيِ فَاسْرَى يَبُوعُ الْأَرْضَ وَالنَّارُ تُزْهِرُ^(٢)

* * *

ومن مظاهر هذه الكرم :

١ - أنهم كانوا يتلطفون مع الضيف ، ويهشون له ويهشون ، وينزلونه منزلة عيالهم وأولادهم ، وماهيك بما للعيال والأولاد من منزلة في القلوب ، وقد قالوا فيهم :

إِنَّمَا أَوْلَادُهَا يَبْنِي أَكْبَادُهَا تَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ

استمع إلى جابر بن حيان يقول :

وَمَا وَجَدَ الْأَضْيَافُ فِيهَا يَنْوِبُهُمْ لَمْ عِنْدَ عِيَالِ الرِّمَانِ أَبَا مَثَلِي

أو استمع إلى الخطيئة ، وهو من هو خشونة وبدائة ، وجفاء طبع :

فَبَاتَ أَبُوهُمْ مِنْ بَشَاتِهِ أَبَا لَضَيْفِهِمْ وَالْأُمُّ مِنْ بَشَرِهَا أُمًّا

بل ذهبوا إلى أعد من هذا ، فأزّلوا أنفسهم من الصيف منزلة العبد من

السيد يتعب نفسه ويحدها في سبيل راحته ، والقيام بشئونه ، كما قال حاتم :

وَإِنِّي لَعَبْدُ الصَّيْفِ مَا دَامَ نَازِلًا وَمَا تَمِيمٌ لِي غَيْرُهَا تَشْبَهُ الْعَبْدَا

ببزل الضيف فلا بسئونه : من هو ؟ ومن أي البلاد آتى ؟ ولكن

سرعون لإغائته ، والقيام بحقه ، ويستعروه من أول وهلة أنه بين أهله ، وكان

(١) حَضَاتُ النَّارِ : وَنَشْرُهَا لِيَهْتَدِيَ بِهَا .

(٢) سَرَعَ الْأَرْضَ . يَتَطَهَّرُهَا فِي خُطَوَاتِ سَرِيعة .

بعيداً عنهم فقدم بعد غيبة ، وعلى طول اشتياق ، من كثرة إيناسهم ، ولطف
ترحابهم ، كما قال النمرى :

وداع دعا بعد الهدوء كأنما يقاتل أهوال السرى وتقاتله
فلما سمعت الصوت ناديتُ نحوه بصوت كريم أجدُّ حلو شمائله
فأبرزت نارى ، ثم أقتبتُ ضوءها وأخرجت كلبي ، وهو فى البيت داخله
وقلت له : أهلاً وسهلاً ومرحباً رَشَدَت ، ولم أقعد إليه أسائله

ولعلك تشعر بالسبب الذى حداهم للترحيب بمتل هؤلاء الضيوف ، والإسراع
فى نحدثهم من قول الشاعر : « كأنما يقاتل أهوال السرى وتقاتله » فقد كان
صوت الطارق ضعيفاً خافتاً ينبئ عن جهد وكلال ، وكأنه خارج من معركة
عنيفة ، يقاتل فيها الليل ووحشته ، وبرده ، وضلال الطريق ، ووحوش القلاة ،
ويقاتل فيها تعب الرحلة والإنحاد والالتهايم فى البيداء ، ولذلك كله وجب على من
سمع نداءه أن ينقذه ، ويقدم له ما يدخل الطمأنينة على قلبه ، ويريل وحشته ،
ومن عدم المروءة أن يعوقه عن الراحة بالجلوس إليه يسائله .

٣ — ومن مظاهر هذا الكرم أن العرب كانوا لا يبخلون على الضيف
بأعز شيء لديهم ، بل يعمدون إلى أسمن ناقة ، وكبره لحا ، وأكثرها تسحماً ،
ويسعرونها له .

فأعضضته الصوئلى سداً وحيرته بلاء ، وحير حيرته يُسَحِّر
فقد جمع هذا الفتى الكريم سيفه بعضُ صوب بوقه سداً ، وحيرته
بلاء ، وأحسنها نعمة ؛ ومن نعمة الناقة أن تكون كريمة لأواد ، عريرة
الأس ، سرعة السير .

ويقول مضرّس الربيع :

وإني لأدعو الضيف بالضوء بعدما كسى الأرض نضاحُ الجليد وجامده
لأكرمه إن الكرامة حقّه ومثلان عندي قرْبُه وتباعده
أيت أعشيه السديفَ وإني بما نال حتى يترك الحىّ حامده

إنه يسعى في سبيل الضيف ، ويحتذبه بناره ، التي يوقدها على الربوات ،
ليتهدى بها الضال ، ويأنس بها السارى ، في وقت أمحلت فيه الأرض ، وغطاها
الجليد ، ما بين نضاح ، ينزل رذاذاً لبرودة الهواء ، وجامد متماسك . إنه يدعوه
ليكرمه ، لأن الكرامة من حق هذا السارى في اليبداء ، والليل مظلم ، والريح قرّ ،
تَقِفُ منها الأعضاء وتيبس ، فهو أشد ما يكون حاجة إلى نار تدفئه ، وطعام
يغذيه ، وجليس يذهب وحشته ، وهو يقدم له السديف — أى شحم السنام —
وهو أطيب شيء في الناقة ، وإن اقترح الضيف شيئاً أعده له ؛ حتى يترك الحى
ولسانه يلهج بالحمد ، ويتغنى بالثناء ، سواء كان هذا الضيف من ذوى قرباه ،
أو ممن طوحت به القلوات لا يديه منه سب أو جوار .

٣ — ولما كان كثير من العرب كرماء ، ولقاؤهم حسناً ، سعى الأجواد
منهم في أن يتميزوا عن سواهم بجلب الضيفان ، لا ينتظرون حتى يطرف بيوتهم
طارق ، أو يناديهم غريب ، ويطلب رفدهم ابن سبيل ، بل يعملون على أن يدعوا
هؤلاء الضيوف بشتى الوسائل :

(١) فمن نار تُشَبّ على الرُّبِّي والجبال ليلاً ؛ ليعلم من تقطعت به السبل ،
وفقد زاده أن نـ : فرى وناراً ، وجايساً أنيساً ، ومبيتاً طيباً :

له نارٌ تُشَبُّ على يَفَاعٍ إذا النيرانُ أُكسبت القِنَاعُ
ولم يك أكثرَ الفتيانِ مالا ولكن كان أرحبهم ذِراعا

وهذا حاتم طيء يأمر غلامه يساراً أن يوقد النار على يَفَاعٍ من الأرض في الليلة
الباردة ، الشديدة الريح ، فإن جلبت النار ضعفاً فيسار حرّاً ؛ لقرح حاتم بضعفه :
أو قدّ فإن الليل ليلٌ قُرٌّ والريح يا واقد ربح صرٌّ (١)
علٌّ يرى نارك من يَمُرُّ إن جلبت ضعفاً فانت حرٌّ
وقد مرّ بنا غير مثل على هذه الوسيلة التي يحلبون بها الضيوف .

(ب) ومن كلب يعوّدونه أن ينبج للضيّان ؛ حتى يهتدوا بصوته ، فإذا
أقبلوا هتّ الكلبُ لهم وبشٌّ ، وتلقّاهم عن بُعدٍ بالترحاب . ولقد كانوا
يقلدون صوت الكلب ، فإذا ردّ عليهم تبعوا صوته وهم في ظلمة الليل الدامس
حتى يصلوا إلى بيوت الحى فيجدون القرى :

وَمُسْتَنبِحٍ تَسْكُشْطُ الرِّيحُ ثَوْبَهُ لَيْسَقَطَ عَنْهُ وَهُوَ بِالثَّوبِ مُعَصِّمٌ (٢)
عَوَى فِي سَوَادِ اللَّيْلِ بَعْدَ اعْتِسَافِهِ لَيْبِحُ كَلْبٍ ، أَوْ لَيْفَزَعُ نَوْمٍ (٣)
فَجَاوَبَهُ مَسَامِيعُ الصَّوْتِ لِلْقَرَى لَهُ عَدَدُ إِيْنِ الْمُهَبِّينِ مَضْعُ (٤)
بَكَدَ إِذَا مَا أَبْصَرَ الصَّيْفَ سَقْبَلَا يَكْمَهُ مِنْ حَبِّهِ وَهُوَ أَعْجَمُ

كانت هذه الكلاب نألف الضيوف ، فلا تزعجها ، بل تتودد لها ، ولم

(١) قر: بارد. وصر: شديد الدودة .

(٢) مستنبح: يطلب نباح الكلاب بتقليد أصواتها . تسكشط الريح ثوبه : تحاول

نزع ثوبه لشدتها . (٣) اعتسف الطريق : ض .

(٤) المهبين : الأضياف الذين يهب القوم لاقائهم .

يكن أصحابها بأقل منها حباً لهؤلاء الضيوف ، فلا يستلون من هم ، وإنما يرحبونهم أجمل ترحاب :
يُفْشُونَ حتى ما تهرُّ كلابهم لا يستلون عن السواد المفبل
وقال آخر :

ومستنجح تهوى مساقطُ رأسه إلى كل شخص فهو للسمع أضور^(١)
حيبٌ إلى كلب الكريم مُناخه بغيضٌ إلى الكوماء ، والكلب أبصر
إن الكلب يحب نزول الضيف ؛ لأنه سيال من فضل طعامه ، وأما
الناقة الكوماء ، العظيمة السنام ، فتبغض نزول الضيف ؛ لأنها ستُنَحَّرُ له ،
والكلب أبصر منها وأهدى سيلا .

وقد كانوا يُعزّون هذه الكلاب ؛ لأدائها هذه المهمة الشريفة لديهم ،
الأميرة عندهم ، وهي هداية الضيوف . استمع لرجل يوصي بكلبه ، ويطلب
أن يكرم بعد وفاته :

أوصيك خيراً به ، فإن له خلائقاً لا أزال أحـدّها
يدلُّ ضيفي علىّ في غسق الليـل إذا النار نام موقـدّها
ح - ومن ذلك أنهم إذا صنعوا زاداً أو طعاماً تلمسوا من يشاركهم فيه
على حد قول حاتم لا مرأته :

إذا ما صنعت الزاد فالتمسى له أكيلاً فإنني لست آكله وحدي
أخا طارقاً ، أو جار بيت فإني أخاف مَذَمَّاتِ الأحاديث من بعدى

(١) المساقط : ح مسقط أى السقوط ، يعنى يميل رأسه إلى كل شخص يقدره ، إنساناً
ليستجيبه إليه ، أى الطابق ، والأصوار : المائل .

(د) وكانوا يتعرضون للضيوف ، بأن ينصبوا خيامهم على قارعة الطريق ليراهم الراحل والغادي ، ويطرقها يسر كل عابر إن شاء ، كما قال طرفة بن العبد :
ولست بحلال التلاع محافةً ولكن متى يسترفد القوم أرفد
أو كما قال غيره :

أغشى الطريق بقبتي وروقيها وأحلّ في تسنر الرثي فأقيم
إن امرأً جعل الطريق لبيته طنبياً ، وأكر حقّة للثيم^(١)

فهو يضرب قننه على الطريق لينغشاها ذوو الحاحات ، وطلاب الضيافة ، وإن كان يقيم في تسنر من الأرض ، لأنه أطيب هواً وأصح للبدن ، ومن يتخذ الطريق موضعاً يضرب فيه خيمته ، ولا يؤدي حقّه من قري الأضياف فهو لثيم ، لأن الماس سبقصدوه فإذا ردّهم عرّضهم للخزي ، وذلك مستحق للذم ، إذ ظاهر بالكرم . وعن تميم الكرماء ، وهو ليس منهم .

(هـ) ومن "عرب من كان يصب لجفن أواسعة في عرض الطريق ، ويملأها طعماً طيباً ، ليأكل منها الدس . وكان عبد الله بن جردان أمير يفعل ذلك ، وفي الفاموس : « ورتد كان يحضر النبي صلى الله عليه وسلم ص . ، وكانت لعبد الله هذا حقه يأكل منها ثقاتهم و"أكب لعظمه ، ان كات - - - كل - - - ركب عني لغير . وسقط فيها يوماً حبي فعرت ومات^(٢) .

(١) التسنر : المرتفع من الأرض ، و - - - : جعل البيت . أنه جعل الطريق مكاناً حبل لبيت .
(٢) بلوغ الأرب ج ١ ص ٨٩ .

وفي غريب الحديث لابن قتيبة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
« كنت أستظل بظل جفنة عبد الله بن جُدعان صكة عتي »^(١) ، يعني
في الهاجرة ، وكان ابن جُدعان هذا يملأ جفنته ، ويدعو إليها الناس ، ليطلعوا
منها ، وقد مدحه أمية بن أبي الصلت بقوله :

له دافع بمكة مُشْمَعِلٌ وأحرُ فوق دارته ينادي
إلى رُدْحٍ من الشيزي ملاء كُبابَ البرِّ يلبكُ بالشهاد^(٢)

وقد لا ينتظرون من يأتي ملياً دعوتهم إلى هذه الجفان العظيمة التي
يضعونها على قارعة الطريق ، بل علموا أن بعض الناس متعفف ، يطوى بطنه
على الجوع طي الرداء ، ويعصب عليها حجرا ، ويقع في بيته لا يشارك الناس
في الولائم العامة ، فيذهب الأجواد إليه ، ويجدونهُ مُرْمِلاً^(٣) ، معدماً ،
فيخفون بجودهم حزنه ، ويفرجون ضيقه .

استمع إلى الهذيل بن مشجعة كيف يسعى إلى هذا الذي أثر أن يلزم
خباءه ، فيقتسم معه زاده ، وفي السنة المجدة ، التي تهلك الحرث والتسل يخلط
إبله الصحيحة بإبل غيره الجربي ؛ كرمًا منه وأريحية :

ومتى أجئه في الشدائد مُرْمِلاً ألقى الذي في مزودي بوعائه^(٤)

(١) سميت الهاجرة صكة عتي كما روى أبو حنيفة في الأنواء نسبة إلى رجل من
عدوان اسمه « عتي » وكان فقيه العرب في الجاهلية ، قدم مع قومه حاجاً في وقت شديد
الحر ، فقال لهم من أتى مكة هدأ في الظهيرة كان له أجر حجتين فصكوا الإبل .
(٢) المشمعل : الذبيط ، والرُدْح الواسعة . والشيزي : خشب كانت تصنع منه الجفان
والشهاد : الصل .

(٣) المرسل : القى قد فقد زاده .

(٤) للزود . وعاء الزاد .

وإذا تبعت الجلائف ما آما خلطت صيحجتنا إلى جربائه^(١)

واستمع كذلك إلى زُرَّة بن عمرو يقول :

وأرما تنوء على يديها من الضراء أو قصص الهزال^(٢)

خلطت بغمها سمنى فأضحت شريكة من يُعد من العيال^(٣)

إن الرجولة الحقة ، والبروة الكاملة ، وتأصل السخاء في نفوس فتيانهم وأجوادهم كانت تدعوا أحدهم إلى إثارة غيره بما يملك ، ولو كان في ذلك ضره ، وما أحسن أبيات عروة بن الورد العبسي التي يقول فيها :

أتهزأ مني أن سممت وأن ترى بوجهي شحوب الحق والحق جاهد^(٤)

وإني امرؤ عافى إنائي شريكه وأنت امرؤ عافى إنائك واحد^(٥)

أقسم جسي في جسوم كثيرة وأحسو قراح الماء والماء بارد^(٦)

فهو لفرط جوده يؤثر غيره على نفسه ، وقد أجهده القيام بحق سواه ، ومراعاة شئون الناس وإطعامهم ؛ حتى إنه ليقسم جسمة في جسوم كثيرة ،

(١) الجلائف : جارية وهي السنة المجدة الشديدة . وكانت الإبل تجرب لجوعها وإذا جربت لا تلد ، ولا قدر ابناً فيجوع صاحبها .

(٢) تنوء : تنهض بجهد ، وتعتمد على يديها من الضراء التي خلقها أو ذنوا موت منها .

(٣) سمنى : انهزول .

(٤) شحوب الحق : لأن اخي وتوفر الهمة في إقامته وأداء الحقوق هو السبب في شحوب جسمة وهزائه ؛ لذا يجوع ليضم سواه .

(٥) العافى : طالب المعروف ، شركة : خلق كثير : أى أنا امرؤ يقصد أنائي خفي كثير للطعام ، أما أنت فلا يقصد إقامتك أحد بل تأكل وحدك .

(٦) أقسم جسي : أى قوت جسي . والقراح : الماء الذي لا يخالطه غيره . والماء =

ويكتفى بحسو الماء القراح دون الغذاء إبان الشتاء ، مع أن الجسم في حاجة إلى ما يدفعه ؛ لأنه أعطى طعامه لغيره ، فأى نفس كانت نفس عروة !
ولا بدع إذا قال عبد الملك بن مروان^(١) ما كنت أحب أن أحداً من العرب ولدني إلا عروة بن الورد لقوله هذه الأبيات .

ومن أعجب ما روى عن جودهم قصة كعب بن مامة^(٢) الإيادي ، وقد كان في سفر مع رفقة له ، فضلوا الطريق ، ولم يبق معهم إلا قليل من الماء فصاروا يتقاسمون به بالحصاة ، يضعونها في الإناء ويصبون فوقها من الماء ما يغطيها حتى يعدلوا في قسمتهم ، فلما أراد كعب أن يشرب نصيبه رأى رفيقاً له في السفر من النمر بن قاسط يحدد إليه النظر كأنه يشتهي ما بيد كعب من الماء ، وقد عرف فيه الجود المفرط والسخاء للدرجة الإيثار ، فقال كعب لمن يقسم الماء : أعط أخاك النمرى ، ومضى يومه هذا بدون شرب ، يفتك به الظأ ، ويشوى حشاه ، فلما كان اليوم الثاني ، وأراد أن يشرب نصيبه ، فعل النمرى معه فعلته من أمس ، فأثره كعب على نفسه ، وقال لمن يقسم الماء : أعط أخاك النمرى ؛ ولما أراد القوم الرحيل عجز كعب عن القيام معهم ؛ إذ أضربه العطش وأقعده ، فقالوا : « يا كعب : قد قرب الماء ، فرد معنا فإنك ورءاد » ، ولكنه لم يستطع الجواب ، فعلموا أنه يحود بروحه في سبيل غيره ؛ حتى ضرب به المثل في الإيثار والجود ، فقال الشاعر :

كعبٌ وحاتم اللذان تقسما خطط العلى من طارف وتايد

== البارد كناية عن زمن الشتاء الذى تمس فيه الحاجة إلى الطعام .

(١) العقد الفريد ج ١ ص ٦٦ .

(٢) يروح الأرب ج ٦ ص ٨١ والعقد الفريد ج ١ ص ٨٣ .

هذا الذى خلف السحاب وملت ذا فى الجهد ميتة خضرم صنديد^(١)
 إن لا يكن فيها الشهيد ، قومه لا يسمعون به بألف شهيد
 وقال جرير يمدح عمر بن عبد العزيز :
 وما كعب بن مامة وابن سعدى بأجود منك يا عمر الجوادا
 وفى مثل كعب هذا يصدق قول الشاعر :

يجود بالنفس إن ضنّ الجواد بها والجود بالنفس أقصى غاية الجود
 و — ومن ذلك أن أثرياء العرب فى الجاهلية إذا رأوا قومهم قد مسهم
 الضر من شدة القحط ، وبرد الشتاء ، وندرة اللبن واللحم ، عمدوا إلى لب
 الميسر بالقدح على جزور ، ومن ربح منهم جعل أجزاء الجزور طعاماً لنوى الحاجة
 وأهل المسكنة . ولذلك افتخروا بالشاركة فى الميسر : لأنه وسيلة من وسائل
 الكرم ، وإطعام ذوى المسغبة ، ومن عضهم الفقر ، فكأهم الزمان ، ومن لا يسهم
 فى هذا ذم ، وكانوا يسموه برّما . وفى ذلك يقول متمم بن نويرة يرنى أخاه مالكا :
 ولا برّما تهذى النساء لغرسه إذا الفشع من برد الشتاء تقفعا^(٢)
 ويقول النابغة الذبياني مفتخراً :

عدلاً سألت نبي ذبيان ما حسبي إذا الدحان تفتّى الأشمط البرم^(٣)

(١) الخضرم : الكثير من كل شيء ، والخراد : المعاء ونسيد الخول ، والصنديد :
 العجاج أو القريب الكريم .

(٢) الفشع : الخلد اليابس ، وقته : صوت من شدة تزيج في الشتاء .

(٣) الخم الأشمط يذكر لأنه أجزع لبرد من شيب . ورم حمله شيء سكاذا ،
 أبلغ في التعبير عن شدة البرد وأجود في المعنى ، يقوى : لا يستحيى منه ، فيقضى عن الميسر
 فيه إطعام مقراء .

وهبت الريح من تلقاء ذى أرل^(١) تزجى مع الليل من ضرادها صيرما^(٢)
إلى آتم أيسارى وأمنحهم^(٣) متى الأيادى وأكسو الجفنة الأدماء^(٤)
ويقول العرنس في قوم من العرب :

هينون كينون أيسار ذوو كرم سواس مكرمة أبناء أيسار^(٥)
ويقول ليلى في معلقته :

وجزور أيسار دعوت لحفها بمغاليق متشابه أجسامها^(٦)
أدعو بهن لعافر أو مطلق^(٧) بذلت لجيران الجميع لحامها^(٨)
فالضيف والجار الجنيب كأنما هبطا تبالة نخصبا أعضامها^(٩)
ويقول آخر :

وإذا تعذرت السواعد والتوت جال المقدى وسطها المضبوح^(١٠)

(١) الصراد : شدة الرد أو السحاب لا ماء فيه ، وأرل : جبل يلاذ عطفان .
(٢) الأيسار : جيسر وهم المتقارون ، والياسر : الضارب بالقдах يقول : إن
نقص المتقارون أخذت ما بقي منهم فتممتهم ، ومتى الأيادى : أى أعطيهم نصيبين .
(٣) العرنس : أحد بنى بكر بن كلاب ، وسواس مكرمة . أى يروصون المسكارم
ويلون أمرها .

(٤) لحفها : لنحرها ، والمغاليق : القдах . ومتشابه أجسامها : كلها على قدر واحد
(٥) بهن : أى بهذه المغاليق والقдах . والعافر : الافة التى لا تلد ، والمطلق :
ذات الولد والعافر أسمن والمطلق أغلى ، واللحام : ج لحم .
(٦) الضيف : النازل غير المقيم ، والجار الخيب : أى الجار الذى لجأ إليهم ومثله
بمواضعهم ، ربالة اسم موضع كثير الحصب بالين : والمهضم : المطمئن من الأرض والجمع
الأعضام والمضبور .

(٧) السراع : عارى الان فى الضرع . إذا تمذر الابن لشدة القحط جال المقدى بهن
القدهح ، والمضبوح : أى صبح من أثر البار لأنه يقوم بها .

أغلى به رخوُ الإزارِ مُعَدِّلٌ فعدا يُمارُ له نَمٌّ مسفوح^(١)

ويقول متم بن نويرة :

إذا ابتدر القومُ القداحَ وأوقدت لهم نارُ أيسار كفى من تَضَجَّعًا^(٢)

ويقول العنوي :

إذا شهد الأيسارُ أو غاب بعضهم كفى الحى وضاحُ الجبين أريب^(٣)

هذا بعض ما عساه يقال في كرم اليد لدى عرب الجاهلية ، وكرم اليد أوضح صفت الفتوة ، وأكبر دليل على كفاءة الكريم لسيادة قومه وتزعمهم فهو يغيثهم إذا نكأهم الزمان . كأنه سيب السماء ، ويميلون عليه إذا دارت برءوسهم حوادث الأيام ، فأفقدتهم توازنهم ، كأنه الحصن الركين ؛ وهو يحنو عليهم في شقة ورقة وحذب كـ . يحنو الأب الرحيم على فلذات كبده ، والله در من قال يصف أخاه الفتي الكريم .

وكان أخى زعيمَ بني حُبَي وكل قبيلة هم زعيم

وكنت إذا الشدائد أرهقتني يقوم بها وتقع دأ قومه

(١) أغلى : أخذ به - بهاءاً كثيرة نكتة فوزه وتلك سمي المفدى لا يتكرر له من الفوز ، ورخو لإزار : كناية عن امتي لأن لإزار - فضلة يجرها ، ومعدى أي يعد ، كثيراً على الإتفاق . فعدا : أي تمدح يمار له هذه النكتة نكتة عبيها .

(٢) من تَضَجَّع من افتقار وه ياخذ ، أي : أخذ هو . في حتى تدمر ، والتضجع : استسكان والإعراض عن العمل .

(٣) راجع بلوغ الأرب ج ١ ص ١١١ وج ٢ ص ٢٢ وكتابات بشار والقدح لابن

قتيبة ص ٥٦ ، ومعجم البلدان لياقوت ج ١ ص ٢٨٢ .

وماك ما يقوله الخطيئة في ابن حصن :

فدى لابن حصن ما أريح فإنه ثمالُ اليتامى عصمة في المهالك
واستمع إلى عبد المسيح يصف ابن كلال :

نميلُ على جوانبه كأننا نميل إذا نميل على أينا
قلبه لنخبر حاله فنخبر منها كرمًا ولينا

وإذا كان الكرم سمة واضحة من سمات الفتوة قلما يكون الكريم
غير شجاع ، إذ الشجاعة والكرم متلازمان فالشجاع يقدم على الخطر مضحياً
بقوته بل بنفسه ، والكريم يضحي بهالة ، والنفس والمال أغلى ما يحرص
عليه الإنسان . وكثيراً ما تغنى الشراء بهاتين الخلتين مجتمعتين ، كما قال
عنتره :

وَلَمُوتٌ خَيْرٌ لِّلْفَتَى مِنْ حَيَاتِهِ	إذا لم يَثْب للأمر إلا بقائد
فَعَالَجَ جَسِيَّاتِ الْأُمُورِ وَلَا تَكُنْ	هَيْبَتِ الْفُؤَادِ هَيْبَةً لِلْوَثَادِ ^(١)
كُنْ حَاجَةً الْأَضْيَافِ حَتَّى يُرِيحَهَا	عَنْ الْحَى مَنَّا كُلُّ أَرْوَعٍ مَاجِدِ ^(٢)
تَرَاهُ بِتَفْرِيجِ الْأُمُورِ وَأَنَّهَا	لَمَّا نَالِ مِنْ مَعْرُوفِهَا غَيْرَ زَاهِدِ
وَأَيْسَ أَخُونَا عِنْدَ شَرِّ يَخْذِهِ	وَلَا عِنْدَ خَيْرِ إِنْ رَجَاهُ بِوَاحِدِ
إِذَا قِيلَ مَنْ لِمَعْضَلَاتِ أَجَابَهُ	عِظَامُ اللَّهِى مَنَا طَوَالِ السَّوَاعِدِ ^(٣)

(١) هَيْبَتِ الْفُؤَادِ : الضعيف .

(٢) أَرْوَعٍ : كريم .

(٣) لِمَنْ : أجزاله المعطية ، وطوال السواعد : كناية عن الكرم .

فَعَنْتَرَةُ يرى أن الفتى يجب أن يهب إلى الخير ملياً نداءه من تلقاء نفسه
لا أن يقوده قائد فإذا كان في حاجة إلى قائد يقوده للخير ، أو يدفعه إليه دفعا
قأولى له أن يموت .

وينصح عنترة الفتيان بمعالجة الأمور العظيمة ، حتى يتمرسوا بالحياة ،
وتعلمو همهم ، ويخطون في سبيل الشرف والسيادة خطوات تقربهم من النبوة ،
ويحذروهم من الخمول ، والاستكانة إلى اللهو ، والجلوس لدى النساء .

وأخذ يصف كيف يقوم الفتى الحق بشئون قومه ، فهو يتعهد ضيفان
الحى ، ويفرج الكرب ويهرع للمعضلات ، ويساعده في الشر والخير رجال
قبيلته ، فكلهم سيد شريف حتى إذا قيل : من للأمور الجسمية والشدائد ،
والسنوات المجذبة ؟ لبي النداء رجال عظام العطايا تندى أ كفهم بالخير .
واستمع إلى آخر يصف الكرم والشجاعة معا : (١)

يلقى السيوفَ بوجهه وبنحره ويقيمُ هامته مقامَ المنقر
ويقول للطرفِ اصطبر لِسْبَا القنا فَعَمَرْتُ رُكْنَ المجد إن لم تُعَقَّرْ (٢)
وإذا تأملَ شخصَ ضيفٍ مُقبلٍ متسربلِ أثوابِ عيشٍ أغبر
أوما إلى الكوماء هذا طارف نَحَرْتِى الأعداء إن لم تُنَحَرِ (٣)
وهذا آخر يصف فتى كريماً شجاعاً :

كريمٌ يَغْضُ الطرفَ فضلَ حياته ويَنزِرُ وُطَافَ أرماحِ دوائى

(١) أمالى ج ١ ص ٤٣ . (٢) المنقر : حوذة .
(٣) الطرف : الجواد : (٤) الكوماء : ساحة سينة .

وكالسيف إن لا يَنْتَه لان متنه وحداه إن خاشنته خشنان
وقد أبدع سُليُّ بن ربيعة إذ وصف نفسه بصفات الفتوة مجتمعة في قوله (١)
مخاطب امرأته :

تربتُ يداكِ وهل رأيت لقومه	مثلى على يُسرى وحين تَعَلَّتِي (٢)
رجلا إذا ما النائباتُ غَشِيَنَهُ	أكفى المضلعةِ وإن هى جَلَّتْ (٣)
ومناخ نازلةٍ كفيتُ ، وفارسٍ	سَهَلَتْ قناتى من مطأُ وعَلَّتْ (٤)
وإذا العذارى بالدُّخانِ تقنعت	واستعجباتُ هَزَمَ القدورِ فُلَّتْ (٥)
دارت بأرزاقِ العُفَاةِ مَغَالِقُ	بِيَدَيَّ من قمع العِشارِ الجِلَّةِ (٦)
ولقد رأبتُ ثأى العشيرةِ بينها	وكفيتُ جانبها اللَّتْيَا وَالَّتِي (٧)
وصفحتُ عن ذى جهلها ورفدتها	نُصْحِي ولم تُصِبِ العشيرةَ زَلَّتِي
وكفيتُ مولاىَ الأَجَمَّ جريرتى	وحَبَسْتُ سَأْمَتِي على ذى الخَلَّةِ (٨)

(١) أمالى ج ١ ص ٨١ .

(٢) تربت يداك : صارت فى التراب أى خسرت ، وحين تعلت : حين دقرى .

(٣) مضلعة : أمر شديد نضلع صاحبها أى تميله للوقوع . وجات : عظمت .

(٤) مطاء : ظهره ، والتهل : الشرب المرة الأولى ، والمطل الشرب المرة الثانية

(٥) هزم القدور : صوت غليانها .

(٦) عفاة : طلاب المطاء ، والمفاق : سهام الميسر سميت بها لأن بها يفاق المطر

وهو السق الذى يرادى عليه ، والقمع : الأسمعة واحدها قمع . والعشار : ح عشراء وهى التى نبت عليها عشرة أشهر من حملها ، والجلّة الكثرة .

(٧) التيا : لئام ، ورأبت : أصاحت .

(٨) الأجم : الذى لا رجع معه ، والخلة : الحاجة .

ومثله قوله رجل من بنى فزارة .

لا يُبعد الله قوماً إن سألتهمُ
وإن أصابتهم نعمة سابعة
الكاسرون عظاماً لا جبوراً لها
وكذلك قول الشماخ بن ضرار .

وأشعث قد قدَّ السَّفارُ قيصه
دعوت إلى ما نابى فأجابنى
فتى يملأ الشيزى ويروى سنامه
فتى ليس بالراضى بأدنى معيشة

يحر شواء بالعصا غير مُنَضِّج
كريم من الفتيان غير مُزَلِّج^(١)
ويضرب فى رأس الكبيّ المدجج
ولا فى بيوت الحى بالمتونج^(٢)

وما أحسن قول الخطيئة فى الفتيان الكرماء الشجعان :

أولئك آباء الغريب وغائة الصـ
ريخ وماوى الثرماين الدرادق^(٣)
هذا وأما فىض زاهر من أقوال الشعراء الذين مدحوا الفتيان الأبحاد
بالشجاعة والكرم معاً ، ولست بمستطيع فى هذا المقام تسجيل كل ما قيل .
وحسبى - اختره ها لأستدل به على أن الفتى ، وهو الكامل الجزل من
لبحر كـ ذكر كـمأ حب كـز تتونر فبه من خلال الفتوة الكنيرة خلجان
شريفتن هما انسحثة وكـرم يد .

(١) للزايح : الناقص الرومة .

(٢) المتولج : الذى يدخل البيوت ويرمها .

(٣) للرمل : الفقير ، الدرادق : لصغار :

٢ - كرم القلب

عرفنا الفتى العربى فيما سلف من هذا الكتاب شجاعاً ، سمحاً ، كريم اليد .
ولكنه لا يتحلى بهذه الخلال الكريمة لحسب ، بل يجب أن يتصف بالحلم ،
وكرم القلب ، وسعة الصدر ؛ ليكون فتى قومه .

وكرم القلب صفة مميزة لكبار الرجال ، الذين تصغر في عيونهم الحوادث
مهما جل شأنها ، وعظم خطرها لدى الدهاء ، وهو دليل ناصع على أن كريم
القلب قد بلغ في مدارج الإنسانية مرتبة عالية ؛ لأن الغضب ، وشدة الانفعال
وحدة الطبع ، والنورة الجامحة التى لا يسيرها عقل ، ولا يضبطها تفكير ، تنزل
بالإنسان إلى مرتبة الحيوان الذى تسيطر عليه القوة الغضبية ، والغرائز الدنيا .

إن تحكم الإنسان في عاطفته ، وقهر نفسه — وما أصعب قهرها — يتطلب
إرادة صارمة ، وعزيمة قوية صلبة ، ومراناً طويلاً مريراً على كبح جماح شهواته ،
وهذه فتوة وبأس لا يصل إليهما إلاّ ذوو النفوس العالية التى سأتطرق إليها عن
دنيا الدهاء ، وتتطلع إلى السرف والسؤدد . ولذلك جعل الحلم من أهم الشروط
التي يجب أن يتصف بها رئيس القبيلة ، وصار من الأمثال العربية الخالدة :
« آلة الرياسة سعة الصدر » . وذاك لأن رئيس القبيلة أب لأفرادها ، ويجب
أن يظفر إلى أمثالهم وأخصائهم طرة لأب إلى أخطاء أبنائه ، ولأنه قاص يفصل
بينهم وبين أعدائهم . ويؤكد سريخ الانفعال ، صيق الصدر حاد الطبع ، حامت
عنه ، عير . - راءة

قال^(١) معاوية بن أبي سفيان لعرابة بن أوس بن حارثة الأنصاري : بآى
شئ سدت قومك يا عرابة .
قال : بآنى كست لهم كما كان حاتم لقومه .
قال : وكيف كان ؟
فأنشده :

وأصبحتُ في أمر العشيرة كلها كذى الحلم يرضى ما يقول ويُعرفُ
وذاك لأنى لا أعادى سرائهم ولا عن أخى ضرائهم أتكفُ
وإنى لأعطى سائلى ولربما أكلفُ ما لا أستطيعُ فألمفُ
وإنى لمذمومٌ إذا قيل حاتم با بوةً . إن الكريم بُعِفُ

وعرابة الأوسى هذا هو الذى قيل فيه :

إذا ما رايةٌ رفعت لحد تنقاه عراةٌ باليمين
إن الحليم كريم القلب ، لأنه يبذل رِقته ، ويغفوه ، ويظهر احتملا ناشداتد
فى وقت ينتظر منه العاقلة ، والانتقام ؛ ولأنه يصحى بسهولة نفسه ، ورغبته
لـمة على مدح السدة والسرف .

ستمع رى سى بن أوس كيف يعلب شهوة نفسه ، ويكتم غيظه ،
ويحلم حين الشدة ، ويصفح حين الإساءة^(٢) :

ودى رَحِمٍ قَلْتُ تُصدر ضِعْبِ يحمى عنه زعمو ليس له حِمُ

(١) الأمالى ج ١ ص ٢٧٤ . (٢) لأما ج ٣ ص ١٠٢ .

فإن أعف عنه أغض عيناً على القذى
فما زلت في ليني له وتعطيني
وخفضي له مني الجناح تألفاً
وصبري على أشياء منه تُريني
لأستل منه الضغن حتى استلته
وليس له بالصفح عن ذبه عليم
عليه كما تحنو على الولد الأم
لتدنيه مني القرابة والرحم
وكظمي على غيظي وقد ينفع الكظم
وقد كان ذا ضغن يضيق به الجرم

ومعن بن أوس هذا هو القائل (٢) ، من قصيدة له يعاتب بها صديقاً أساء ،
ويحذره عاقبة جهله وسفهه :

وإني على أشياء منك تريبي
ستقطع في الدنيا إذا ما قطعتي
وفي الناس إن رمت جبالك واصل
وفي الأرض عن دار القلي منحول (٣)
فأى قلب كريم قابُ معن بن أوس الذي يصفح عن السيئة ويغضى عن
الخطيئة ، ويلين لحشوه صاحبه حتى يستل منه الضغن ، ويغسل بماء حلمه وضر
قواده ، ويعيده إليه مخلصاً !!

استمع إلى شاعر آخر يصف قوماً بالحلم ، وبأمل تلك الخلال الحميدة التي
كسهاها الحلم :

تخافهم لا حياءاً عن انحاء
وحرماً عن الفحشاء عند التهاثر

(٢) أي مهد إليك الجبل .

(١) الحماسة ج ٢ ص ٩ .

(٢) ن : لهران .

ومرضى إذا لاقوا حياء وعفة^(١) وعند الحروب كالليوث الخوادر^(٢)
لهم ذل إنصاف ، ولين تواضع بهم ولم ذلت رقاب المعاشر
كان بهم وصماً يخافون عاره وما وصمهم إلا اتقاء المعابر
يترفعون عن سماع الفحشاء وعن النطق بها إذا ما تهاثر الناس في الخصومات
أثقة منهم ، وبعداً عن الصغار والنزول إلى ساحة البذاءة ، وإذا لقيتهم خلت
أنهم مرضى حياء منهم وعفة ، وليلاً ، ولكنهم في الحروب أسود أجام شجاعة
وجرأة . فيهم ذلة المنصفين الذين يعطون الناس حقوقهم ولا يتكبرون عليهم ،
وفيهم لين المتواضعين ، وبذلك كله سادوا وذل لهم رقاب معاشرهم . ولترفعهم
عن السفه ، وعفة ألسنتهم ، وعدم بذاعتهم تحسب أن بهم عيباً يخافون أن
يعيرهم الناس به إذا اشنكوا معهم في خصومة وجدال ، وما عيبهم إلا خوف
ما يشينهم . ويخدش كرامتهم .

وفي هذا يقول شعر آخر :

أحلام عاد لا يخاف جليسهم إذا نطقوا العوراء غرب لسان
إذا حدثوا لم تخش سوء استماعهم وإن حدثوا أدوا بحسن بيان
ولا تحسب الخلاء عند فتين العرب ضعفاً ، لحاشا لعربي أن يوصف بالضعف ،
ولكنه كان فضيلة فسيه تلت لعقل فيها ربة النفس ، وسبضر عيها سيطرة تامة
وهي في عفوان غصها ، وترت هذت ودع ، رعى غور وتحتدم .
إن الخلاء عند العرب لا يسمى حلاً إلا إذا كان صاحبه ودراً على الإساءة ،

(١) الخوادر : ج خادر وهو الأسد القوي يسكن الأكمة .

فكظم غيظه ، وردع نفسه ، وقابل العدوان بسعة الصدر ، وعفا عن أساء إليه ،
واقبلك قيل في أمثالهم : « العفو عند المقدرة » .

وفي هذا يقول المهلهل بن ربيعة^(١) في إحدى مراثيه لأخيه كليب :
ولأنك كنت تحلم عن رجال وتعفو عنهم ولك اقتدار
وتمنع أن يمسهم لسان مخافة من يحير ومن يجار
إله حلم المقتدرين الأقوياء ، لا حلم الضعفاء الجبناء ، الذي عبر عنه المتنبي
فيما بعد بقوله :

كل حلم أتى بغير اقتدار حجةً لاجيء إليها اللثام
إله الحلم الصحيح ، وكرم القلب ، الذي يملك صاحبه البذل ، والذي
يقول فيه الشاعر :

يكف أذاه بعد ما بذل عرفه ويحلم حِلماً لا يذم ولا يزدى
وأى حلم أبيل وأعظم من حلم ذلك العربي الذي قتل أخوه ابناً له ، فقدّم
إليه أسيراً مقيداً ، ليقص منه ، فنظر إليه ، ثم فكر في أمره وأصدر حكمه
الكريم الذي أدّى إليه قلب سمح ، وطبيعة خيرة ، وبصيرة نافذة ، ونفس ذلت
شهواتها ، وعبدت أهواؤها :

أثير النفس تأس وتعزية إحدى يدي أصابني ولم يرد
كرام خلف من فقد صاحبه هذا أخي حين أدعوه وذا ولدي

ليس من اليسير أن يعفو المرء عن قاتل ولده الحبيب . وفلذة كبده ، ومخلّد ذكره بعد موته ، ووارث ماله وأمله المرجّى في هذه الحياة ، بالغة ما بلغت قرابته منه ، ولكنها النفوس الأبية الكبيرة ، التي ترى الأشياء بعين الحكمة والعقل ، لا بعين العاطفة والهوى . إن هذا الرجل لو قتل أخاه قصاصاً منه لمقتل ولده يكون قد خسر خسارتين ، وفقد رحلين . ولن يسترد ولده بقتل أخيه ، ولكنه سيفقد به عضداً ، وقوة تعينه على نوائب الزمان . وصفحه عنه سيجهله أسير معروفه ، وعبد إحسانه وسيزيده عناية بشئونه ، وإقبالا على خدمته . هذه هي البصيرة النافذة ، لا العاطفة الطائشة ، وهذا هو الحلم الصحيح . ولقد وصف هذا الحلم وذاك العفو العظيم الحارت بن وغلّة الجرمي حين قال :

قوى همّ قتلوا أميمَ أخى فإذا رميتُ يُصيبني سَهْنِي
فلئن عفوتُ لأعفونَ جَلَلًا ولئن سطوت لأوهننَ عَظْمِي

ومن الحكم المشهورة لدى العرب منذ الجاهلية قولهم : « إذا ملكك فأسجح » والإسجاح : حسن العفو . وترى هذا واضحاً جداً في ميدان القتال ، وعند الأخذ بالنار فهؤلاء الذين يستطيعون أن يأخذوا الشن بالسن والعين بالعين والأنف بالأنف ، وأب يثأروا لأنفسهم ممن وترهم . وأن يصلوا ويحولوا في ميدان الوغى ، يتعلّبون على أنفسهم ، ويعفون عن أعدائهم في ساعة النصر .

كم من قرّنين استند بينهما لقتال ، وحمى وطيسه ، فإذا اكسر رمح أحدهما أو ما سيفه ، أو كبا حواده ، وعس الآخر في قوته وعدته ، لا ترى

القوى يعمد إلى انتهاز هذه الفرصة التي جاء بها القدر ، أو التي أوجدها هو ، فيقتل غريمه وهو أعزل من السلاح . بل ينتظر حتى يسترد سلاحه ليكون النصر آتياً ، ولتكون غلبته لغريمه ثمرة شجاعته وقوته وخبرته بقنون القتال .

لقد تمكن دريد بن الصّمة من ربيعة بن مُكّدم ، ووجد رحمه قد انكسر غيباً معركة حامية قتل فيها ربيعة ثلاثة من خيرة فرسان دريد ، ومع ذلك قال له دريد حين رآه بدون سلاح : « مِثْأُكَ لَا يُقْتَلُ ^(١) » ، ولا أرى معك رُحماً ، والخليل ثأرة بأصحابها ، فدونك هذا الرمح ، فإني منصرف إلى أصحابي فمبسطهم عنك » .

ولقد مرت بنا حادثة الحارث بن ظالم المُرّسي مع عمرو بن الإطنابة ^(٢) ، وكيف أنهما بعد أن تجاوزا ساعة ألقى عمرو رحمه ، وقال يا حارث ألم أخبرك أن النعاس يغلبني ، قد سقط رمحي فأكفف ، فكف ، ثم قال عمرو : أنظرنى إلى غد ، قال : لا أفعل ، قال : فدعنى آخذ رمحي ، قال خذه ، قال أخشى أن تُعجلنى عنه ، أو تفتك بى إذا أردت أخذه ، قال : وذمة ظالم لا أعجلتك ، ولا قاتلتك ولا فتكت بك حتى تأخذه ، قال : وذمة الإطنابة لا آخذه ، ولا أقاتلك ، فانصرف الحارث إلى قومه ، وأنشد شعراً قال فيه :

قد هممنا بقتله إذ برزنا ولقيناها ذا سلاح كميّا
غير ما نأتمّ تعالى بالحا م مُعداً بكفه مشرفيا
فمننا عليه بعد علو بوفاء وكنّت قديماً وفيّا

(١) بلوغ الأرب ج ٢ ص ١٣٥ .

(٢) مهابد الأغاني ج ١ ص ١٣٠ . وراجع ص ٥٧ من هذا الكتاب .

وكم من رجل طُلَّ دمه وهام على وجهه في القياقي خوفاً من عدائه ، حتى إذا خضقت عليه الأرض بما رحبت ، وتمكن أعداؤه منه وظن أنه قد خان حينئذ ، وألاً منجاة له من الموت ، وهبوه الحياة كرمًا منهم وأريحية قلب . وحادثة بشر بن أبي حازم مع أوس بن حارثة بن لأم الطائي مشهورة في كتب الأدب ^(١) وذلك أن بشراً أغراه أناس على هجاء أوس — وكان أوس من أجواد العرب الذين يذرب بهم المثل ، من ذلك قول جرير يمدح عمر بن عبد العزيز .

وما كعب بن مامة وابن سعدى بأجود منك يا عمر الجوادا
وابن سعدى هو أوس بن حارثة . فلما هجا بشراً أوساً ، أقسم أوس إن تمكن منه ليحرقه ، وكان بشر قد أخذ على هجائه أوساً مائة من الإبل ، فأغار أوس عليها واكتسحها . وهرب بشر ، وصار لا يستجير أحداً إلا قال له : قد أجرتك إلا من أوس بن حارثة . ثم تمكن منه أوس ، ودخل على أمه سعدى ، وقال لها : لقد أتينا يبشر الهاجي لك ولي ، قالت : أو تطيعني ؟ قال : نعم ؟ قالت أرى أن ترد عليه ماله ، وتعفو عنه ، وتحبوه وافعل مثل ذلك فإنه لا يغسل هجاءه إلا مدحه ، فخرج فقال : إن أمي سعدى التي كنت تهجوها قد مرت عليك بكذا وكذا . فقال لا جرم ، والله لا مدحت حتى أموت أحدٌ غيرك وفيه يقول :

إلى أوس بن حارثة بن لأم ليقتضي حاجتي فبمن قصها
فم وضعى الثرى مثل ابن سعدى ولا نس السوء ولا حننها

(١) السكامل المبرد وبلوغ الأرب ج ١ ص ٨٣ .

وهناك عشرات الأمثلة التي تثبت تأصل هذه الصفة الكريمة في نفوس فتيان العرب، ونبل معاملتهم لأعدائهم، وأقرانهم في ميدان القتال، وعند الظفر بهم، وسنرى فيما بعد كيف أن هذه التقاليد الشريفة قد ظهرت في كل مجتمع عربي بعد سيادة الإسلام وانتشاره، وأنها كانت الدرس السامى الذى تلقته فرسان أوروبا إبان العصور الوسطى من فتيان الصحراء العربية.

هكذا كان الحلم عند العرب، وهكذا كان كرم قلبه، ولكن ليس معنى هذا أنه كان يصبر على الإهانة، وينضى على الضيم والمثلة، ويقبل فى خضوع أن يطأطأ رأسه لأعدائه. إن الحلم يتصف بسعة الصدر، وينظر إلى الأمور نظرة حكيمة، يقدر فيها العواقب. ولكن إذا أهين ثار، وغضب غضبة شديدة لكرامته وقد اشتهر من أمثال العرب قولهم: « اتقوا غضب الحليم »، وذلك لأنه لا ينفضب إلا للأمر الجليل، وهو قادر على أن يثار لشرفه المهان، وكرامته المخدوشة؛ استمع إلى فتى من هؤلاء الذين عرفوا بكرم القلب، وسعة الصدر، كيف يحذر هؤلاء الذين غرم حلمه شديدة غضبه (١).

ما بال من أسعى لأجبر عظمه حفاظاً وينوى من سفاهته كسرى
أعود على ذى الذنب والجهل منهم بحلى ولو عاقبت غرقهم بحرى
أناة وحلماً وانتظاراً بهم غداً وما أنا بالوانى ولا الضرع الغمر (٢)
أظن صروف الدهر والجهل منهم ستحملهم منى على مركب وغر

(١) هذا الشعر لابن أذينة الثقفى راجع الأمال ج ٢ ص ١٧٢ .

(٢) الضرع : الصغير من كل شيء أو صغير السن الضيف . النمر : من لم يجرب في الأمور .

ألم تعلموا أنى تخاف عرّامتى وأن قنّانى لا تلين على الكسر^(١)
 إن أشد ما كان يخشاه الفتى العربى هو أن يوصف بالذلة والضعف ، ولا شك
 أنه يشور ثورة حادة إذا ظن أنه أهين ، وكيف يقبل الإهانة ، وهو الشجاع ، الذى
 لا يهاب المنايا ؟ وهو الجواد الذى يضحى بأثمن شيء لديه فى سبيل شرفه وعرضه ،
 إنه كان يضع الحلم حيث يجب أن يوضع كما قال الشريف الرضى :

وللحلم أوقات وللجهل مثلها ولكنى للحلم أدنى وأقرب
 يحلم مع قومه ، ولا سيما سفهاؤهم ، ويحلم مع عشيرته الأقربين ؛ لأنه رئيسهم ،
 ولأنه إذا عاقبهم على جهلهم خسرهم ، وإنما كان يدارى هؤلاء وهؤلاء ، ويدارى
 طيشهم بحلمه ، ونزقهم بسعة صدره ، ولأنه يعلم أنهم لا يقصدون امتحان كرامته ،
 ولا خدش شرفه ؛ لأن كرامته من كرامتهم ، وشرفه من شرفهم ، تقضى بذلك
 تقاليد القبيلة وعرفها السائد

ويشور حين يجب أن يشور ، حين يرى من المذلة والعار أن يغضى على
 للمهانة ، ويصبر على الإذلال ، ويرضى بالضميم .

و- يقيم على ضميم يراد به إلا الأذلان غير الحى والوئيد

إنه كان حكيماً فى تصرفه ، وقد صدق فيه قول الشاعر :

ووضع الندى فى موضع السيف بالعلأ مضر كوضع السيف فى موضع الندى
 وإن تصرفه مع هؤلاء الذين يزدرؤه ويحقروه ، ويريدون إدلاله هو تصرف

عادل جميل ، وفي ذلك يقول أرسطو : « عقاب الأعداء أجمل من التساهل معهم ؛ لأن مقابلة المثل بالمثل عدالة ، وكل ما هو عدل فهو جميل ، والشجعان لا يرضون الهزيمة ^(١) » .

ولقد ثار عمرو بن كلثوم ، وهو ضيف الملك عمرو بن هند ملك الحيرة حين سمع أمه تصيح قائلة : واذلاه ! يا تغلب ! فغلى الدم في عروقه وأخذته الحياء ووثب إلى سيف ضرب به رأس عمرو بن هند ، وقال معلقته المشهورة التي يشير فيها إلى هذه الحادثة بقوله :

بأى مشيئة عمرو بن هند	نكون لِقَيْلِكُم فيها قطينا ؟ ^(٢)
بأى مشيئة عمرو بن هند	تطيع بنا الرمشاة وتردرينا ؟
تهدّدنا وأوعدنا رويداً	متى كنا لأملك مَنّونينا ؟ ^(٣)
فإن قناتنا ياعمرو أعيت	على الأعداد قبلك أن تلينا
إذا ما المَلِكُ سام الناس خفّاً	أيننا أن نقر الذل فينا
ألا لا يجهل أحد علينا	فنجهل فوق جهل الجاهلينا ^(٤)

ويقول عنتره في العزة

لا تسقى ماء الحياة بذلة بل فاسقى بالعز كأس الحنظل

(١) الخطابة لأرسطو ترجمة الدكتور إبراهيم سلامة ص ١٧٣

(٢) القبل : هنا الخدم والمبيد ، والقطين : التجاورون .

(٣) مَنّوى : خادم ، وهي كلمة حميرية .

(٤) الجمل : السفامة والطيش .

ماء الحياة بذلة كجهنم وجهنم بالعز أكرم منزل
وأنى له أن يقبل النلة والمهانة ، وهو الأبى الشجاع الذى اتخذ شعاره قول
عمرو بن بركة :

متى تجمع القلب الذكى وصارماً وأنفاً حمياً تجتنبك المظالم
ولا تظن أن العرب جميعاً يتحلون بهذه الخلقة الحميدة ، خلقة الحياء وسعة
الصدر ، وكرم القلب ، كلا ! فإن الحياء كان نادراً . والحلماء قليلون وإلا
لما كان الحليم مقدماً على الناس ، يرأسهم ، ويتزعمهم ويفصل فى شؤونهم ،
وكيف يكون الحلم حاية جمهرة العرب ، وهم فى بيئة صحراوية مجربة يشدد فيها
أوار الشمس ، ونقل فيها الخيرات ، فيزيد ذلك فى سرعة انفعالهم ، وحدة طباعهم ،
وضيق صدورهم ؟ زد على ذلك أن هذه الحياة عودتهم كثيراً من الحرية التى
أساء بعضهم غايتها . واعتقد كل امرئ فى نفسه السمو والسعادة والموذ فكان
ذلك مدعاة لطيشه وسفه . وإذا كان من سمات الشرف ، ومؤهلات الرئاسة
أن يتصف القتي بالحلم ، بين قوم سريعى الغضب ، حدّى الطبع ، واذنك تميز
الفتيان عن سواهم من عامة العرب بسامح الأقوياء ، وعفو المقندين ، وأناة
المتبحرين ، وكرم الأعزذ ، وصفح الأناة البلاء ، لا يعرفون الضغن ، ولا يستغفر
فى قلوبهم اسمحة : ويس رئيس اقوم من يحمل الصعاب ، ولا يفقدون
اتزانهم ، إذا طاشت حزم سواهم ، وأذلك بوتوا مهرة سامية فى مجتمع العرب .
وتغنى الشعراء بصفحهم جميل ، ورددته أسسه رومن .

٣ — كرم العقل

كرم العقل هو سماحته ، ومرونته ، وتقبله للحقائق ، وعدم كزازته وتعصبه وقوره من الأوهام والخرافات ، وإدراكه لما حوله إدراكاً صحيحاً لا يشوبه شك ، أو يخمره غموض .

والفتى العربي قد نشأ على أديم الصحراء ، ذلك البساط الطبيعي الفسيح الظاهر للعالم ، الذي يمتد فيه البصر ، مسافات شاسعة ، فلا يقف في سبيله عائق ، يُلْقِه ضوء غامر قوى ، يحل كل شيء أمامه فيرى الطبيعة قوية بينة باهرة . ومثل هذه البيئة الرّحية تنمو فيها الحرية وتسمق دوحتها ، والرجل الحر يأبى أن يتقيد عقله بقيود ، أو أن يُحدّ فكره بحدود ، وفي ذلك يقول دوزي . « سعة العقل ورحابته قديمة عند العرب . لأنهم أمة تعشق الحرية ومن العسير عليهم أن يقبلوا التحكم في عقائدهم »^(١)

وقد قال مرثد بن عبد القلال ملك اليمن . « إني أحكم على الأجساد لا الآراء ، وأطلب من رعيتي أن تطيع حكومتي ، أما عقيدتهم فتدروك لحكم الله »^(٢) .

ولهذه الحرية لم يعرف العرب في دياناتهم البجاهلية نظام الكهنوت ، والعبودية للهـيكل ورحاله ، يتحكمون في عقائدهم ، وسائر شئونهم الدينية والديوية ، ويتوسطون بينهم وبين آلهتهم ، ويفرضون عليهم الجزية والطاعة

(1) wacyf Ghali. Tradition Chervalesque des Arabes. p.248

(2) Caussain de Perceval, T. I, p. 111.

العمياء ويمنحونهم الفقر إن أرادوا ، أو يطردونهم من رحمة الله إن سخطوا .
وأني للعربي أن يقبل هذا أو مثله وقد ألفت نفسه القضاء الفسيح ، وامتلاً قواحه
بهذا الإحساس القوي الطبيعي بأنه حر طليق لا تقيده أرض ، ولا تمرقل
تفكيره تلك القيود والعوائق التي تحد من حريته الشخصية ؟

ولما كان هذا الفتى العربي يعيش في كنف الطبيعة ، وتمتضنه صباح مساء ،
لا يهرب منها بين جذر كثيفة ، وفُرش وثيرة ، وقصور ضخمة ، وإنما تتلقاه
بين ذراعيها إذا أصبح كادحاً في سبيل رزقه ، وإذا أمسى سامراً مع خلاته ،
وتطل عليه من علّ بشمسها الوهاجة نهراً ، ونجومها المتلألئة ليلاً ، يراها وهو على
ظهر ناقته أو في خباته . ويسمع دوى الرعد وقصفه ، وزججرة الريح ، ويصطلي
بوقدة الهاجرة ، وزمهرير الشتاء . صار الفتى العربي منذ حداثته وهو بعد غض
لين العود صديقاً لهذه الطبيعة التي ألقها في حالي خيرها ورضاها ، وشرها
وسخطها ، ونحم عن ذلك كما ذكرت في غير هذا الكتاب^(١) « إلغاء العقل
الباطن عند هذا العربي ريب الصحراء ، وبسطت الطبيعة في عقله الواعي ،
ولم تدع له الطبيعة بضوئها الشديد نهراً ، ونورها الباهر ليلاً أن يختزن في
نفسه سرّاً ، أو أن تكون ثمة هاوية في عقله تتساقط فيها الرغبات التي
لا تحقق ، لأن كل رغبة حيل بينه وبين تحقيقها يعلم حدّ العلم ، وكل وصوح
لماذا لم يحققها .

وبإلغاء العقل الباطل صارت كل أفكار العربي بين يديه ظهرة حلية ،

(١) كتاب النابغة الدياني للمؤلف ص ١٧ .

وصارت وجهة نفسه وجهة يقين لا شك ، وبذلك ألغيت الوساطة في الشعور والتفكير والتعبير .

وهذا هو السر فيما نلسه في الشعر الجاهلي ، وفي التفكير العربي من صفاء الفكرة ووضوحها ، والقصد إلى الهدف دون التواء أو غموض ، في أوجز لفظ ، ومن أقصر طريق .

وهذا هو السر في أن العربي كريم العقل ، سمح النفس ، يتناول حقائق الحياة في أوجز الصور وأقومها ، ولعل من أسباب ذلك أنه نشأ نشأة طبيعية . بسطت في قوة جسمه ، وصيرته صحيح الحواس ، تام البناء والتركيب . ونعلم أن العقل يسترفد معلوماته من الحواس ، فإذا كانت الحواس صحيحة كاملة النمو لم يصل إلى العقل إلا الصحيح التام من المعلومات — بغض النظر عن قيمة هذه المعلومات — ولهذا كان عقل الفتي العربي سليما ، وحكمه على الأشياء صحيحا . ولقد اشتهرت عندهم الحكمة القائلة « العقل السليم في الجسم السليم » . ونقول نت الخس معبرة عن رأى العرب في العقل وأخلاق الفتيان ، كما أفهمته إياها الصحراء :

أشدُّ وجوه القول عند ذوى الحجا	مقالةُ ذى لبٍ يقول فيوجز
وأفضلُ غنم يستفاد ويُبتغى	ذخيرةُ عقلٍ يحتويها ويحرزُ
وخيرُ حلال المرء صدق لسانه	والصدق فصلٌ يستبين ويرزُ
وإعزازك للموَدَّ من سبب الغنى	فكن موفيا بالوعد تُعطى ونُجز
إذا المرء لم يَسْطع سياسة نفسه	فإن به عن غيرها هو أعجز

ويقول شاعر آخر :

ولا خير في حسن الجسوم وطولها إذا لم يزن حسن الجسوم عقولُ
ومن الأسباب التي جعلت عقل العربي سمحاً منبسطاً ، لا كزارة فيه
ولا تعقيد ، أن المجتمع العربي خلا من تلك الفروق الاجتماعية ، ونظام الطبقات
فليس ثمة أغنياء قد أبطروهم الغنى ، وأعمى بصائرهم ، وظنوا أنهم بالمال يشترون
من دونهم من عباد الله ، الذين يعملون في مصانعهم أو أرضهم . وليس ثمة فقراء
قد أذلهم الفقر ، وضعضع نفوسهم ، وأمات فيها العزة ، وجعلها تتطلب المال
ولو من أخس الطرق وأوضعها . بل إن العرب كانوا في ميدان الحياة الاجتماعية
سواء ، الفقير والغنى ؛ لأنهم جميعاً يسكنون الخيام لا القصور الشاهقة ،
ويتوسدون الرمال لا الحشايا اللينة ، والسيادة فيهم ليس مردها إلى الغنى والثروة ،
وإنما تُنال بالفضائل ، وحب أفراد القبيلة ورعاية مصالحهم ، ومواساة حزينهم ،
والدفاع عن ضعيفهم ، وفك عابهم وأسيرهم ، والجود على معدمهم ، والحلم على
سفهاءهم ، والمطالبة بتاراتهم ، وتحمل ديانتهم . والسيادة ليست السيطرة بالقهر
والغلبة ، وإنما امتلاك القلوب بالرفق والفضيلة . وشتان بين مجتمع هذا شأنه ،
ومجتمع آخر لا يعرف إلا السيطرة : سيطرة القوة والمال والجاه ، وعبودية
الفقر والسحر .

إن العربي الفقير إذ صاقت عليه الأرض ، وقُتِرَ عليه رزقه . لا يبرم ،
ولا يئأس ، بل يرمى نفسه في فجحها اعريضه ولسن حنه يقول .
إذا ما ضوى رزقك في بلاد ترحل ضئاً أرضاً سواه
فرزق الله في الدنيا فسيح وأرض من منع فضاء

وقد ذكرنا في كرم اليد كيف أن العرب جميعاً تعاونوا على قتل الفقر بينهم ، وكان من أهم صفات السيد الشريف سخاء اليد والجود بما لديه ولو كان آخر زاده ؛ ولهذا كله لم تتخلف في نفس أى عربي نزعات مكبوتة ، وآمال ميتة ، تفسد عليه تفكيره في وحدته ، وتذهب صفاء عقله ، بل قبل الحياة على علاقتها ، بسرائها وضرائها . إذ أنه أدرك من طبيعة بلاده أن هذه الثروة التي نالها سواء قد تزول حين ترضى السماء بمائها ، وتجذب الأرض ويصوِّح النبات وأنه قد يرحل إلى غير موطنه فيصيب أرضاً خصبة ، وثرأ عريضاً .

إن العربي في حياته كلها كان ينظر إلى الأمور نظرة واقعية ولم يلجأ إلى إلى ذلك الضرب من الحياة الذي صورته المشاعر الفرقة ، والنفوس القلقة . لأنه لم يشعر بالحرمان ، ومن ثم لم تكن أوهام وأحلام ، وإنما هي الحقيقة يفتنون بها ، ويسعون جهدهم لإدراكها .

وربما قيل : وكيف توفق بين هذه السباحة في العقل ، وعبادة العرب للأوثان والأصنام ، وهي لا تدرك ولا تغنى عنهم شيئاً ؟

إن العرب لم تكن لهم ديانة ذات أصول وقواعد ومراسيم معينة ، ولقد وصلوا في قرارة نفوسهم إلى معرفة خالق الوجود ، ووحدانيته فأمنوا به ، وإن حاولوا أن يصلوا إليه أحياناً عن طريق الأصنام ، فذلك لأنهم لم يكونوا قد وصلوا إلى ذلك النضج العقلي التام ، ولم يكن حظهم من المعرفة كبيراً . وإذا سئلوا عن هذه الأصنام : أهى آلهة ؟ أنكروا في قوة عقيدة ألوهيتها ، واعترفوا بالله وقالوا : « ما نعبدكم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » . ولقد سخر كثير منهم بهذه

الأصنام كما سخر امرؤ القيس بصره ذى الخلصة حينما استخاره واستقسم لديه
بالأزلام ، فخرج السهم ينهائهم عن ذلك فقال :

لو كنت يا ذا الخلص الموتورا مثلى وكان شيخك المقبورا
لم تنه عن قتل العداة زورا

وحطم الصم (١)

ولقد أقبل رجل من بني ملكان بإبل له مؤبلة يقفها على صنم القبيلة
« سعد » ابتغاء بركته فيما يزعم ، فلما أدناها منه ورأته ، وكان يُهراق عليه الدماء
فقرت منه ، فذهبت في كل وجه ، فغضب الرجل وتناول حجراً رمى به الصنم
وقال : « لا بارك الله فيك إلهاً قررت إبله » ثم خرج في طلبها حتى جمعها ،
وانصرف وهو يقول :

أتيت إلى (سعد) ليجمع شملنا فشتتنا (سعد) فلا نحن من سعد

وهل (سعد) إلا صخرةً بتنوفةٍ من الأرض لا يدعولني ولا رُتد (٢)

ولما رأى عمرو بن الجوح وهو أحد سادات بني سلمة وأشرافهم أن صنمه
الذى ينقرب إليه قد ألقى في موطن القذارة قال :

والله لو كنت إلهاً لم تكن أنت وكلبٌ وسط بئر في قرن

أفٍ لما قاتلته مُسندنٌ الآن قُتنتك عن سوء الثب (٣)

(١) بلوغ الأوب ج ٢ ص ٢٠٧ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٠٨ .

(٣) مسندن : من السدانة وهي خدمة البيت وتعليمه .

الحمد لله العلى ذى المنن الواهب الرزق ديان الدين^(١)
هو الذى أتقننى من قبل أن أكون فى ظلمة قبر مُرْتَهَن^(٢)
ولما رأى غيره أن صنمه تبول عليه الثعالب قال : « لقد هان من بالت
عليه الثعالب » .

وكل هذا يدل على أن العربى لم يكن ينظر إلى هذه الأصنام نظرة جد ،
وأنها آلهة بحق ، بل إذا رأى منها مالا يستجيب له عقله أنكرها سريعاً ،
ورجع إلى فطرته الصحيحة ، فهو يعتقد فى قرارة نفسه ، أنها لا تضر ولا تنفع .
وليس لها من أمر الكون وحلقه وتديره شئ : « ولئن سألتهم من خلق
السماوات والأرض ليقولنَّ الله » ، « قل من يرزقكم من السماء والأرض ،
أمن يملك السَّمْع والأبصار ، ومن يخرج الحي من الميت ، ويخرج الميت من
الحي ، ومن يُدبِّرُ الأمر فسيقولون الله » .

على أن العربى لم يخترع هذه الأصنام ، وإنما جُلِبَت له من خارج البلاد
العربية جابها لُحى بن حارثة بن عامر الأزدى من البلقاء بالشام حيث اليهود
والنبط وغيرهم فى قصه معروفة^(٣) . فهى طارئة عليه ، لم تتأصل عبادتها فى نفسه ،
ويقدسها ذلك التقديس الذى حرى عاياه بعض الأمم لألهتهم مثل الأشوريين
والإغريق والمصريين القدماء ، وبنوا لها الهياكل والمعابد ، ووضعوا لعبادتها
النظم والتموانين ، وتعددت طبقات رجال الدين والكهنوت . ولكنه كان

(١) الدين : = دينة وهى العادة .

(٢) راجع بلوغ الأرب ج ٢ ص ٢٠٩ .

(٣) راجع بلوغ الأرب ج ٢ ص ٢٠١ والأصنام لابن الكلبي .

يتقرب إليها في بساطة ، ويتركها في بساطة . وإذا قالت : ألم يكن العرب يعتقدون في الجن ، وأنها تتراءى لهم ، وتتحدث إليهم ، وتلهم شعراءهم القول البليغ ؟ أو لم يكونوا يعتقدون في الغيلان والأشباح ؟ أو هذه صفة العقول الراجحة الصافية التي لا تؤمن بالخرافات والأوهام ؟ ؟

كان العربي في بيدااته دائب الحركة والسعى في طلب الرزق ، وليست الصحراء العربية كلها واضحة السبل بينة المحجة ، ولذلك قد يضل في أرجائها بعض من عُثِيَ عليه طريقه ، وغُيَّ سبيله ، وهو في تيهه هذا يستحضر معين ، لا معدى له ولطبيعته البشرية السليمة من أن يستحضرها وهو رابط الجأش ثابت الجنان ، وهذان المعنيان هما : الهلاك ، والوحشة . أما الهلاك فيأتي من نقاد الزاد وكثرة التعب ، وقسوة الهاجرة ، وكان من الهلاك عند العرب اسم « الغول » الذي يغتال النفوس ويهلكها ، وأما الوحشة فقتلٌ منها بينهم اسم « الجن » وهو « سراب النفس » الذي يتطلع إليه العربي ، وقد « أجنته » الطبيعة بعد ظهورها ووضوحها ، وكادت تستتر عنه وتخفي معالمها قتهاكه .

فمن يرى هذا السراب رجلاً مثله على مرأى منه ، فيتجه إليه في مثل الشوق الذي يسنشره نحو أهله كلما أشرفت نفسه على الهلاك ، فيرى أعرايياً جاساً أدم خباء ، ونحواره قلوص ، وهو مهيب السمات ، جايد ثقب . فهو يسلم عليه ، ويسأله تربية ماء أو لبن . ثم يستزيد من حديثه ، فينتدده الشعر ، ويسترويهِ الأخبر ، فيكون في ذلك مريد وحشته . حتى إذا قضى هذا التيه وطراً من ذهب الوحشة عنه مع عرى مته . عاد فبداه أن ما رآه على الأفق إنما كان سراب نفسه . كسرب شه في البحر ، يحسبه ضمن ماء حتى إذا جاءه لم يجد شيئاً .

وهكذا يعرف العربي أن مالم يحمله شيئاً من هذا الرجل الذى استنشد
الشعر فى متاهات الصحراء إنما هو « الجن » الذى يظهر للتأهين ، عندما تجهل
الطبيعة على أصفائها . لقد سمي العرب هذا السراب جناً ؛ لأنه لا يلوح لهم إلا إذا
أجنتهم البيداء فى بعض مجاهلها ، وسترتهم عن معالمها المأمونة . وليس أدل
على ذلك من تخصيص العرب أما كن يظهر فيها الجن ، فلا يظهر الجن فى كل
مكان بالجزيرة ، وإنما يظهر فى المتاهات والأودية الموحشة مثل وادى « عبقر »
و « أبرق الحنان » و « البقار^(١) » الذى يقول فيه النابغة الذبياني واصفاً جنداً
مدججين بالسلاح ، قد اختلط صداً السلاح بعرق أجسامهم ، فانبعث منهم
رائحة خاصة :

مَهْكِينَ مِنْ صَدَا الْحَدِيدِ كَأَنَّهُمْ تَحْتَ السَّنَوْرِ جِنَّةُ الْبَقَارِ^(٢)

وتمتاز الجن العربية فى أخبار العرب بأنها نموذج للعربي الكريم ، فهى
مؤنسة غير مؤذية ، بل هى فى الغالب مصدر نعمة ، إذ كثيراً ما شعر التأهون
كأنما الجن توحى إليهم معرفة الطريق الذى أضلوه . كما أن الجن العربية
تحفظ الجيد من أشعار العرب بالقدر الذى يحفظه بالطبع من يراها منهم .
وهذه المزايا الإنسانية النادرة فى الجن العربية علامة من علامات الألفة القوية
بين العرب ، وعناصر الطبيعة العظيمة المحيطة بهم . وهى آية من آيات التكافؤ
فى المستوى الحيوى بينهم وبينها ، بحيث انعكست صورهم على آفاقها بهذا

(١) راجع فصلاً ممتاً فى هذا الموضوع للأستاذ أحمد صبرى شويمان فى كتاب التصوف
فى نظر الإسلام ص ٣٠٦ وما بعدها .

(٢) السهكة : الرائحة الكريهة . السنور : السلاح التام .

ما يظنه حلا لهذه المشكلات ، في قصة تارة ، وفي نظرية فلسفية أخرى .

والفتى العربى ذو العقل الكريم تزيده الحزن والشدائد قوة ، فلا يعرف
الجزع واليأس كما يعرفهما سواه على حد قول جرّاء بن ضرار :

إذا رقت أخلاق قوم مصيبة تصفى لها أخلاقهم وتطيب

أو على حد قول ابراهيم بن كُتَيْفٍ النّبْهَانِيّ :

تَعَزَّ فَإِنَّ الصَّبْرَ بِالْحَرِّ أَجْمَلُ وليسَ على ريب الزمان معول

فلو كان يُغْنَى أَنْ يُرَى المرءُ جازعاً لحادثةٍ أو كان يغنى التذللُ

لكان التعزى عند كل مصيبة ونائبةٍ بالحر أولى وأجمل

فكيف وكلّ ليس يعدو حمامه وما لأمرىء عما قضى الله مَزْحَلُ

فإن تكن الأيام فينا تبدلت ببؤسٍ ونُغْمٍ والحوادثُ تَنَعَلُ

فما كَيْبَتْ منا قناة صليبةً ولا ذَلَّتْنَا لَاقِي ليس تجملُ

ولكن دحلناها نفوساً كريمةً تَحْمَلُ مالا يستطيع فتحيلُ^(١)

وقبنا بحسن الصَّبْرِ منا نفوسنا فصحت لنا الأعراص والناس هُزَلُ

إن هذا الفتى العربى الذى وصف آنفاً بالشجاعة ، وكرم اليد والقلب وكرم

لعقل ، قد تحلت مواهبه هذه فى أوج عظمتها حين جاء الإسلام ، وسترى هذه

خارج متألقة فى كل مكان حلّ به ، إذ لم يفارقه ما حلّنه به البادية من مزايا

أينما ارتحل ، ولما سياتى تلك المظرة الواقعية إلى مشكلات المجتمع .

(١) أى : نحن نفوسنا الكريمة رغم ما حلّ بنا من مصائب .

٣ - الوفاء بالوعد

من أجل ما يتحلى به الفتى العربى الوفاء بالوعد ، بل إن الوفاء بالوعد شرط لا مناص منه للفتيان . وذلك لأن الصراحة لازمة للقوة والشجاعة ، فالشجاع هو الصريح الذى لا يخشى أحداً أو شيئاً . هو الذى يصارح الناس برأيه ، وهو الذى يثبت عليه لا يتزعزع ، ويدافع عنه باليد والسلاح ، ويقول كورنىء الكاتب الفرنسى الشهير : « الرجل الشجاع هو الذى يحافظ على كلمته » (١) .

وكثيراً ما يكون فى الوفاء بالوعد ما يناقض مصلحة المرء الخاصة ، فليس من الفضيلة أن تفى بشيء لك فيه منفعة وفى إنجازها فائدة تعود عليك . بل إن الوفاء بالوعد يتطلب عادة أن يضحي المرء بوجهة نظره الخاصة ، أو بمصلحته الذاتية فى سبيل سواه .

فالوفاء بالوعد مبنى على الشجاعة ، وعدم الأثرة والمنفعة ، والتضحية . وهذه الصفات تتفق مع ما سبق أن وصفناه من سمات الفتين ومزاياه .

لوفاء بالوعد يخرج الإنسان من الوحشية إلى الحضارة ، فلا تعود القوة تعتمد على . . . والواجب . . . ولا تعود مصلحة الخاصة هى قدر تضى بوجه أعمال الإنسان فى حيا . . . رغبة . . . عند فى مجتمع . . . يسرد حدة نقية بالضميمة والإيمان : ائمة فى كسبة تعضى ، وفى ترفع يكتب . وفى . . . تهر .

إذا أعطى المرء وعداً ، وكان رجلاً جزلاً كامل الرجولة - كما كان
فتيان العرب - فليس له أن يرجع فيه أو يحدد عنه أو يناقشه مرة أخرى ، بل
قانون الفتوة يحتم عليه أن يمضى فى إنجازهِ ، ولو ناقض فائدته ، وعاد
عليه بالضرر .

وقد اشتهر فتيان العرب بالصدق ، والرجل الصادق هو الرجل الممتاز حقاً
فى كل صفاته ، وليس الرجل الصريح أو المخلص فحسب . لا يعرفون الكذب ،
لأن الكذب إمارة الجن ، وفتيان العرب شجعان لا ريب فى ذلك

إن هذه الطبيعة الصريحة الواحة السمات والمعالم قد طمتهم ألا يقولوا إلا الحق
لأنها بصفاتها ووضوحها قد انعكست على نفوسهم . ثم لأنهم قوم رُحُل ليس
لهم حكومة منظمة ، ولا قوانين مرسومة ، ولا قوة منفذة ، ولا محاكم ولا شرطة ؛
ولذلك كانت كلمة الشرف ، والوعد الصادق هى القانون الذى يقده كل عربى
ويحرص على احترامه والخضوع له ، حرصاً على مصلحته الخاصة ، وعلى العدالة
العامة فى المجتمع . وفى ذلك يقول هيردوت : « ليس تمة قوم يحافظون على أيمانهم
مثل العرب » ^(١) .

لقد كان العرب فى حروب دائمة بعضهم مع بعض فى سبيل الرزق وأسباب
الحياة . وهذا أمر طبيعى فى بيئة محدبة شحيحة بخيرها . وكانوا إذا استبكبوا
فى معركة تقاتلوا فى قسوة بالغة ، فإذ وضعت الحرب أوزارها ، وعقد الصلح ،
من س . رُخذوا يخوبون أرجاء الصحراء طالباً للرزق ، وسمياً بالتجارة
من غير أن يتشربوا هجرماً سفاحاً . أو أخذوا على غرة ، وأخذت القبيلة فى

(1) Hérodote, III, 2 .

الرحيل ، ورعى تقيها من غير رهبة من عدو أو خشية من غدر ، لأن السيوف قد أغمدت ، والحق قد توارى ولو إلى أجل ؛ وفي قدرة المرء أن يقابل أعداءه دون خوف ، بل يقابل من له عنده قوة . وذلك لأن القبيلتين قد اتفقتا على الكف عن العدوان ، مع أنهم كانوا غالباً من الأميين الذين لا يعرفون المعاهدات المكتوبة والصكوك والمواثيق المسجلة ، بل كانت تكفى الكلمة تقال ، يبرمها رئيسا القبيلتين فتصير نافذة على الجميع . لأنها أقوى من القوانين المكتوبة ، والأنظمة التي يدافع عنها بالحراب في المدينة الغربية اليوم .

في هذا المجتمع الطبيعي الذي لم تلوثه مقاسد المدنية الحديثة ، وما فيها من قنار ، وخداع ، وغدر ، وتنافس ذميم على عرض الدنيا ، كان العربي يخشى أن يُعرف بالغدر ، وتشيع عنه الخلة بين قومه وبين سواهم من القبائل ؛ لأن الغدر ونقض العهد ، وإخلال الوعد ، يحط به رجلاً لا يعتمد عليه في النأيات ، فيهمله قومه ، ويتحاشاه طلاب الغوث والنجدة ، وينفر منه أعداؤه وأصدقائه ، وهيات لرجل يتصف بهذه الصفة ، وتكون حاله كما ذكرت أن ينبه اسمه ، أو يكون من ذوى رأى والجاه في قبيلته وهو ما يحرص عليه كل ذى مروءة .

ولقد بلغ من كراهية العرب لهؤلاء الذين يغدرون ، ويقضون المواثيق ، ولا يوفون - لعمود أن يشهروا بهم في سوق عكاظ فيرفعون لهم ألوية - نيرفعهم الناس بغدرهم فلا يعملونهم ، ويكون هذا تديباً لهم وعظة لسواهم ، وفي ذلك يقول قطبة بن أوس ينفى عن نفسه وعن قومه الغدر ، ويفخر بهم قوم أوفياء :

أُسْمِيْ وَيَحْكُ هَلْ سَمِعْتَ غَدْرَةً رَفَعَ بَوْدَ ابْنِ بَيْتٍ فِي تَحْمَعِ
إِنْ حِفْثٌ فَلَا نَزِيبُ حَافِنَا وَكَفْتُ تَحِيَّ بَقَوْ... فِي مَضْمَعِ

وفي هذين البيتين نرى سببين يحملان المرء يندرج أحياناً ولا يفي بوعد ،
أحدهما دناءة النفس ، وعدم عفتها ، فيطو لها ماخرجت عنه ، فتحاول تقض
الميثاق ، وثانيهما شحها وطمعها فتعتريها الكزازة بعد الجود ، وتندم على تسرعها
في الوعد ، وتحاول أن ترجع . والفقي الحق هو الذي يقاوم هذه الخسة في نفسه
من دناءة وشح فلا يطيعها ويحملها قسراً عنها على الوفاء بما وعدت .

وقد حفظ لنا التاريخ أمثلة عديدة على تمسك العربي بكلمة ينطق بها ولا يثنيه
عنها سبب مهما عظم ، وهاك الحارث بن عباد يأسر عدى بن ربيعة المشهور
بالمهمل قاتل ولده بجير في حرب البسوس ، وهو لا يعرفه ، فيسأله عن
مكان المهمل ، فيقول له هذا : أتطلق سراحي إن دلتك عليه ؟ فيعده بهذا ،
فيخبره أنه المهمل ، فلا يسعه إلا البر بوعدته على الرغم من أنه قاتل ولده ،
ويكتفي بجز فاصيته ، ويطلق سراجه وهو يقول :

لطف نفسي على عدي وقد أشعب للموت واحتوته اليدان
وهاك حاجب بن زرارة التيمي يطلب من كسرى أن ينزع قومه إلى سواد
العراق ، لأنهم في ضيق من العيش ببلادهم ، فيطلب منه ضماناً على عدم إفسادهم
حال العراق وإغارتهم على مدنه العامرة ، فيرهن له قوسه ، ويثير هذا ضحك
حاشية كسرى ، ولكن كسرى يدرك عظم الرهينة فيقبلها . وقد وفي حاجب
لكسرى بما وعد إلى أن مات^(١) ، وفي ذلك يقول أبي تمام :

إذا افتخرت يوماً تميم بقوسها فخراً على ماوطدت من مناقب
فأتم بذى قار أمالت سيوفكم عروش الذين استرهنوا قوس حاجب

(١) راجع المقد الفريد ج ٧ ص ٩٨ .

و يشير في البيت الثاني إلى حادثة أخرى من حوادث الوفاء ، أعنى وفاء هانىء ابن مسعود الشيبانى مع النعمان بن المنذر وحمايته لنسائه ودروعه حين لجأ إليه بعد أن غضب عليه كسرى ، ولما طلب منه كسرى هذه الودائع أبت نفسه العربية أن تغدر بما تعهدت به ، وهو يعلم عِظَم المخالفة ، وما تجره عليه وعلى قومه من مصائب . وقد ناصره قومه وأيدوه ، وحاربوا الفرس وهزموهم في موقعة ذى قار سنة ٦١٤ م ليكنوه من الوفاء بوعده . وسأقص عليك إن شاء الله قصة حنظلة ابن أبى عفرة مع النعمان في القسم الثانى من هذا الكتاب ، وكيف وفى بوعده مع أنه يعلم جيد العلم أن فى هذا الوفاء ميته ، وأنه مقتول لاحالة .

وسنرى فيما بعد أن هذا الخلق الكريم كان من أعظم ما اشتهر به العرب بعد الفتح الإسلامى ، ولم يجد منهم النصارى أو اليهود أى ميل للغدر ، ونكث بالوعد ، وقض للعهد ، بل عاشوا فى ظلهم آمنين مطمئنين .

٤ — حماية الضعيف

وحماية الضعيف قانون طبيعي للفتيان ؛ لأنهم يشعرون بقوتهم الجسمية ، وقد تأصلت في قلوبهم صفة البذل والتضحية ، ومن أولى برعاتهم من الضعفاء ؟ إن التطوع لحماية الضعفاء أهم ما يميز الرجل الشهم الكامل والفارس الحق .

« مهمة الفارس هي حماية المرأة والأرملة ، واليتامى ، والضعاف من الرجال الذين يطلبون المعونة والغوث »^(١) . هكذا يقول « لا كورن دي سانت بالاي » وهذه هي صفة الفتيان الأبطال الذين سعموا بالنشأة الطيبة بين أحضان الصحراء ، لأن هذه الصحراء والحياة القبلية ، فرضت عليهم أن يخففوا من الأخطار المحدقة بهم فتعاهدوا فيما بينهم على حماية المرأة ، والصيف والجار والضعيف .

إن هذه الفضيلة تتطلب من الفتى أن يتصف بكل صفات الفتوة الأخرى من شجاعة وكرم ووفاء ، وهي خلة ترقى بالإنسان إلى أفق سام من آفاق الإنسانية ، لأن من يتعرض لصفة المظلوم ضد الظالم ، وإغاثة الملهوف المكروب ، والانتقام من القوى للضعيف ، ومد يد المساعدة للحق المهضوم ، يصب نفسه بطلا من أبطال الخير صد الشر المنتصر . وفي هذا كرم وسخاء دونه كل كرم وكل سخاء ، ومكران للذات دونه كل نكران .

(1) Mémoires Sur L'ancienne Chevalerie , t. 1, note 36 Sur la 11e partie, p, 129, Lacurne de Saint Palaye .

من اليسير أن يعيش الإنسان في هذه الحياة عيشة وادعة هَبْنَةَ لينة ، بأن يغمض عينيه وفمه وأذنيه ، فلا يرى شيئاً ولا يقول شيئاً ، ولا يسمع إلا ما يهيمه من قرب أو بعد أو يعود عليه بخير قلّ أو كثر . بيد أن روح الفتوة وشعار الفرسان يأتیان ذلك ؛ لأن كل ما يمس الإنسانية الضعيفة يمسهم . وكأن الله قد أقامهم في هذه الأرض لتحقيق العدالة وهذه رسالة بالغة في السمو أعلى منزلة .

وقد وضع فرسان الصحراء كل ما وهبهم الله من قوة وحول ومال وشجاعة فائقة لحماية البائسين . ونحدة الملهوفين ، وإغاثة المحرومين بنفس الكرم والأريحية التي يبذلون بها المال . وتتجلى هذه الصفة في عدة مظاهر :

١ — حماية الجار . والجار هو ذلك الشخص الذي ينزل بجوار آخر طالباً حمايته ، أو يلجأ إليه لينتفع من أعدائه ، فإذا قبل جواره صار واحداً من أفراد أسرته وعشيرته وقبيلته ، وسمى حليفاً أو مولياً أو جاراً ، له كل ما لأفراد القبيلة من حق ورعاية ما دام في جوارها متمتعاً بحمايتها .

وإذا كان قانون الصحراء يأبى على العربي أن يرفض ضيافة الغريب ، فكذلك فرض عليه أن يرحب بمن يلجأ إليه طالباً حمايته ، وكما أن الإنسان لا يستطيع أن يميز بين رب البيت وضييفه فكذلك لا يستطيع أن يميز الجار من جاره .

كان العربي يحصى حاره مدام حياً ، وإذا اضطر برحلة أوصى به أهله ، وأولاده وعشيرته . وأعاتته قبيلته في الخدقة على هذا اجر . وقد يغضب كل الغضب إذا رحل عنه حاره وتنازل عن حمايته له ، وحاد إلى سواه ، كما رحل

الحطيئة^(١) عن الزبرقان بن بدر ، ولجأ إلى بنيض بن شماس بن لآى ، وعدّ الزبرقان ذلك طعناً في كرامته ، وأبى إلا أن يذهب إلى الحطيئة وبنيض كي يعود إلى جواره ، ولما خيّر الحطيئة اختار بنيضاً فسأله الزبرقان : « يا أبا مليكة ! أفارقت جوارى عن سخط وذم ؟ قال : لا » فتركه وظلّ آل شماس ابن لآى يحرصون الحطيئة على هجاء الزبرقان وهو يقول لهم : لا ذنب للرجل عندي . حتى أرسل الزبرقان إلى شاعر آخر هجاً بنيضاً فرد الحطيئة عليه وهجاً الزبرقان ، ودافع عن بنيض بقوله :

والله ما مَشَرْتُ لا موا امراءاً جُنُباً	في آل لآى بن شماسٍ بأَكياس
ما كانَ ذنبُ بنيضٍ لا أبا لكم	في بائسٍ جاء يحدو آخر الناسِ
لما بدالى منكم غيبَ أنفسكم	ولم يكن لجراحي فيكمُ آمى
أزمتُ يأساً مييناً من نوالكم	ولن يُرى طارداً للحر كالياس
جارتُ لقوم أطلّوا هَوْنٌ منزله	وغادروه مقياً بين أزماس
ملّوا قِـراره وهَرَّتْهُ كلابُهُمُ	وجرحوه بأنيابٍ وأضراس
دع المكارم لا ترحلْ لبغيها	واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى
من يفعل الخيرَ لا يَعدَمُ جوازيه	لا يذهب العُرف بين الله والناسِ

وقد حسه عمر بن الخطاب رضى الله عنه لهجاءه الزبرقان ، وأخذ يستعطفه وهو في سجنه فلم يلتفت إليه إلى أن قال له :

ماذا تقول لأفراخ بذى مَرَّخ زُغِبِ الحواصِلِ لا ماء ولا شجر

(١) أنظر القصة كاملة في الأغاني ومهذب الأغاني ج ٢ ص ٣٥ .

ألقيت كاسبهم في قعر مظلمة فاغفر عليك سلام الله يا عمر
فبكى عمر وعفاه عنه واشترى منه أعراض المسلمين جميعاً بثلاثة آلاف درهم .
وكثيراً ما شبت الحرب مستعرة الأوار ، قوية اللفى لأن جار القبيلة
قد أهين أو أذل ، أو اعتدى عليه . وخير مثل يضرب لذلك حرب البسوس .
وقد كانت البسوس خالة جساس بن مرة ، وكان كليب وائل قد بنى وطنى
وتجبر ، وقد بلغ من سطوته ألا يحير أحد من بكر وتغلب إلا بإذنه . وحدث
أن البسوس نزلت بحوار جساس فصارت فى حمايته ، ورأى كليب ناقها بين
أينقه فأنكرها ، فلما سأل عنها أخبروه بأنها للبسوس جارة جساس ، فقال كليب :
أو قد بلغ من أمر ابن السعدية أن يحير على بغير إذن ؟ ارم ضرعها يا غلام !
فأخذ القوس فرمى ضرع الناقة فاحتلط دمها بلبنها وراحت الرعاة فأخبروا
جاساً بنجرها ، قتار ، وغضب لأن جارتها وخالته أذلت . وقتل كليياً سيد
مُضر ، وكان هذا سبباً فى حرب صروس ، ظلت مشتعلة أمداً طويلاً . وقتل
فيها خلق كثير من بكر وتغلب على السواء^(١) .

وقد أعز العرب حلفاءهم والمتحرمين بحوارهم ، وأنزلوهم منزلة أنفسهم
وأهليهم ، حتى إن قريشاً كانت تأبى أن تزوج بناتها من غير قرشى إلا أن
يكون حليفاً لها . بل لقد بلغ من منزلة الجار الحليف لدى بعض القبائل أنه
كان يُعد من لأهل ويره الخير إذا مات وهو ندواره^(٢) وكأوا يذهبون
بالجوار إلى ما بعد الموت ، كما فعل عامر بن الطفيل مع الأعشى حين استجار به
فقال له أتجبرنى من الإيس والجُن ؟ قال : قد أجبرتك . قال : ومن الموت ؟

قال : نعم ، قال : وكيف تجيرني من الموت ؟ قال : إن مت وأنت في جوارى
بعثت إلى أهلِكَ الدية . قال : الآن علمت أنك قد أجرتني من الموت .

ولقد كانت حامية الجار وإعزازه مفخرة يلهج بها شعراؤهم ، ويتمدح بها
رجالهم ، وفي ذلك يقول أسد بن كرر يفتخر برد العداة عن جاره :

وما جار يبتى بالدليل فترتجى ظلامته يوماً ولا بالتهضم
ويقول السَّمُول :

وما ضرنا أنا قليل وجارنا عزيز وجار الأكثرين ذليل
ويقول عدى بن زيد يمدح بني شيبان :

إني حمدت بني شيبان إذ خمدت نيران قومي ، وفيهم شُبْتُ النارُ
ومن تكثرهم في المحل أنهم لا يعلم الجار فيهم أنه الجار
حتى يكون عزيزاً من نقوسهم أو أن يبينَ جميعاً وهو مختار
كأنه صدَّعَ في رأس شاهقة من دونه لعتاق الطير أوكارُ
ويوصي المتقبُّ العبدى ابنه بإكرام الجار ومعرفة حقه فيقول :

أكرم الجار وراع حقه إن عرفان الفتى الحق كرم
ويقول : زهير :

وجار البيت والرجل المنادى أمام الحى عقدهما سواء^(١)
ويدرك الجار أنه عزيز بين من لجأ إليهم ، وأسلم يمنعون من الضيم ،

(١) الأثنى ج ٦ ص ٨٩ ، المنادى : المحال في الدى ،

ويسدون مفارقة ومخارمه كما قال شقران مولى سلامان من قضاة :

لو كنت مولى فيس عيلان لم تحدد على لسان من الناس درهما
ولكننى مولى قضاة كلها فلت أبالى أن أدين وتفرما
كان الفتى العربى يرحب بكل قادم إليه ، وكل لاجئ يطلب عونه .
لا يسأله : من هو ؟ وما أصله ؟ وما سب خوفه ؟ بل يسمح حمايته بدون تريث
أو بلوم . وفى هذا ولا شك بعض المخاطرة فقد يكون اللاجئ مجرمًا أثمًا .
وكى من عظماء أصفوا حمايتهم على بعض المجرمين وهم أعداء الأسرة والعشيرة
والقبيلة جمعاء . كان العربى يسمح حمايته لمن يطلبها بريثًا أو مجرمًا ، ظالمًا
أو مظلومًا صد كل لسان . ويعد من نقص المروءة أن يعلم المرء السبب الذى
دفع اللاجئ إليه قبل أن يمد له يد المساعدة ويقبله . فقد كان هذا سمة الصنف
والجس ولحور وحده لعمى العربى أن يرمى لأصناف مثل هذه الصفات ، وأن
يوصم بها . لى إن هذه المحصرة المحمية نصعد وناحد ، وركبو عن
كبرت هم سقى القتل ، دلبلى على القرة وسكة الأذى بين القتل .
ودبل على لشماره المقتة . اتى لاتحد حدود ، ولا تقيد قيود . رلة
جرب . حتى يفتح سس لكرث ويسيدو تبحر . رهو
أند لى رحره

وسيرى يرب
من حفر عوده . ويقتله . من سكر . يمه . سره .
ريه . لى سحره . ره . ريه . ريه . ريه . ريه .
سد حر . وشحر ديمته ريه تقم . ره . ره . ره . ره . ره . ره .

ولهذا كان الفتى العربى الذى يخشى الوقوع فى مثل هذا الإحراج ، ويريد الانتقام لشرفه المخدوش ، أو يأخذ بثأره من عدو مبين ، يضمن عليه بالصفح والمغفرة ، يعلن على الملأ أنه يحمى كل لاجئ إلا أن يكون فلاماً ، فإذا تمكن من خصمه فى أى مكان كان فى حل من أن ينتقم لنفسه من غير لوم أو تعذير . ويعلم هذا الخصم حينذاك أنه ليس فى مأمن إن دنا منه أو ألقى بنفسه فى طريقه ، ولذلك يتحاشاه إن كان غير قادر على مقارعته .

وقد يبلغ بعض الرجال من الشهرة والعظمة أو الإحسان درجة لا يستطيع بعض الناس أن يحيروا من يطلبونه بوتر أو قصاص ، ولذلك يعان من يُطلب منه الجوار والحماية أنه يحير اللاجئ إليه إلا إذا كان فلاماً طريد فلان ؛ رعاية منه لحرمة وسابق فضله عليه .

وإذا أساء الجار ، ولم يرع حرمة البيت الذى آواه ، نخسة فيه ، أو نزو وطيش ، استنكفوا أن يهينوه وهو متمتع بحوارهم . وقد حدث لفاطمة بنت الخشرب^(١) أم الربيع بن زياد أحد سادات بنى ذبيان ، أن جارها راودها عن نفسها فى غيبة أولادها ، فامتنعت عليه . فلما بلغ به النزق والسفه مبلغاً كبيراً ، وحشيت العار ، نادت ابنها الربيع فأخبرته بما فعله ذلك الجار الأحمق ، فامتشق سيفه وأراد أن يقتله ، ولكن راحته نفسه ، وقال : لا أريد أن أؤنس اسم أمى وأربق دم جارى ، وعفا عنه ، وهى حادثة مشهورة فى كتب الأدب . وهذا العرفى منتهى الحلم والكرم .

(١) وكانت فاطمة هذه تسمى أم السكيلة . وهى التى قالت فيهم المثل المشهور : لأنهم كذاقة البقرة لا يدري أين طرفها ، ومن أنشأ التى ضربتها وصارت ذخيرة لأعرب قوتها حسبك من شر ما . . . ن . ن . ن سرقة أيام حرب داحس والغبراء .

وقد بلغ من تطوعهم لحماية الضعفاء أنهم كانوا يجيرون الوحش ، ويجيرون الطير ؛ راحة منهم وفرط ثقة بمكاتهم وقوتهم ، وموقف عمرو بن العاص من اليمامة التي اتخذت من فسطاطه ملجأ ، وباضت فيه وفرخت ، ولم يشأ أن يزعمها بتقويض الفسطاط حين عزم على غزو الإسكندرية حتى يكبر أولادها ، وتأمين على نفسها وعليها ، مشهورة في كتب التاريخ والأدب .

٢ - ومن مظاهر حماية الضعيف تلبية دعوة المكرويين في الحرب ، بدون تردد أو سؤال فكانوا إذا سمعوا الاستغاثة نهضوا للنجدة لساعتهم .

لا يسألون حين أخاهم يندبهم في النائبات على ما قال برهاسا ويكونون كما قال وذاك المازني :

إذا استنجدوا لم يسألوا من دعاهم لأية حرب أم بأى مكان
أو كما قال الخطيئة يصف فنياً شجعاناً :

وفتبان صديق من عدى عليهم صفائح بصرى علت بالعواقق
إذا مَدَعُوا لم يسألوا من دعاهم ولم يمسكوا فوق القلوب الخوافق
وطاروا إلى الجرد العتاق فالجوا وشدوا على أوساطهم بالمنطق
ووثب آء لفرير وغاث الصاء ربح وموى برمين مردو
أحلوا حياض اخد فري حدمه يكتف موصى من رحوه ليس بقى

وكان القتبان يفخرون بتببيتهم دعاء مكروب . رد . محزون ، وشنعر المعري غاص بمنل هذا الفخر . ستمع بنى دريد بن النمس يقرر لامرأته حين عذرنه بفوقها : قد سذنت وضئمت حسكت ، رقت همت ، وفى نسبك .

ولا مال لك ولا عُدَّة فلي أي شيء مُعَوِّلٌ إن طال بلك العمر ؟ وعلى أي شيء
يخاف أهلك إن قتلت ؟ ! :

أعاذلُ إنما أفنى شبابي ركوبى فى الصريح إلى المنادى
مع الفتيان حتى كَلَّ جسى وأفرح عاتق حُلِّ التَّجَاد
أعاذلُ عدتى بدنى ودمعى وكل مُفْلَصٍ شَكِسِ القياد
ويبقى بعد حلم القوم حلمى ويفنى قبل زاد القوم زادى
ولقد مرر بنا عند الكلام عن الشجاعة أكثر من مثل على سرعة استجابتهم
للصريح ، وإغاثتهم للمهوف ، وهذه سمة الفتوة الحقة ؛ لأنها تطوع وبضحية ودفاع
عن ضعيف .

٣ — ومن حماية الضعيف فكُّ العانى الذى أسرفى حرب ، وقد يكون
ذلك عن طريق المغامرة فى سبيل إقاده عَنوة ، أو عن طريق الفداء ، ودفع ما يطلبه
مَنْ أسره من مال . وهذه مفخرة أخرى يتغنى بها الشعراء ، ويمدح الشجعان .
استمع إلى الحسناء تمدح أخاها صخرأ بقولها .

إبنى قد علمتُ وَجَدَكَ بالمد وإطلاقك العماة الجباحا

وقولها

رَدَّادُ عادية فَكَأُ عاية كضيقم باسلٍ للقرن هَسَّار^(١)

ويقول زهير يمدح هرم بن سنان

عمرُ آيَضُ فَيَاضُ يُمَكِّكُ من أيدى العماة وبن اعلاقها الرُّبَّاء

(ر) عاية : أسيرة ، والصينيم : الأسد ، والقرن : نداء المارة وكمؤه فى القتال

ويقول حاتم الطائي يفتخر .

وفد علم الأقوام لو أن حاتما أن
فأني لا آلو على صيغة
يُفكّ به العاني ويؤكل طيباً
وتقول في موضع آخر .

إذا كان، نعى لئال ربّاً لأهله
فأني بحمد الله مالى مُعبّد
يُفكّ به العاني ويؤكل طيباً
ويعطى إذا منّ البخيل المُصرّد^(١)

٢ - ومن حماية الضعيف الدفاع عن المرأة ، وهذا هو أول شروط الرجولة
الحقة ، والدفاع عنها - فصلاً عن أنه دفاع عن مخلوق ضعيف - ، دفاع
عن العرض والشرف ، وهو أعظم ما يهتم به العربي . وكان من العار البالغ عند
العربي أن تؤسر أساؤه ، وفي ذلك يقول يزيد بن حنظلة يحرص قومه على
الاستبسال في القتال .

من قرّ منكم قرّاً عن حرّيته وجاره وفرّاً عن بديته
وساقص عيّك فيما بعد بساة ربه بن مكّدم في الدفاع عن امرأته ، ويسعى
المدافع عن النساء والأعراض حامى لدمار ، وحماية الدمار . خير ما يفخر به
الفتى العربي ليصون عرضه ويصنّ عيته وفي ذلك يقول . زهير بن جندب .

حامى لدمار على محض
حرّاً بين مُعَيَّبِ الصّدور
ويقول عمرو بن كثر :

(١) المصرد : اسم ناعل من صرد ، صرد : ارتدى ، ويزن السقي دون يرى .

على آثارنا يعض كرامٌ نحاذر أن تفارق أوتهونا
 ظلمن من بنى جشم بن بكر خلطن بميسم حسبا ودينا
 إذا ما رحن يمشين الهوينا كما اضطربت متون الشارينا
 يقن جياننا ويقلن لستم بعولتنا إذا لم تمنعونا
 ومن حماية المرأة عدم التعرض لها بسوء ، والمحافظة على غفافها وعلى حرمتها
 على حد قول عنزة العبسي :

وأغص طرفي إن بدت لي جارتى حتى يوارى جارتى مأواها
 وتقول حاتم الطائي يفخر بعنته واحترامه لحرمت جاره :

وما صر جاراً يا ابنة القوم فاعلمى يحاورى ألا يكون له ستر
 بجبي عن جارات قومي عقلة وفي السمع مى عن حديثهم وقر
 وقول الخنساء في أخيها :

لم تراه جارة يمسي بساحتها لربيع حين يحلى بيته الحار^(١)
 ورثي أعنى باهلة المستر من وهب بقوله :

لا يهتك الستر عن أنثى يطالعها ولا يشد إلى جاراته النظرا
 ويمول عمرو بن الإطاة الحزرجي في آداب الفتوة سلوك الفتيان نحو
 دبره وحاراته .

إب من القوم الدين إذا تدر دهر محق الله ثم البائل^(٢)

(١) رد : نره .

(٢) الرد : - حوا ، في اسدى نمران دى ، وإيا نزل : طاء السائلين .

وبعد فهذه هي الفتوة العربية في صورتها الأولى ، أيام أن كان العرب أميين لا يقرأون ولا يكتبون ، وليس لهم حكومة منظمة ، أو رئيس واحد يدينون له بالطاعة ، ولا يعرفون قانوناً سماوياً أو وضعياً ، وليس لهم من هادٍ سوى فطرهم السليمة ، وما توحى به تلك الطبيعة القاسية التي تحيط بهم ، وما تفرض عليهم صحراؤهم من عادات وطباع .

لقد جعلتهم هذه الأخلاق الكريمة التي دأبوا على التطبع بها قروناً قبل الإسلام ، حتى تمكنت من نفوسهم ، وأحلوها محل الشريعة المفروضة ودانوا لها جميعاً — أهلاً لأن يبعث فيهم خاتم الأنبياء . وسيد المرسلين ، ليكونوا « خير أمة أخرجت للناس » ، وليحملوا نور الهداية وهاجاً إلى العالمين . لقد اختارهم الله من بين شعوب الأرض قاطبة لحمل الرسالة الكريمة ؛ لأنهم تميزوا عن معاصريهم بخلال وسجيا وعُرف كريم ، ولأنهم خير من يفهمها ويستجيب لها ، ويعمل بها ، وينقلها إلى الناس كافة في جدٍ ودأب ، وتواضع ومرحمة ، ولذلك دان لهم العالم في يسر ، وفي أمد وجيز ؛ لأنه كان يثن من الظلم والبغى ، ولأنه كان في شوق بالغ إلى من يأسو جراحه ، ويأخذ بيده ، وينتشله من وهدة الرذائل ، وحماة المظالم ، ويدفعه إلى الطريق المستقيم : طريق النور ، والعدل ، والمساواة والمحبة برفق وحنان .

لقد كانت هذه الفتوة العربية التي نشأت فطرية في الجاهلية نموذجاً حياً للعالم وجاء الإسلام فأقرها وهدّتها . وعما أخذت أوروبا أنظمة الفروسية كما سترى ابن شاذان .

الفتوة في الإسلام

اشتهر الإسلام بأنه « دين الفطرة » ، والفطرة هي الخير ، والخير هو الغاية التي تهدف لها الإنسانية الكاملة . ولما كان العرب في الجاهلية على الفطرة ، فقد جاء الإسلام مهذباً ، ومكملاً ، وموجهاً لهذه الفطر العريية السليمة ، حتى يُعدَّهم لرسالة جليلة ، هي هداية العالم ، ولذلك قال تعالى :

« كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ، تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ » .

وقال تعالى :

« وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ : هُوَ اجْتَبَاكُمْ ، وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مَلَّةً أَيْكُمْ لِإِبْرَاهِيمَ ، هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ ، وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ ، وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ » .

لقد اتصف فتیان العرب في الجاهلية بكثير من خلال الخير ، ومكارم الأخلاق ، وكانوا قدوة لقومهم وزعماء لهم ، ويروى عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله : « إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ » ، فالحدیث الشریف یثبت أن عرب الجاهلية ، كان فيهم من يتحلى بمكارم الأخلاق ، وأن النبي عليه السلام قد جاء برسائنه العظيمة ليتمم هذه المكارم الخلقية .

لقد كان النبي عليه السلام من أشرف العرب أرومة ، ومجدها بيتاً ، وكان يعلم جيداً العلم ما يتحلى به قومه من خلق ، وما يشيرون من صفات ، ويعلم أن العرب قد تعرفوا في بينهم على سحر حميدة يحرمون بها . وهي

تلك الصفات الكريمة التي ذكرناها آنفاً ، وأن الفتوة العربية تراها واجبة لازمة . ولا أدلّ على أن رسول الله كان يعجب بمن اتصف بهذه المكارم من عرب الجاهلية من موقفه مع سنانة بنت حاتم الطائي ، وسأذكر الحديث كما روى عن علي بن أبي طالب (١) ؛ لأن في المقدمة التي صدر بها كلامه مغزى عظيم . قال علي — كرم الله وجهه — يا سبحان الله ! ما أزهّد كثيراً من الناس في الخير ! عجبت لرجل يحبه أخوه في حاجة فلا يرى نفسه للخير أهلاً ، فلو كنا لا نرجو جنة ، ولا نخاف ناراً ، ولا ننتظر ثواباً ، ولا نخشى عقاباً لكان ينبغي لنا أن نطلب مكارم الأخلاق ، فإنها تدل على سبيل النجاة .

فقام إليه رجل فقال : فذاك أبي وأمي يا أمير المؤمنين ! أسمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم ، وما هو خير منه ، لما أتينا بسبايا طيء كانت في النساء جارية حماء (٢) ، حوراء العينين لعماء (٣) لمياء عيطاء ، سماء الأقف ، معتلة القوام . فلما رأيتها أعجبت بها ، فقلت . لأطابنّها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليجعلا من قيتي ، فلما تكلمت أسيت جهاها ، لما سمعت من فصاحتها ، قالت . يا محمد ، هلك الوالد ، وغاب الرافد ، فإن رأيت أن تخلي عني ، فلا تُشمت بي أحياء العرب ؛ فإن بنت سيد قومي ، كان أبي يفلك العاني ، ويمي الذمار ، ويقري الضيف ، ويشبع الجائع ، ويخرج عن المكروب ، ويطعم الطعام ، ويفشي السلام ، ولم يردّ طالب حاجة

(١) الأغانى ص ٩٣ ج ١٦ ، رشح العيون لابن نباتة المصري ص ٧٣ ، وقصص العرب لأستاذ جاد المولى وأبو الفصح إبراهيم رعل البجائي ج ٢ ص ١٣ .
(٢) حماء : سواد .

(٣) لعماء : سواد مستحسن في النخلة ، لمياء : مثل اسماء ، وعيطاء : ملوكة العنق .

قط ، أنا بنت حاتم طيء . فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم . يا جارية ! هذه صفات المؤمن ، ولو كان أبوك إسلامياً لترحننا عليه خلوا عنها ، فإن أباهما كان يحب مكارم الأخلاق !

فعلى رضى الله عنه يرى أن مكارم الأخلاق ، وإن لم يكن مبعثها رغبة في ثواب ، أو خشية من عقاب تكفى للنجاة ، أو تدل على سبيل النجاة ، وموقف النبي عليه السلام مع سفانة ، وثنائوه على والدها أكبر دليل على أنه كان معجباً بهذا الخلق الكريم الذى اتصف به أبوها ، مع أنه لم يكن مسلماً تثنى الموعظة من ربه ، ويرى فى رسول الله أسوة حسنة ، ولكنه كان جاهلياً هدته الفطرة إلى الخير وإلى سبيل النجاة .

وهاك مثلاً آخر على إعجاب رسول الله عليه الصلاة والسلام . بما كان يتحلى به عرب الجاهلية من مكارم أخلاق : رافق أبو بكر وعلى بن أبى طالب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سيره . ثم انتهوا جميعاً إلى مجلس عديه السكينة والوقار ، وإذا مشايخ لهم أقدر وهيئات . فتقدم أبو بكر فسلم وفل . من القوم ! قالوا : من شيبان بن ثعلبة ، فالتفت أبو بكر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : بأبى أنت وقومى ؟ ليس بعد هؤلاء من عربى فى قومهم . وبنو لاه غرر فيهم ؛ وكان فيه . ففروى بن عمرو ، يمانى بن قبيصة رشتى بن حارثة والنعمان بن شريك . وكان مفروى بن عمرو بن غنم بن حنظلة بن نسيبة . وكانت له غدير بن (١) سقنم بن حارث . قالوا : انتم محسبكم من أبى بكر . فقالوا : تركنا . كيف

(١) الغدير : السؤدة رحاباً .

الألف ، ولن تغلب ألف من قلة ، فقال له : كيف المنة فيكم ؟ فقال . علينا الجهد ، ولكل قوم جد^(١) ، فقال أبو بكر . فكيف الحرب بينكم وبين عدوكم ، فقال : إنا أشد ما نكون لقاء حين تغضب ، وإنا لنؤثر الجياد على الأولاد ، والسلاح على اللقاح ، والنصر من عند الله ، يديلنا مرة ويديل علينا مرة ، لعلك أخو قريش ؟ فقال أبو بكر : إن كان ببلغكم أنه رسول الله ، فما هو ذا .

فقال مفروق : قد بلغنا أنه يذكر ذلك ، ثم التفت إلى رسول الله فجلس ، وقام أبو بكر يظله بثوبه ، فقال صلى الله عليه وسلم . « أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأني رسول الله ، وأن تؤووني وتنصروني حتى أؤدى عن الله الذى أمرنى به فإن قريشاً قد تظاهرت على أمر الله ، وكذبت رسوله ، واستغنت بالباطل عن الحق ، والله هو الغنى الحميد » .

قال مفروق : وإلام تدعو أيضاً يا أخا قريش ؟ فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى : « قل تعالوا أتتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً ، وبالوالدين إحساناً ، ولا تقتلوا أولادكم من إملاف ، نحن نرزقكم وإياهم ، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ، ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالحق هى أحسن ، حتى يبلغ أشده ، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا تكلف نفساً إلا وسعها ، وإذا قُلتُم فاعملوا ، ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ، ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون ، وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ،

ولا تتبعوا السُّبُلَ فتفرق بكم عن سبيله ، ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » .
 فقال مفروق . وإلام تدعو أيضاً يا أخا قريش : فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى : « إِنْ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى ، وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ » .

فقال مفروق : دعوتَ والله يا أخا قريش إلى مكارم الأخلاق ، ومحاسن الأعمال ، ولقد أَفَكَ قومٌ كذبوك وظاهروا عليك ، وكأنه أحبُّ أن يشركه في الكلام هانيُّ بن قبيصة فقال : وهذا هانيُّ بن قبيصة شيخنا .

فقال هانيُّ : قد سمعتُ مقاتلتك يا أخا قريش ، وصدقتُ قولك ، وإني أرى أن تركنا ديننا ، واتباعنا دينك لمجلس جلستَه إلينا ليس له أولٌ ولا آخر ، زَلَّةٌ في الرأي ، وطَيْشَةٌ في العقل ، وقلة نظر في العاقبة ، وإنما تكون الزَلَّةُ مع العجلة ، وإن من ورائنا قوماً نكره أن نقعد عليهم عقداً ، ولكن ترجع وارجع ، وتنظر وتنظر - وكأنه أحب أن يشركه في الكلام المثني بن حارثة - فقال : وهذا المثني شيخنا ، وصاحب حربنا .

فقال المثني : قد سمعتُ مقاتلتك ، واستحسنت قولك يا أخا قريش ، وأعجبني ما تكلمت به ، والجواب هو جواب هانيُّ بن قبيصة ، فإنما إننا نزلنا الصَّرَّيَّينَ^(١) :
 اليمامة والسَّمامة . فقال له رسول الله : وما هذان الصَّرَّيَّان ؟ فقال له : أما أحدهما فصُقوف^(٢) البر وأرض العرب ، وأما الآخر فَرَضُ فارس وأنهار كسرى . وإنما

(١) كل ماء مجتمع صرى ، وتثنيته صريان .

(٢) طغوف : جمع طوف وهو ساحل البحر وجانب البر .

نزلنا على عهد أخذناه علينا كسرى ألا نُخْذِثُ حَدَثًا ، ولا تُؤْوِي مُحَدِّثًا ، ولعلَّ هذا الأمر الذي تدعوننا إليه مما تكرهه الملوك ، فأما ما كان مما يلي بلاد العرب فذنب صاحبه مغفور ، وعذره مقبول ، وأما ما كان مما يلي بلاد فارس فذنب صاحبه غير مغفور ، وعذره غير مقبول . فإن أردتَ أن ننصرَكَ ونمنعَكَ مما يلي العربَ فعلنا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أسأتم الردَّ ؛ إذ نصحتهم بالصدق ، إنه لا يقوم بدين الله إلا من حاطه من جميع جوابه . ثم قال رسول الله : « أرايتم أن لم تلبثوا إلا يسيراً حتى يمنحكم الله بلادهم ، أتسبحون الله وتقدسونه ؟ » فقال له النعمان بن سريك : اللهم وإي ذلك لك يا أخا قريش ؟ ! فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى : « إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً » ثم نهض رسول الله عليه السلام قابضاً على يدي أبى بكر والتفت إلى علي ، وقال : يا علي ! أية أخلاق كانت للعرب في الجاهلية ! ما أشرفها ! بها يتحاذرون في الحياة الدنيا^(١) !

والحق أن الإعجاب كان متبادلاً بين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهؤلاء الأشراف من بنى تيبان ، الذين لم يهتدوا بعد بهداية الإسلام ، لقد أعجبوا بكلام النبي ، وموعظه القرآن ، واستحسنوا ما تصممت من حثِّ علي مكارم الأخلاق ، التي يضعونها في معاملتهم مقام القانون ، وآمنوا به ، أو أوتسكو أن يؤمنوا .

وأعجب النبي عليه السلام ، بصراحتهم وصدقهم ، كما أعجب بآرائهم

(١) راجع ابن كثير ص ١٥٤ ج ٤ . والروس ألف ص ٢٤٦ ج ١ ، وخص العرب

ج ١ ص ١٢٥ رد به .

وعلم تسرعهم في الأحكام ، وتقديرهم لمن وراءهم من قومهم ، فلا يرمون أمراً جلاً مثل هذا من غير أن يرجعوا إليهم ، وأعجب كذلك بوقائهم بعبودهم لكسرى أو شروان ، فلا يحدثون حدثاً أو يؤوون حدثاً ، وأعجب بتواضعهم وتقديرهم بعضهم لبعض ، فلا يستأثر أحدهم بكلام ، أو يدعى الرئاسة دون أصحابه بل يدعو صاحبه للحديث رافعاً لمكاته بقوله : وهذا شيخنا فلان ، ولذلك لم يسمع النبي عليه السلام إلا أن يقول في إعجاب : أية أخلاق كانت للعرب في الجاهلية ما أشرفها ! ما يتحاجزون في الحياة الدنيا ! أى أن أخلاقهم تقوم مقام القانون ، وأهم فيها عصمة ، وهي التي تهديهم إلى سبيل النجاة .

لقد جاء الإسلام منظماً لهذه الجماعة ، موجهاً هذه القوى المعنوية إلى وجهات أسما وأتشف : لقد كانت الشجاعة في الجاهلية تهدف إلى المجد الفردي أو القبلي ، فجاء الإسلام موجهاً لها ، إلى خدمة الأمة العربية جمعاء . وإلى الدفع عن مبدأ شريف ، ودين كريم ، مؤلفاً بين هذه القلوب المتحددة في الوسيلة المختلفة في الغاية ، فكان التأليف بين هذه القلوب الكريمة ، وجعلها قوة واحدة متحدة متجهة إلى عرض واحد من أهم وسائل لإسلام في نشر دينه قال الله تعالى لرسول : « تَوَاصَوْا بَيْنَكُمْ وَارْجِعُوا إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ الْوَسِيلُ إِنْ أَنْتُمْ تُؤْمِنُونَ » ، ولكن الله لا يهدي القوم الظالمين ، فالتأليف بين العرب يربطهم في أرض جميعاً من خبر ، لا يربطهم في تأليف غير سائر سائرهم بين أهل الأرض جميعاً .

والله اعلم بالصواب .

نتيجة العزلة بالبداءة والاكتفاء بوعي شئون العرب وحدهم ، وبين التوسع الذى يشمل نظر العرب إلى موقفهم من العالم المحيط بهم ، وبخاصة إذا أوشك أن يطنى عليهم فيهلك فضائلهم .

وجاء الإسلام كذلك منظماً للكرم العربى ، سواء كان كرم اليد ، أو القلب ، أو العقل ، جاعلاً معاونة الفقراء فرضاً بعد أن كانت أريحية وجوداً « والذين فى أموالهم حقٌ معلومٌ للسائل والمحروم » ، ليكون المجتمع مستنداً على دعامة قوية من التشريع ، فلا يترك أمر الزكاة إلى نخوة الأفراد إن شاءوا أعطوا ، وإن شاءوا منعوا ، ولكن إلى الحق الذى فرضه الله تعالى ، وحرص على الإحسان ، وجعل مثوبته عظيمة ؛ وذلك ليشبع الكرام والأجواد رغباتِ نفوسهم .

وجعل الصفح عن الإساءة ، وكظم الغيظ ، واحتمال الأذى من أكبر الصفات التى يحازى عليها فقال تعالى : « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم ، وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ، الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ ، والعافين عن الناس والله يحب المحسنين » .

وقال تعالى : « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ، وما يُلَقَّاها إلا الذين صبروا ، وما يُلَقَّاها إلا ذو حظٍ عظيم » .

ووضع أساس الكرم العقلى والتسامح فى قوله تعالى : « لا إكراه فى الدين قد بينت الرشد من الغي » .

أما الوفاء بالوعد فقد حث عليه القرآن الكريم فى غير موضع « والموفون

بعدهم إذا عاهدوا . والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » ولم يعد الوفاء بالوعد قاصراً على الأفراد في معاملاتهم الشخصية ، بل صار سمة المسلمين في جميع البلاد التي فتحوها ، وعاهدوا أهلها ، حتى ضرب بهم المثل في الوفاء وحسن المعاملة ، ولذلك دانت لهم الدنيا العريضة ، وأحبهم الناس ، وأعجبوا بدينهم فدخلوا في هذا الدين أفواجا . لقد كان العرب المسلمون قدوة لغيرهم من الشعوب . تمثل فيها الإسلام وتعاليمه روحاً وعملاً ، وخير المبادئ تأثيراً في النفوس ما كان أصحابها يؤمنون بها عامين على هداها لا يتنكرون لها أو يتهاونون في تطبيقها على أنفسهم .

وأما حماية الضعيف ، وإغاثة الملهوف ، والحرص على سعادة المرأة فكلها من الأمور التي حث عليها الإسلام ، ووعظ بها القرآن وجعل ثواب العاملين بها عظيماً ، قاله تعالى يوصينا : « بالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان محتالاً نفورا » .

وهذب النجدة فلم تعد نصرة المستغيث ظالماً أو مظلوماً ، ولكن تحولت إلى دفع عن الدين وحرمة المبدأ والعقيدة ، ونشر ألوية العدل وحرية بين الناس ، ولم تعد لمرّة الفباية . والعصبيّة الجاهلية هي الحفز للجهد ، وستشاق الخصم ، ولكن لدفع عن الحق ، ونصرة الدين ، وسيدة المبدأ . وإعز د العرب إسلامهم ودينهم هي الغاية وهي الساع والحفز .

ولقد استغل الإسلام هذه لأصول لأخلاقية متينة لدى العرب ، وهذبها وتماها وروحها وجمّة خيرة ، واستمد عيها في سر . بدنه : ووحدت لدعوة رحلاً فذاذ نسو على أديم صحراء فتهتّب قوتى معبر . عصية ، د . ر

تشربت قلوبهم حب الإسلام ، وتفهم معانيه وغاياته ، حتى امتزجت الفتوة العربية بالمثل الأخلاقية الدينية ، وأضيف إلى المجد الفردى ، وإعزاز العشيرة ، الرغبة في الثواب ، والرغبة من العقاب ، والعمل على السعادة في الدارين ، والسعى في خير المجموع ، وتقوية أواصر المحبة بين المسلمين أيما كانت قبائلهم وأيما كان ما بينهم من عداوة وحزازات في الجاهية ، « واعنصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون » .

لقد صار السادة في الجاهلية سادة في الإسلام ، ووجدت أمامهم الفرصة العظيمة لتتجلى مواهبهم الخلقية والعقلية في ميدان أوسع من ميدان العشيرة والقبيلة ، وفي بيئة أرحب من الصحراء المجردة ، ولولا ما كانوا عليه من خلق عظيم زاده الإسلام وتعالى به رقة ، ووجهه إلى الصالح العام ، مارأيت منهم القواد الأفذاذ ، والسادة المحنكين ، والقضاة العدول والحكام القادرين ، يقفون في جبين التاريخ وحدهم ، لأنهم يهرون العالم بالأسس التي وضعوها ، والنماذج التي ضربوها على غير مثال سبق ، أوحيدة أو تجرئة ، إلا وحي الفطرة ، وهداية الأخلاق ، وإرادة الدين .

لذا أصبحتهم الصحراء وهيأتهم للقيادة والسيادة والحكم ، فلما جاء الإسلام أصبح لهم الفرصة ليعملوا ويصمموا مزاياه على حقيقته .

و- ترى في الفصول التالية كيف أن أخلاق الفتيان . وتعاليم الفترة تملت في ... الأفذاذ ، وأنها تحولت من مزايا فردية إلى مبادئ عامة نطالب بها الأمة كلها . زدها لإسلامها إجمالا وكلا وتهذيباً

عن الدين الجديد ، وفي ذلك يقول جولد تسهير : ولم يكن الغرض فيما يتعلق بالجهاد الإسلامى يتجه أول الأمر إلى تغيير عقيدة الناس بإدخالهم فى الإسلام بقدر ما كان يرمى إلى إخضاع الكفار^(١) .

والجهاد فى سبيل الله يتطلب من المجاهدين قوة وفتوة ، وكان فى تعاليم رسول الله ، وفى سلوكه الخاص ، نماذج عليا لأتباعه وأصحابه :

١ — فقد صارع رسول الله صلى الله عليه وسلم رُكَّانة بن عبد يزيد وصرعه ، فقد روى ابن اسحاق : « أن رُكَّانة بن عبد يزيد بن هاشم بن عبد المطلب ابن عبد مناف كان من أشد قريش ، نخلًا يومًا برسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض شعاب مكة ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : يارُكَّانة ! ألا تتقى الله وتقبل ما أدعوك إليه ؟ قال : إني لو أعلم الذى تقول حق لاتبعتك ، فقال رسول الله : أفرأيت إن صرعتك أتفهم أن ما أقول حق ! قال : نعم ؟ قال : قم حتى أصارحك . قال : فقام إليه رُكَّانة يصارعه ، فلما بطش به رسول الله صلى الله عليه وسلم أضجعه ، وهو لا يملك من نفسه شيئًا ، ثم قال : عُذَّ يا محمد ، فماد فصرعه^(٢) .

والمصارعة من أنواع الرياضة التى تتطلب قوة جسمية ، والقوة الجسمية أول ما يتحلى به القتيلان كما مرَّ بك فى الفصول الأولى من هذا الكتاب .

٢ — وكان النبي عليه السلام يهتم بهذه الناحية الجسمية وتقويتها ، ويحث على الرياضة البدنية ، ويمارسها ، فى مسند أحمد وسنن أبى داود من حديث

Goldziher Vorlesunged über den Islam, P. 25. (١)

(٢) ابن هشام ج ٢ ص ٣١ .

عائشة قالت : سابقني رسول الله صلى الله عليه وسلم فسبقته ، فلبثنا ، حتى إذا أرهقني اللحم سابقني ، فسبقني ، فقال : هذه بتلك .

وفي رواية أخرى : أنهم كانوا في سفر فقال النبي عليه السلام لأصحابه : « تقدموا » ، فتقدموا ، ثم قال سابقيني فسبقته ، ثم سابقني وسبقني ، قال : هذه بتلك .

وفي صحيح مسلم عن سلمة بن الأكوع قال : بينا نحن نسير ، وكان رجل من الأنصار لا يسبق أبداً ، فجعل يقول : ألا مسابق إلى المدينة ، هل من مسابق ؟ فقلت : أما تُكرم كريماً ، وتهاب شريفاً ؟ قال : لا ، إلا أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : قلت : يارسول الله ، بأي أنت وأمي ، ذرني أسابق الرجل ، فقال : إن شئت ، فسبقته إلى المدينة .

وقد ثبت أن الصحابة تسابقوا على الأقدام بين يدي رسول الله بغير رهان^(١) .

٣ — وقد سابق رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الخليل ، في الصحيح من حديث ابن عمر قال : « سابق رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الخليل ، فأرسلت التي ضُمَّرَتْ منها ، وأمدّها الخفيا إلى ثنية الوداع ، والتي لم تُضمّر أمدّها ثنية الوداع إلى مسجد بني زريق^(٢) » .

وفي المسند من حديث أنس أنه قيل له : أكنتم تراهنون على عهد رسول الله ، قال : نعم ، والله لقد راهن رسول الله صلى الله عليه وسلم على فرس له

(١) الفروسية لابن القيم

(٢) الفروسية لابن القيم ص ٣ : في الصحيحين عن موسى بن عتبة أن بين الخفيا إلى ثنية الوداع ستة أميال أو سبعة ، ومن ثنية الوداع إلى مسجد بني زريق ميل .

يقال له سَبَّحَة ، فسبق الناس ، فبش لذلك وأعجبه . وفي مسند أحمد كذلك عن ابن عمر أن النبي سابق الخيل وأعطى السابق .

وقد سابق رسول الله بين الإبل كما سابق بين الخيل ، ففي صحيح البخاري عن أس بن مالك قال : كانت العضباء لا تُسَبَّقُ ، فجاء أعرابي على قعود ، فسأبها فسبقها وكان ذلك شقاً على أصحاب رسول الله فقال عليه الصلاة والسلام : **« إن حقاً على الله عز وجل ألا يرفع شيئاً من الدنيا إلا وضعه »** .

٢ — وكان الصحابة يناضلون بالرَّمي عن القوس في حضرته عليه السلام ، ففي صحيح البخاري عن سلمة بن الأكوع قال . مرةً النبی علیه السلام بفر من أسنم ينتضلون بالسوى فقال : ارموا بنى إسماعيل ، فإن أباكم كان رامياً ، ارموا وأنا مع بنى فلان ، قال : فأمسك أحد الفريقين بأيديهم ، فقال رسول الله . **« ما لكم لا ترمون ؟ فقالوا . كيف نرمي وأنت معهم ؟ فقال . ارموا وأنا معكم كلكم »** .

وقد حث النبي عليه السلام على الرماية ، وإجادتها ، وشجع المسلمين عليها فقال . **« إن الله يندخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة : صاعه المحسب في عمله الخير ، والرامي به ، والممد به ، فارموا ، واركبوا ، وأن ترموا أحب إلى من أن تركبوا »** .

وقال عليه السلام كذلك . **« ليس من اللهو محمودٌ إلا ثلاثة . تأديبُ الرجل فرسه وملاعبته أهله ، ورميه بقوسه ونبله ، فإنهن من الحق ، ومن ترك الرمي بعد ما علمه رغبةً ، فأبها نعمةً تركها »** .

وفي صحيح مسلم عن عُمَّة قال . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم

يقول : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة : ألا أن القوة الرمي ، ألا إن القوة الرمي » : وقال أيضا : « من تعلم الرمي ثم تركه فليس منا » .
وجاء في سنن أبي داود ، والترمذي ، والترمذي عن عمرو بن عبسة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من أعتق رقبة مؤمنة ، أعتق الله بكل عضو منه عضواً منه من النار ، ومن رمى بسهم في سبيل الله ، وبلغ العدو ، فأصاب أو أخطأ ، كان له عتق رقبة » .

وكان النبي عليه السلام يفضل الرماية على أنواع السلاح الأخرى ، وروى عنه أنه كان يخطب وهو متوكئ على قوس ، وقال أس : ما ذكرت القوس عند النبي عليه السلام إلا قال : « ما سبقها سلاح إلى خير قط » ، والحق أن الرماية أسكى للأعداء وأشد فتكا بهم ، وكم من كوكبة من الفرسان تحامت رامياً واحداً ، لأنه يضربهم عن بعد ولا يصلون إليه ، وكان العارفون بقنون الحرب القديمة يعدون كل سهم بتمام رجل ، فإذا كان مع الرجل مائة سهم عد بمائة رجل ، والخصم يخاف من الشباب أضاع خوفه من السيف والرمح^(١) .
ولم يكن النبي عليه السلام يشجع صحابته على الرماية بحسب ما كان فارساً شجاعاً يتقدم أصحابه دائماً في المعركة ، فقد روى في الصحيحين من حديث ثابت عن أس قل : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس ، وأجود الناس ، وأشجع الناس ، ولقد فرغ أهل المدينة بيلاً فركب فرساً لأى طمحة شرباً ، فخرج أس فإذا هو رسول الله قد ستهبى وصرت قد سدرت^(٢) .

(١) المروسية لابن القيم ص ١٥ — ١٦ .

وذكر ابن إسحاق في المغازي : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رمى عن قوسه يوم أحد حتى اندقت سيّتها ، فأخذها قتادة بن النعمان ، وأنه لما كان يوم أحد وأسند ظهره إلى الجبل أدركه أبي بن خلف ، وهو يقول : أين محمد ؟ لا نجوت إن نجا ، قال ابن إسحاق : وكان أبي بن خلف يلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة فيقول : يا محمد ! إن عندي العود - فرسًا له - أعلقه كل يوم فرقًا^(١) من ذرة أقتلك عليها ، فيقول : بل أنا أقتلك إن شاء الله . فلما أدرك أبي رسول الله صلى الله عليه وسلم له رجال من المؤمنين ، فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يلقوا طريقه ، واستقبله مصعب بن عمير أخو بني عبد الدار يقي رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه ، فقتل مصعب ، وأبصر رسول الله صلى الله عليه وسلم ترقوة أبي بن خلف من فرجة في سابتة الدرع والبيضة فطعنه بحربة ، فوقع أبي عن فرسه ، ولم يخرج من طعنته دم ، فكسر ضلعًا من أضلاعه ، فلما رجع إلى قريش ، وقد خدش في عنقه خدشًا غير كبير ، فاحتقن الدم ، قال : قتلتني والله محمد . قالوا له : ذهب والله فؤادك ، إنه ما كان بك من بأس ، قال : إنه قد كان قال لي بمكة . أنا أقتلك فأت عدو الله بسرف^(٢) وهم قافلون إلى مكة^(٣) .

هذا وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ذا جسم رياضي ، متين التركيب ، قوى البنية ، فقد جاء في كتاب الشفاء للقاضي عياض عن صفة النبي صلى الله عليه وسلم : أنه كان عظيم الصدر عظيم المنكبين ، ضخم العظام ، غبل العضدين والذراعين والأسافل ، رخب الكفين والقدمين ، ربعة القد ، ليس

(١) مكيال يسع ستة عشر رطلا .

(٢) مكان قرب التنعيم بجوار مكة بين عسفان وقديد .

(٣) القروسة ص ١٧ .

بالطويل البائن ، ولا القصير للتردد^(١) . وقال أبو هريرة : « مارأيتُ أحداً أسرع من رسول الله صلى الله عليه وسلم في مشيه كأنما الأرض تُطوى له ، إنا لنجهد أنفسنا وهو غير مكترث » . وهذا دليل صحة الجسم وسلامة تركيبه ، وقوة بنائه . والجسم السليم القوى أول إمارات الفتوة . وما يدل على أن النبي عليه السلام كان يعنى بهذه الناحية الجسمية ما فعل هو وأصحابه حين اعتَمروا بعد صلح (الحديبية) بعام ، فقد رآهم كفار قريش يطوفون بالكعبة فقالوا : سيطوف اليوم بالكعبة قوم نهكتهم حتى يثرب . فقال عليه السلام : رحم الله امرءاً أراهم من نفسه قوة ، واضطبع^(٢) عليه السلام بردائه ، وكشف عَصَدَه اليمنى ، شأن الفتوة وفضل مثله المسلمون ، فطافوا بالبيت آمنين .

أما شجاعته عليه السلام فقد ضُربَ بها المثل ، وأى شجاعة أعظم من مواقفه المشهورة التي فر فيها الكماة والأنطال ، وتركوه في حُفنة من خُنصائه ، وهو ثابت لا يبرح ، ومقبل لا يدبر ولا يتزحزح ، وما من شجاع إلا أُحصيت له فِرَّةٌ ، وحُفِظت عنه جولة إلا رسول الله .

قال ابن عمر : مارأيت أشجع ، ولا أنجده ، ولا أجودَ ، ولا أَرْضَى من رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال علي بن أبي طالب : إنا كنا إذا اشتد البأس ، واحمرَّت الحِدَق اتقينا رسول الله ، فما يكون أحدٌ أقرب إلى العدو منه ، ولقد رأيتني يوم بدر ، ونحن ملوذ بالبي عليه السلام ، وهو أقربنا إلى العدو ، وكان من أشد الناس يومئذ بأساً .

(١) المتناهي في القصر .

(٢) اصطباح المحرم أن يدخل الرداء من تحت راحته الأيمن ويرد طرفه على يساره ، ويبدى منكبه الأيمن ويمطى الأيسر ، سمى به لإبداء أحد الضبعين (لمصدين)

ولقد مرَّ بك موقفه يوم أحد وثباته وصبره ، وما موقفه يوم حنين ، وشجاعته الفائقة فيه بمجهول . كان المسلمون يزيدون على اثني عشر ألف رجل ، فأعجبته كثرتهم وكان فيهم كثير من الأعراب الذين لم يتمكن الإسلام من قلوبهم ، ومن مشركي^(١) مكة الذين خرجوا يشاهدون ، ويغنمون ، فلما خرج كمين العدو على مقدمة جيش المسلمين ، وصب عليهم وابلا من النبال كأنه الجراد المنتشر ، لوأا أعنة خيولهم متفرقين ، فلب الذعر في الجيش ، وفروا جميعاً حتى قال أبو سفيان بن حرب : لانتتهى هزيمتهم دون البحر ، وحتى قال أخ لصفوان بن أمية : الآن بطل السحر .

ولكن النبي صلى الله عليه وسلم لم يبرح مكانه ووقف على بقلته في قلة ضئيلة من أصحابه ، وهو يقول : أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب ، وأمر عمه العباس أن ينادي الأنصار ، فلما سمعوا نداءه أجابوه ، والتفوا حول رسول الله ، ثم هجموا على أعدائهم هجمة قوية فكان النصر لهم . ولولا ثبات رسول الله ، وفائق شجاعته في هذا الموقف لُفَّت خلق كثير ، ولأصاب الوهن نفوس المسلمين . ولقد قال عليه السلام : « إن الصبر في مواطن البأس مما يفرِّجُ الله به الهم ، وينجي به من الغم » .

وقد حدث له في غزوة غطفان حادث دلَّ على عظم شجاعته وثباته عليه الصلاة والسلام ، فقد نزل المسلمون على ماء يسمى (ذا إمر) فعسكروا به ، فزرع عليه السلام ثوبه يحفقه من مطر بللّه ، وارتاح تحت شجرة ، والمسلمون متفرقون

(١) مثل صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو ، وكان عدد هؤلاء المعركين ثمانين رجلاً في هذه الغزوة

فأبصره رجل يسمى دُثُور ، فأقبل إليه بسيفه حتى وقف على رأسه ، وقال : من يمنعك مني يا محمد ؟ فقال : الله ، فأدرکت الرجل هيبة ورعب أسقطا السيف من يده ، فتناوله عليه السلام ، وقال لدُثُور : من يمنعك مني ؟ قال لا أحد . فعفا عنه ، فأسلم الرجل ، ودعا قومه للإسلام^(۱) .

وأما كرمه عليه السلام فقد كان كذلك مضرب المثل ، قال جابر رضی اللہ عنہ ، ما سئل عليه السلام عن شيء وقال : لا ، وقال ابن عباس : كان عليه السلام أجود الناس بالخير ، وأجود ما كان في شهر رمضان . وقد مرَّ بك في أول هذا الفصل وصف خديجة له بقولها : إناك تصِلُ الرَّحِمَ ، وتحمل الكَلَّ ، وتكسب المعدوم ، وتفري الضيف . وتعين على نوائب الحق .

وقد أعطى أبا سفيان بعد غزوة حنين أربعين أوقية من الذهب ومئة من الإبل ، وكذلك ابنه معاوية ويزيد ، فقال له أبو سفيان ، وهو الذي كان يعاذه بالأمس : بأبي أنت وأمي ، لأنت كريم في السلم كريم في الحرب .

ورأى صفوان بن أمية يتطلع إليه وهو يوزع غنائم حنين ، وينظر إلى شغب ملوه بالنعم والشاه ، فقال له : هل يعجبك هذا ؟ قال : نعم ، ول : هولك ، فقال صفوان : ما طابت بمتل هذا نفس أحد ، وكان ذلك الكرم والإحسان سبب إسلامه .

ولما اجتمع عليه الأعراب وصاروا يقولون له : قسم عيب ، حتى أُلجئوه إلى شجرة فتعلق ردائه بها فقب : « ردُّوا عليَّ ردِّيَّ » . ثم ، والله إن كان في شجرة تهامة نَعْمًا أقسمته عيبكم ، ثم ما أنيتموني خيراً ولا حياً ولا كبراً ،

وعلى الرغم من أن النبي عليه السلام قد أوتي خزائن الأرض ، وما أحلت له الغنائم ، وفتح عليه في حياته بلاد الحجاز واليمن ، وجميع جزيرة العرب ، وما داني ذلك من الشام والعراق ، وجلب إليه كثير من أخماسها وجزئتها ، وصدقاتها ، وهاداه جماعة من الملوك ، فما استأثر بشيء منه ، ولا أمسك منه درهما ، بل صرفه مصارفه ، وأغنى به غيره ، وقوى به المسلمين وقال : ما يسرنى أن لى أحداً ذهباً يبيت عندي منه دينار إلا ديناراً أرصده لدينى .

وأنته مرة دنائير ، قسمها ، وبقيت منها بقية فدفعها لبعض نسائه ، فلم يأخذنه نوم حتى قام وقسمها ، وقال : الآن استرحت . وحمل إليه عليه السلام تسعون ألفاً ، فوضعها على حصير وأخذ يقسمها ، فما قام حتى فرغ منها . ومع كل هذه الأموال التى تدفقت بين يديه ، وجاد بها على المسلمين ، والمؤلفة قلوبهم ، فقد مات ودرعه سرهونة فى نفقة عياله . فهل بعد هذا سخاء يد ؟ ! .

وأما كرم قلبه ، فقد كان فيه قذاً ، لأن الله أنعم عليه بهذه الخلة الكريمة ليتم رسالته ، ويتألف قلوب الناس . « ولو كنت فظاً غليظ القلب لا نفضوا من حولك » وقال تعالى لنبى الكريم : « خذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ » ، وقد سأل عليه السلام جبريل عن تأويلها فقال : يا محمد إن الله يأمرك أن تصل من قطعك ، وتعطي من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك . وقال الله تعالى : « واصبر على ما أصابك إن ذلك ليمنّ عزم الأمور » .

وقال تعالى : وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ . وقال « وَابْنُ صَبْرٍ وَغَفَرٌ إِنْ ذَلِكَ لِمَنْ عَزَمَ الْأُمُور » .

وعلى الرغم من عظم ما أودى به النبي عليه السلام فى سبيل دعوته . ولا فى

من شدائد ينوء بحملها أشد الناس قوة وبأساً ، وأعظمهم صبراً ، فإنه كان ينظر إلى هؤلاء الذين آذوه ، وأخرجوه من دياره ، ونكلوا بأصحابه ، نظرة المشفق الرحيم . ولما جرح في أحد ، وسقطت كذبيته ، ودخل طرف الخفر في وجته ، وسال دمه ، ووقع في الحفرة ، وطلب منه المسلمون أن يدعوا على كفار قريش لم يزد على قوله : اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون .

ولما فتح مكة ، ولان له عصيها ، وهى التى طرده وآذته ، وحرضت العرب عليه ، وحاربتة غير مرة لم يزد على أن عفا وصفح حين تمكن منها ، وقال لهؤلاء الجفاة الغلاظ : ما تظنون أنى فاعل بكم ؟ قالوا : أخ كريم وابن أخ كريم ، فقال : اذهبوا فأنتم الطلقاء .

ولقد أحل دم بضعة نفر من أهل مكة لعظم جريمتهم فى حق المسلمين ، ولكنه عفا عنهم حين جاءوا تائبين طائعين مستجيرين ببعض الصحابة ، مثل عبد الله بن سعد بن أبى سرح الذى لجأ إلى عثمان بن عفان ، وعكرمة ابن أبى جهل الذى هرب وأراد أن يركب البحر فلحقت به زوجته وبنت عمه أم حكيم بنت الحارث بن هشام ، وكانت قد أسلمت قبل الفتح ، وقد أخذت له أماناً من رسول الله فقالت لعكرمة : جئتك من عند أبر الناس وخيرهم .

ومنهم هبّار بن الأسود . وقد هرب واختفى ، حتى إذا كان رسول الله بالجعرانة جاءه مسلماً ، وقال : يا رسول الله هربت منك ، وأردت اللحاق بالأعاجم ، ثم ذكرت عائدتك وصلتك وصفحك عن جبل عليك ، وكنا يا رسول الله أهل شرك فهدانا الله بك ، وأخذنا من الهلكة فصفح الصفح الجليل ، فقال عليه السلام . قد عفوت عنك .

ومنهم صفوان بن أمية ، وكان قد اختفى ، وأراد أن يذهب ، ويُلقى نفسه في البحر ، فحاء ابن عمه عُمر بن وهب الجمحي ، وقال : يا بني الله إن صفوان سيد قومه ، وقد هرب ليقذف نفسه في البحر ، فأمنه ، فإنك قد أمنت الأحمر والأسود ، فقال عليه السلام : أدرك ابن عمك فهو آمن ، فقال : أعطني علامة ، فأعطاه عمامته ، فأخذها عمر ، حتى إذا لقي صفوان قال له : فذاك أبي وأمي ، جئتك من عند أفضل الناس ، وأبرّ الناس ، وأحلم الناس ، وخير الناس ، قال صفوان : إني أخافه على نفسي ، قال : هو أحلم من ذلك وأكرم ، وأراه العمامة علامة الأمان ، فرجع إلى رسول الله . وقال له : إن هذا يزعم أنك أمنتني ؟ قال : صدق ، قال : أمهلني بالخيار شهرين ، قال : أربعة أشهر ، ثم أسلم وحسن إسلامه . ومنهم كعب بن زهير ، ولما ضاقت عليه الأرض بما رحبت ، جاء المدينة بعد أن عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم من فتح مكة ، وقال قصيدته المشهورة التي يقول فيها :

وقال كلُّ صديق كنت آمله	لا ألهينك إلى عنك مشغول
فقلتُ خلوا سبيلي لا أبالكمُ	فكلُّ ما قدر الرحمنُ مفعولُ
كلُّ ابنِ أُنَى وإن طالت سلامتهُ	يوماً على آلةٍ حَدباءَ محمولُ
أنبئتُ أن رسولَ الله أوعدني	والعفو عند رسول الله مأمول
مهلاً هداك الذي أعطاك نافلةً	قرآن فيها مواعظ وتفصيل

فلما قال :

إن الرسول لنورٌ يُستضاء به	مهندٌ من سيوف الله مسلول
خام عليه الرسول بُرْدتهُ .	

وكان من الذين اختفوا سهيل بن عمرو ، فاستأمن له ابنه عبد الله ، فأمنه عليه السلام ، وقال : إن سهيلاً له عقل وشرف ، وما مثلُ سهيلٍ يجمل الإسلام ، فلما بلغت هذه المقالة سهيلاً قال : كان والله برّاً صغيراً ، برّاً كبيراً . ثم أسلم بعد ذلك .

وبمثل هذا الخلق السمع ، والعفو الجليل عند المقدرة ، لانت لدعوته هذه القلوب الجاسية ، وصارت سيوفاً مشرعة تدافع عنه وعن دينه . وعن أنس قال : كنتُ مع النبي عليه السلام ، وعليه برؤٌ غليظ الحاشية ، فجذبه أعرابي بردائه جذبةً شديدة ، حتى أثرت حاشية البرد في صفحة عنقه ، ثم قال : يا محمد ! احمل لي على بعيرى هذين من مال الله عندك ، فإنك لاتحمل لي من مالك ولا من مال أيك . فسكت النبي ثم قال : المال مال الله ، وأنا عبده ، ثم قال : ويتماد منك يا أعرابي ما فعلت بي ، قال : لا ، قال : لم ؟ قال : لأنك لاتكفي بالسيئة السيئة ، فضحك عليه السلام ، ثم أمر أن يحمل له على بعير شعير وعلى الآخر تمر . هذا العمرى هو المثل الأعلى في كرم القلب . وقد أثني عليه الله سبحانه بقوله : « وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ » .

وأما كرم العقل وحرите ، فقد بلغ فيه عليه الصلاة والسلام الندية ، ولا أدل على ذلك من نفوره منذ حدوثه من مفسد انبيئة التي ببت فيها ، فلم يشرب الخمر قط ، مع أنها كانت شائعة بين قومه تسبوع عظيم ؛ لأنه رأى بفطره السليمة ، وعقله الحكيم ، أنها تجي على العقل ، وتدفع إلى كثير من تكبر . ولم يسجد لصنم قط . وكره عبادة الأوثان ، مع أن مكة كانت حافة بيده الأوثان يعظمها

قومه وآله كباراً وصغاراً ، وهو يراها كل يوم فوق الكعبة ، ولم يكن يحضر لها احتفالاً ولا عيداً مما يقوم به عبّادها ، بغضاً وشدة كراهية . وقال عليه السلام : لما نشأت بُغضتُ إلى الأوثانُ ، وبُغضُ إلى الشر ، ولم أهتم بشيء ، مما كانت الجاهلية تفعله إلا مرتين ، كل ذلك يحول الله بيني وبين ما أريد من ذلك ، ثم ما هممت بسوء بعدها ، حتى أكرمني الله برسالته : قالتُ ليلة لفلان كان يرعى معي : لو أبصرت لي غنى حتى أدخل مكة فأسمرُ كما يسمرُ الشباب ، فخرجت لذلك ، حتى جئت أول دار من مكة أسمع عزفاً بالدفوف والمزامير لغرس بعضهم . فجلست لذلك ، فضرب الله على أذني فتمتُ ، فما أيقظني إلا مسُّ الشمس ، ولم أقض شيئاً ، ثم عراني مرة أخرى مثلُ ذلك .

ولقد شهد ألدُّ أعدائه ، وأشدّهم بغضاً لدينه بأنه كان راجح العقل ، كامل الخلق منذ نشأته ، فهذا النضر بن الحارث من بني عبد الدار ، يقول لقومه حين اجتمعوا ليتفقوا على ما يقولونه للعرب الذين يحضرون الموسم ، ويبشرهم النبي بالدين الجديد : لقد كان فيكم غلاماً حدثاً ، أرضاكم فيكم ، وأصدقكم حديثاً ، وأعظمكم أمانة ، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم قتلتم ساحر !! لا والله ما هو بساحر .

ولما سأل هرقلُ ملكُ الروم أبا سفيان عن النبي عليه السلام حين جاءه كتابه يدعو فيه للإسلام : هل كنتم تهملونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال : لا ، فقال هرقل ما كان ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله . وكيف لا يكون أكرم الناس عقلاً ، وهو الذي جاء بالدين الحنيف الذي

حَرَّرَ عقول البشرية من الأوهام والخرافات ، وشرع لهم أكل تشريع ، وأحسن قانون ، وخاطب عقولهم قبل أن يخاطب عواطفهم ، وحثهم على أن يستخدموا حواسهم في تفهم آيات الله ، وإدراك عظمته ؟ !

ولم يكن النبي عليه السلام في تبشيره بالدين الحنيف فظاً ، أو متعصباً ، ولكنه كان يحاول الإقناع ، واحتثات جذور الشك والريبة من صدور الكافرين ، وتبيان الحق ناصحاً جلياً ، بمنطق سليم ، وقول حكيم . وقد أمره الله بهذا حيث يقول : « ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ، وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » .

وقال تعالى : وَكُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ ؟ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدْ اهْتَدَوْا ، وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ .

وقال تعالى : « وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ، وَقَالُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ ، وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ » .

وقال تعالى : « وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً ، أَفَنتُ تَكْفُرُهُ النَّاسُ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ؟ » .

وقال تعالى : « فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً ، إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ » .

وقال تعالى : « قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ، فَمَن تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأِنَّهُ عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ ، وَإِن تَطِيعُوهُ تَهْتَدُوا . وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ »

ولقد امثل الرسول الكريم عليه السلام لأمر ربه ، وجادلهم بالتي هي أحسن ، وقابل سفه عقولهم ، برحابة عقله ، وواسع حلمه ، وكلما أمعنوا في لجاجهم وعتوهم ، ازداد شفقة عليهم ورحمة بهم ، ولم ييأس من إقناعهم ، ومن استجابة عقولهم لدعوته ، على الرغم من قولهم : « قلوبنا كلف » « وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه ، وفي آذاننا وقْرٌ ، ومن بيننا وبينك حِجَابٌ » .

ومن دلائل هذا الكرم العقلي نهيه عليه الصلاة والسلام عن الاعتقاد في كثير من أوهام العرب وخرافاتهم ، فلا زجر ولا طيرة ، ولا فال ، ولا كهانة ، ولا عرافة ولا أنصاب ولا أزلام ، ولا غير هذا مما شاع بين العرب من مخلفات الإنسانية البدائية ، التي لا يقرها العقل السليم في تمام وعيه .

ومما يدل على كرم عقله وتسامحه عليه السلام معاملته للنصارى الذين وفدوا عليه ، وقبوله الجزية منهم ، ولم يجبرهم على الإسلام ، فقد وفد عليه نصارى نجران وكانوا ستين راكباً ، معهم بسط فيها تماثيل ومُسوح ، جاءوا بها للنبي عليه السلام ، فلم يقبل البسط لما فيها من تماثيل ، وقبل المسوح ، ولما جاء وقت صلاتهم صلوا بالمسجد مستقبلين بيت المقدس ، ولما أتموا صلاتهم دعاهم للإسلام فأبوا ، وقالوا : كنا مسلمين قبلكم ، فقال عليه السلام : يمنعكم من الإسلام ثلاث : عبادتكم الصليب ، وأكلكم لحم الخنزير ، وزعمكم أن الله ولدًا ، قالوا : فمن مثل عيسى خالق من غير أب ، فأنزل الله قوله عز من قائل : « إِنْ مَثَلْ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » . ودعاهم عليه السلام للابتهال فأبوا ، ورضوا بدفع الجزية ، فقبلها منهم .

وقد صالح صاحب أيلة ، وأهل جرباء وأذرح وأهل ميناء ، وهم نصارى ،

بعد أن غزا ديارهم ، وأمنهم على أموالهم ، ولم يُكرههم على الإسلام وكتب لهم عهداً فمن ذلك عهد عليه السلام لأهل أذرح وجرباء ، وصورته : « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب محمد النبي لأهل أذرح وجرباء لهم آمنون بأمان الله ، وأمان محمد ، وإن عليهم مائة دينار في كل رجب وافية حلية ، والله كفيل بالنصح والإحسان للمسلمين » .

وقد كان هذا الكرم العقلي والتسامح العظيم من الأسباب الأولى التي عملت على نشر الإسلام بالرفق واللين ، لا بالقوة والعنف ، ويقول السيرتوماس أرنولد : « إن إخفاق بعض البعوث التي أرسلها النبي إلى القبائل تدعوها للإسلام دليل على أن الجهود التي بذلت كانت ذات صفة تبشيرية خالصة ، كما تدل على أنها لم تكن تميل إلى استخدام القوة^(١) » ويعزو السير توماس أرنولد انتشار الإسلام بين العرب إلى « المعاملة الحسنة التي تعودتها وفود هذه العشائر المختلفة من النبي عليه السلام ، واهتمامه بالنظر في شكاياتهم ، والحكمة التي كان يصاح بها ذات بينهم » .

ويقول « قيطاني » في كتابه تاريخ الإسلام : « وقد أصبحت سرعة انتشار الإسلام بنوع خاص شيئاً ملموساً ، بسبب ما أظهره النبي من هيبة ، وما أبداه من روح التسامح والحرية ، وتحين المنسبت في علاقاته بالذين تحولوا إلى الإسلام »^(٢) .

• • •

أما الوفاء بالعهد فهي خاتمة مشهورة من خلائه "كريمة" : "يه "سلام قبل

(1) Sir I. W. Arnold : The Preaching of Islam. ch. 1.

(2) Leon Caetani : Annali dell' Islam. Vol. I. P. 663. Milano 1905.

البيعة وبعدها ، روى عن عبد الله بن أبي الخشاء قال : بايعت النبي عليه السلام ببيع قبل أن يُبيعت ، وبقيت له بقية ، فوعده أن آتية مكانه ، فقسيت ، ثم ذكرت بعد ثلاث فبحث فإذا هو مكانه ، فقال : يافتي لقد شقت علي ، أنا ههنا منذ ثلاث أنتظرُك .

ولما سأل هرقل أباسفيا ن عما يأمر به النبي عليه السلام قال : « يقول : اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئا ، وينهى عما كان يعبد أباؤنا ، ويأمر بالصلاة والصدق ، والعفاف ، والوفاء بالعهد ، وأداء الأمانة » . وسأله : هل يُغدر إذا عاهد ؟ قال : لا . وهذه شهادة خصم أمام ملك عظيم .

ولما عاهد عليه السلام قريشا في صلح الحديبية على أن من جاء المسلمين من قريش يردونه ، ومن جاء قريشا من المسلمين لا يلزمون برده ، شق ذلك على المسلمين وقالوا : سبحان الله : كيف نرد إليهم من جاءنا مسلما ، ولا يردون من جاءهم مرتدأ ؟ فقال عليه السلام : إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله ، ومن جاءنا منهم فرددناه إليهم فسيجمل الله له فرجا ومخرجا . وعلى الرغم من عظم هذا العهد وخطره ، وأن فيه مشقة على المسلمين الذين يهاجرون إلى النبي من قريش ، ويتحملون أين السفر والكلال ، ويتعرضون بعد ردِّهم لاإذا قومهم وفتنتهم ، فقد وفى به النبي عليه السلام ، ولم ينقض عهده معهم . جاء أبو جندل بن سهيل يَحْجِلُ في قيوده ، وكان من المسلمين الممنوعين من الهجرة . فهرب للمسلمين هذه المرة ليحموه ، فقال عليه السلام . « اصبر واحتسب . فإن الله جاعلٌ لك ، ولن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا ، إنا قد عقدنا بين القوم صلحا ، وأعطونا على ذلك عهداً فلا تغدر بهم » .

وتمكن أبو بصير عتبة بن أسيد الثقفي من الفرار إلى رسول الله ، فأرسلت قريش في أثره رجلين يطلبان تسليمه ، فأمره عليه السلام بالرجوع معهما ، فقال : يا رسول الله : أتردني إلى الكفار يفتنونني في ديني بعد أن خلصني الله منهم ؟ فقال : إن الله جاعل لك وإخوانك فرجاً ، فلم يجد بداً من إطاعة أمر رسول الله فرجع مع القرشيين ، ولما كانوا في الطريق عدا على أحدهما فقتله ، وهرب منه الآخر ، فرجع إلى المدينة ، وقال : يا رسول الله ! وَفَتْ ذِمَّتُكَ ، أما أنا فنجوت ، فقال له : اذهب حيث شئت ولا تقم بالمدينة .

ولقد حثَّ القرآن الكريم على الوفاء بالعهد : قال تعالى : وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا ، ولو كان ذا قُرْبَى ، وَبِهِدَى الله أَوْفُوا ، ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون » وقال تعالى : « ووافوا بالعهد إذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ، وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً ، إن الله يعلم ما تفعلون » .

وكان النبي عليه السلام أول ممثل لأوامر الله سبحانه وتعالى ، وأحسن قدوة للمسلمين « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة » . ولما بلغ ملك عُمان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الإسلام قال : « والله لقد دني على هذا النبي الأُمي : أنه لا يأمر بخير إلا كان أول آخذ به ولا ينهى عن شيء إلا كان أول تارك له ، وأنه يغيب فلا يبطر ، ويغيب فلا يضجر ، ويبى بالعهد ، وينجز الموعد ، وأشهد^(١) بي » .

وأما حمايته للضعيف ، وما اشتر به من الشفقة ورحمة ورفقة فقد أيدى الله سبحانه وتعالى في محكم كتابه بقوله : « عزيز شهيد مسميتم » ، حريص

(١) نور اليقين ٧٨٢ .

عليكم بالمؤمنين رءوفٌ رحيمٌ» وبقوله « وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين » ، روى أن أعرابياً جاءه يطلب منه شيئاً فأعطاه ثم قال : أحسنتُ إليك ؟ قال الأعرابي : لا ولا أجهلتَ . فغضب المسلمون ، وقاموا إليه فأشار إليهم أن كفوا ، ثم قام ودخل منزله ، وأرسل إليه ، وزاده شيئاً ، ثم قال أحسنتُ إليك ؟ فقال : نعم . فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً ، فقال عليه السلام : إلك قلتَ ما قلتَ وفي نفس أصحابي من ذلك شيء ، فإن أحببتَ فقل بين أيديهم ما قلتَ بين يدي ؛ حتى يذهب ما في صدورهم عليك . قال : نعم . فلما كان الغد أو الصبح جاء فقال عليه السلام : إن هذا الأعرابي قال ما قال فزدناه فزعم أنه رضى ، أ كذلك ؟ قال : نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً فقال عليه السلام : « مثلى ومثلى هذا ، مثلى رجل له ناقةٌ سردت عليه فاتبعها الناس ، فلم يزيدوها إلا تقوراً ، فناداهم صاحبها : خلوا بيني وبين ناقتي ، فإنى أرفقُ بها منكم وأعلم ، فتوجه لها بين يديها ، فأخذها من قدام الأرض فردها حتى جاءت ، واستناحت ، وشدت عليها ، رحلها ، واستوى عليها ، وإني لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار » :

ولقد أوصى بالضعفاء خيراً ، وأكثر من هذه الوصية : « اتقوا الله في الضعيفين النساء والعبيد » ، وقال في خطبة الوداع : « إنما النساء عندكم نَوَآنٌ لَا يَمْلِكْنَ لَأَنْفُسِهِنَّ شَيْئاً ، أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، فاتقوا الله في النساء ، واستوصوا بهن خيراً » .

ولقد كان رحياً بالضعفاء ، ولو كانوا أعداء مشركين ، يقاتلونه ، ويصدون عن دينه ؛ فقد أوصى الجيش الذى أرسله بقيادة زيد بن حارثة في غزوة

حُمُوتَةً^(١) بقوله عليه السلام : « أوصيكم بتقوى الله ، وبين معكم من المسلمين خيراً ، اغزوا باسم الله في سبيل الله من كفر بالله ، لا تغلبوا ، ولا تغلوا^(٢) ، ولا تقتلوا وليداً ، ولا امرأة ، ولا كبيراً قانياً ، ولا منعزلاً بصومعة ، ولا تقربوا نخلاً ولا تقطعوا شجراً ، ولا تهدموا بيتاً » .

لقد شملت رحمته جميع الضعفاء من الأناسي : الوليد الذي لا يملك دفاعاً عن نفسه ، والمرأة ، والكبير القاني ، والمتعبد في صومعته ، كما شملت النبات الذي لا ذنب له ولا جريرة ، بل شملت الجماد ، فأى رحمة كانت !

ولقد أمره الله سبحانه أن يجير المشرك إذا لجأ إليه ، وطلب حمايته . وهذا منتهى القوة والمروءة والرحمة بالضعفاء ، « وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ، ثم أبينه مأمّنه » . وإذا كان حَدْبُهُ على الضعفاء قد امتد إلى المشركين الذين يلجئون إليه ، فما بالك بالمسلمين ؟ !

وفي أحاديثه الشريفة ، وجوامع كلمه فيض من الرحمة والرأفة ، والتدخل لحماية المظلوم ورفع الظلم عنه ، والبر بالفقراء والمساكين ، والشفقة على الضعفاء والمنكوبين ، « مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اسْتَكَى مِنْهُ عَضُوٌّ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالنَّسَرِ وَالْحُمَى » .

وقال عليه السلام : ما أكرمَ شَيْءٌ شَيْخَانَسَهُ إِلَّا قِيَّضَ لَهُ تَحَنُّنٌ مِنْ يَكْرَمِهِ عِنْدَ رَبِّهِ » .

(١) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٢٧ . المعري ج ٣ ص ١٠٧ . سيرة الحسين ج ٣ ص ٧٦ ، ركعات غزوة مؤفة في السنة ثمان من عمره . ومؤفة - وضع : ضم على صريحين من بيت المقدس .

(٢) لا تغلوا : لا تخفونوا .

وقال عليه السلام : « إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يده ، أوشكت أن يعقّبهم الله تعالى بعقاب » .

وقال عليه السلام : « إن أحبكم إليّ وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً ، الموطئون أكنافاً الذين يألقون ويؤثقون » .

ونختم الكلام عن سيد للفتيان عليه الصلاة والسلام الذي تجت فيه النبالة العربية ، والهدى الإسلامى ، والتأديب الإلهى بأجلى ما يتبها لشر ، بهذا الحديث المأثور عنه ، والذي يدل آتم دلالة على ما يتطلبه عليه السلام من قومه وأتباعه من صفات الرجولة ، وإحقاق الحق ، ورفع الظلم ، قال عليه السلام : لا يكن أحدكم إمعة^(١) يقول : أنا مع الناس ، إن أحسن الناس أحسنت وإن أساءوا أسأت ، ولكن وطبوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا ، وإن أساءوا أن تتجنبوا إساءتهم » فهو فى هذا الحديث العظيم يحث على أن تكون لكل مسلم شخصية قوية ، لا نفى فى سواها ، وأن يكون عمله عن عقيدة ، لا عن اتباع ، وأن يتدخل لرفع الظلم وإحقاق الحق ، وعمل الإحسان وألا يحارى السفهاء والظالمين فى سفهم وإساءتهم . وهو بذلك يدعو عليه السلام إلى الاستقلال فى رأى الذى لا يحافى تعاليم الدين الكريم . وإن أمة يوجد فيها مثل هؤلاء لأمة جديرة بالسيادة ، لأن أخلاقها دللت لها الطرق المؤدية لسيادة العالمين ، وكذلك كانت هذه الأمة الكريمة « كُتِمَ خَيْرَ أمة أُخْرِجَتْ للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر » .

وقال عليه السلام : « اصبر أخاك طالماً أو مظلوماً . قيل : أبصره إذا

(١) الإمعة : المتردد القى لا يثبت على شىء ، أو هو الذى لا يضر ولا ينفع .

كان مظلوماً ، فكيف أنصره إذا كان ظالماً ؟ قال : تمجزه عن الظلم ، فإن ذلك نصره .

وهكذا رأينا في سيدنا محمد عليه السلام كيف أنجحت خلالُ الفتوة العربية إلى وجهة أعم وأكثراً إنسانية ، ترمي إلى الهداية والحق ، ولم يعد الزمُّ هو الشخص ، والمجد القبلي ، والدفاع عن العشيرة ، واكتساب السمعة الحسنة هي كل ما يريجه الفتي ، بل صار يعمل لخدمة الدين ، والمبدأ ، ويريد اكتساب الثواب والجنة ، فزاد ذلك من فتوته وحماسته ، ويقول قيطاني : « ذلك أن دخول الإسلام في المجتمع العربي لم يدل على مجرد القضاء على بعض العادات البربرية فحسب ، وإنما كان انقلاباً كاملاً لمثل الحياة التي كانت من قبل ^(١) » .

فتيان المسلمين

جعلت حرارة العقيدة السليمة ، وقوة اليقين المكين ، والقُدوة الصالحة الطيبة ، من رجال العرب الذين اعتنقوا الإسلام ، وصحبوا الرسول ، واهتدوا بهديه ، واقتبسوا من نوره مُثُلًا عليا فادرة في تاريخ البشرية ، حتى صار كل واحد منهم يعدل أمة كاملة ، في رجولته ورجاحة عقله ، ونفاذ بصيرته ، وتمام فتوته ، وكيف لا يعدل أمة وقد وُكل إليهم بعد وفاة نبيهم الكريم أن يحملوا رسالته إلى العالمين ، فحملوها إلى مشارق الأرض ومغاربها ، وفتحوا البلدان بأخلاقهم وهدْيهم قبل أن يفتحوها بسيفهم وغلبهم . وكانوا حكماء عادلين ، وقضاة منصفين ، وقادة مُحَنِّكين ، وساسة ذُهَّاء قادرين ، وسفراء مُعَظِّمين موقنين ، مع أنهم ظلوا في جزيرتهم قبل هذا الفتح المبين لم يبرحوها ، ولم يقتبسوا من غيرهم نَظْمه ومدنيته ، ولم يعرفوا شيئاً عن الإمارة والسفارة والقيادة ، ولكنه هَدَى الفطرة ، وتعاليم الإسلام الكريمة ، تمكنت من هذه الفلوب العظيمة ، ففاضت على البشرية نوراً وعدالة وسماحة ووفاء ، وأُنقذوا العالم من البنى والضلال والشُّقوة التي كان يعانيها على أيدي حكامه الفاسدين .

لقد كان صحابة الرسول هم القوة التي تُمدُّ المسلمين بالبور ، وتدفعهم إلى النصر ، وإيسى أدلّ على ذلك مما فعله خالد بن الوليد حين أمره أبو بكر رضي الله عنهما بالتوجه من العراق إلى الشام لمعاونة جيوش المسلمين في حربهم

ضد الروم ، حيث أراد الاستئثار بصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخذهم معه ، ولكنَّ اثْنَيْ بَنِ حَارِثَةَ الَّذِي خَلَفَهُ عَلَى جِيُوشِ الْمُسْلِمِينَ فِي الْعِرَاقِ غَضِبَ لِهَذَا الْاِسْتِثْنَاءِ بِصَحَابَةِ الرَّسُولِ وَقَالَ لَهُ : « وَاللَّهِ لَا أَقِيمُ إِلَّا عَلَى إِفْضَاذِ أَمْرِ أَبِي بَكْرٍ كَلَّهْ » ، فِي اسْتِصْحَابِ نِصْفِ الصَّحَابَةِ ، أَوْ بَعْضِ النِّصْفِ ، وَوَاللَّهِ مَا أَرْجُو مِنَ النَّصْرِ إِلَّا بِهِمْ فَكَيْفَ تُعَرِّبُنِي مِنْهُمْ ؟ » (١) .

وَالسَّرُّ فِي هَذَا أَنَّ الصَّحَابَةَ آمَنُوا عَنْ عَقِيدَةٍ ، وَامْتَلَأَتْ قُلُوبُهُمْ بِمَحَبَّةِ دِينِهِمْ ، وَهَدَى نَبِيِّهِمْ ، فَهُمْ أُخْرَى النَّاسِ بِالْاِسْتِثْنَاءِ فِي الْقِتَالِ وَطَلَبِ الشَّهَادَةِ ؛ لِأَنَّ حَرَارَةَ الْإِيمَانِ تَدْفَعُهُمْ ، وَصَحْبَةَ النَّبِيِّ وَسِيرَتَهُ تَرْشِدُهُمْ ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ سِوَاهُمْ مِمَّنْ دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ بَعْدَ الْفَتْحِ ، أَوْ ارْتَدَوْا ثُمَّ أَسْلَمُوا .

ثُمَّ لِمَهُمْ شَهِدُوا مَعَ الرَّسُولِ غَزَوَاتِهِ فِي سَبِيلِ الدِّفَاعِ عَنِ الدِّينِ ، وَثَبَتَ بِلَاؤُهُمْ ، وَتَأَيَّدَ لِدِينِهِمْ ، وَعَظُمَتْ تَحَرُّبَتُهُمْ ، وَسَمَتْ أَخْلَاقُهُمْ بِصَحْبَتِهِمْ لِلرَّسُولِ الْكَرِيمِ ، فَهُمْ فِي كُلِّ حَيْثُ الْقَبَسِ الَّذِي يَهْدِيهِ ، وَالْحُجَّةِ الَّتِي يَحْتُثُّونَ إِلَيْهَا ، وَالْقُدْوَةِ الَّتِي يَحْتَذُونَهَا ، ثُمَّ لِمَهُمْ حَفَظَةُ الْقُرْآنِ تَدْوِي بِهِ أَصْوَاتُهُمْ إِذَا اسْتَدَّ سَعِيرُ الْمَعْرَكَةِ ، فَيَزِدُّادُ الْجَيْشِ قُوَّةً وَيَقِيحًا .

لَقَدْ أَدَّبَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ بَنِيَّهِ فَحَسَنَ تَأْدِيبُهُ ، وَأَدَّبَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ صَحْبَتَهُ فَحَسَنَ تَأْدِيبُهُمْ ، وَلِذَا قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « أَصْحَابِي كَالْجُومِ فَبَنِيَّتُهُمُ اقْتَدِيَّتُهُمْ هَتْدَاهُمْ » فَكَانُوا أَجْزَلَ الرِّجَالِ وَأَتَمَّهُمْ عَقْلًا وَرَحُولَةً وَبَطُولَةً ، وَنَمَازَجَ فِزَادَةٍ فِي الْأَخْلَاقِ الْكَرِيمَةِ مَهْرَتِ الْأُمُومِ فِي عِزَّةِ مَسْكِنِهِمْ . وَزُيِّنَتْ عُرُوشُهُمْ وَرَتَّ لُهُمْ دِيَارُهُمْ . وَفَتَنَتْ الْمَسِيحِيِّينَ فِي أَرْضِ أَرُومَ عَنْ دِينِهِمْ فَدَحَوْا فِي دِينِهِمْ نَفُوحًا .

(١) الطبري ج ٤ ص ٢٨ ، ابن الأثير ج ٢ ص ٢٠٠ . ابن خلدون ج ٢ ص ٨٣ ،

فتوح البلدان ص ١٢٠ .

وفي ذلك يقول السير توماس أرنولد : « وإذا نظرنا إلى التسامح الذي امتد على هذا النحو إلى رعايا المسلمين من المسيحيين في صدر الحكم الإسلامي ، ظهر أن الفكرة التي شاعت بأن السيف كان العامل في تحويل الناس إلى الإسلام بصفة التصديق^(١) » . وهذا التسامح هو من أثر التعاليم الإسلامية التي وردت في القرآن الكريم ، ومن أثر معاملة النبي عليه السلام لأعدائه وقدمته للصحابه ، ولقد أوصى بأهل الذمة خيراً ، وروى عنه عليه السلام قوله : « من ظلم معاهداً ، وكلفه فوق طاقته فأنا حبيجه إلى يوم الدين^(٢) » ، وسأعود إلى هذا الموضوع بعد قليل إن شاء الله .

١ — أما الشجاعة فقد كان المسلمون الأولون أبطالاً لا نستثنى منهم أحداً ولا سيما هؤلاء الذين سبقوا للإسلام ، وعُذِّبوا في سبيل عقيدتهم ، وحاول قومهم فتنهم فلم ينالوا منهم شيئاً بل زادهم ثباتاً ، وإيماناً ، وهاجروا بدينهم في سبيل الله ، وهؤلاء الذين استقبلوا المهاجرين في ديارهم وشاطروهم أموالهم ومساكنهم ونصروهم وأعزوا دينهم ، وافتدوا رسول الله ورسالته بأرواحهم وأموالهم .

لقد أرادت قريش أن تستأصل هذه الفئة المسلمة التي تعبد الله حق عبادته ، ولا تشرك به شيئاً حتى تستريح من هذا الدين الجديد ، واضطر محمد عليه السلام ومن معه إلى الدفاع عن دينهم وحايته ، وكانوا قلة فقيرة ، يحاربون عرباً أقوياء أثرياء ، لهم شجاعة وبأس ، بيد أن حرارة الإيمان وقوة

Sir T. Arnold The Preaching of Islam. .ch 3.

(٢) ابلاذرى ص ١٦٢ .

«التيين جعلت من هؤلاء المسلمين أبطالاً مغاويراً» ، فكان الواحد منهم يعدل في أول الأمر عشرة من المشركين في قوة بأسه ، وشدة شكيته ، وصبره على الجهاد والبلاء ، وفي ذلك يقول الله عز وجل : « يا أيها النبي حَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ، إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ ، وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، بَأْنَهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْهَمُونَ » (١) .

وكان هذا ثقةً عظيمةً بهؤلاء المسلمين الأولين ، ولكن الله خففَ عنهم بعد ذلك وجعل كلا منهم عدِيلاً لرجلين من المشركين : « الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ، فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ ، وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ يَازِدُ اللَّهُ ، وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ » (٢) .

ومما زادهم بأساً وصرامةً وحرصاً على الموت ما وعدهم به الله سبحانه من الجنة والثواب العظيم إذا استشهدوا في سبيله : « وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ » (٣) .

وقال تعالى : « فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ ، حَتَّى إِذَا أَثْنَتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ ، فِيمَا مَنَّا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ، حَتَّى تَضَعَ أَخْرَبُ أَوْزَارِهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَاتَّصَرَ مِنْهُمْ ، وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضُكُمُ بَعْضًا ، وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ . سَيَجْزِيهِمْ وَيُصْلِحُ بِأَلْهِم ، وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَصَرُّوا لِلَّهِ بِصُرْكُمُ وَيَتَّبِعْ أَعْدَاكُمْ » (٤) .

(٢) سورة الأمان : الآية ٦٦ .

(٤) سورة محمد : الآيات ٤ ، ٥ ، ٦ .

(١) سورة الأحقاف : الآية ٦٥ .

(٣) سورة البقرة : الآية ١٥٤ .

وقال تعالى : « ولا تحسبن الذين قُتِلُوا في سبيل الله أمواتاً ، بل أحياء عند ربهم يُرزقون » (١) .

وقال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تُنَجِّيكُم مِن عَذَابِ أَلِيمٍ ، تؤمنون بالله ورسوله ، وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون . يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ ، تجري من تحتها الأنهار ، ومساكن طيبة في جنات عدن ، ذلك هو الفوز العظيم ، وأخرى تحبونها ، نصرٌ من الله وفتحٌ قريبٌ ، وبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ » .
ولقد حَرَّضَ النبي عليه السلام المؤمنين يوم بدرٍ بقوله : « والذي نفسُ محمد بيده لا يقاتلهم اليومَ رَجُلٌ فَيُقْتَلَ صابراً محتسباً ، مقبلاً غير مُدبرٍ إلا أدخله الله الجنة » فقال عُمرُ بن الحُمام - وفي يده تمراتٌ يا كلهن : بَخْ ، بَخْ ! أفا يبنى وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء ؟ ثم قذف التمرات من يده ، وأخذ سيفاً فقاتل حتى قُتِلَ (٢) .

وخطب عبد الله بن رَوَاحَةَ الجند يوم مُؤْتَةَ بقوله : يا قوم ! إن التي تكرهون لتي خرجتم تطلبون من الشهادة ، وما قاتلُ الناس بعددٍ ولا قوة ولا كثرة ، ولا قاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به ، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين : إما ظهور وإما شهادة » ، ولما قتل زيد بن حارثة يوم مؤتة ، وأخذ الراية جعفر بن أبي طالب ارتجز وقال :

يا حَبْذا الجمة واقترابها طيبة وبارداً سرايبها

(١) آل عمران آية ١٦٩ .

(٢) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٧٩ .

والروم رومٌ قد دنا عدائُها كافرٌ يمسدُ أنسابها ،
على إذ لاقيتها صراها^(١)

ولقد ظهرت شجاعتهم الفاتكة وحبهم لبيهم واستماتهم في الدفاع عنه يوم
أحد ، هذا أبو دُجانة يَتَعُ النبل في ظهره وهو مُنَحْنٌ يحمى النبي عليه السلام
بجسده ، وبشاركه سعد بن أبي وقاص ، ويدافع عنه طلحة بن عبيد الله حتى
تَشِلُّ يُلُهُ^(٢) .

لم يكن الأمرُ أمرَ شجاعة فحسب ، ولكنها شجاعة منبعثة عن عقيدة ،
يضحى فيها المسلم بكل شيء في سبيل إعزاز دينه ، يضحى فيها بأمه وأبيه ، وولده
وكل عزيز لديه . لقد مرَّ النبي عليه السلام وهو عائد من أحد على امرأة من بني
دينار قد أصيب زوجها وأخوها وأبوها بأحد ، فلما نَعُوا إليها قالت : ما فعل رسول
الله ؟ قالوا : خيراً ، هو بحمد الله كما تحمين . قالت أرونيه حتى أنظر إليه ، فاشير
لها إليه ، حتى إذا رآته قالت : كل مصيبة بعدك جَلَل !

ولما قال عبد الله بن أبيّ رئيس المناقبين بالمدينة في غزوة بني المصطلق :
« أما والله لئن رحنا إلى المدينة لُيُخْرِجَنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ » وغضب رسول
الله والصحابة لهذه القالة الرذيلة ، وهمَّ كثير من الصحابة بضرب عنقه لولا سماحة
النبي ، تقدم عبد الله بن عبد الله بن ثبيّ هذا ، وكان من صالحى المسلمين ،
وقال لرسول الله : « إني قد سمعت أهلك تريد قتل أبنى ما بعثك عنه ، فإن
كنت لا بدّ فاعل ، فمرني أحمل إليك رأسه ، وإني والله لئن لم أكن رجلاً أبرَّ

(١) انظر سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٤٢٧ ، واصلى ج ٣ ص ١٠٧ ، وسيرة

الحلبية ج ٣ ص ٧٦ ، والضراب : الهامة .

(٢) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٣ وما بعدها ، واصلى ج ٣ ص ٩ وما بعده .

بوالده مني ، ولكن أخشى أن تأمر غيري بقتله ، ثم لا تستريح نفسي حتى أقتل
الذي أمرته بقتله ، فأكون قد قتلت رجلاً مؤمناً بكافر فأدخل النار » ، فقال
رسول الله : « بل تفرّق به ، ونحسن صحبته ما بقى معنا ^(١) » .

لقد أذهب الله من قلوبهم الحية حية الجاهلية ، واجتث من نفوسهم الأثرة
والعصية القبلية ، وأبدلهم منها محبة الله ورسوله ، ودينه ، ويقول في ذلك
سبرنجر ^(٢) : « كان دخول مبدأ جديد من الوحدة الاجتماعية في ظل الأخوة
الإسلامية بالمجتمع العربي قد بدأ منذ حين في إضعاف القوة الرابطة للفكرة
القبلية القديمة ، تلك الفكرة التي أقامت بناء المجتمع العربي على أساس قرابة
الدم ، وكان إسلام الفرد ودخوله في المجتمع الجديد هدماً لأهم قوانين الحياة العربية
الأساسية ، كما كانت كثرة دخول العرب في الإسلام من العوامل القوية التي أدت
إلى تفكك النظام القبلي ^(٣) » .

لو تهاون المسلمون في الدفاع عن دينهم أمام تيار الكفر العنيف ، ولجاج
المشركين الزّري ، ولإيذائهم البالغ الذي خلا من كل معاني الرحمة والإنسانية
للمسلمين القويّ منهم والضعيف ، والعزیز والذليل ، والحر والمولى لاستئصلوا
ولاستئصل معهم هذا الدين الكريم ، وهذا ما عبّر عنه سيد المرسلين عليه
السلام يوم بدر حين احتدم القتال ، ورمت قرينس بفلذات أكبادها ، وأعزّ
بنيتها بقوله : « اللهم إن تُهْلِكْ هذه العصابة اليوم لا تُعْبِد » وأبو بكر يقول له :

(١) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٣٢٢ ، الطبري ٤ ص ٦٣ ، وكانت غزوة
المصطلق في السنة السادسة من الهجرة وتو المصطلق جماعة من خزاعة .

(2) A. Sprenger: Das Leben und die Lehre des mohammed.
vol, 3. pp. 360 — 361.

(٣) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٣٨ ، وتاريخ الطبري : ج ٢ ص ٢٦٧ .

يَا نَبِيَّ اللَّهِ بَعْضَ مَنَاشِدَتِكَ رَبِّكَ ، فَإِنَّ اللَّهَ مُنَجِّزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ ^(١) .

ولذلك حَثَّهم الله سبحانه وتعالى على قتال المشركين ، فقال تعالى :
« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُوبِكُمُ الْكُفَّارُ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً
وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ » ^(٢) .

ونهاهم الله عن الفرار من العدو ، وَلِمَ يَقْرُونَ مِنْ عَدُوِّهِمْ ، وقد وعدهم الله
إحدى الْحُسْنَيْنِ أَمَّا لَهُمْ ، إِمَّا الشَّهَادَةَ وَالْجَنَّةَ ، وَإِمَّا نَصْرَهُ الدِّينِ وَإِعْلَاءَ
كَلِمَتِهِ ؟ . وَحَثَّهم عَلَى الصَّبْرِ وَالثَّبَاتِ فَقَالَ تَعَالَى : « وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ ،
إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ ، فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ، وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ،
وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا » .

وَأُصْدِرَ إِلَيْهِمْ تَعَالِيمُ تَكْفِيلٍ لَهُمُ النَّصْرَ ، وَإِعْزَازُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَدِينِهِ :
« إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَتْهُمْ بَنِيَانٌ مَرْصُوصٌ » ^(٣) .
وَقَالَ تَعَالَى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمْ
الْأُدْبَارَ ، وَمَنْ يُؤَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دَرَبَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ ، أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ
بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ، وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَنَسَّ الْمَصِيرَ ^(٤) .

وَأَيُّ مُسْلِمٍ يَفْكُرُ فِي الْهَرَبِ مِنَ الْقِتَالِ وَهَذِهِ الْعُقُوتُ الصَّارِمَةُ تَدْوِي فِي
أُذُنِهِ : عَصَبُ اللَّهِ ، وَبَاهِيَتُهُ ، ثُمَّ جَهَنَّمُ وَنَسَّ الْمَصِيرَ ؟ ! لَقَدْ مَكَّى السَّمْعَ
وَحَزَعَ الْمَاهِرُونَ وَالْأُنْصَارُ مِنْ هَزِيمَتِهِ يَوْمَ الْحَشْرِ فِي عَهْدِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ
حِينَ عَبَثَتْ بِهِمُ الْقَبِيلَةُ وَلَمْ يَعْرِفُوا كَيْفَ يَرْسِبُ . قَالَهُ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

(١) سورة صافات ، الآية ٤٠ .

(٢) سورة التوبة ، الآية ١٢٣ .

(٣) سورة الأنفال الآية : ١٥ .

يواسيهم ويشجعهم ويعزيهم عن هزيمتهم : « لاتجزعوا يامعشر المسلمين ، أنا فثكم ، إنما انحزتم إلى ، اللهم كل مسلم في حل مني ، أنا فئة كل مسلم » ، ولما سمع معاذ وكان ممن شهد الواقعة ، وفر من يقرأ : « ومن يولهم يومئذ دبره ... الآية » بكى وعلا نحيبه ، فقال له عمر : لانبك يامعاذ ، أنا فثتك وإنما انحزت إلى^(١) .

لقد أضيف إلى الشجاعة العربية التي عرقتها في الجاهلية ، وعدم القرار من العدو حية وفنوة والتي تتمثل في قول الشاعر :

تأخرت أستبقى الحياة فلم أجد نفسي حياةً مثل أن أتقدما
فلسنا على الأعقاب تدمي كلومنا ولكن على أقدامنا تقطر الدما
عامل آخر زاد في ثبات العرب المسلمين وهو حب التضحية ، والرغبة في الاستشهاد ، والخوف من القرار ، لأن عقوبته صارمة عند الله ، ولذلك كان جيش المسلمين لا يقاوم مهما كان عدد الأعداء وحاستهم ورغبتهم في النصر ؛ لأن رغبة المسلمين في النصر أقوى ، ولأنهم يحرصون على الموت كما كان عدوهم يحرص على الحياة ، ولذلك كانوا يلقون الرعب في قلوب أعدائهم على حد قول الله تعالى : « لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله ، ذلك بأنهم قوم لا يفقهون^(٢) » .

لم يكونوا يدافعون عن غرض دنيوى من أغراض الحياة ، أو طلباً لجاه

(١) الطبرى ج ٤ ص ٦٧ ، ابن الأثير ج ٢ ص ٢١٤ ، وابن خلدون ج ١ ص ٩٠ وفتوح ، الديلم ج ٢ ص ٢٥٦ ، وتسمى هذه الواقعة أيضاً يوم قس ناطف ، وكانت في السنة الثالثة عشرة من الهجرة .

(٢) سورة الحشر الآية ١٣ .

أو مال أو سلطان ، وإنما كانوا يدافعون عن دينهم وعن رسالتهم السامية إلى البشرية جمعاء . وعن أنفسهم حين اضطهدهم المشركون ، وبَيَّتُوا لهم المكيدة ، وحاولوا استئصالهم ، ولذلك طالما ذكَّرهم الله بكل هذا حتى يزيد من حميتهم ، وحرارة دفاعهم ، فقال تعالى : « وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان ، الذين يقولون ربَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا ، واجعل لنا مِن لَّدُنكَ ولياً ، واجعل لنا من لَّدُنكَ نصيراً » (١) . وقال تعالى : « واذكروا إذ أنتم قليلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » (٢) .

لقد كان المسلمون الأوائل من الأبطال ، ولكن تميز من بين صفوفهم فتيانٌ مُّعَلَّمُونَ . كانوا يَتَدَبَّوْنَ (٣) لكل كريمة ويتقدمون الصفوف ، يبيعون أنفسهم رخيصة في سبيل الله ؛ كانوا أقوياء أصدقاء ، خُبراء بفنون القتال ، تمتلئ جوامحهم شجاعة وإيماناً .

من هؤلاء حمزة عم النبي ، ولقد رَمَّه من أول يومٍ دخل فيه لإسلام على شجاعته الثقة ، وعلى أنه قوة أُيِّدَ له بها دينه وعزَّزَ رسوله ، روى ابن هشام في إسلام حمزة : أن حمزة كان رجلاً قصيراً متعللاً سقيماً ، وكان إذا رجع من قصه لم يصل إلى أهله حتى يضرب بالسكك ، وكان إذا رجع لم تترك على يديه من قريش إلا وقت ربه وتحببهم ، وكان يركب في قريش

(١) سورة النساء : الآية ٧٥ :

(٢) سورة الأنفال الآية ٢٦ .

(٣) يَتَدَبَّرُونَهُمْ وَيَتَقَدَّمُونَ .

وأشد شكيمة ، فلما مرَّ بامرأة كانت قد شهدت لإيذاء أبي جهل للنبي عليه السلام في ذلك اليوم قالت له : يا أبا عمار ، لو رأيت مألقي ابن أخيك محمد آتفاً من أبي الحكم بن هشام : وجده ها هنا جالسا فأذاه وسبّه وبلغ منه ما يكره ، ثم انصرف عنه ، ولم يكلمه محمد .

فاحتمل حمزة الغضب ، لما أراد الله به من كرامته ، فخرج يسعى ، ولم يقف على أحد ، مُعِداً لأبي جهل إذا لقيه أن يوقع به ، فلما دخل المسجد نظر إليه جالسا في القوم ، فأقبل نحوه حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضر به فشجّه شجة مُنكرة ، ثم قال أتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول ؟ فردّ ذلك على إن استطعت . فقام رجال من بني مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل ، فقال أبو جهل : دعوا أبا عمار ، فإنني والله قد سببت ابن أخيه سباً قبيحاً . وتمّ حمزة على إسلامه وعلى متابيع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما أسلم حمزة عرفت قريش أن رسول الله قد عزّ وامتنع ، وأن حمزة سيمنعه ، فكفوا عن بعض ما ينالون منه ^(١) .

ولما التقى المسلمون بالمشرّكين في غزوة بدر ، خرج الأسود بن عبد الأسد المخزومي ، وكان رجلاً مسمى الخلق شرساً من كفار قريش ، وقال : أعاهد الله لأشربن من حوضهم (أى المائدة) أو لأهدمنه ، أو لأموئنّ دونه ، فخرج إليه حمزة ، وضربه حمزة ففقطعه قدمه بنصف ساقه وهو دون الحوض ، فوقع على ظهره تشخّب رجله دماً ، ثم حبا إلى الحوض حتى اقتحم فيه ، يريد أن

(١) لم يكن حمزة حين انظم لحمد عليه السلام من أبي جهل قد أسلم ، ولكنه صرح بإسلامه في ذلك الوقت ، إذ أراد الله به خيراً ، وقد ثبت على إسلامه رضى الله عنه راجع ابن هشام ط الخلى ج ١ ص ٣١٢ .

يُبرِّئ يمينه ، واتبَّعه حمزة ، فضربه حتى قتله في الحوض .

ولما رزعتبة بن ربيعة بين أخيه شيبة وابنه الوليد من بين صفوف المشركين يطلبون المبارزة ، وتقدم إليهم ثلاثة من الأنصار ، رفضوا مبارزتهم وفادوا : يا محمد أخرج إلينا أكفأنا من قومنا ، ندب حمزة نفسه ، وقال رسول الله : قم يا عبدة بن الحارث ، قم يا علي ، ولم يمهل حمزة شيبة أن قتله ، ولم يمهل علي الوليد أن قتله ، ولما وجدا عتبة وعبدة لا يزالان يقتتلان ساعدا عبدة ، وقتل عتبة .

ولما استأمر أمية بن خلف لعبد الرحمن بن عوف ، وسار به هو وابنه سأل أمية : من منكم المغمم بريشة نعامة في صدره ؟ قال : ذاك حمزة بن عبد المطلب قال : ذاك الذي فعل بنا الأفاعيل ^(١) .

وفي غزوة أحد كان حمزة رضي الله عنه يهد الناس بسيفه ما يبقى على شيء ، فصبوب إليه وحشي غلام جبير بن مطعم حربته عن بعد نحر صريحا ، وكان سيد وحشي قد مناه إن هو قتل حمزة أن يعتقه . ولقد حزن النبي عليه السلام وحزن المسلمون لمقتل حمزة حزنا عظيما .

ولقد بلغ من غيظ قريش وناسها من حمزة وشجاعته وبلائه في قتالهم أن هدا بنت عتبة زوج أبي سفيان مئنت به وشقت عن بطنه . ولاكت كبده ، وكافت وحشيا بقلاندها وقرطها لأنه قتل حمزة ، وهذا كأكبر دليل على صدق بلائه وعظيم شجاعته . ووقف عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مقتول وقبر :

(١) راجع سيرة ابن هشام : ج ٢ ص ٢٢٨ وما بعدها . وراجع الضري ج ٢

ص ٢٦٧ وما بعدها في غزوة بدر .

« لن أصاب بمثلك أبداً ، ما وقفت موقفاً قط أغيظَ إلى من هذا » .

ومن هؤلاء الفتيان الذين ذاعت شجاعتهم . ولقى المشركون في كل موطن التقوا فيه بالمسلمين منهم كل بلاء ، وكانوا عليهم خطوباً جساماً ، على بن أبى طالب كرم الله وجهه . كان على صاحب لواء المسلمين يوم أحد بعد مقتل مُصعب بن عُمير ، وقاتل المسلمون خلفه حتى أنزل الله نصره وصدقهم وعده . وانتدبه النبي عليه السلام بعد المعركة ، قائلاً له : « اخرج في آثار القوم ، فانظر ماذا يصنعون ! وماذا يريدون ؟ فإن كانوا قد جَنَبُوا الخيل ، وامتنطوا الإبل ، فإنهم يريدون مكة ، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فإنهم يريدون المدينة ، والذي نفسى بيده لئن أرادوها لأسيرنَّ إليهم فيها ، ثم لأناجزنهم » نخرج على في آثارهم^(١)

وفي غزوة الخندق خرج عمرو بن عبد وُد من صفوف المشركين ، وقال من يُبارز ؟ فبرز له على بن أبى طالب ، وقال له : يا عمرو ! إنك كنت عاهدت الله ألا يدعوك رجل من قريش إلى إحدى خلتين إلا أخذتها منه ، قال : أجل ! قال على : فإنى أدعوك للنزال ، قال : ولم يا ابن أخى ؟ فوالله ما أحب أن أقتلك ، فقال على : ولكنى والله أحب أن أقتلك . فحى عمرو عند ذلك ، ونزل عن فرسه ، وعقره وضرب وجهه ، ثم أقبل على على فتنازلا وتجادلا ، فقتله على .

(١) راجع في غزوة أحد ابن هشام ج ٣ ص ٣ وما بعدها وتاريخ الطبرى ج ٣

ص ٩ وما بعدها .

وكان على صاحب الراية في غزوة بني قريظة ، ولما حكم سعد بن معاذ على بني قريظة بحكم الله ، وأبوا صاح علي^(١) ! يا كتيبة الإيمان ! فتقدم هو والزيير بن العوام وقال : والله لأذوقنَّ مذاق حمزة أو لأقتحنَّ حصنهم ، فقالوا : يا محمد : نزل على حكم سعد بن معاذ^(٢)

وفي غزوة حُنين حينما تخلى المسلمون عن رسول الله إلا قرَّة قليل من صحابته الذين باعوا أنفسهم في سبيل الله ، ورأى الناس رجلا من هوازن ، على جمل أحمريده راية سوداء في رأس رمح طويل يتقدم هوازن ، إذا أدرك طعن برمحه ، وإذا فاته الناس رفع رمحه لمن ورائه فاتبعوه ، أسرع له علي بن أبي طالب ورجل من الأنصار يريدانه ، ومازالا به حتى قتلاه^(٣) .

ولما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وارتد كثير من العرب ، ووفد وفدُهم على أبي بكر يراودونه على إقامة الصلاة ومنع الزكاة ، وأبى أبو بكر ذلك وقال قوله المشهور : « والله لو منعوني عقالا لحاربتهم عليه » ، خشي أبو بكر رضي الله عنه من هؤلاء المرتدين الذين يحاصرون المدينة ، وتوجس منهم شراً ، فأخذ العدة لغدرهم وجعل على أُنقاب^(٤) المدينة نقرأ من شعبان المسلمين ، منهم علي بن أبي طالب والزيير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله ، وعبد الله بن مسعود . حتى يمنعوا المرتدين من دخول المدينة ، وذلك لثقتهم بشجاعتهم وبطولتهم . وهكذا كان علي رضي الله عنه في كل موضع أول من يتقدم لصفوف

(١) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٢٥٢ وتاريخ الصري ج ٢ ص ٥٢ وما بعدها .

(٢) ابن هشام ج ٤ ص ٦٥ وما بعدها . السيرة الخبية ج ٣ ص ١٢٩ ، لطريق

ج ٣ ص ١٢٠ .

(٣) الأُنقاب : ح ، قب وهو الطريق .

وَيُنْتَدَبُ لِلْمَكَارِهِ ، وَمَاهُزَمَ مَرَّةً فِي حَيَاتِهِ . وَلَا عَجَبٌ قَدْ رُويَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَوْلُهُ فِيهِ : « لَا سَيْفٌ إِلَّا ذُو الْفَقَارِ ، وَلَا فَتًى إِلَّا عَلِيٌّ » ^(١) وَلُقِّبَ عَلِيٌّ بِسَيْفِ اللَّهِ الْغَالِبِ .

وَمِنْ هَؤُلَاءِ الْفَتَيَانِ الَّذِي اشْتَهَرَا بِالْقُوَّةِ وَالْفَتُوَّةِ وَرَجَاحَةِ الرَّأْيِ ، وَالْبَسَاطَةِ الْفَاتِكَةِ ، وَلَمْ يَخْذَلُوا فِي أَيِّ مَعْرَكَةٍ ، وَكَانَ اسْمُهُمْ يَفْتَحُ لِهَمِّ الْبُلْدَانِ ، وَيُدِيلُ مِنْ عَدُوِّهِمْ قَبْلَ أَنْ يَقْدَمُوا عَلَيْهِ ، خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ ، سَيْفُ اللَّهِ الْمَسْلُوكِ .

وَمَاذَا عَسَى أَنْ أَقُولَ فِي خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ ؟ وَقَدْ تَمَيَّزَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ بِالْفَتُوَّةِ وَإِلَيْهِ يَرْجِعُ فَوْزُ الْمُشْرِكِينَ فِي غَزْوَةِ أَحَدَ ، بَعْدَ أَنْ كَانَتِ الدَّائِرَةُ عَلَيْهِمْ . وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ جَاءَهُ خَالِدٌ وَعَمْرُو بْنُ الْعَاصِ وَعُثْمَانُ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ الْعَبْدِيُّ مَسْلَمِينَ بَعْدَ غَزْوَةِ خَيْرٍ ، مُخَاطِبًا خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ ، مُعْبِرًا عَنْ عَظِيمِ سُرُورِهِ بِمُقَدِّمِهِ مَسْلَمًا : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَاكَ ، وَقَدْ كُنْتَ أَرَى لَكَ عَقْلًا رَجَوْتَ إِلَّا يُسَلِّمَكَ إِلَّا إِلَى خَيْرٍ » ، قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ادْعُ اللَّهَ لِي أَنْ يَنْفِرَ تِلْكَ الْمَوَاطِنَ الَّتِي كُنْتُ أَشْهَدُهَا عَلَيْكَ ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « الْإِسْلَامُ يُحِبُّ مَا قَبْلَهُ » ^(٢) .

لَقَدْ صَدَقَتْ فِرَاسَةُ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي خَالِدٍ ، وَصَدَقَ ظَنُّونُ النَّاسِ فِيهِ فَكَانَ سَيْفًا مُشْرِعًا مِنْ سَيُوفِ اللَّهِ ، كُتِبَ لَهُ النُّصْرُ أَيْنَمَا سُلِّ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَلَقَدْ بَرَهَنَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ فِيهِ الْإِسْلَامَ عَلَى أَنَّهُ قُوَّةٌ عَظِيمَةٌ يُؤَيِّدُ اللَّهُ بِهَا دِينَهُ ، وَيَشْدُ أَرْزَرَ أَنْصَارِهِ . وَلَقَدْ عَهِدَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَكُونَ

(١) ذُو الْفَقَارِ : سَيْفُ سَيِّدِنَا عَلِيٍّ . رَاجِعْ . Incyclopidia of Islam P. 122.

(٢) نَوْرُ الْيَقِينِ ص ١٩٦ .

على رأس فريق من جيشه يوم فتح مكة ، فدخلها من (اللبَطِ اسفل مكة) ،
وقد تصدت له قريش تريد منعه قتل منهم أربعة وعشرون ، ودخل مكة عنوة .
وفي غزوة مؤتة جل النبي عليه السلام إمرة الجيش لزيد بن حارثة ، فإن
قتل جعفر بن أبي طالب ، فإن أصيب فبعد الله بن رواحه . وقد كان عدد المسلمين
قليلاً ولكنهم أبلوا بلاء عظيماً ، واستشهد أسراء الجيش واحداً بعد واحد .
ورأى المسلمون أنهم في حاجة إلى أمير يتقدم أمامهم فيه ، ويكفل لهم النصر أو
الارتداد الكريم بدون تضحيات كثيرة وخسارة في الأرواح ، فأمرُوا عليهم
خالد بن الوليد . ورأى خالد نفسه يرأس ثلاثة آلاف جندي وعدوه يزيد عن
مائة ألف ، ولكنه قاتل في أول يوم تولى فيه إمرة الجيش قتالاً عظيماً ، وفي غلته
خالف ترتيب المسكر : فجعل الساقة مُقدِّمة ، والمقدمة ساقة ، والميمنة ميسرة ،
والميسرة ميمنة ، فظن الروم أن للداد جاء للمسلمين ، فدب في قلوبهم الرعب ،
ثم أخذ خالد الجيش ، وصار يرجع إلى الوراء حتى انحاز إلى مؤتة ، ثم مكث
يناوش الأعداء سبعة أيام ثم تحاجز الفريقان ؛ لأن الأعداء ظنوا الأمداد تتوالى
للمسلمين ، وخافوا أن يحروهم إلى الصحراء حيث لا يمكنهم الخلاص ، وبذلك
انقطع القتال .

وقد معى النبي عليه السلام للمسلمين زيداً وجعفر وابن رواحه قبل أن يأتيهم
خبرهم فقال : أخذ الراية زيد فأصيب ، ثم أخذها جعفر فأصيب . ثم أخذها
ابن رواحه فأصيب . وكانت عيشة تدرن ثم قس : حتى أخذ نرية سيف من
حيوف الله حتى فتح الله عليهم .

وقد أتى على خالد في ممرته عد أن صن مسمون أن تفيقره هزينة .

ولكن النبي أفهمهم أنه من مكاييد الحرب .^(١)

ثم كانت الردة ، وانتفاض العرب على الخلافة الإسلامية ، ووجه أبو بكر رضى الله عنه خالداً لقتال المرتدين أتباع مسيلة الكذاب في اليمامة ، وهُزم المسلمون بآدى الأمر بعد أن أظهروا من ضروب البطولة ما يعجز القلم عن تصويره ، ولكنهم جتمعوا جموعهم ، وثبتوا . بيد أن عدوهم كان يزداد قوة ومدداً ، وهم يزدادون ضعفاً ؛ لبعْد الشُّقَّةِ بينهم وبين المدينة . ولما رأى خالد أن القتل استَحَرَّ في جيشه ، وثبت مسيلة ومن معه ، عرف أن الحرب لا تَرَكُدُ إلا بقتل مسيلة ، فبرز حتى إذا كان أمام الصفوف دعا إلى البراز وانتسب واشى ، وقال : أنا ابن الوليد ، ونادى بشعار المسلمين يومئذ : يا محمداه ! فجعل لا يَبْرُزُ له أحدٌ إلا قتله .

وأقبل المحيطون بمسيلة يخرجون إلى لقاء خالد ، فلقاهم الموت من سيفه . قبل أن يبلغوه . وكثر فيهم القتل ، وشَعَرَ مسيلة بالخزى يركبه ، فساورته نفسه أن يخرج كما خرجوا ، لكنه أيقن أنه مقتول إن خرج ، فتردد واضطرب ، وإنه لنى اضطرابه وتردده ، إذ شدَّ خالد برجاله عليه وعلى من حوله يعملون فيهم السلاح ، فهرب مسيلة إلى حديقته ، وكانت فسيحة الأرجاء متينة الجدران كأنها الحصن ، ولكن المسلمين اقتحموا عليهم الحديقة وأبادوهم وقتلوا مسيلة الكذاب^(٢) . فكان هذا أول نصر أرجع للعرب

(١) نور اليقين ص ٢٠٤ ، وسيرة ابن هشام ج ٣ ص ٤٢٧ ، والطبرى ج ٣ ص

١٠٧ ، والسيرة الحلبية ج ٣ ص ٧٦ .

(٢) الطبرى ج ٣ ص ١٦٢ ، ابن الأثير ج ٢ ص ١٨٤ ، ابن خلدون ج ٢ ص

٧٥ ، ابن كثير ج ٦ ص ٣٢٣ ، ابن هشام ج ٤ ص ٢٤٤ وكانت موقعة اليمامة في السنة الحادية عشرة من الهجرة ، وبين اليمامة وبين البحرين عشرة أيام .

المرتدين عقولهم التي شردت عنهم وخيرهم الذي عَزَبَ عن نفوسهم بموت سيد المرسلين . وعلموا أن المسلمين مؤيدون من عند الله ، وأن عقيدتهم وحرارة إيمانهم ، ووعد الله لهم تكفل كلها لهم النصر المبين ، وأنهم على الرغم من شجاعتهم وكثرتهم ، وقربهم من ديارهم لم يغنهم كل ذلك شيئاً فرجعوا إلى حى الإسلام تأبين .

وهذا هو خالد العظيم في موقعة ذات السلاسل يرى هُرمزَ ينادى للنزال فلم يطلب أحد شجعان جيشه لمنازلته ، ولكنه يتقدم إليه ، فلما التقيا اختلعا ضربتين ، ثم احتضنه خالد يريد قتله بيديه ، ولم يبال بسيف عدوه المصلت ، فشد أهل فارس يريدون قتل خالد ، وإيقاد هرمز من يديه . ولكن بطلا آخر من أبطال المسلمين الذين دوى اسمهم في كل معركة شهدوها ، ألا وهو القعقاع بن عمرو لم يمهلهم وحمل عليهم ، فانهزم الفرس هزيمة منكراً (١) .

وفي يوم الثنى حين خرج قارن قائد الفرس يدعو إلى البراز نهَّد له خالد وقتله ، ثم قتل الأنوشجان خليفته ، وقبأ الذي رأسهم بعده . وهُزمت الفرس هزيمة شنيعة (٢) .

لقد كان خالد يتحدى الموت ، ويعمد إلى أشجع القوم ، وقائدهم ، فيرديه بسيفه . وأحياناً يحتضنه ليعصره بين يديه عصباً ، وإذا مات رئيس القوم .

(١) كانت موقعة ذات السلاسل في الحرم من سنة ١٢ من الهجرة ، وسُميت ذات السلاسل ؛ لأن الفرس قيدوا أنفسهم في السلاسل حتى لا يفروا . راجع الطبرى ج ٤ ص ٢ . وابن الأثير ج ٣ ص ١٨٧ ، وفتح اسلام ص ٢٤١ ، وابن خلدون ج ٢ ص ٧٨ .
(٢) كان ذلك في صفر سنة ١٢ ، واشتد تهر الفرس من نذار وهي بلدة بينها وبين البصرة أربعة أيام إلى الشمال بالقرب من واسط . راجع سبرى ج ٤ ص ٧ ومعجم بلقان ج ٣ ص ٢ وابن خلدون ج ٢ ص ٧٩ .

وأشجعهم دبّ الرعب في قلوب سائرهم وولّوا مدبرين ، وهكذا كان خالد يعمل على أن يكفى المسلمين مؤنة القتال ، ويحقن دماءهم ، معرضاً دمه هو لأن يراق في سبيل الله . وإذا لم يكن قائد الجيش مثلاً رائعاً في البطولة والقوة والخبرة بفنون القتال عرض جيشه للتهلكة ، وإذا كان قدوة لهم ، يتقدم صفوفهم ، ويصرع أقوى أعدائهم ، ويحتال للنصر كل حيلة ، ويجنبهم الهزيمة ، امتلأت قلوبهم ثقة به ، وزاد ذلك في شجاعتهم وبلائهم ، واستمدوا من شجاعته شجاعة ، وكانوا على أعدائهم بلاء مييناً ، لا يصمد أمامهم جيش مها عظيم ؛ ولعلّ هذا هو بعض السرّ في أن خالد بن الوليد وجيشه كان مُفْلِحاً في كل موقعة شهدوها ، وكان اسمه يلقي الرعب في قلوب الأعداء ، ولا يجدون جدوى من قتاله . فيستقبلونه قبل أن يدمّر مدنيهم ، ويحصد أرواحهم وينزلون على شرطه صاغرين .

كان خالد عالماً بنفسية أعدائه ، وحالتهم ، فهم أو شاب لا يقاتلون بحمية ، قد فسد حكامهم ، وأذاقوهم كثوس الظلم مُترعة ، وعموا دونهم بخيرات الحياة ولذائذها ، واليوم يسوقونهم للقتال ! يسوقونهم لمحاربة قوم باعوا أنفسهم لله . وخرجوا في سبيل الله ، تراءى الجنة أمام أعينهم ، ويختمهم على النصر ما وعدهم به ربهم في محكم كتابه ، فأيّما كان أمرهم فهم الفائزون . إنهم كانوا يقاتلون في سبيل مبدأ وعقيدة ، وقال الله تعالى فيهم : « الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عافية الأمور » (١) .

وشتان ما بين هؤلاء القوم الذين يقودهم خالد ، وبين أعدائهم ، إن هؤلاء قلوبهم تفيض بالثقة والطمأنينة ، وهؤلاء قلوبهم تدمى من اليأس ، وتئن من الجور . عرف خالد كل هذا ، وعرف أنه حين يقتل رئيس الأعداء وقائدهم وهو من السادة المنعمين ، والحكام المُسلطين ، فلن يصمد بقية جيشه ، لأنه مسوق إلى القتال عن كراهية ، ولأنه لا يدافع عن مبدأ يحرص على نشره . هبَّ نصارى بكر بن وائل يساعدون الفرس ، ثاراً لقتلى قومهم يوم (الولجة) (١) ، واجتمعوا لخالد في (أليس) (٢) يقودهم جميعاً جابان الفارسي ، ولما التقى الجمعان رز خالد أمام جيشه ونادى على سادة بني بكر بن وائل من النصارى، وشجعانهم : أين أبجر ؟ أين عبد الأسود ؟ أين مالك بن قيس ؟ فلم يجبه أحدٌ إلا مالكا ، وبرز له ، فقال له خالد : يابن الخبيثة ! ما جرأك على من بينهم ، وليس فيك وقاء ، ثم ضربه فقتله .

وكتب عياض بن غنم إلى خالد يستنجد به حين كان يحاصر دومة الجندل فكتب إليه خالد . من خالد إلى عياض : إياك أريد .

كَبْتُ قَلِيلاً تَأْتِكَ الْخِلَائِبُ يَحْمِلُنَ آسَاداً عَلَيْهَا الْقَاشِبُ (٣)

كُتَابُ تَتَبِعُهَا كُتَابُ

(١) الولجة : من كسكر ، وكان يوم الولجة في صفر سنة ١٢ هـ .

(٢) أليس : قرية من قرى الأمازيغ في منتصف الطريق بين الحيرة والأبلة ، وكان

يوم أليس في صفر سنة ١٢ هـ . راجع العبري ج ٢ ص ٩ ، وابن حديد ج ٢ ص ٧٩ ودمجم البلدان ج ١ ص ٣٢٨ .

(٣) القاشب : لاسيف الصقيل الخشن . والخلائب : الروث وهي أقوى على قطع الصحراء

من سواها .

ولما بلغ أهل دومة الجندل (١) مسير خالد إليهم أخذتهم الرعدة ، واختلقوا فيما بينهم وكان عليهم رئيسان : أكيدر بن عبد الملك ، والجودي بن ربيعة . أما أكيدر فقال : أما أعلم الناس بخالد ، لا أحد أئمن طائراً منه ، ولا يرى قوّم وجه خالد قُلوا أو كثروا إلا انهزموا ، فأطيعوني ، وصالحوا القوم ، فأبوا عليه ، فقال : لن أمالككم على حرب خالد ، فشأنكم ! وخرج لطيفته . وقد صدق ظن أكيدر فقد نكل خالد بهؤلاء الذين آثروا القتال نكالا عظيماً ، واستولى على دومة الجندل .

أما عبور خالد بادية السماوة حين طلب منه أبو بكر أن يخف ببعض جيشه لمساعدة جيوش المسلمين المجتمعين في اليرموك فعمل يتجاوز حد البطولة ، وهو من المخاطر النادرة في التاريخ ، دونه عبور هانيبال الفينيقي جبال الألب واقضاضه على الرومانيين في الزمن القديم ، ويحتاج إلى أن نفرده صورة خاصة في كتابنا هذا .

لقد كان أبو بكر عظيم الثقة في خالد بن الوليد حين اتدبه لهذه المعركة لما سمع بعظم جيوش العدو ، وكمال عدتهم ، وأن المسلمين أقاموا أمامهم شهرين لا يقدرّون على شيء ، ولا يقدر الروم منهم على شيء ، وقال أبو بكر رضي الله عنه : والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد . ولقد كان خالد القائد المحمك الشجاع ، الذي زادته حروبه مع الفرس ثقة وإيماناً بنصر الله ، عند ظن المسلمين به . ووجد خالد أربعة جيوش للمسلمين على كل جيش أميره وأهمهم يقتلون متسادين لا تجمعهم وحدة فاقترح أن يولوا واحداً منهم أميراً على

(١) دومة الجندل : على تسم مراحل من دمشق ، وهي قرية من الحيرة .

الجميع ، وتكون الإمارة لكل منهم يوماً ، وأن يجعلوه أميرهم أول يوم ، حتى يضرب ضربته التي أعدها للأعداء ، فلبى المسلمون دعوته واجتمعوا على رأيه ، فأعد جيشه لإعداداً عظيماً .

ولقد حدث في هذه المعركة عدة حوادث تدل على عظمة خالد ، وأنه يتألق في جبين التاريخ الإسلامي والعالمي نجماً ساطعاً وحده ، من ذلك : أنه قد أسر القعقاع بن عمرو وعكرمة بن أبي جهل وهما على مُجَدَّبَتَي قلب الجيش أن يُنْشِبا القتال ، وإذا بيريد المدينة يصل ، وفيه الخبر ب وفاة أبي بكر رضى الله عنه ، وفيه تولية عمر مكانه خليفة للمسلمين ، وفيه عزل خالد ، وتولية أبي عبيدة أميراً للجيش الإسلامية ، وخاف خالد إن هو أظهر هذه الأخبار ، وأذاعها في الناس ، أن يهنوا ، ويفت ذلك في عضدهم ، وهم في المعركة الفاصلة ؛ فأدار المعركة بنفس القوة ، وبفس العزيمة الأولى ، كأن لم يُعزل ، وكأن لم يمت ذلك الذى وَرِثَ به ، وكأنه لا يزال أميراً مؤثراً ، إن خالد لم يكن يعمل ما يعمل حُباً في جاه أو دنيا ، وإنما كان يتقدم إلى الموت وبرائه دامية ، ويقتحم عليه عرينه ؛ إعزازاً لدين الله ، وسيادة الإسلام . لم يكن يعمل من أجل أبي بكر ، وإنما كان يعمل من أجل دينه ، وفي سبيل الله ، فسيان عنده أن كان أميراً أو مأموراً ، قائداً أو جندياً ، وسيان عنده تولى أبو بكر أو تولى عمر ، فخالد هو خالد : الجندى الباسل الذى دعاه الرسول عليه السلام بالنصر ولقبه بسيف الله . ولا أدل على ذلك من قول خالد حين انتهت المعركة نصر المسلمين ، وسلم كتاب عمر إلى أبي عبيدة بالأمارة : « اخذت لدى قضى على أنى مكر بالموت ، وكان أحب إلى من عمر ، وجندته لدى وتلى عمر ، وكان أنفض

إلى من أبى بكر ، ثم ألزمنى محبته » . وهذا شأن المؤمن الصادق الذى بطيع الله سبحانه وتعالى فى قوله : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » (١) .

ومن الحوادث التى تدل على عظمة خالد فى هذه الموقعة خروج جرجة أحد قواد الروم ، وبدأوه : ليخرج إلى خالد ، فخرج إليه خالد ، وأقام أبا عبيدة مكانه ، فواقفه بين الصفتين ، حتى اختلفت أعناق دابتيهما ، وقد أمن أحدهما صاحبه . فقال جرجة : يا خالد ! اصدقنى ولا تكذبنى ، فإن الحر لا يكذب ، ولا تخادعنى فإن الكريم لا يخادع ، بالله هل أنزل الله على نبيكم سيفاً من السماء فأعطاكمه فلا تسلمه على قوم إلا هزمتهم ؟ قال . لا ، قال . فيم سُميت سيف الله ؟ قال : إن الله عز وجل بعث فيها نبيه عليه السلام فدعانا ففترنا ونأينا عنه جميعاً ، ثم إن بعضنا صدقه وتابعه ، وبعضنا باعده فكذب به ، فكنتُ فيمن كذبه وباعده وقاتله ؛ ثم إن الله أخذ بقلوبنا ونواصينا ، فهدانا به فتابعناه ، فقال : أت سيف من سيوف الله ، سلمه الله على المشركين ، ودعالى بالنصر ، فسميت سيف الله بذلك ، فأما من أتى المسلمين على المشركين ، قال : صدقتى ؛ ثم ناقشه فى الإسلام حتى انتهى الأمر بإسلامه ، وترك صفوف الروم وقاتل مع المسلمين بعد أن علمه خالد الإسلام ، وصلى ركعتين ، ومات حرجة فى هذا اليوم وهو يقاتل أشد قتال وأصدة دفاعاً عن دينه الجديد .

لقد كان خالد فى خطر الأعداء شيئاً مرعباً ، حتى ظنوا أن أمره ليس باليسعى وأنه فوق الشر ، وأنه لابد أن يكون مؤيداً من السماء ، وظنوا أنه

لقب بسيف الله ؛ لأن الله أنزل على النبي سيفاً أعطاه خالداً فهو لا يُهزم قط ، وذلك لأن أخبار انتصاراته الساحقة ، وتنكيله بالفرس قد سبقته ، وعملت ما عملت في قلوب الروم ، حتى إن قائدهم أراد أن يستوثق من هذا الأمر ، وهل خالد فيه شيء فوق البشر لا يمكن أن يقاوم ، ولما صدقه خالد ، وبين له أنه بشر ، وأنه لم ينزل عليه سيف من السماء ، وأنه يقاتل بقوة قلبه ، وحرارة إيمانه ، وأن شجاعته فطرية طبيعية ، زادها الإيمان بالإسلام قوة وصرامة ، آمن بأنه أمام رجل مؤيد من السماء ، لا بالمعنى الذي ذهب إليه أولاً ، ولكن لأنه يدافع عن عقيدة ومبدأ ، لا مؤيد بسيف من الله نزل على نبيه الكريم . وكان صدق خالد وبساطته في التعبير ، وتواضعه ، سبباً في إسلام هذا القائد الذي أراد الله هدايته (١) .

ولم ينته أمر خالد بعزله من إمارة الجيش ، بل سار مع أبي عبيدة يعمل تحت لوائه ، وضمن به أبو عبيدة فلم يرسله مع جيش العراق الذي كان قد قدم به لمعاونتهم ، علماً منه بأن خالداً وحده أقوى من جيش عظيم ، لرجاحة عقله ، وتجربته ، وشجاعته ، وبصره بفنون القتال . ولقد برهن خالد في فتوح الشام على أنه القائد الحقيقي للجيش ، وأنه برأيه وشجاعته قد احتل مكة التي يريد الله ويريدها المسمون ، فقد جعله أبو عبيدة على مقدمته كسر الخربة التي لا تغل : تلك الحصون ، وتهدم القلاع ، وتقرى الحوش ، وتكسب للمسلمين المعركة غيباً المعركة . وتنتقل به من حصر إلى حصر . كره حشد على

(١) راجع الطبري ج ٤ ص ١٢٧ . و ج ٥ ص ٢٠٠ ، و ج ٦ ص ٢٠٠ ، و ج ٧ ص ٢٠٠ .

جلدون ج ٢ ص ٨٣ . و فتوح اسلام ص ١٠٠

مقدمة جيش أبي عبيدة في موقعة (فحل) (١)، وفي حصار دمشق، وقد كان خالد على فرقة من الجيش في حصار دمشق لا ينام ولا ينام، ولا يخفى عليه شيء من أمر العدو، وعيونه ذاكية، وهو معنى بما يليه، فاتخذ حبلاً كهيئة السلالم، ولما بلغه ذات ليلة أن الناس في دمشق غافلون في فرح لعظيمهم، انتدب هو ومن معه من رؤساء جيش العراق قبل أن يرجعوا أمثال القعقاع ابن عمرو، وقال للناس: إذا سمعتم تكبيرنا على السور فارقوا إلينا، وانهدوا للباب، وقد تمكن خالد من فتح الحصن عنوة. وكان أعز مكان في سور دمشق وأمنه، تحيط به المياه، ولم يبق أحد ممن معه إلا ارتقى السور أو دنا من الباب، ثم فتح الباب بعد أن قتل حراسه، ودخل دمشق عنوة، ففرغ أهل الأحياء التي تليه، وهرعوا إلى قواد المسلمين الآخرين يطلبون منهم أن يخيروهم من خالد، وفتحوا لهم الأبواب فالتقت جيوشهم وجيوش خالد في وسط دمشق، وبذلك جعل الله على يديه فتح دمشق بعد أن استعصت على المسلمين سبعين يوماً.

ولما اجتمع العدو بمرج الروم، بعد فتح دمشق، وسار أبو عبيدة ومعه خالد بن الوليد لملاقاتهم، واجتمعوا وإياهم في صعيد واحد، أصبحوا ذات صباح فلم يجدوا للعدو أثراً، وعلموا أنهم خدعوا المسلمين، وقصدوا دمشق. فأمرع خالد وراءهم ووجدوا العدو مشتبكا مع يزيد بن أبي سفيان قائد حامية دمشق، فآخذ الروم من بين أيديهم ومن خلفهم، فأبيدوا، ورجع خالد إلى أبي عبيدة.

(١) سفيان: من بلاد الأردن بن حوران وفلسطين، راجع الطبري ج ٤ ص ٥٩.

وبعد فتح حصن أرسل أبو عبيدة خالداً إلى قنّسرين ، ولما نزل بالحاضر (١) زحف إليهم الروم ، وعليهم (ميناس) وهو أعظمهم بعد هرقل فلاقاهم خالد وقتل ميناس ، وهزم الروم شر هزيمة ، حتى إنه لم ينج منهم أحد . أما أهل الحاضر فأرسلوا إلى خالد : بأنهم عرب ، وأنهم إنما حُشروا ولم يكن من رأيهم حربه ، فقبل منهم وتركهم . ولما بلغ عمر بن الخطاب ذلك قال : « أُرّ خالد نفسه ! يرحم الله أبا بكر ! ، هو كان أعلم بالرجال مني . » وقال في حقه هو والثني بن حارثة : إني لم أعزلها عن ريبة ، ولكن الناس عظموها فخشيت أن يوكلوا إليهما وهكذا صار خالد أمير الجيش في الحقيقة وإن لم يؤذن بالإمارة . ولكن تصرفه وحُكْمته ، وحسن قيادته كلها أهله لأن يكون أمير الجيش عملياً ، وإن ظلّ يعمل تحت راية أبي عبيدة .

وزحف خالد لقنسرين فتحصن أهلها منه ، فقال لهم قوله المشهور : « لو كنتم في السحاب لحملنا الله إليكم أو لأنزلكم إلينا » فلم يجدوا بداً من صلحه والنزول على أمره .

هذا هو خالد بن الوليد ، لو كان في أمة أخرى من تلك الأمم التي تعظم رجالها لاعتنت بتاريخه ، وصاغته صياغات مختلفة ؛ ليتشرب به الأطفال والولدان والفلان والفتيان والرجال ، وليكون لهم مثلاً رائعاً في البطولة . وما أحوجن اليوم إلى مثل رائع يقلده شبابنا ونحن نعاني من القرب وغطرسته ما نعاني ، رحمه الله خالداً وأيام خالد !! .

ومن هؤلاء الفتيان الأجداد الذين خطوا في صفحات التاريخ الإسلامي

(١) راجع الطبري ج ٤ ص ١٥٣ ، ١٥٤ وكان فتح حصن قنسرين في السنة الخامسة عشرة

سطوراً ينبغي منها نور الإيمان والتضحية والإيثار ، لا يبيغون إلا وجه الله ، مع أن كلا منهم يصلح أن يكون قائد جيش عظيم : المثنى بن حارثة الشيباني^(١) جاء إلى أبي بكر رضى الله عنه ، وقال : أُمِّرَني على مَنْ قَبْلِي من قومي ، أقاتل من يلينى من أهل فارس ، وأكفيك ناحيتي ، ففعل أبو بكر ذلك . وكان المثنى جندياً عظيماً ، ذا شهامة ومروءة ، ولما تولى خالد إمارة جيوش العراق كان المثنى تحت لوائه ، وكان مع خالد كما كان خالد مع أبي عبيدة ينتدبه للشدائد ، ويسير في طليعة جيشه إلى أن أمر خالد بالذهاب إلى الشام تخلف المثنى على جيش العراق . وقد حارب الفرس حرباً عظيمة في يوم اليمارق^(٢) وطاردهم حتى وصل إلى أبواب المدائن وأرسل إلى أبي بكر يستنجد به ، ولكن نجدة أبي بكر أبطأت عليه ، ففرج المثنى بنفسه إلى المدينة وجاءها وأبو بكر محتضر ، ولكنه أغراه بغزو بلاد فارس فاقنع أبو بكر ، واستدعى عمر بن الخطاب ، وطلب منه ألا تشغله وفاته عن تدب الناس مع المثنى ، فلما فرغ عمر من أبي بكر تدب الناس مع المثنى ثلاثة أيام متوالية ، فلم يجبه أحد ، وكانوا يخافون فارس كل الخوف لشدة سلطانهم وشوكتهم وعزهم وقهرهم الأُمم ، وفي اليوم الرابع قام المثنى في الناس وقال لهم : « أيها الناس لا يعظمَنَّ عليكم هذا الوجه ، فإنما قد تَبَخَّبَخْنَا^(٣) ريف فارس ، وغلبناهم على خير شِقَى

(١) انتهى لسبب المثنى إلى بني شيبان ، وكان إسلامه وقدمه على رسول الله سنة تسع ، وكان شهيداً شهيداً ميمون النقيبة . حسن الرأي ، وقد مات سنة ١٤ هـ قبل القادسية

(٢) الطبري - ٤ ص ٦٤ وابن الأثير - ٢ ص ٢١٢ .

(٣) التمهيد ج : التمسك في المقام والحلول .

السواد^(١) ، وشاطرناهم ، وثلنا منهم واجترأ من قَبَلنا عليهم ، ولها إن شاء الله ما بعدها » ، وخطب عمر فيهم يرغبهم في القتال وتحقيق وعد الله ، من أن الأرض لله يرثها عباده الصالحون ؛ فكان أول من استجاب لهذه الدعوة أبو عبيد بن مسعود^(٢) ثم تبعه الناس ، وقد طُلب إلى عمر أن يولى على هذا البعث الجديد رجلاً ممن له سابقة في الإسلام ، فأبى إلا أن يولى أبا عبيده ؛ لأنه كان أول من استجاب لقتال الفرس من أهل المدينة بعد أن نكص الناس أربعة أيام سوياً ، ومن العجيب أن المثنى بن حارثة ، وهو من هو في بلائه وخبرته بقتال الفرس وأول من حرض على غزوهم ، قد رضى أن يكون مرءوساً لأبي عبيد ، وأن يعمل تحت إمرته ، وهذا يدل على أن المسلمين لم يكونوا يفكرون في هذه الأشياء الصغيرة كالرئاسة والقيادة ، وإنما كانوا يقصدون بجهادهم وجه الله تعالى في أى مكان من صفوف المسلمون وُضِعوا ، ويدل على إنكار الذات ، وجعل الهدف الأسمى فوق كل اعتبار ، وهذا من تربية الإسلام العظيمة ، الذى يحا الفردية من نفوس هؤلاء العرب . وقد كانت قوية القبضة على نفوسهم فى الجاهلية . وليس من طبعهم الإذعان بيسر وسهولة ، وقد عادوا إليها بعد أن خفت تلك القبضة ، وكانت سبباً فى إخفاقهم وتناحرهم فيما بينهم ، ورجعت عصبيتهم القبلية قوية فى زمن بنى أمية الذين كان من غاياتهم تقوية هذه العصبية ؛ لياهو الناس بها عن النظر فى شأن اخلافة

(١) السواد : قرى المراق وسياها التى فتحها المسلمون على عهد عمر بن الخطاب ، سمى بذلك لسواده بالزروع والنخيل والأشجار .

(٢) أبو عبيد بن مسعود : من ثقب ، وهو واد المختار بن أبى عبيد المشهور فى خلافه مع عبد الله بن الزبير .

والخلفاء ، ويدل أيضاً على أن أى رجل من هؤلاء العرب المسلمين أهل لأن يتولى قيادة الجيوش العظيمة ، وهذا أكبر برهان على غنى هذه الأمة برجالها ، وأن فطرهم سايمة ، وعقولهم قوية ، وأن الطبيعة قد هياتهم لأن يحتلوا مكانة سامية بين أمم العالم لو أحسنوا استغلال مواهبهم ، وطرحوا الأثرة والخلاف جانباً . وقد كان الإسلام آنذاك فى عنفوانه فكانوا فى أحسن حالاتهم النفسية والخلقية والعقلية .

وسبق المثنى أبا عبيد لـ له الأمر ، وعمل تحت رئاسته ، قائداً شهياً شجاعاً لا يفكر إلا فى نصرته دينه ، وقد برهن أبو عبيد على أنه مثل من أمثلة الشجاعة التى لا تروى إلا فى الأساطير ؛ فقد خيّر الفرس بين أن يعبروا إليه النهر أو يعبر إليهم فأبى أن يكون أجبن الفريقين وعبر الجسر ، ولما عبث بهم فيلة الفرس ، ترجّل أبو عبيد ، وأمر الناس بالترجل وأمرهم أن ينفّروا هذه الفيلة وأن يقطعوا أحزماتها ، وعمد هو إلى الفيل الأبيض الذى يتقدمها قطع حزامه ، فوقع الذين عليه ، وضرب خرطومهم بالسيف ، ولكن الفيل تقدم لأبي عبيد وضربه برجليه ، فلقاه على الأرض ، ثم وقف فوقه وأزهق روحه ، وقد تقدم بعد أى عبيد سبعة من ثقيف ، قتلوا الواحد بعد الآخر ، فتقدم المثنى وأخذ اللواء ، ولكن الناس انفضوا عنه . ورأى بعض الشجعان رآياً خاله استبسلاً وتضحية ، فمنع الناس من عبور الجسر وناداهم : أن موتوا كما مات أسراؤكم ، بيد أن بعض من لم يصبر غرق فى الفرات ، وخشى المثنى أن يسلك الناس ، فوقف واللواء بيديه يناديهم : إنا دونكم فاعبروا على هينتكم ولا تُدْشُوا ، فإنا لن نزايلَ حتى نراكم من ذلك الجانب ولا تُغرقوا أنفسكم

وأصلح الجسر حتى عبروا جميعاً ، فتركوه وانصرفوا استحياء من الهزيمة^(١) .
 وخلصت القيادة للمثنى ، وندب عمر بن الخطاب الناس إليه ، وعاجلهم
 الفرس في موقعة البويب^(٢) ، ولكن المثنى كان القائد الثابت الجأش ، البصير
 بالحرب ، فنظم جنده ، وعبأهم أتم تعبئة ، وحمسهم ، ولاحى وطيس القتال
 حمل على مهران قائد الفرس فأزاله حتى دخل ميمنته ، واختلط الجيشان ،
 وأوح قلب المسلمين في قلب المشركين ، وقتل غلامٌ نصراني من تغلب
 مهران ، واستوى على فرسه ، وما زالوا يكيلون للفرس الضربات حتى فروا
 من أمامهم . ولقد راع المثنى هذا النصر الذي أحرزته فئة قليلة فقيرة على جيش
 قوى معد أتم عدة قتل : « قد قانت العرب والعجم في الجاهلية والإسلام ،
 والله لمائة من العجم في الجاهلية كانوا أشد على من ألف من العرب ، ومائة
 اليوم من العرب أشد على من ألف من العجم ، إن الله أذهب قوتهم ، وأوهن
 كيدهم ، فلا يروى عنكم زهاء ترويه ، ولا سواد ، ولا قسي فج ، ولا نبال
 طوال ، فإبهم إذا أعجلوا عنها أو قسوها كانوا كالبهايم أي وحيثهم وحيتهم »
 ولقد كان لهذه الموقعة أثرها العظيم في نفوس المسلمين لأنها أزلت عار
 الهزيمة في موقعة الجسر ، وردت إليهم انتصرتهم . والله بأنفسهم ولى
 وعدهم النصر ، وفي هذه الموقعة يقول الأعور الشبيبي مشيداً بنصرة نصر من حارثة ،
 وبلائه في قتال الفرس :

(١) كان هذا في موقعة قس السيف أو موقعة حصر في سنة ١٣ هـ . راجع مغازي

ج ٤ ص ٦٤ وان الأنبياء ج ٢ ص ٢١٤ .

(٢) الطبري ج ٤ ص ٧١ ، وان الأنبياء ج ٢ ص ٢١٤ . تنويع الحديث ص ٢٥٣ ،

ومعجم البلدان ج ٢ ص ٢١٠ . البويب : نهر بالمرق يحد من غرب .

هاجت لأعور دار الحى أحزاناً واستبدلت بعد عبد القيس همدانة
وقد أرانا بها والشملُ مجتمعٌ إذ بالنخيلة قتلى جند مهرانا
أزمان سار للثنى بالخيول لهم فقتل القوم من فرس وجيلانا
سما لأجناد مهران وشيعته حتى آبادهم مثنى ووحدانا
ما إن رأينا أميراً بالعراق مضى مثل المثنى الذى من آل شيبانا
إن المثنى الأميرُ القرمُ لا كذبٌ فى الحرب أشجع من ليث بخفانا^(١)

ومات المثنى عليه رحمة الله قبل موقعة القادسية متأثراً بجراحه ، بعد أن
مهّد الطريق لنزوفارس ، وأذاقهم النكال المرّ ، وأطعم فيهم المسلمين وجراًهم
عليهم ، وأصبحوا لا يستطيعون النكوص عن إتمام الفتح بعد أن استشهد
منهم من استشهد . وهكذا يرجع إلى هذا القائد العظيم تلك المأثرة ، وهداية
أمم كثيرة للإسلام كانت تابعة للفرس ، لأنه أول من تجرأ على غزو بلادهم .
ومن هؤلاء الأبطال العظام الذين ندر وجودهم فى أزمنة التاريخ فى العالم أجمع
القعقاع بن عمرو^(٢) ، الذى منحه الله قلباً جريئاً لا يهاب المنايا وهى فائقة
أفواها ، كما بما بينه وبينها عهد ، ولقد كان أبو بكر رضى الله عنه ذا بصيرة ثاقبة
ومعرفة بالرجال ومعادتهم ، ولا سيما رجال الحروب ، فقد حدث بعد أن فرغ
خالد من اليمامة ، وقد كتب إليه بالتوجه بمن معه إلى العراق أن خالداً طلب
من أبي بكر المدد بعد وصوله إلى العراق ، فأمدّه بالقعقاع بن عمرو التميمي .

(١) خمان مأسدة مشهورة قرب الكوفة ، والنخيلة : مكان بالعراق قرب البويب

(٢) كان القعقاع من صحابة رسول الله ، وشهد فتوح الشام والعراق ، قال له رسول

الله صلى الله عليه وسلم يوماً : ما أعددت للجهاد ؟ قال : طاعة الله ورسوله والخيل .

عقيل له : أتمد رجلاً قد انقضت عنه جندة برجل ؟ ! فقال أبو بكر قوله القى يدل على عظيم ثقته بالقعقاع : « لا يُهزم جيش فيهم مثل هذا » فالقعقاع وحده عفى نظر خليفة المسلمين أقوى من جيش ، وهو مدد وحده لمن يطلب المدد ؛ لأنه شجاع ، ولأنه ذو رأى وبصيرة ، ولأنه ذو عصبية شديدة ، ولأنه مؤمن مسلم ولا عجب :

فالناس ألف منهم كواحدٍ وواحدٌ كالألف إن أمرت عني
إن خليفة المسلمين يطلب منه خالد المدد لغزو العراق ، وليضع أول بقعة في صرح الإمبراطورية الإسلامية ، وليحارب الفرس الدولة العتيدة ذات السلطان الضخم والشوكة القوية ، فيمد الرجل المسئول عن شئون المسلمين ، والذي قاتل أهل الردة بالجيوش الكثيرة ، والذي يحرص كل الحرص على سلامة العرب ، وسلامة الدين برجل واحد هو القعقاع بن عمرو ، فأى رجل كان القعقاع هذا ؟ لا بد أنه كان شيئاً مهُولاً دونه كل وصف وكل تقدير .

نراه أول ما نراه يُنبج خالد بن الوليد حين احتضن هُرمزَ في موقعة ذات السلاسل . وهجم الفرس على خالد يريدون استخلاصه ، فكان القعقاع للشهم اليقط أسرع منهم ، ولم يمهلهم حتى ينالوا من قائده ، بل حمل عليهم حتى تمت هزيمتهم . ولما غزا خالد الحيرة ، وأراد مطاردة الفرس خفف عنها البطل القعقاع بن عمرو ، ولم دعى إلى محاربة الروم في اليرموك ضن بالقعقاع أن يتركه مع المثني بن حارثة ، وأحذه معه ، ولقد تقدم كيف تسور كلاهما حصن دمشق ، وفتحها عتوة . أمر عمر بن الخطاب بعد فتح دمشق أن يرجع أبو عبيدة جيش العراق إلى قتال الفرس ، فضن بخالد بن الوليد واحتفظ

به لنفسه ، وسُيِّر جيش العراق وعلو مقدمته القعقاع بن عمرو تحت إمرة هاشم ، ابن عتبة بن أبي وقاص ، وتعجّل القعقاع حتى قدم على المسلمين بالقادسية يوم أغوات (١) وهو ثاني أيام هذه المعركة المشهورة .

أراد القعقاع البطل أن يوقع الرُّعب في قلوب الفرس ، فعهد إلى أصحابه أن يتقطّوا أعشاراً ، وهم ألف ، فكلما بلغ عشرة مدى البصر سرّحوا في آثارهم عشرة ، وكان قدوم القعقاع في العشرة الأولى ، فلما أتى الناس حيّاهم وبشرهم بالجنود ثم قال لهم : أيها الناس ! إني قد حتّكم في قوم ، والله إنهم لو كانوا بمكانكم ثم أحشوكم حسدوكم حُظّوتها ، وحاولوا أن يطيرُوا بها دونكم ، فاصنعوا كما أ صنع ، ثم تقدم من تَوّه الصفوف وبأدى : من يبارز ؟ فبرز إليه رجل من الفرس ، فقال له القعقاع من أنت ؟ قال : أنا بهمن جاذويه ، فنأدى ، يا لثارات أبي عبيد وأصحاب الجسر ! واجتلدنا ، فقتله القعقاع . وجعلت خيله ترد قطعاً ، وما زالت ترد إلى الليل ، وتندشّط الناس ، وكأن لم يصابوا أمس . بمصيبة في أول أيام القادسية . ثم بأدى القعقاع : من يبارز ؟ فخرج إليه رجلان ، فأنضم إليه الحارث بن ظبيان ، فقتل كلّ منهما صاحبه . وجعل القعقاع يحرض المسلمين على القتال ويقول لهم : بأشروهم بالسيوف ، فإنما يحصد الناسُ بها ، وبدأ الحرب والطعان ، ونشّط المسلمون لجرأة القعقاع . وقدوم رجاله ، فنكلوا بالفرس في يوم أغوات مكالا عظيماً . ولما جنّ الليل سرّب القعقاع رجاله إلى المكان الذي فرّقهم فيه من أمس ، وقال لهم : إذا طلعت عليكم الشمس فاقبوا مائة مائة ، كلما توارى عنكم مائة فلتبعضها مائة ، وإن

أدركهم هاشم بن عتبة برجاله فذاك ، وإلا جددوا للناس رجاء في المدد ، فإن
الرجاء يزيدهم إقداماً في الحرب ، وإيماناً بالفوز فيها ، ضلوا ذلك ، من غير أن
يشعر بهم أحد . وقد أدركهم هاشم ورجاله فزاد بهم المسلمون قوة على قوتهم .
وكبروا لمقدمهم حتى فزع الفرس .

ثم كان يوم عمّاس^(١) . وأعدّ الفرس القيلة كئول يوم في القادسية ، ولما
اشتد الأمر على المسلمين من القيلة ، أثار من دخل الإسلام من أهل فارس
على سعد بن أبي وقاص بأن مقابل القيلة في مشافرها وعيونها ، فأرسل إلى
القعقاع بن عمرو وعاصم أخيه أن اكفياني الفيل الأبيض ، وأرسل إلى حمّال
والربيل الأسديين أن اكفياني الفيل الأجرب ، وكات القيلة جميعاً تتبعهما .
فأخذ القعقاع وعاصم رعين ووضعاهما في عيني الفيل الأبيض فقبع ، وخفص
رأسه وطرح سائسه ، ودلّ مشفره ، فضر به القعقاع بسيفه ، فرمى به ، ووقع
لجنبه . وفعل حمّال والربيل مثل فعلهما فقرت القيلة جميعاً ، وألقت من عليها
من الفرسان ، واختلّت صفوف الفرس ، ودارت رحي المعركة إلى الليل ، وظنّ
سعد أن الأمر سيهدأ إلى الغد ، وخشي أن يؤتى المسلمون من خلفهم فُرسل
من يحميهم ، ووجد هؤلاء أن الفرصه سائحة فكبروا وهجموا على الفرس ،
وظنّ الفرس أن العرب قد غدروا بهم ، فستفوا القتال ، فلم ينتظر القعقاع
أمر سعد ، وتلقى هجومهم بهجوم شديد ، ولم يرَ رأي سعد القعقاع مستبكاً مع
الفرس يُزاحفهم قال : اللهم اغفر له . وانصره ، فقد أدت له ، وإن لم يستدنى ،
واشتد أوار المعركة طول الليل ، ولم تسمع إلا قعقة سلاح . وحتّط الأمر

(١) الطبري ج ٤ ص ١٢٤ وتسمى ليلة بية الحرير .

على سعد ، فلم يعرف شيئاً عن المعركة حتى الصباح ، فرأى أن الغلبة للمسلمين .
لم يفيض للمسلمين جَفَنٌ في تلك الليلة ، وأنهكهم القتال ، وسعير المعركة ،
واشتد بهم التعب ، بيد أن القعقاع الشجاع الصارم سار فيهم يحثهم على الصبر
ويقول : إن الدائرة بعد ساعة لمن بدأ القوم ، فاصبروا ساعة ، واحملوا فإن
النصر مع الصبر . وتماهد هو وجاعة على الموت ، وحملوا على من يليهم ،
واقبلوا أشد قتال إلى أن قام قائم الظهيرة ، فتخاذل القرس ، وزحف القعقاع
إلى سرير رستم قائد القرس هو وحفنة من أصحابه ، فاقتحم النهر هرباً ، فشده
هلالُ بن علفَةَ من رجله ، وقطع رأسه ، ونادى : قتلت رستم ورب الكعبة ،
فولّى القرس الأدبار ، وتتابعت هزيمتهم ، وتردّوا في النهر هرباً ففرق منهم
خلق كثير .

وكتب سعد بن أبي وقاص إلى عمر يبشره بالفتح كتاباً يقول فيه : « أما
بعد ، فإن الله نصرنا على أهل فارس ، ومنحهم سُنَنَ من كان قبلهم من أهل
دينهم ، بعد قتال شديد ، وقد لَقُوا المسلمين بعدّةٍ لم ير الرأعون مثل زُهاثها ،
فلم ينفعهم الله بذلك ، واتبعهم المسلمون على الأنهار وفي القجاج ، وأصيب من
للمسلمين فلان وفلان ، ورجال من المسلمين ، لانعلمهم ، الله بهم عالم ، وكانوا
يُدَوُّون بالقرآن إذا جنّ الليل دَوَّى النحل ، وهم آساد الناس ، لا يُشبههم
إلا الأسود ، ولم يفضل مَنْ مَضَى منهم من بقي إلا بفضل الشهادة ؛ إذ لم
تكتب لهم » .

وهذا هو القعقاع بن عمرو يسيّره سعد بن أبي وقاص على مقدمة جيش

هاشم بن عتبة يوم جُلُولاء^(١) ، وذلك بأمر عمر بن الخطاب ، وتعيينه القعقاع بالاسم على مقدمة جيش هاشم ، ولما دارت المعركة ، وكانت أشبه بليلة الحرير ، انتهى القعقاع في الوجه الذي هجم منه إلى باب خيل العدو وهم متحصنون وراء جدر سمكة ، فأخذه ، وأمر منادياً فنادى : يا معشر المسلمين هذا أميركم قد دخل خندق القوم ، وأخذه ، فأقبلوا إليه ، ولا يمنعونكم من بينكم وبينه من دخوله . وقد أمر بذلك ليقوى المسلمون ، لحمل المسلمون ، وهم لا يشكون أن هاشم بن عتبة فيه ، فلم يَقُمْ لحملهم شيء ، حتى انتهوا إلى باب الخندق ، فإذا هم بالقعقاع بن عمرو قد أخذ به . وانهزم الفرسُ يَمْنَةً وَيَسْرَةً .

وظل القعقاع ذلك القائد الباسل يشهد كل معركة من معارك المسلمين مع الفرس ، ويتقدم الصفوف ، ويقود طليعة الجيش ، وها نحن أولاء نراه مرة أخرى في موقعة نهاوند^(٢) ، وقد تحصن الفرس في خنادقهم لا يخرجون إلا إذا شاءوا ، ولا يقدر المسلمون منهم على شيء . وطال بهم الأمر ، وعظم الضيق ، واجتمع أهل الرأي من المسلمين كلٌّ يشير بحل لهذه المشكلة ، وكيف يمكن أن يخرجوهم من خنادقهم وحصونهم ، وتكلم النعمان بن متمر بن أمير الجيش ، وتكلم عمرو بن ثبي من قواد الجيش ، وتكلم عمرو بن معد يكرب الزبيدي ، ولم يأخذ الناس بأرائهم ، ثم تكلم طليحة الأسدي قتل : « إني أرى أن تبعث خيلاً مؤدية^(٣) » ، فيحذقوا بهم ، ثم يرموهم لينشبوا القتال .

(١) الطبري ج ٤ ص ١٧٩ ، معجم البلدان ج ٣ ص ١٢٩ ، كانت في صفر سنة ١٦ هـ جُلُولاء قرية في طريق خراسان على نحو أربعين ميلاً في شمال المداين .

(٢) الطبري ج ٤ ص ٢٣١ ، ومعجم البلدان ج ٨ ص ٣٢٩ ، ونهاوند من بلاد فارس قرب همدان ، وكانت هذه الموقعة في سنة ٢١ هـ .

(٣) مؤدية : كثيرة قوة معدة تم الإعداد لقتلهم وتقدمهم .

وَيُحْمَشُونَ^(١) ، فإذا استحمشوا ، واختلطوا بهم وأرادوا الخروج أَرْزَوْا^(٢) إلينا استطراداً ، فإننا لم نستطرد لهم في طول ما قاتلناهم ، وإنما إذا فعلنا ذلك ، ورأوا ذلك منا طمعوا في هزيمتنا ، ولم يشكوا فيها ، فخرجوا لمجادونا ، وجاددناهم حتى يقضى الله فينا ما أحب . فواقه الناس على رأيه .

ولكن من الجندي الباسل الذي يُنْتَدَبُ لمثل هذه المخاطرة ، ويهجم على الأعداء في خنادقهم ، ويدنو من حصونهم حتى يهيجهم ، وهم منه متمكنون يرمونه بالنشاب ، والنبال ، ثم يستطرد لهم ، وهم من خلفه ينالون منه ، وهو يتظاهر بالهزيمة ليطمعهم فيه ، ويسحبهم من خنادقهم ، ثم يشتبك معهم في معركة ، حتى ينجده المسلمون ؟ ؟ . ومن يفعل كل هذا إلا البطل المغوار القمقاع بن عمرو ، إنه لكل كريهة ، وكل معضلة ، لآيابه بالمخاطر ، وكأنها لاتأبه به ، فقد حالقها وحالفته ، فهو من أذاها بمنجاة .

كان القمقاع قائد الفرسان فأمره النعمان بن مُثَرِّب أن ينفذ هذه الخطة ، فسار بخياله حتى هاج الأعداء وأخرجهم من مكانهم ، ثم نكص ، ونكص ، ثم نكص ، واغتنمها الأعاجم وظنوا به وبجيشه الظنون ، ولم يتخلف منهم أحد عن الطراد ، واقطعوا عن حصنهم بعض الاقطاع ، وكان النعمان بن مقرن والمسلمون على تعبئة ، ولكن النعمان حبسهم فلم ينجد القمقاع ، وأمرهم أن يلزموا الأرض ولا يقاتلوه حتى يأذن لهم ، ففعلوا ، وأقبل المشركون عليهم يرموهم ، حتى أفشوا فيهم الجراحات ، وشكا الناس بعضهم إلى بعض ،

(١) محمشوم : يثروم وبفضبوم ويدعموم للقتال .

(٢) أَرْزَوْا : رجعوا إلينا لاحقين .

ولكنَّ النعمان صبرهم مراراً ، وهو ينتظر بالقتال مجيء ساعات ، كانت أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يلتقى فيها العدو ، وذلك عند الزوال ، يومهب الرياح ، وكان القعقاع وصحبة يعوثقون الأعداء ، ويشغلونهم حتى يقوم جيش المسلمين ، وقد تحملوا في سبيل ذلك الشيء الكثير . فلما حان الوقت أمر النعمان سائر الجيش بالهجوم ، فكانت نكبة عظيمة للفرس لم يروا مثلاً من قبل ، وكان النعمان حين أمر بالهجوم يدعو الله ويقول : اللهم اعز دينك وانصر عبادك ، واجعل النعمان أول شهيد اليوم على إعزاز دينك وبصر عبادك ! كنت راية النعمان تنقض على الأعداء اقتضاض الصواعق ، والنعمان معلم بياض القيء والقلنسوة ، وقد أريق من دم الأعداء ما جعل الأرض تنزلق بالخيول ، وقد زلق جواد النعمان فصرع الجواد وصرع النعمان في دماء الأعداء . وأخذ الراية أخوه نعيم بن مقرن ، وكتبه موت أمير الجيش ، وصاروا يقاتلون حتى أتم الله لهم النصر ، وهرب قواد الفرس وعلى رأسهم الفيرزان نحو همدان ، ورآه نعيم بن مقرن ، فطلب إلى البطل العظيم القعقاع بن عمرو أن يجده خلفه ، فأدركه حين انتهى إلى ثنية همدان ، والثنية مشحونة من بغل وحيرة موقرة عسلاً عاقته عن الهرب ، وحبسته ، فقتل على الثنية ، وقال القعقاع والمسلمون : إن لله جنوداً منها العسل . ومضى من معه إلى همدان فتبعهم القعقاع حتى دخل المدينة ، وحوى ما فيها .

لقد صدق أبو بكر رضي الله عنه حين قال عن القعقاع بن عمرو : « لا يهزم جيش فيهم مثل هذا » ، وكان من المنتظر بعد أن تبي القعقاع في المواطن جميعها بلاءه الحمود أن يكون من اقواد الذين يكمل إليهم الخليفة

عمر إمارة الجيوش ، ولكنّ عمر رضى الله عنه كان ذا نظر ثاقب ؛ إذ خشي أن يُفتنّ المسلمون بالقعقاع وأضرابه من الشجعان ، وأن يتكلوا عليهم ، ويضعف إيمانهم بأن نصرهم من عند الله ، وهذا هو السر في أنه لم يول المثنى ابن حارثة إمارة الجيش إلا عند الضرورة ، وفي أنه عزل خالد بن الوليد ^(١) ، ولكنّ هذا كله لم يؤثر شيئاً في نفوس هؤلاء الرجال العظام ؛ لأنهم - كما ذكرنا آنفاً - لم يكونوا يعملون لدنيا يحبونها ، أوجاه يصيبونه ، وإنما كانوا يعملون لله وفي سبيل الله . رحم الله القعقاع رحمة واسعة ، على شجاعته ، وخالص إيمانه ، وبلاثة الصادق الحق في المكاره ، وعلى ما قدم للمسلمين في أخرج المواقف من أيادي ييضاء ! ! .

إن قصة الدعوة الإسلامية ، وانتشارها من أول يوم لبّي فيه محمدٌ نداء ربّه حين قال له : « فاصدّع بما تؤمر وأعرض عن المشركين » إلى أن تقوضت أركان الدولة العباسية ، وغلب المسلمون على أمرهم في مشارق الأرض ومغاربها ، لقصة خاصة بمئات الألوف من الأبطال ، منهم من سجّل التاريخ اسمه وأشاد به ، ومنهم آخرون لا يعلمهم إلا الله ، كانوا مثلاً عالية في التضحية ، وكران الذات ، يعملون في سبيل دينهم ، من غير أن يشعر الناس ، ومنهم من مرّ التاريخ على أسمائهم دون أن يقف طويلاً ، وإن كانوا لا يقلون بأساً وتضحية عن سواهم .

ولا يسعني أن أحصى أسماء الذين تألقوا في صفحة الإسلام الغراء ، فقد كن هناك عشرات ، ومئات ، من المسلمين ، الذين كانوا قبل الإسلام

(١) واحد من ١٩١ من هذا الكتاب .

مغمورين ، لا يعرف الناس عنهم شيئاً ؛ فما أن أتيت لهم الفرصة لإظهار مواهبهم ، حتى برزوا ، وكأنهم تخرجوا في أعرق السكيات الحربية اليوم ، كلا ! بل إنهم كانوا أسمى نفساً ، وأبل غاية ، وأقوم خلقاً وأرأف بالعدو قبل الصديق ، من هؤلاء الذين يتبجحون بمدنيّتهم ، وهم كذابون ، مناققون غادرون ، يعطونك ساعة المحنة أقوى العهود . وأخلص المواقف ، فإذا ساعدتهم وكفل لهم النصر تنكروا لك ، كأن لم يكونوا بالأمس على وشك التردى في هوة الاندحار ، والخزى ، والإبادة ؛ يتذللون لك ، ويمخطبون ودك ، ويتمنون عطفك ، وتراهم بعد النصر متجهمين ، متغطرسين يقبلون الحق باطلاً ، والباطل حقاً ، أخزاهم الله !

وهناك هؤلاء الذين عذبوا في سبيل عقيدتهم ، وأوذوا أشد الإيذاء ، حتى آثروا الهجرة إلى الحبشة فراراً بدينهم وخشية من الفتنة ، وهناك أبطال بدر ، من استشهد منهم ، ومن سلمه الله ، وأبقاه ليستشهد في معركة أخرى . هاهو ذا رسول الله قد خرج إلى بدر في عدد قليل ، وعدة يسيرة حتى لقد كان المسلمون يتعاقبون على الإبل لقلتها ، يسير على وفي يده راية المهاجرين ، ويسير سعد بن معاذ وفي يده راية الأنصار . ويعلم النبي بقدم قريش ، فاستشار أصحابه ، وتكلم كثيرون ، ومن تكلم المقداد بن عمرو فقال : يا رسول الله ! « امض بب ما أراك الله فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : « اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون » (١) ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون ، فو لذي بعثك بالحق لو سرت بى إلى ربى

القياد (١) لجالدنا (٢) معك من دونه حتى تبلغه » ، وتكلم سعد بن معاذ فقال :
امض يا رسول الله لما أردت فنحن معك ، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت
بنا هذا البحر لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى
بنا عدونا غداً ، إنا لأصبر في الحرب ، صدق في اللقاء ، ولعل الله يريك ما تقر به
عينك ، فسر بنا على بركة الله .

وكان سعد بن معاذ يتكلم باسم الأنصار ، الذين آووا رسول الله ، ولقد
كان سعد هذا من أعلام الإسلام الخافقة ، وأبطاله الأفداد ، سر يوم الخندق
بمحسن بن حارثة ، وهو من أحرز حصون المدينة ، وعليه درع قصيرة ، قد
خرجت ذراعها كلها منها وفي يده حربته يسرع بها ويقول :

لَبْتُ قَلِيلًا يَشْهَدُ الْهَيْجَا حَمَلٌ لَا بَأْسَ بِالْمَوْتِ إِذَا حَانَ الْأَمَلُ (٣)

قالت له أمه ، وكانت في الحصن هي وعائشة أم المؤمنين : الحق يا بني
فقد والله أخرت فقال لها عائشة : يا أم سعد ، والله لو ددت أن دِرْعَ سعد كانت
أسبغَ مما هي ، ثم رمى سعد بن معاذ بسهم فقطع منه الأكل (٤) ، وقد مات
متأثراً من حربه بعد أن حكم على بني قريظة حكمه المشهور (٥) ، وقد قال فيه
رجل من الأنصار يرثيه :

وما اهتز عرشُ الله من موت هالكٍ سمعاً به إلا لسعدٍ أبي عمر

(١) برك 'مهاد : موضع سعد ، أو هو كناية عن أقصى مكان معمر في الأرض .

(٢) جالدنا : جاهدنا .

(٣) حمل : اسم ربح وهو الذي قال هذا البيت الذي تمثل به سعد .

(٤) الأكل : عرق في الفراع .

(٥) راجع سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٢٥٢ ، وتاريخ الطبري ج ٣ ص ٥٢ .

وقالت أمه ترثيه :

ويلُ أمَّ سعدٍ سعداً صرامهً وحَداً
وسودداً ونَجداً وفارساً مُعداً
سداً به مسداً (١)

وهناك أبطال أحد : مصعب بن عمير أول حامل للواء المسلمين يقاتل حتى يقتل ، وهذه أم عمارة بنت كعب خرجت أول النهار ، ومعها سقاء فيه ماء ، فأتته إلى رسول الله وهو وأصحابه ، والدولة والريح للمسلمين ، فلما انهزم المسلمون انحازت إلى رسول الله ، وأخذت تقاتل ، وتذبُّ عن النبي بالسيف ، وترمي عن القوس حتى جُرحت في سبيل الله .

وهل أذاك حديث خبيب بن عدي ؟ . وقد غدر به ويأصحابه قوم جاءوا إلى النبي مُدَّعين الإسلام ، وطلبوا منه أن يرسل إليهم من يفقههم في الدين ، فكان خبيب هذا ممن أرسله رسول الله ، ولكنَّ القوم غدروا بهم جميعاً ، وباعوا خبيباً لرحل من أهل مكة كي يقتله بأبيه الذي قُتل في بدر ، ثم خرجوا بخبيب ليقتلوه فقتل : ذروني أصلي ركعتين ، فصلي ، ثم قال لولا أن يقولوا جزع من الموت لزدت ، وما أبالي على أي شيء كان الله مصرعي . ثم رفعوه على خشبة ، فلما أوثقوه قال : اللهم إنا قد غدا رسالة رسولك ، فغدا لعداء ما يُصنع بنا ، اللهم أحصهم عدداً ، واقتلهم بدداً ، ولا تعدد مرة ... ثم فتنوه .

وكان من هؤلاء زيد بن الدثينة ، فلما قُدِّم ليقتل ، سألته أبو سفيان :

(١) أهام العرب في الإسلام للأستاذين محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي حناوي ص ٧٠ .

أشدك الله يا زيد ! ، آتجب أن محمداً عندنا الآن مكانك فضرِب عنقه ، وأنتك في أهلك ! قال : والله ما أحبُّ أن محمداً تصيبه شوكة تؤذيه وأنا جالس في أهلي .

إن القديسين الذين يعظمهم أهل المسيحية هم الذين أصيبوا من أجل دينهم ، وعذبوا في سبيله ، وقد قُتل بعضهم ، ولكنَّ المسلمين كانوا جميعاً قديسين وما منهم إلا مَنْ نحى بأعز شيء لديه في سبيل دينه ، وإذا طُلِبَت منه نفسه قدمها راضياً مطمئناً . هذا رسول الله يبعث أربعين رجلاً من أصحابه لأهل نجد كي يعلموهم الإسلام ويهدوهم إلى الطريق القويم ، فساروا حتى نزلوا بئر معونة ، فقال بعضهم لبعض : أيُّكم يبلغ رسالة رسول الله أهل هذا الماء ، فقال حرام ابن ملحان : أنا أبلغ رسالة رسول الله ، وخرج حتى أتى حِواء^(١) منهم ، فاحتجى أمام البيوت ؛ ثم قال : يا أهل بئر معونة ، إني رسول محمد إليكم ، إني أشهد ألا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، فأمنوا بالله ورسوله . ففرج إليه عامر بن الطفيل من كِسر^(٢) البيت برمح فضرِب به جنبه ، حتى خرج من الشَّقِّ الآخر ، فقال حرام : الله أكبر ! فزتُ وربَّ الكعبة ! ؛ لله هذه النفس المؤمنة التي تسعى للشهادة ، وأداء الرسالة ، وتسرع للموت كما يسر غيرها للحياة .

وكيف ننسى أبطال مؤتة ، زيد بن حارثة ، وجعفر بن أبي طالب ، وعبد الله بن رواحة ، وقد كانوا يقاتلون قوماً يفوقونهم عدداً ، وقد قتل هؤلاء

(١) الحِواء : مجموعة من بيوت الحمى .

(٢) كسر البيت : جانبه . راجع في يوم بئر معونة سيرة ابن هشام - ٣ ص ١٨٤ ،

والطبري - ٣ ص ٣٣ وما بعدها .

جميعاً الواحد بعد الآخر ، وكل منهم كان يحمل راية المسلمين . استمع إلى عبد الله بن رواحة يقول وقد أخذ الراية بعد مقتل جعفر :

أَقْسَمْتُ يَا نَفْسُ لَتُنْزِلَنَّه لَتُنْزِلَنَّه أَوْ لَتُكْرِهَنَّه
إِنْ أَجْلَبَ النَّاسُ وَشَدُّوا الرِّثَّةَ مَالِي أَرَاكَ تُكْرِهِينَ الْجَنَّةَ ؟ (١)
يَا نَفْسُ إِلَّا تُقَتِّلِي تَمُوتِي هَذَا حِمَامُ الْمَوْتِ قَدْ صُلِيَتْ
وَمَا تَمْنَيْتِ قَدْ أُعْطِيَتْ إِنْ نَفَعْلِي فَعَالِهَا (٢) هُدَيْتِ
ثُمَّ ظَلَّ يُقَاتِلُ حَتَّى قَتَلَ .

وماذا عساي أن أذكر من أسماء هؤلاء الأبطال ، وعددهم يحل عن الحصر : هذا ثابت بن قيس يوم اليمامة — حين انهزم المسلمون ، نادى فيهم : بشما عودتم أنفسكم يامعشر المسلمين ، اللهم إني أبرأ إليك مما يعبد هؤلاء — يعني أهل اليمامة — وأبرأ إليك مما يصنع هؤلاء — يعني المسلمين ، وحفر لقدميه في الأرض ، وهو حامل اللواء بعد ما تحنط وتكفن ، ولم يزل في مكانه حتى قُتل .

وهذا زيد بن الخطاب أخو عمر بن الخطاب تراه يوم اليمامة وهو يخاطب الناس : أيها الناس دُضُّوا على أضراسكم ، واضربوا عدوكم ، وامضوا قدماً ، والله لا أتكلم حتى يهزمهم الله ، أو ألقى الله ، فأكله بحجتي ، ثم قاتل حتى قتل . وهذا هو أبو محجن الثقفي يحبسه سعد بن أبي وقص في بيته يوم القادسية لتغنيته بالخر وقد حرمها الإسلام ، فيقع امرأة سعد والمركة دائرة بئن تفك قيده وتعطيه فرس سعد ايقاتل عليها ، ثم يعود بعد المعركة ويضع القيد في رجليه

(١) الرثة : العويل .

(٢) الضمير عائد إلى صاحبيه زيد بن حارثة ، وجعفر بن أبي طالب .

كما كان ، وتواقفه بعد تردد طويل ، ويخرج إلى المعركة ، ويقصف الأعداء بسيفه قصفاً منكراً ، وتمعجب الناس من أمره وهم لا يعرفونه . وقد قال في بلائه يوم القادسية :

لقد علمت ثقيفٌ غير نخر بأنا نحن أكرمها سيوفاً
وأكثرهم دروعاً سابغاتٍ وأصبرهم إذا كرهوا الوقوفاً
فإن أحبس فذلكم بلائى وإن أترك أذيقهم الختوفاً
وقد عاد بعد المعركة وقيد نفسه بالقيد .

وهذا هاشم بن عتبة بن أبي وقاص يقاتل أسد كسرى حتى يقتله بسيفه^(١) وهؤلاء هم أبطال الشام أبو عبيدة بن الجراح ، وعمرو بن العاص ، ويزيد بن أبي سفيان ، لقد كان كلٌ منهم أمة وحده ، دهاء وقوة وعزيمة .

لقد كان المسلمون جميعاً أبطالاً ، وكيف لا ؟ ، لقد عبروا دجلة بنحيلهم وراء العدو جميعاً في يوم المدائن^(٢) ، وإن دجلة لترعى بالزبد ، وإنهم ليتحدثون في عومهم ما يكثرثون ، كما يتحدثون في مسيرهم . وسعد بن أبي وقاص وراءهم يقول : حسبنا الله ونعم الوكيل ؟ والله لينصرنَّ الله وليه ، وليُظهرنَّ الله دينه ، وليهزمنَّ الله عدوه ، إن لم يكن في الجيوش بنى أو ذنوبٌ تغلب الحسنات ؛ فقال له سلمان الفارسي : « ذللت لهم والله البحور كما ذلل لهم البر ، أما والذي نفس سلمان بيده أخرجنَّ منه أفواجاً كما دخلوه أفواجاً » وطبقوا دجلة خيلاً ورجلاً حتى ما يرى الماء من الشطىء أحد ؛ ثم خرجوا من الماء ، والخيول تنفض أعرافها صاهلة ، فلم رأى الفرس ذلك ولَّوا مدبرين لا يلوون على شيء .

(١) تاريخ الطبري ج ٤ ص ١٦٤ .

(٢) الطبري ج ٤ ص ١٧٠ ، وابن كثير ج ٨ ص ٦٣ .

لأنهم رأوا قوماً لا يقف أمامهم شيء حتى دجلة وهو يرى بالزبد يسبرونه
سباحة ، وعليهم عدتهم وعتادهم ومعهم خيولهم وإبلهم .

ولو رُحِتْ أعدد أسماء الأبطال الذين ظهروا في تاريخ الفتوح الإسلامية ،
وأعمال كل منهم ، وعظم بلائه ، لما استطعت إلى ذلك سبيلا في هذا الكتاب
المحدود الصفحات ؛ لقد لمع في فتح مصر عمرو بن العاص ، وعبادة بن الصامت
والمقداد بن الأسود ، وأبلى في فتح إفريقية ومقاتلة البربر عقبة بن نافع
مؤسس القيروان ، وناشر الإسلام في تلك الربوع ، والبربر أمة متجذبة كالعرب
ولكن العرب كانوا أقوى منهم بعقيدتهم وعظم إيمانهم بما وعدهم الله . ومن
الأسماء التي تألفت في سماء التاريخ العربي الإسلامي المهلب بن أبي صفرة ،
وقد اشتهر بحروبه مع الخوارج ، وكانوا قوماً أولى بأس شديد ، تمكنت من
قلوبهم عقيدة راسخة ، وهم عرب في الغالب ، وكانوا يسمون الشراة ؛ لأنهم
باعوا أنفسهم في سبيل مبدأهم وعقيدتهم ، واشتهر منهم أبطال عظام ، وقد أرسل
إليهم عبيد الله بن زياد جيشاً من ألفي رجل فهزمه أربعون من الخوارج يوم
آسك (١) ، وفي ذلك يقول عيسى بن فاتك الخارجي من بني تميم اللات (٢) :

ألفا مؤمن فيما زعمتم ويهزمهم بآسك أربعون
كذبتهم ليس ذاك كما زعمتم ولكن الخوارج مؤمنون
هم الفئة القليلة غير شك على الفئة الكثيرة ينصرون
أطعمهم أمر جبار عبيد وما من طاعة لنفسين

ولم يوجد من قواد العرب مسلمين من يستطيع لصمود الخوارج وتدريبهم

(١) الأخبار الطوال لأبي حنيفة الدينوري طبعة لندن ص ٢٧٩ .

(٢) Noeldeke : Veterum Carminum Arabicorum P. 90.

وتذليلهم إلا الملهب وفي ذلك يقول ابن عَرَّاة (١):

وليس لها إلا الملهبُ إنه ملء بأمر الحرب شيخ لها شان،
إذا قيل من يحس العراقين أو مات إليه معدن بالأكف وقحطان
فذاك امرؤ إن يلقيهم يُطفئ نارهم وليس لها إلا الملهب إنسان
ولم يكن قتال هؤلاء الخوارج هيئاً ؛ إذ كانت عندهم عصبية شديدة
لمذهبهم ، ومعظمهم من العرب ، وكان فيهم زهدٌ وعزوف عن الدنيا وتقشف ،
وظهر من بينهم أبطال شجعان ، ضربوا المثل الأعلى في التضحية ، والإيثار ،
وتمثلت فيهم كل معاني الفتوة ، ومن هؤلاء أبو بلال مرْدَاسُ ابن أديّة الذي
يرثيه حمران بن حِطّان البطل الخارجي بقوله :

لقد زاد الحياة إلى بغضاً وحباً للخروج أبو بلال
أحاذر أن أموت على فراشي وأرجو الموت تحت ذرا العوالي
ولو أني علمت بأن حتفي كحتف أبي بلال لم أبال
فمن يك همُّه الدنيا فإني لها والله ربّ العرش قالي.

ومنهم قطريُّ بن الفُجاءة وهو القاتل :

ألا أيها الباغي البراز تَقَرَّبْ أساقتك بالموت الذّاعف المفسّبا
فما في تساق الموت في الحرب سبة على شاريه فاسقني منه واشرابا
ولكن الملهب بن أبي صُفْرة كان من القواد المحنكين ، والشجعان
الأفذاذ ، وأخذ يتتبعهم ، ويلتقي بهم في المعركة تلو المعركة ، ويوقع بهم المرّة
بعد المرّة . وهم يتربصون به الدوائر ، وهو لا ينفك يطلبهم ، ولقد هاجموا

حرّة^(٢) وهو جالس على المنبر يوم عيد الأنصبي يخطب الناس خطبة العيد قلنا
سمع بمقدمهم قال : سبحان الله ! أفى مثل هذا اليوم يأتوننا ؟ ما أبغض إلى
المحاربة فيه ، ولكن الله تعالى يقول : « الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات
قيصاص » فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » ونزل
عن على المنبر ، وخفّ لقتالهم ، وكان يرأسهم في ذلك اليوم أحد فرسانهم وهو
همرو القنا وقد ارتجز عمرو هذا حين رأى المهلب بقوله :

نحن صَبَحْنَاكم غداة النَّخْرِ بالخيل أمثالَ الوشيح تَسْرَى
يَقْدُمُهَا عمرو القنا في الفجر إلى أناسٍ كَهَجُوا بالكفر
اليومَ أقضى في العدو نذرى

واقْتتلوا قتالاً شديداً في ذلك اليوم حتى جَنَّ عليهم الليل ، ثم انْحاز
الخوارج إلى (كازون) ، من بلاد فارس وتبعهم المهلب . وكلما ذهبوا إلى
مكان سار في آثارهم حتى قال أحدهم :

حتى متى يتبعنا المَهَابُ ليس لنا في الأرض منه مَهْرَبُ
ولا السماء أين أين المذهبُ ... ؟

ولما سمع ذلك قطريّ بن الفجاءة بكى ، ووطن نفسه على الشهادة والموت ،
وقدم الحرب وهو يرتجز :

حتى متى تخطئني الشهادة والموت في أعناق قلادة
ليس القرار في الوغى بعده يارب زدني في التقى عباده
وفي الحياة بعده زهده

واستمر القتال بينهم وبين المهلب زمناً ، وهو يقفوا آثارهم في شعاب
الجبال ، وفي الحصون ، وفي كل مدينة ومكان وينكل بهم ، وهم لا يلينون
ولا يخضعون إلى أن كان يوم صمم فيه الخوارج على الاستشهاد أو الصمود
لعدوهم ، وعليهم عبدربه ، فناداهم : « يا معشر المهاجرين روّحوا بنا إلى الجنة
فإن القوم رائحون إلى النار . » فاطعنوا بالرماح حتى تكسرت ، واضطربوا
بالسيوف حتى تقطعت ، ثم صاروا إلى المعاقبة ، فترجل المهلب في سحاته وحمل
عليهم وهو يتلو قول الله تعالى : « قاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين
كله لله » ^(١) فلم يزالوا يقتتلون حتى حال بينهم الليل ثم غدوا على الحرب ، وقد
كسر الخوارج حفون سيوفهم ، وحلّقوا رؤوسهم ، وقتل (عبدربه) وجميع
أبطاله ، ولم يبق إلا ضعفاؤهم ، فدخلوا في عسكر المهلب ، وانضم كل رجل
إلى عشيرته من أصحاب المهلب ، فكتب بالصر إلى الحجاج ، وأرسل الكتاب
مع بشر بن مالك الحرسى ، فلما وقف أمام الحجاج أشأ يقول :

قد حَسَمْنَا داءَ الازارِقَةِ الدِّهْ رَ فَأَضْحَوْا طَرَأَ كَالْ نَمُودِ
بطمان الكِماءِ في ثَغْرِ القَوِ مَ وَضَرِبَ يُشِيبُ رَأْسَ الْوَلِيدِ
كلما شئتَ راعِني قَطَرِي فَوِ عَيْلِ الشَّوْىِ أَقْبَ عَتُودِ
مُعَلِّمًا يَضْرِبُ الْكِتِيبةَ بِالسِّ فِ وَعَمْرُو كَالنَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ

ومن القواد العظام الذين عيروا وجه التاريخ ، ودخل فضايلهم أمم عديدة
في لإسلام ، وفدته بالعلماء الأخلاء ، والعقلاء المتبحرين قتيبة بن مسلم الباهلي ،
يُركان على قدر عظيم من الشعاعة ، لا يردده عن عايته شيء مهما حل ،

وقد فتح كل ما وراء النهر ، وأدخل في حوزة الإسلام بخارى وسمرقند وأوغل في فتوحاته حتى أبواب الصين . وقد حارب في فتوحاته أمما شتى اشتهرت بياسها وشجاعتها كالترك والدليل وغيرهم ، فلم يثبتوا لقتاله .

ومنهم محمد بن القاسم بن محمد التقى الذي اشتهر بحروبه أيام بنى أمية ، وفتح بلاد السند ، وجعل لنا من أساقها إخواناً في الإسلام يعتز بهم إلى يومنا هذا ، وكان محمد شجاعاً ، وبطلاً صنديداً لا يتنيه عن عزمه شيء .

ومنهم مسلة بن عبد الملك بن مروان وقد ألبى بلاء عظيم في حروبه مع الروم ، وفتح القسطنطينية للمرة الثانية .

ومنهم موسى بن نصير وطارف بن زياد اللذان فتحا الأندلس وحربا القربجة ، وكانا السب في تلك الدولة العظيمة التي ازدانت بها أوروبا ثمانية قرون . لقد حارب فتیان المسلمين كل أم الأرض ، وامتحت شجاعتهم في كل صقع . وأمام كل أمة ، فبرهوا على أنهم أسد بأس . وأقوى عزيمة . وأعظم إيماناً ، وأنهم أبطال من اشتهر بهم ، ومن م يشتهر . لقد كان شعار كل منهم في هذه المعارك الطاحنة التي غيروا بها وجه التاريخ ، وأدأوا كثيراً من الشعوب أولى البأس والقوة ما قاله أبو رواح اليشكري :

إن الفتى كل الفتى من لم يهزل إذا لحن حد عن وقع لأس
قد علمت أنى إذا البأس نزل روع يوم تهب مة - ثم نصر
لقد كانت جيوش المسلمة بن أيام نخلعاء رستدين . وحى نية تأنف من
فتیان العرب ، وهم أمم القيدة والسيدة . وهم حمة لاسلام ومسترون .
وقد حافظوا على تقاليدهم في كل مكان حو دعد ارتف نفسد عيه .

أحسامهم القوية ، ونفوسهم العالية ، ولقد فطن عمر بن الخطاب إلى الأخطار التي ستخلق بهم ، حينما يخاطبون سواهم من الأمم ، ويقوضون عروشاً قد أبطرها الثراء ، وأفسدتها النعمة ويحوزون أموالاً جمة ، ويرون من أسباب الرفاهية ما لم يتعودوه وما تشتاقه كل نفس ، ولذلك نصحهم عمر بن الخطاب نصيحته المشهورة على ما رواه علي بن الجعد عن عثمان الهندي^(١) قال : أتانا كتاب من عمر بن الخطاب ونحن بأذر بيجان : « أما بعد ، فاتزروا ، وارتدوا ، واشعلوا ، والقوا الخفاف ، والقوا السراويلات ، وعليكم بتياب أبيكم اسماعيل ، وإياكم والتعم وزى المعجم ، وعليكم بالشمس فإنها حجام العرب ، وتمعدوا واخشوشنوا ، واخولقوا ، واقطعوا الرث كُـب ، وانزوا على الخليل نزوا ، وارتموا الأغراض » .

فقد أمرهم بلبس الإزار ، والرداء ، والنعل ؛ لتعتاد أرجلهم الحر والبرد فتقوى على دفع الأذى ، ونهاهم عن لبس الخفاف^(٢) ، والسراويلات ، كما نهاهم عن التعم ، لأنه يخنث النفس ، ويكسبها الأنوثة ، والكسل ، ويخنون صاحبَه أحوج ما يكون إلى نفسه وقت الشدائد ، والتشبه بالمعجم حتى يحافظوا على مظهرهم العربي ، فلا تزل أقدامهم في مهاوى الترف ، وينسوا عاداتهم وتقاليدهم ، وحتى يكونوا شجاً في قلوب عدوهم وهم في زيهم البدوي ، أما إذا رأهم في زيهم ومظهره الذي ألقاه ، قات خشيته لهم ، وتحراً عليهم ؛ وأمرهم عمر رضي الله عنه بأن يتعرضوا للشمس حتى تصح أحسامهم ، وتذهب عنهم لأمرض والعلل ، وهم في حوله يأنفوه ، وعلى طعام لم يتعودوه . كما

(٢) سم خب .

(١) القروسة لابن اقيم حوزبة ص ٩

أمرهم أن يتمددوا أى أن يلزموا عادة جدم معدّ بن عدنان فى أخلاقه .
 وزيه . وفروسيته وأفعاله . وطلب منهم كذلك أن يخشوشنوا أى يمارسوا
 ما يوجب الخشونة ، ويجعل الجسم متين الباء صُلباً ، قوياً على احتمال الإجهاد ،
 وشدة الحر والبرد ، والتعب والمشاق ، فإن الرجل قد يحتاج إلى نفسه فيجد
 عنده من الخشونة والجلد والصبر ما لا يخلده عند المنعم المترف . كما طلب منهم
 أن (يخلولوا^(١)) أى أن يتهيئوا ويستعدوا لما يراى منهم فيكونون خلقاء
 به جديرين بفعله ، لا كن ضيع فروسيته وقوته عند الحاجة . وأمرهم عمر رضى الله
 عنه كذلك أن يقطعوا الرُّكْب . أى أن يمتطوا صهوات الخيل من غير
 ركاب ، حتى لا يعتادوها ، فقد تلجئهم الضرورات إلى الركوب من غير ركاب
 فيجدون أنفسهم قادرين على ذلك ، أقوياء على كبج جماع الخيل ، ولذلك
 قال عد هذا ، وانزوا على الخيل نزوا ، أى ثبوا عايها وثباً ، وهذا تدن الفتيان
 الأقوياء ، وإذا رآهم أعداؤهم وهم يشون على ظهور الخيل من غير استعانة
 بالرُّكْب ، فزعوا من قوتهم ، وفرط شاطهم . وأخيراً طلب منهم أن يحكموا
 الرماية بقوله « وارتموا الأغراض » ، بأن يجعلوا قصدهم إصابة الهدف حين
 يرمون عن القوس ، لا أن يكون همهم البعد .

بمثل هذه النصائح العظيمة الفروسية أمرهم عمر بن الخطاب ، حتى لا يلب
 الفساد إلى أجسامهم ونفوسهم ، ويستكينوا لبدعه والترف فيحقيق بهم لخدلان
 فى جهادهم ، والنكوص على أعقابهم حين احتدم المعرك ، ولا يؤدون رسالة
 التى انتدبوا أنفسهم لها ، وقد استجابوا لبدء أمير المؤمنين ، وزدتهم معبر

(١) من اخلواق السعاب بعد تفرقه أى اجتمع وتهاى للخطر وصار حبة به .

القتال تجربة وقوة ، وجرأة على أعدائهم ، وصلابة في الجسم ، وشجاعة في النفس ، وانطلقوا كالسهام المفوقة ينشرون دين الله في كل أرض توجهوا إليها ، لا يحول بينهم وبين غايتهم قوة من قوى البشر . فلما جاءت الدولة العباسية ، وباصرها القرس واتخذت جيوشها من الأعاجم المختلفي الأجناس من فرس وديلم وترك ، وانصرفوا عن العرب ، اشتغل هؤلاء بغير الجندية وشئون القتال من أغراض الحياة تحولت الفتوة عندهم إلى غايات أخرى سئذ كرها فيما بعد إن شاء الله .

٢ - أما الحديث عن كرم فتیان المسلمين وسخاء أيديهم ، وكرم قلوبهم ، ورجاحة عقولهم وتسامحهم ، وحمايتهم للضعيف ووفائهم بالعهود ، وهى الصفات المكملة للفتوة كما ذكرنا فى الأبواب السابقة ، فسأرجىء الكلام عنها إلى حين للموازنة بين فروسية العرب وفتوة العرب ، حتى لا يكون الكلام مكرراً . وإن كانت هذه الخلال الحميدة قد اشتهرت شهرة واسعة عن فتیان المسلمين فى كل مراحل التاريخ ؛ لأنهم كانوا يصدرُونَ فيها عن طبيعة موروثة ، وعن تقاليد جنسية عرفت عن العرب منذ الأزل ، وعن تعاليم دينهم السمح ، وسيرة نبيه الزكية الذى ضرب لهم المثل الأعلى فى التمسك بالشرف ، والشرف يضم تحته كل هذه السجایا ، بل الشرف كما يقول شاتوبريان Chateaubrieand فضيلة تغى عن كل الفضائل ، فضيلة لا تئمر إلا الخير ، ولا تعرف الشر ، فضيلة لا تُهزم إذا أحقت ، وهو أبىل ما تتحلّى به الشخصية الإنسانية ، وهو فضيلة تستمد قوتها من ذاتها ، فيها حنف صاحبها ويدها مصيره »^(١)

(1) Chateaubrieand : Analyse raisonné de l. Histoire de France
P. 82

وقد رأيت كيف تجلت هذه الصفة بأسمى مظاهرها في خلق النبي عليه السلام وأعماله وسيرته ، وكيف تأثر المسلمون في شيعاتهم بهذه الأسوة الحسنة ، وسترى فيما بعد كيف كانوا على منزلة عظيمة من الشرف في جميع مراحل تاريخهم ، مقتدين في ذلك بنبيهم الكريم .

الفتوة الصوفية

ظلت الفتوة الإسلامية مصطبغة بالصبغة العربية طوال أيام الخلفاء الراشدين ، وبنى أمية ، وَرَدَحًا طويلا من الزمن أيام بنى العباس ، وكانت الفتوة حتى ذلك الوقت صفة فردية يتحلى بها بعض الأفراد ، وتظهر في أعمالهم وإن كانوا من الكثرة بحيث يخيّل لتصفح التاريخ الإسلامى أن المسلمين جميعاً من الفتيان الأبحاد فى شجاعتهم ، وسخائهم ، وضبط نفوسهم عند الغضب ، وسماحة عقولهم وجهرهم بالحق ، وحمايتهم للضعفاء ، ووفائهم بعهودهم ، ولكن الفتوة حتى ذلك الوقت لم تكن نظاماً ذا تعاليم خاصة ، وفلسفة يدعى إليها وينتظم الناس تحت لوائها ؛ وذلك لأن العرب لم يكونوا فى حاجة لمن يلقنهم معانيها ، إذ وجدت فيهم بالفطرة والوراثة ، وجاء الدين والجهاد فى سبيل الله فكفها من قلوبهم . وثبتها فى طباعهم .

ولكن الأمة العربية حين صُرفت عن الجندية ، وحاجى خلفاء بنى العباس الأعاجم من فرس وبرك وديلم ومن على شاكلتهم بالجندية ، تجلت فتوة العرب فى صورة أخرى فيها الكرم والسماحة ، والشجاعة الأدبية .

يبد أن هناك نوعاً آخر من الفتوة صُيغ بصبغة صوفية ، تلتقى فيه الصفات العربية الكريمة التى ذكرناها آنفاً ، بتعاليم الصوفية . وكان أول ظهور هذا النظام من الفتوة فى دائرة الحسن البصرى الذى أطلق عليه أيوب بن أبى تيمة « سيد الفتيان » ، وكان الحسن من أوائل الذين مهدوا للتصوف الإسلامى^(١)

(١) الملامية والصوفية وأهل الفتوى للدكتور أبو العلا موينى ص ٢٥ .

وقد تتلمذ عليه مالك بن دينار ، وأبو حمزة الصوفي وغيرهم ، ولكن هذه الحركة لم تكتمل نمواً إلا حين اشتد التصوف ، وكملت تعاليمه وظهر أبطاله ، وهنا نرى مزجاً عجيباً بين الفتوة والتصوف ، وأخذ المتصوفة من تعاليم الفتوة العربية أهم ميزاتها وهو الإيثار ، وأضافوا إليها صفات أخرى متصلة بها ، مثل كف الأذى ، وبذل الندى ، وترك الشكوى ، وإسقاط الجاه ، ومحاربة النفس ، والنفو عن زلات الناس ، فيقول على بن أبي بكر الأهوازي : « إن أصل الفتوة ألا ترى لنفسك فضلاً واحداً » ، ويقول القشيري : « أصل الفتوة أن يكون العبد أبداً في غير أمره ^(١) » ، وقال بعضهم في تفسير قوله تعالى : « قالوا سمعنا قتي يذكرهم يقال له إبراهيم » : الفتوة هي كسر الصنم (الوارد في القصة) ، وصنم كل إنسان نفسه ، فمن خالف هواه فهو قتي على الحقيقة ^(٢) وأنت ترى أن المتصوفة قد توسعوا في استعمال كلمة (الفتوة) ، وحملوها أكثر مما تتحمل .

وقد قال « ثورننج » إن إقبال الفتيان على التصوف لا يتفق وأخلاق الفتوة ، وأنكر عليه ذلك الدكتور أبو العلا عفيفي ، والحق أن التصوف الإسلامي قد أخذ من الفتوة العربية الإسلامية التي من أهم مظاهرها الشجاعة والكرم والإيثار وحماية الضعيف . وكران الذات شيئاً كثيراً ، وإن كان قد مسخ الفتوة العربية الإسلامية مسخاً ، ولم نعد نرى صفات الفروسية والكفاح والنضال في سبيل الشرف ، وإنما نرى زهداً وهدأً عن لذيذ . وإذا كان من أهم أغراض التصوف إضعاف الجسم لتقوية الروح حتى تنصل

(١) الرسالة القشيرية ص ١٠٣ .

(٢) كف اصطلاحات العلوم للتهانوي ج ٢ ص ١١٥٦ ، واللامنية والصوفية ص ٢٦ .

بالذات العلية ، وحق عُرِّف التصوف بأنه « إفاء النفس لتحيا في الله »
أو « أن تطرح ما يحويه رأسك مما تملكه يدك ، وترضى بكل ما يحدث لك »^(١)
ويعرفه الغزالي « بأنه طريقة أول شرائطها تطهير القلب بالكلية عما سوى الله
ومقتاتها استغراق القلب بذكر الله ، وآخرها القناء بالكلية في الله تعالى »^(٢)
ولم يكن الغزالي من هؤلاء المتصوفة الذين طرحوا الدنيا جانبا ، وأماوا
في نفوسهم الأثرة والغضب ، ولكنه كان يسير في الأخلاق على مذهب
الفلاسفة وإن خالفهم في بعض وجهات النظر . فهو يرى أن النفس الإنسانية
فيها قوتان : شهوانية وغصبية ، ولا بد لمن ينشد السعادة أن يخضع هاتين
القوتين للفكر الذي يوجههما نحو الخير فتنزع الأولى العفة ، والثانية الشجاعة
وبذلك توجد العدالة ، وهو لا يرى إماتة الشهوة ، ولا القوة الغضبية ، وإنما
يرى ما يراه أرسطو من أن الفضيلة وسط بين طرفين ، وإزالة الشهوة والغضب
إزالة تامة يفقد الإنسان خاصيته وميزته ، فكل فضيلة طرفا إفراط وتفريط
والمطلوب هو الوسط ، والميار الذي يعين الوسط ليس العقل وحده كما يقول
الفلاسفة ، وإنما العقل والشرع معاً أو العقل للتأديب بالشرع^(٣) .

ولذلك أراني أوافق (ثورننج^(٤)) في قوله بأن إقبال الفتيان على
التصوف لا يتفق وأخلاق الفتوة كما عرفها العرب والمسلمون من قبل ، وذلك
لأن الفتى العربي يغضب إذا كان ثمة ما يدعو إلى الغضب ، يغضب لشرفه .

(١) نيكاسون متصوفة الإسلام — لندن ١٩١٤ ص ٢٧ .

(٢) المنقذ من الضلال — مصر ص ٢٨ .

(٣) الإحياء للغزالي ج ٣ ص ١٦ — ٢٢ وما بعدها .

(٤) Dr. Her Thorning' Beitrage Zur Kenntnis Islami-cher

« وينضب لعقيدته ، وينضب إذا امتن أو أهين ، وهو لا يحب الجبن ، ولا يعرفه ، فكيف يتفق مع التصوف الذى يدعو إلى إزالة القوة الشهوانية والنضبية فى الإنسان ؟ » .

ومهما يكن من أمر فإن المتصوفة قد استعملوا كلمة الفتوة وأكثروا منها فى أحاديثهم ، وأخذوا من تعاليمها العربية بعض الصفات ، فالتقى الصوفى فى نظر بعض المتصوفة من كانت له دعوى يدافع عنها ، ويضحي بنفسه فى سبيلها كالخللاج الذى يقول : « إن رجعتُ عن دعواى (وهى قوله : أما الحق) سقطت من بساط الفتوة^(١) ، ويتخذ من دعوى إبليس أنه أفضل من آدم فى قوله « أما خيرٌ منه » ، ومن دعوى فرعون الألوهية فى قوله : « أما ربكم الأعلى » دليلاً على فتوتهما ، فيقول على لسان الأول : « إن سجدت سقط عنى اسم الفتوة » ، وعلى لسان الثانى : « إن آمنت برسوله سقطت من منزلة الفتوة^(٢) » ، فأى انحراف فى تفسير الفتوة وأى خلط ! .

كان المتصوفة أول الأمر لا يؤلفون وحدة فيما بينهم ، وكلٌّ يتعبد حسبما يريد ، ليصل إلى غايته ، وكانوا فى أول أمرهم - كذلك - يزمون حدود الشرع ، لا يحيدون عنه ولا يتأولون فيه ، لأن تصوفهم كان أشبه بالزهد منه بالتصوف الفلسفى الذى ظهر عند ابن عربى ، واخللاج ، وابن القارض ، وأضرابهم ، كان ردًّا فعل لحياة المجون والترف التى اغرس فيها لمسلمون أيام الدولة العباسية . ولكن دخات فى تصوفهم هذا عصر غريبة فسدته وأبهرته عن الدين : فترى فيه من المسيحية ، والأفلاطونية الحديثة ، ولبوزية تبتاً غير

(١) الطواسين للخللاج ص ٥٠ .

(٢) نفس المصدر .

قليل . ولست هنا في مقام بسط حقائق التصوف والتعرف على نشأته وتعاليمه وما دخله من الفاسقات الأحنية .

وما أن أتى القرن الرابع الهجرى حتى وُجدت هيئات صوفية منظمة . ومدارس مختلفة ، لها رؤساؤها يهدون (المريدين) الذين يودون الانخراط في الطريق ، وهناك رئيس عام يسمى (القطب) ، وهو الوحيد الذى انتقل إليه العلم الحقيقى ، واسم الله الأعظم ، وهو موضع نظر الله من العالم ، ولا يجوز أن يحمل هذه الأسرار رجلا في عصر واحد .

وقد ادعى محي الدين بن عربى أنه قطب زمانه حين يقول^(١) :
لكل زمان واحدٌ هو عينُه وإنيّ ذاك الشخص في العصر أوجد
وحين يقول :

قلى ولوحى في الوجود يمد قلم الآله ولوحه المحفوظ
ومن هؤلاء الصوفية الذين أكثروا من استعمال كلمة (فتوة) أهل الملامة .
وفسروا الملامة على أنها نوع من الفتوة أو الرجولة ، وأطلقوا على أنفسهم اسم
الفتيان أو الرجال ، فيقول أبو حفص اليساورى : « يريدو أهل الملامة
مقلبون في الرجولية لا خطر لأنفسهم^(٢) » . ومن صفات الفتوة كما قررها
السلمى حين شرح تعاليم الملامية ما ورد في الأصل الحادى والأربعين من
رسالة الملامية في قول أبى حفص الحداد لعبد الله الحجام : « إن كنت فتى
فيكون بيتك يوم موتك موعظة للفتيان » يريد بذلك كل شيء ، وعدم الإبقاء

(١) ديوان ترحان الأشواق لاس عربى .

(٢) رسالة الملامية ، للدكتور أبو الملا عفى ص ٢٨ .

على شيء خدمة للإخوان ، ومن ذلك ماورد في الأصل الخامس والأربعين في قول أبي عثمان الخيري في الصحبة : « حُسن الصحبة ظاهره أن توسع على أخيك من مال نفسك ، ولا تطمع في ماله ، وتنصفه ولا تطلب منه الإصاف وتتحمل منه الجفوة ولا تمفوه ^(١) » .

ومن أجمع ماورد في رسالة الملامتية من القفرات التي تسرح صغات الفتوة كما فيها أهل الملامة قول بعضهم — وقد سئل عن يستحق اسم الفتوة — فقال : من كان فيه من اعتذر آدم ، وصلاته نوح ، ووده إبراهيم ، وصلّى اسماعيل ، وإخلاص موسى ، وصبر أيوب ، وكاء دود ، وسجد محمد صلى الله عليه وسلم ، ورأه أنى كبر ، وحمية عمر ، وحيه عثمان ، ونم على ، ثم هو مع كل هذا يزدري نفسه ، ويحتقر ما هو فيه ، ولا يقع قلبه بخاتم هو فيه شيء ، ولا أنه حال مريض ، يرى عيوب نفسه ، ومصاب نفسه ، ومصل حوائجها في جميع الأحوال ^(٢) » .

ومن هؤلاء الصوفية الذين استعملوا كلمة الفتوة بكثرة متصوفة (يساور) ومنهم أبو حفص عمرو بن سالم ، وقد جعل هو ورجل التصوف من مدرسة يساور الفتوة مثلاً أعلى يهدفون إليه ، واحتصوا من معديه ، تصحية الكمية وقد ذكر السلي : « أنه سمع عبد الرحمن بن الحسين صوفي يقول : دعني في مشايخ عدد حتموا على حفص . مسعود . الفتوة كم العدة والباس . فقال حبيب : فتوة : هي بساط برزخ ، وتترك السبلة » ، فمال أبو حفص : ما نحن . فت فتوة سدى دة

(١) من أصدر .

(٢) رسالة الملامتية .

الإنصاف وترك مطالبة الإنصاف » فقال الجنيد : قوموا يا أصحابنا فقد زاد أبو حفص على آدم وذريته^(١) » والفرق بين تعريفهما يدل على اختلاف بين في تفسير الفتوة ، فالجنيد يرى الفتوة إسقاط الرؤية ، أى عدم النظر إلى الأعمال نظرة اعتبار وتقدير ، وترك النسبة ، أى إسقاط الروابط التي تربط الإنسان بأى شيء أو موجود غير الله ، وعلى ذلك فالفتوة عنده الزهد الكامل . أما أبو حفص فيرى الفتوة فى أداء ما يراه الصوفى إنصافاً وعدلاً ، أى القيام بجميع الواجبات الشرعية والاجتماعية بدون أن يطالب القائم بها بإنصاف من جانب الشرع أو من جانب المجتمع ، أى أن الفتوة عنده هى التضحية الكاملة .

وكان بنيسابور فتيان من غير الصوفية أيام حدود القصار^(٢) ، وكانت لهم هيئات أو جماعات لا يعرف من أمرها شيء ، وكان يطلق على الفتى منهم اسم (العيار)^(٣) أو الشاطر أحياناً ، قال حدود : « كنت أسير يوماً فى حى من نيسابور فلقيت نوحاً العيار ، أحد المعروفين بالفتوة ، وكان على رأس الشطّار بنيسابور ، فقلت له يا نوح ! ما الفتوة ؟ فقال : فتوى أم فتوتك ؟ فقلت : صف الاثنين . فقال : أخلعُ التّباء ، وألبس الخرقه ، وأفعل الأفعال

(١) طبقات السلمى ، والدكتور أبو الملائكى س ٣٦ ، والحلية لأبى نعيم ج ١٠

س ٢٧٠ .

(٢) من أشهر رجال الصوفية على الطريقة الملامية ، وهو أبو صالح حدود بن عمارة المعروف بالقصار والتوفى سنة ٢٧٩ هـ ، وكان أحد علماء الفقه على مذهب الثورى ، ويعتبر المؤسس الحقيقى لمذهب الملامية ، وإن كان أتباعه يسمون عادة باسم الحمدونية أو القصارية (كشف المحجوب ترجمة نيكلسون س ١٨٣) .

(٣) العيار : من أسماء الأسد ، ويطلق على الشجاع ، والشاطر : من أعيان أهله خبثاً .

التي تليق بهذا الثوب لعل أصبح صوفياً ، وأقلم عن المعاصي لما أشعر به من الحياء من الله ، ولكنك تخلع الخرقه لكيلا يخدمك الناس . وينخدعوا بك ففتوتى فى اتباع ظاهر الشرع ، أما فتوتك فى تلبية نداء القلب ^(١) .

ويقول الدكتور عفيفى : « وإذا كانت الفتوة بمعناها العام : هى الروء والرجولة والإيثار المحض ، فهذه معان نبجدها متحققة فى حدود القصار أكثر منها فى زميله أى حفص ، وليس أدل على ذلك من العبارات المأثورة عنه فى رسالة السلى ، ورسالة القشبرى ، وما أورده له مؤلفو الطبقات . فمن الفتوة عنده ألا يظهر الإنسان العُجب والكبر ، ومنها غض الطرف عن مواطن التقصير فى الغير ، ومنها الإيثار والاعتراف بالتقصير ، والتواضع ، والتماس للعاذير عند رؤية القبيح إذا صدر عن الغير ، وهذه كلها شديدة الاتصال بمعانى الفتوة ^(٢) » .

هذا وقد روى القشبرى فى رسالته فى باب (الفتوة) أن إنساناً يدعوه « الفتوة » خرج من نيسابور إلى بلدة (نسا) بخراسان ، واستضافه رجل ومعه جماعة من الفتيان ، فلما فرغوا من أكل الطعام خرجت جارية تصب الماء على أيديهم ، فأى الفتى النيسابورى وقال : « ليس من الفتوة أن تصب النساء الماء على أيدي الرجال » . وهذا لعمري أدب جَمٍّ ، واستعمال للفتوة فى معنى جديد يقرها من القروسية الغربية ، وهو احترام المرأة . أو لعل هذا الفتى كان يعتقد أنه تام الرجولة ، وليس فى حاجة إلى امرأة ضعيفة لتعييه على شيء . ونحو كانت خادماً .

(١) كشف المحجوب ترجمة نيكلسون ص ١٨٣ .

(٢) الملامية والصوفية وأهل الفتوة ص ٤٠ .

وروى القشيري كذلك أن بعض الفتيان قدم له طعام وعليه نمل ، فقال :
ليس من الأدب تقديم الأكل وعليه نمل ، وليس من الفتوة طرد النمل عن الطعام ،
فلبث الغلام حتى دب النمل ، فقال للمضيف : « لقد دقت يا غلام في الفتوة » .
ولسنا ندرى أكان هذا الفتى والذي سبقه من المتصوفة أو من العيارين ، فقد
انتحل كل منهم لقب الفتوة ، وتوسع في استعمالها ، وأخذ من الفتوة العربية بعض
معانيها ، وجعله شعاراً له .

ويظهر أن الفتوة قد تطورت على مر الأيام ، وانتحلها كثير من الجماعات
صوفية وغير صوفية ، فقد سئل ابن تيمية عن جماعة يجتمعون في مجلس ، ويلبسون
الشخص منهم (لباس الفتوة) ، ويدبرون بينهم في مجاسم شريرة فيها ملح
وماء ويشربونها ، ويزعمون أنها من الدين ، ويقولون : إن رسول الله ألبس
على بن أبي طالب لباس الفتوة ، ثم أسره أن يلبسه من شاء ، ويقولون : إن
هذا اللباس أنزل على النبي في صندوق ، ويستدلون عليه بقوله تعالى : « يا بني آدم
قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوءاتكم » فهل هو كما زعموا ، أو هو كذب
واختلاق ؟ .

ومنهم من ينسب ذلك إلى الخليفة الناصر لدين الله^(١) ، عن عبد الجبار
ويزعم أن ذلك من الدين ، فهل لذلك أصل أم لا ؟ ، وهل الأسماء التي بسمي
بها بعضهم بعضاً ، من اسم الفتوة ، ورموس الأحزاب ، والزعماء لها أصل أم لا ؟
ويقوم رئيس القوم إلى الشخص الذي يلبسونه فيزع عنه اللباس الذي يلبسه .
ويلبسه لئلا يزعجهم ، فهل هذا حازم أم لا ؟ وهل للفتوة أصل

(١) سيقاتر الكلام في الفصل الآتي عن فتوة الخليفة الناصر لدين الله .

في الشريعة أم لا ؟ وهل أحل أحد من الصحابة ، أو التابعين ، أو من بعدهم من أهل العلم هذه الفتوة للذكورة ؟ .

وأجاب ابن تيمية بقوله : لباس الفتوة ، وإسقاء الملح والماء باطل لا أصل له ، ولم يفعل هذا رسول الله ، ولا أحد من الصحابة ، ولا على بن أبي طالب ولا غيره من التابعين . والإسناد الذي يذكرونه عن طريق الخليفة الناصر إلى عبد الجبار إلى تمامه إسناد لا تقوم به حجة . وفيه من لا يعرف ، وتكلم ابن تيمية عن اللباس الذي نزل في الصندوق ، وذكر أن هذا كذب لا أصل له .

ثم قال : « وأما الشروط التي يشترطها شيوخ الفتوة ، فإما كان مما أمر الله به : كصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وأداء القرائض ، واجتناب المحرم ، ونصر المظلوم ، وصلة الأرحام والوفاء بالعهد ، أو كانت مستحبة كالغزو عن الظالم ، واحتمال الأذى ، وبذل المعروف ، وأن يتمتعوا على السنة ، ويفارق أحدهما الآخر إذا كان على بدعة ، ونحو ذلك فهذه أمور يؤمن بها كل مسلم ، سواء شرطها شيوخ الفتوة أو لم يشترطوها . وما كان منها مما نهى الله عنه ورسوله ، مثل التحالف الذي يكون من أهل الجاهلية ، وأن يصدق كل صديق الآخر في الحق والباطل ، ويعادي عدوه في الحق والباطل . وينصره على كل من يعاديه ، سواء كان الحق معه أو مع خصمه ، فهذه شروط تحل الحرام ، وتحرم الحلال ، وهي شروط ليست في كتاب الله فهي باطلة .

ثم قال ابن تيمية : « وأما لفظ الفتوة فعمه في معتاد الحبس أي كتب كقوله تعالى : « قالو سمعنا فتي يذكركم » . ويرهيه ، سكت . كانت

أخلاق الأحداث الذين صار كثير من الشيوخ يعبرون بلفظ الفتوة عن مكارم الأخلاق كقول بعضهم : « الفتوة أن تقرب من يقصيك ، وتكرم من يؤذيك ، وتمن إلى من يسىء إليك سماحة لا كظا ، ومودة لا مسaire » . وقول بعضهم : « الفتوة ترك ما تهوى لما تحشى » وأمثال ذلك . فهذه أمور حسنة مطلوبة سميت فتوة أم لم تسم ^(١) .

وهاك نوعاً آخر من الفتوة ذكره ابن جبير في رحلته من أنه « وجد في دمشق جماعة من السنيين يعرفون بأهل الفتوة ، ويعرفون كذلك بطائفة النبوية ، وكانوا حرباً على الشيعة ، يدينون بالفتوة وأمور الرجولة كلها ، وكل من ألحقوه بهم تلصّلة يرونها فيه منها ، ولا يرون أن يستعدى أحد منهم في نازلة تنزل به . ولهم في ذلك مذاهب عجيبة ، وإذا أقسم أحدهم بالفتوة برّ بقسمه ، وهم يقتلون هؤلاء الروافض أينما وجدوهم ، وشأنهم عجيب في الأنفة والاثتلاف » . وذكر ابن جبير كذلك هؤلاء الشيعة ومذاهبهم ، وأن منهم فرقة تسمى الغراية وهم يقولون : إن علياً رضى الله عنه كان أشبه بالنبي عليه السلام من الغراب بالغراب ، وينسبون إلى الروح الأمين قولاً تعالى الله عنه علواً كبيراً إلى فرق كثيرة يضيق عنها الإحصاء ، قد أضلهم الله ، فأضل بهم كثيراً من خلقه ، وسلط الله على هذه الرافضة طائفة أهل الفتوة الذين عرفوا بالنبوية ^(٢) » ؛ فهؤلاء جماعة سمو أنفسهم بأهل الفتوة ، وذكر ابن جبير أنهم من أهل السنة ، وأنهم كانوا حرباً على الشيعة الرافضة ، ولم نعرف هل كان هؤلاء من فرق الصوفية ، أو من انقيارين ؟

(٢) رحلة ابن جبير ص ٢٣٠ .

(١) رسائل ابن تيمية طبعة المار .

وقد ذكر ابن بطوطة في رحلته بالأناضول أنه قابل جماعة من أهل الفتوة كانوا يقيمون فيما يشبه (التكايا) وبعد أن يتعشوا يرقصون ولهم رئيس يسمى (أخي) يضيفون الغريب ويؤونه ثلاثة أيام وهم متفرغون للعبادة كأنهم الرهبان ، وأغلب الظن أنهم جماعة من أهل الطرق الصوفية ، والدررايش ، وأنهم سموا أنفسهم بالفتيان ، لأنهم اتخذوا من الفتوة بعض مميزاتها وهو الكرم والحدب على الغريب ، وكانت لهم أمكنة كثيرة تزيد عن العشرين ببلاد الأناضول وآها ابن بطوطة وزارها^(١) . وقد كان الكرم منذ أن عرفت الفتوة من أظهر صفاتها ، فقد روى أن رجلاً من أصحاب محمد بن عبد الله بن طاهر دعاه للطعام عنده دعوة احتفل لها ، فلما حضر محمد طالبه بالطعام فمطله ليتكامل ويتلاحق على ما أحبه من الكثرة والحفلة ، حتى تصرف أكثر النهار ومسَّ محمدًا الجوع ، فتغصص عليه يومه ، وأراد محمد السفر ، فشيعة هذا الرجل حتى إذا دنا منه ليودعه قال له : أيأمر الأمير بشيء ؟ قال : نعم . تجعل طريقك في عودتك على محمد بن الحارث ، فأسأله أن يعينك الفتوة ، فمضى حتى دخل إلى محمد بن الحارث ، فقال له : بعثني إليك الأمير لتعلمني الفتوة ، فضحك وقال : يا غلام ! هات ما حضر ، فأتى بطبق كبير عليه ثلاثة أرغفة ، من أنظف الخبز وأقواه ، وفاكهة كثيرة . . . الخ^(٢) . قالفتوة هنا استعملت بمعنى الكرم وهو المعنى الذي لحظه أصحاب ابن بطوطة . واستعمل الفتوة بمعنى

(١) راجع رحلة ابن بطوطة في الأناضول ص ١٧٢ ، ١٧٥ ، ١٧٩ وراجع كذلك

Hammar. Purgstall. Journal Asiatique في أغسطس سنة ١٨٥٥ .

(٢) أدب الدير لكشاجم وراجع كذلك . Encyclopidia of Islam P. 123

الكرم والحرية ، يلاحظ فيه المعاني التي تكسب صاحبها القوة المعنوية أكثر مما تلاحظ القوة الجسمية .

ولعلنا بعد كل هذا نستطيع أن نحصر الطوائف التي استعملت الفتوة في القرنين الثالث والرابع وما بعدها في :

١ - بعض فرق الصوفية ، واستعملوا الفتوة بمعانٍ مختلفة من مثل قول القشيري : « أن يكون العبد سعيًا أبداً في غير أمره » ، أو قول الفضيل « الفتوة الصفح عن عثرات الإخوان » أو قول الآخر : « الفتوة إظهار النعمة وإسرار المحنة » أو كما رآها الجنيد من أنها الزهد الكامل ، أو كما رآها أبو حفص من أنها التضحية التامة . . . الخ هذه التعريفات التي صرت بنا .

٢ - بعض العيرين والشطار الذين أخذوا من الفتوة معنى الشجاعة ، والجرأة ، والتغلب على الصعاب ، والاسدتكاف من الاستعانة بالضعيف ، أو إيذائه .

٣ - بعض أهل السنة الذين سموا أنفسهم بأهل الفتوة لمحاربة الشيعة الرافضة ، الذين زاغوا عن محجة الدين .

٤ - بعض أهل الكرم والأريحية سواء كانوا عباداً زهاداً كأصحاب ابن بطوطة بالأماضون ، أو كانوا مثل صاحب محمد بن عبد الله بن طاهر .

ويخيل إلى أن تسويع سماء الفتوة في كل هذه المعاني العديدة دليل على أن الأمة قد فقدت حيويتها ، وأنها لم تعد تمثل ذلك الجيل من الناس الذي تميز كل حاد حيرته كن المسنون الأوائل ، وكما كان كثير من تميز العرب في حمية . وأن كل طائفة عازمت على أمرٍ وأرادت تقوية

ففسية ، ورابطة تربط بين أعضائها تمسحوا في « الفتوة » لعلمهم يميون
بذلك الفتوة العربية أو الإسلامية ؛ لأن لقب الفتوة يحتوى على كل معانى
الرجولة الكاملة والصفات الحيدة كما عرفناه في الفصول الأولى من هذا
الكتاب .

فتوة المترفين

وثمة جماعة سمو أنفسهم كذلك أهل الفتوة ، ولكنهم لا يمتنون إلى من ذكرناهم في الفصل السابق بصلة ، لأنهم ليسوا من عامة الشعب ، وسواد الناس ، ولكنهم من أصحاب الثراء والجاه والسلطة يتزعمهم في ذلك الخليفة الناصر لدين الله^(١) المتوفى سنة ٦٢٢ هـ ١٢٢٥ م وكان مظهر فتوته في الخروج إلى الصيد وإجادة الرمي ، والافتتان فيه ، وتأليف جماعة من المهرة في الصيد تنتسب إليه ، وجعل لها تقاليد خاصة ، وزياً معيناً كما سنذكر فيما بعد .

ولا شك أن الله تعالى قد أباح الصيد في قوله عز من قائل : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ » ، وفي قوله تعالى : « قُلْ أَجَلٌ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمُ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ » . وكان الطَّرد من أهم ضروب الرياضة عند العرب ، ومن أحبها لنفوسهم ، سواء في الجاهلية أو في الإسلام ، وقد أكثر شعراء الجاهلية من ذكر مواقف الصيد ، وصوروا هذه المواقف تصويراً بلغ الغاية في الإتيان والجمال فمن ذلك قصيدة زهير المشهورة التي مطلعها :

صحا القلبُ عن سلمى وأقصرَ باطله وعُرِّيَ أفراسُ الصبا ودواجله
والتي يقول فيها واصفاً مطاردته للصيد :

(١) هو أبو العباس أحمد الناصر لدين الله بن المستنصر بنور الله أبي محمد الحسن ابن المستنجد بالله أبي المظفر يوسف ، ويتصل نسبه بأبي الفضل جعفر القنطرة بالله — راجع ابن جبير ص ١٨١ .

حَبَطْتُ بِمَسُودِ النَّوَاشِرِ سَابِحٍ تَمِيمٌ فَلَوْنَاهُ فَأَكْمَلُ صُنْعُهُ
 تَمَرٍ أَثِيلِ الْخُلْدِ نَهْدٍ مَرَاكِلُهُ ^(١) قَتَمٌ وَعِزَّتُهُ يَدَاهُ وَكَاهِلُهُ ^(٢)
 فَيِينَا نُبَغِي الصَّيْدَ جَاءَ غَلَامُنَا يَدِبُ وَيَخْفَى شَخْصَهُ وَيَصَائِلُهُ
 قَالُ : شِيَاذُ رَاتَعَاتٍ بِقَفَرَةٍ بِمُسْتَأْسِدِ الْقُرَيَّانِ حُوَ مَسَائِلُهُ ^(٣)
 ثَلَاثٌ كَأَقْوَاسِ السَّرَّاءِ وَمِسْحَلٌ قَدْ اخْضَرَّ مِنْ لَسِّ النَّصِيرِ جَعَالُهُ ^(٤)
 وَقَدْ خَرَّمَ الطَّرَادُ عَنْهُ جِحَاشُهُ قَلَمٌ تَبَقَى إِلَّا نَفْسُهُ وَحَلَالُهُ ^(٥)
 قَالُ أَمِيرِي : مَا تَرَى رَأَى مَا نَرَى أَنْخَتِلُهُ عَنْ نَفْسِهِ أَمْ نَصَاوِلُهُ ^(٦)
 فَتَنَّا عُرَاةً عِنْدَ رَأْسِ جَوَادِنَا يَزَاوِلُنَا عَنْ نَفْسِهِ وَنَزَاوِلُهُ

(١) مسود : مفتول ، والنواشر : ج ناشرة وهي عصب القراع ، والمر الشديد القتل الموثق الخلق ، وأسيل : سهل ، والنهد : القنم ، والمراكل : ج مركل وهو حيث يركله الفارس .

(٢) تميم : تام الخلق . فلوناه : فطيناه فإذا فطم فهو فلو ، وعزته : غلبت يدها وكاهله سائر أعضائه ، والكاهل : مجتمع الكتفين في أصل الفخذ .

(٣) شياه : حمر الوحش ، والمستأسد : ما طال من النبات وقوى ، والقريان : ج قري وهو مجرى الماء من الرياض من قربت الماء إذا جمته ، والمسائل : مكان سيل الماء ، والقياس إلا تهز ياؤه لأنها أصلية إلا أن العرب همزتها كأنها توهمتها زائدة كما همز بعضهم مصائب ، ومسائل ج مسيل ، فإن كان من سال فوزته مفعول ، والقياس إلا تهز وإن كان من سل فوزته مفعول والقياس همزه في الجمع ، ومستأسد القرييت : أي مستأسد نبات قريانه .

(٤) السراء : شجر تتخذ منه القسي ، وشبه الآثين بالأقواس ، لأنها اجتزأت برعى الرطب عن شرب الماء فضرمت والمسحل : حمار الوحش من السحيل وهو صوته والنصير : نبت أخضر قد غمره نبت آخر أطوله منه ، الخفاف : ج جملة وهي من الحمر كالشعاع للالسان .

(٥) خرم - أبعد .

(٦) الأمير : الذي يؤامره ويستشير .

وانضربه حتى اطمأن قَدْ ذَا لَهُ ولم يطمئن قلبه وخصائله^(١)
 ومُلجنا ما إن يبالُ قَدْ ذَا لَهُ ولا قدماء الأرضَ إلا أنامله
 فَلَا يَأْبَى ما حملنا وليده على ظهر محبوبك ظاء مفاصله
 وقالت له : سَدِّدْ وأبسر طريقه وما هو فيه عن وَصَاتِي شاغله
 وقلت : تعلم أن نصيد عِرَّةً ولا نضيعها فإياك قاتله
 فتبع آثار الشيء ويهدانا كسُوبِ بغيثٍ يحفشُ الأكم وأبله^(٢)
 نظرت إليه نظرة فرأيت على كل حال مرة هو حامله
 يثرن الحصى في وجهه وهو لاحق يسرعُ تواليه صِبَابُ أوائله^(٣)
 فردَّ علينا العَبْرَ من دون إلفه على رغبه يَدْمِي نساء وقائله^(٤)
 فرحنا به يعضو الجيد شَيْئَةً محببةً أرسغه وعوامله

وما من شاعر مشهور في الجاهلية إلا تغنى بوقت الصيد . ومطاردة حمر
 الوحش أو الثيرن لوحشية ، وكل هذا يدل على محبة العرب لهذه الرياضة ،
 وإن كان حيوان جزيرة العرب محدوداً ، وقد عرفوا منه الأسد ، والنمر
 والذئب والتعب ، والفهد . والغزل والعم وغير ذلك ، ولكم لما فتحو
 البلاد الكثيرة ، ورأوا حيوانها وتنوعه واهتم أهلها بالصيد ، الفدامي منهم
 والمحدثين ، لأن لأتوريين مثلاً قد عشوا على الأحجار كثيراً من مناظر

(١) قذاله : بمقدعداره في رأسه .

(٢) يحفش الأكم : يهرج كل ما فيها .

(٣) يديه : رجليه .

(٤) نساء : عرق ودهن كذا .

الصيد ، ورأى العرب من هذه الآثار أن الصيد كان رياضة الملوك ، وفيه كانت تتاح لهم الفرصة لإظهار بطولتهم وشجاعتهم سواء أكانوا يمارسونه بالسيف أم بالحرب ، وعلى ظهور الخيل أم بمساعدة الكلاب ، أم بالسهم ، وكان من الطبيعي أن يتطلع سراة العرب إلى المكانة الأولى في الصيد حتى ينزوا أهل البلاد التي فتحوها في ذلك الميدان وهم الأمة الغالبة ، ليبرهوا على شجاعتهم ، وسبقهم وطول ناعهم ، وقد افتنوا في الصيد آتيا افتنان . فمن الطرق التي ابتدعوها في صيد الأسد : أن الواحد منهم كان يتطى حصاناً مدرباً بمقابلة الأسود ، وعندما يهجم عليه الأسد يخربى ، ويسرع الحصان في جريه حتى يُجهد الأسد ، فإذا ما أحس الفارس من الأسد انزعاب دار حوله بخصائه . فإذا اقترب منه الأسد سدد إليه سهمه ، فيصديه ، وكان ذلك لا يعوقه عن متابعة الحصان ، وتقرس يرائى رميه باسمه حتى تخور قوى الأسد ويهرع^(١) ، وقد دربوا لصيد الغزلان والنعام وما تشكها الكلاب الدوقية ، وكانت معروفة منذ الجاهلية لديهم ، وفي ذلك يقول الدبغة لذي النصف مضردة ثور وحشى :

طَرِدَ أَفْرَدَتْ عَمَّ حَلَالَهُ

مِنْ وَخْشٍ وَجَرَّةٍ وَمِنْ وَحْشٍ دَى قَرٍّ^(٢)

وَنَانَ ضَيْفًا لَأَرْطَاةٍ وَجَدَهُ مَعَ مَلَامٍ يَهْزُلُ سَرٍّ^(٣)

(١) الرياضة : د "رب الحمد عوى بر ٣ .

(٢) وجرة : موضع بـ مكة ومصره زوى ملام فيها نمر ، ومرث نوحش (قاموس)

(٣) الأرتاة : شجرة لها ثمر كالناب .

حتى إذ ما أنجلت ظلماء ليلته وأسفر الصبحُ عنه أيَّ إسفار
أهوى له قانص يسعى بأكلبه طارى الأشاجع من قنَّاص أمار
مُخَالِفُ الصيد تباع له ، لحِمِّ ما إن عليه ثيابٌ غيرُ أطار^(١)
يسعى بفضفٍ براها وهي طاوية طولُ ارتحال لها منه وتسيار

ويقول أبو نواس واصفاً هذه الكلاب السلوقية :

أنت كلبٌ ليسَ بالمسبوق مُطَمِّمٌ يحرق على العروق
جاءت به الأملاك من سلاوى كأنه فى المِقْوَد المشوى
إذا عدا سُدُودَ لا مَعْوَى يلعبُ بين السهل والخروق
يشفى من الطَرْد جوى المشوق فالوحش لو مَرَّت على العيوق
أزله داميةً الخلق ذاك عليه أوجبُ الحقوق
فكل صياد به مرزوق

وقال كذلك :

أعددت كلباً للطراد فظاً إذا عدا من نهم تلظى
وجادب المِقْوَدَ وستغنى كأن شيطاناً به الظأ
يكفُ أمراب الضبء كظا حتى تراها فرقا تشظى
يحوز منه كل يوم حظاً حتى ترى نحيبها مكتظا

وقد عموأ لبزة والصقور للصيد ، وذكر أسامة بن منقذ فى كتابه
(الاعتصم) كثيراً من طرق الصيد والحيوان المنعم للصيد ، من ذلك قوله عن
و.س. (٢) : وكان يتكف فى تسيير قويم من أصحابه إلى البلاد لشراء البزاة ،

١ حم : محب لحم وشتهه .

٢١ (٢) الاعتصم ١٠٠ ، حريح فيلب حتى ، طبعة برستون سنة ١٩٢٠ .

حتى إنه أتخذ إلى القسطنطينية من أحضر له بزة منها ، وحمل الطمان معهم من الحمام ما ظنوا أنه يكفي البزة التي معهم ، فتغير عليهم البحر ، وتموقوا ، حتى فرغ ما معهم من الحمام ، فصاروا يطعمون البزة لحم السمك ، فأثر ذلك في أجنحتها . وصار ريشها ينكسر ويتقصف فلما وصلوا إلى شيزر^(١) كان فيها بزة نادرة . وكان في خدمة الوالد بازيار (مطبّع البازي) طويل اليد في إصلاح البزة وعلاجها يقال له غنائم ، فوصل أجنحتها واصطاد بها .

وقد ذكر أسامة طرق الصيد في دمشق ، وفي مصر ، وفي غيرها من البلدان كما ذكر صيد الأراب ، والخنازير ، وحمر الوحش ، والوز ، والحباري وغير ذلك^(٢) ! وليس من همي هنا أن أفيض في هذا الباب ، فحسبي ما ذكرت .

حين آترف العرب ، وانصرفوا عن الجندية ، كان الصيد هو الرياضة الوحيدة التي يظهرون فيها بطولتهم ، وكانوا لا ينفكون عن تعلم الرماية وإجادتها في كل صقع حلوا به ، حتى في المدينة المنورة ، فقد روى أن فتيان المدينة كانوا يتعلمون الرماية أيام بى أمية ، وقد تعلم محمد الباقر ذلك ، وهو في حداثة ، فلما وفد على عبد الله بن مروان ، والقوم يرمون أراد إحراجه وطلب منه أن يرمى كما يرمى الناس ، فاعتذر ، فلما ألح عليه رمى ، وفاق كل الموجودين ، فدلّ له لله درك ! أت أرى العرب والعجم ، ثم قال له : يا محمد لا يزال العرب والعجم تسودها قريش ما دام فيهم مثلك^(٣) .

(١) شيزر بلدة على نهر العاص على بعد عشرين ميلا إلى شمال حمص من حمص سوريا أو على مسافة ساعة منها بالسيارة ، وكانت مواسي بن سعد ، مشو في قلعة حصينة بها هي قلعة شيزر .

(٢) راجع الاعتبار لأسامة بن سعد السكاني من ص ١٠٩ — ٢١٦ .

(٣) صحيفة الأبرار ص ٢٦١ — ١ .

وقد أسس هؤلاء الأشراف في أخريات الدولة العباسية نظاماً سموه نظام
الفتوة ، وذلك على يد الناصر لدين الله ، كما ورد في كلام « حاشي خليفة »
في كشف الخافين من سنة ٥٧٨ هـ ١١٨٢ م من أن الشيخ عبد الجبار ألبس الخليفة
الناصر لباس الفتوة ، ولم يكن هذا اللباس ، هو ما عرفناه عن فرسان الفرون
اليوسفى ، بل كان حذاء طويلاً من الجلد ، وقد وصف ابن جبير الناصر لدين
الله بأنه كان لابساً ثوباً أبيض شبه القباء ، برسوم ذهب فيه ، وعلى رأسه
قنطرة مذهبة ، مطوقة به برأسود من الأوبار الغالية القيمة المتخذة للباس الملوك ،
عما هو كالتفتك وشرف ، متعمداً بذلك ذى الأثر الك (١) .

ويقرؤون في لباس الفتوة هذا ما ذكرناه آنفاً من أنه ، وروث عن سيدنا
على . ويذكرون لذلك شجرة طوية تصل إلى الناصر لدين الله تنبت فيها
لصراقتها :

على بن أبى طالب

|

سمان القارمى

|

صفوان بن أمية

|

حذيفة بن اليمان

|

عبد الله بن الأبرار

أبو العز التوبى

الحسن البصرى

الحافظ الكندى

عوف الكنانى

أبو مسلم الخراسانى

الشرىف أبو العز

هلال النّبھانى

بهرام الديلى

روزبة القارمى

الأمير حسن بن ربيعة نخزوى

الأمير جوشن القزاري

|

أبو الحسن النجار

|

أبو الفضل بن الترهان

|

الشمس سلمان

|

شبل

|

الفضل بن زياد الفارسي

|

الفضل

|

الملا ميراي

|

ناصر الدين بن أبي نعمة

|

أبو علي الصوفي

|

مهنی العلوی

|

عمان

|

أبو الحسن بن الشاربان

|

أبو بكر الجحيش

|

عمر الرهاض

|

علي بن دغيم

|

عبد الجبار بن صالح

|

الخليفة الناصر لدين الله^(١)

وقد أرسل الناصر لدين الله إلى ملوك الأطراف أن يشربوا كأس الفتوة ،
ويلبسوا سراويلها ، وأن ينسبوا إليه في رمي البندق^(٢) ، وهو كرات صغيرة
من طين أو رصاص يرمى بها عن قوس لصيد الطير أو نحوه ، وسموه أيضاً لاسم
الفارسي وهو الجلاهق^(٣) ، وقد اقتبس العرب لعبة رمي البندق عن الفرس في
أواخر أيام عثمان^(٤) وجاء في تاريخ ابن القرات عن أخيلة الناصر لدين الله :

(١) راجع في تاريخ الملك الناصر لدين الله : الفخرى ص ٢٣٦ وهو لغذاء : وحاشي
خليفة كحف الظنون . و Quatermère. p.58 وكذلك تهج اسم لابن أبي الفضائل

(٢) تاريخ المدن الإسلامي لجورجي زيدان ج ٥ ص ١٥٣ .

(٣) الفخرى ص ٤٩ ط مصر . (٤) بن الأثير ج ٣ ص ٩٠ .

« وكان يميل إلى رمي البندق ، والطيور المناسب ، وليس سراويل الفتوة والفتوة ، وكانت ساير ملوك الأطراف أن سبقوا إليه في رمي البندق وفي الفتوة ، ففعل الفتوة في البلاد جميعها إلا من ليس منه السراويل ، ويرمي له ، فليس سائر ملوك الآفاق سراويلات الفتوة له ، وأدعوا له في رمي السدود . ووصل رسول إلى حمّة في أيام المنصور الأيوبي صاحب حمّة ، وأمره بأن يلبس للخليفة ، ويأس الأكار له ، فأمر الملك المنصور صاحب حمّة الشيخ سالم ابن نصر الله بن واصل الشافعي الحموي بعمل خطبة في الفتوة ، فعمل خطبة مديعة في هذا المعنى ، واستشهد بآيات القرآن العزيز منها قوله تعالى « إنا سمعنا فتى يذكرهم » ومنها قوله تعالى : « إذ أوى العتية إلى الكف » ، وغير ذلك من الأخبار والآثار . فقرئت هذه الخطبة محضرة الملك منصور صاحب حمّة والأكار ، وكان قاضي حمّة في ذلك الزمان القاضي برهان الدين أبا اليسر ابن موهوب ، فأمره المنصور بلبس سراويل الفتوة في المجلس ، فلبسها وليس بها حمّة ، وكذّبت مع لدعوة بالدق الآله ، والطيور المناسب في جميع البلاد إلا له ، وأجاب ليس بالعراق ، وسائر الأقطار إلى ذلك ، ما حلا وحلا واحداً راميّاً بالبندق من أهل بغداد ، فإنه امتنع من إحاطته ، وهرب من العراق ، وحق بشه ، وأرسل ، حبيبة رغبه بالأموال الجزيلة ليرمي عنه ، ويُنسب في رمي به ، ولم يعمل ، فذكر ذلك عليه بعض الناس فكتب يكفون فخر أنه سر في لأرض أحد لا يرمى من حديثه إلا ما » (١) .

(١) . جمع مروج من مرآت وكدك : M. Le Baron de Hammar Purgstain .
Journal Asiatique, Aout - Sept 1855. n 232

ولست أدري حقاً هل كان تأليف الناصر لدين الله نظام الفتوة على هذا الوضع للرياضة والترف لاغير ، أو أن هناك دوافع أخرى دعت إليه ؟؟ أعتقد أن الناصر وإن كان من هواة الرياضة إلا أن عمره كان مليئاً بمحادث حسيمة قد كان معاصراً لاصلاح الدين الأيوبي والحرب على أشدها ضد الصليبيين ، وللسلوك جميعاً مجتهدون في هذه الحرب المقدسة . وشعار الفتوة دائماً للتضحية والجهاد ، والمحافظة على الشرف ، فهل كان هذا التدريب الرياضي ، وإلباس الفتوة الخالص ، وشرب كأس الفتوة — دليل الرابطة والدخول في العهد — والمهارة في رمي الطير بالسدى كلها لتأليف فرقة خاصة تنسب إلى الخليفة ، وتستمد قوتها الروحية من الانتساب لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، وهو من هو في الجهاد والبلاء في سبيل الله ، حتى تكون هذه الفرقة القوية المعدة آتم الإعداد جسماً وروحاً من خير جنود المسلمين الذين يحاربون الصليبيين ، أو أن هذا النوع من التدريب ، والأخذ بنظام الفتوة كان لمجرد لهم وقتل الوقت ؟؟ .

يخبرنا ابن تيمية رضى في ترجمته : أن الناصر لدين الله أرسل في السنة التي توفي فيها وهي سنة ٦٢٣ هـ رسالاً إلى نور الدين ، وإلى الملك العادل تنقيح صلاح الدين ، وإلى الملك الصالح . وإلى ملك شهاب الدين حاكم غزة ومعه كأس الفتوة وسرويه . لكي ينتظموا في سلك متباه^(١) ، وهؤلاء كما هو كالم من كبار لخدمة في حروب الصليبية .

وأيضاً . يؤيد هذا ما قام الفتوة يدعى سنة الناصر لدين الله كان

١. تيمية رضى في ترجمته . مكتبة باريس رجع . A. Aaut - Sept 1855 .

الغرض منه إيجاد فرقة قوية لمحاربة الصليبيين ، وأنه لم يكن الغرض منه الترف والصيد واللهو فحسب ، فإن المهاراة في الصيد ، ومقاتلة الوحوش ، وإحكام الرماية تؤهل كلها للتفوق في الفروسية . ولقد كان ثمة فارس آخر شجاع معاصر للخليفة الناصر ألا وهو أسامة بن منقذ ، وكان من الشجعان الأقوياء حتى سماه الذهبي (أحد أبطال الإسلام ^(١)) ، وقال عنه ابن الأثير ، « إنه كان من الشجاعة في الغاية التي لا مزيد عليها ^(٢) » ، وقال أسامة عن نفسه في كتاب الاعتبار : « فكم لقيت من الأهوال ، وتقمحتُ المخاوف والأخطار . ولاقيتُ العرسن ، وقتلت الأسود ، وطُمنت بالرماح وجُرحت بالسهام ^(٣) . وشهد أسامة قتال القرنجة ، وخاض المعارك العديدة في شيزر وحماه من مدن سوريا التيمالية ، وعسقلان وبيت جبريل من أعمال فلسطين . وفي شبه جزيرة سيناء ومصر ، وفي ديار بكر والموصل ، فلا غرو أن أصبح اسمه في التاريخ الإسلامي مردفاً للبطولة ^(٤) . ومع كل هذا فقد كان مغرمًا بالصيد ، وقد خصه في كنهه معصر طويل استهله بقوله متمثلاً :

ولله مني جابٌ لا أضيعه والله مني والبطالة حابٌ
وكان مولعاً بصيد الأسد ، والحيوان الصاري كالهدد والتمر . وقد قال في كتابه الاعتبار : « وقد شهدت قتال الأسد في مواقف لأحصىها ، وقتت عدة منها لم يسركى أحد في قتلها ^(٥) . »

ولعل سيرة أسامة بن منقذ وفروسيته ، واهتمامه بالصيد هو وورده وعمه .

(١) دول الإسلام للذهبي ج ٢ ص ٧٩ . (٢) ابن الأثير ج ٢ ص ٢٠٧ .

(٣) الاعتبار ص ١٦٣ . (٤) فيليب حتى مقدمة كذب لا عذر

(٥) الاعتبار ص ١٤٤ .

وقد كانا كذلك من الأبطال ، تبين لنا أن نظام الفتوة الذى أنشأه الناصر لدين الله كان خاصاً بطبقة الأشراف والمترفين ، وأنهم كانوا يلهون بالصيد ويفيدون قوة ودُرْبَةً ، وكانوا يقاتلون الأعداء إذا دعاهم داعى القتال ، وإن لم يكن ثمة اتصال — فيما أعلم — بين أسامة والخليفة الناصر لُبْعَد الشَّقة بين مقاميهما ، فالخليفة الناصر كان ببغداد ، وأسامة عاش في مصر حقبة ثم في شيزر ودمشق ، وكان منهمكاً في حروبه مع الصليبيين .

ولما مات الخليفة الناصر لدين الله في سنة ٦٢٢ هـ ١٢٢٥ م لم يبطل نظام الفتوة الذى وضع تقاليدُه من بعده ، فها نحن أولاء نرى الخليفة المستنصر (حفيد الناصر لدين الله) يسير على سنته ، ويُنعم على من يشاء بلباس الفتوة أو يَكِلُ إلى أحد خاصته ممن له سابقة وقدم في الفتوة لينوب عنه في ذلك ، فقد رُوى في حوادث سنة ٦٢٦ هـ : « أن نحر الدين أبو طالب أحمد بن الدامغانى ، والشيخ أبو البركات عبد الرحمن ، والأمير فلك الدين محمد بن سنقر الطويل ، ذهبوا إلى جلال الدين منكوبرى بن خوارزمشاه ، وهو يومئذ على مدينة (خلاط) محاصراً لها ، ومعهم تشریفات وكُرَاع ، ولباس الفتوة ، وقد وكل الخليفة المستنصر (نحر الدين الدامغانى) أو الشيخ أبا البركات في تَفَتِّيهِ ، وكان هؤلاء الثلاثة المرسلون صادفوه خارج مدينة « خلاط » للحصار فجمعوا عليه . أرسل به الخليفة إليه ، وألبسوه سراويل الفتوة ، (١) .

وفي سنة ٦٣٥ هـ حصر عبدالله انشرومساحى مدرس ملكيه بالمدرسة

(١) راجع : احداث اجمعة ونتجرب دبعة في الدعة سابعة لكمال الدين أبى مصل
— — — — — ٨٠ — — — — — ١٩٣٢ وراجع كذلك : (الفتوة
رعب . — — — — — ١٩٣٠ . ص ٥٥ .

المستنصرية (بالبدرية) عند شرف الدين إقبال الشراي ، وأعم عليه بلباس الفتوة نيابة عن الخليفة^(١) .

وفي سنة ٦٤٦ هـ توفي جلال الدين عبد الله بن المختار العلوي الكوفي ، « وكان عريق النسب ، كبير القدر ، أديباً فصيحاً ، حفظ القرآن في نيف وخمسين يوماً ، وكان يحضر عند الخليفة الناصر في رمى البدق ، والفتوة ، ولعب الحمام ، وكان يفتي ويرجع إلى قوله ، ولم يزل كذلك إلى أيام الخليفة المستنصر بالله فأشار عليه أن يلبس سراويل الفتوة من أمير المؤمنين على عليه السلام ، وأفتى بخواز ذلك ، فتوجه الخليفة إلى (المشهد ولبس السراويل عند الضريح الشريف ، وكان هو النقيب في ذلك »^(٢) .

وهكذا توارث خلفاء الناصر لدين الله نظام الفتوة هذا حتى رمن المستنصر آخر خلفاء بني العباس في الشرق ، حين دمّر هولاء كوفى المنولى بعداد وقتل المستنصر وأهل بيته سنة ٦٥٦ هـ ١٢٥٨ م . كانت الخلافة قبل عهد الناصر لدين الله تحتضر ، وكان الخلفاء قد فقدوا من قبله كل سلطان وقوة ، ولم تعد لهم إلا سلطة سمية ، وخضعوا خضوعاً تاماً للسلاجقة ما يقرب من قرن ونصف من الزمن ، وفي معظم هذه الحقبة كانت الحروب الصليبية على أشدها في سوريا ومصر ، ومن العجيب أن هذه الحرب الدينية الاستعمارية التي كانت تهدد الشرق العربي كله لم تحدد أى اهتمام من السلاجقة أو الحشوية العباسيين . وما فتح القرنين بيت المقدس سنة ١٠٩٩ م . فقد وجدوا في مصر مستعماً بأولى الأمر ، وقد أكثر لولا من ساء رعبه ، ذلك أن ساء ساء

في القدس من الأذى البالغ ، ولكن ذلك كله لم يؤثر في نفوس السلاجقة أو الخليفة . وعاد الوفد من غير أن يقضى شيئاً^(١) . وفي سنة ١١٠٨ م حاصر الفرنجة طرابلس ، فذهب وفد من أهلها إلى بغداد يستغيث بالخليفة ، وبالسultan السلاجقي ، ولكنه رجع بدون جدوى .

و حين استطاع صلاح الدين الأيوبي — الذي اشتهر بمحاربته للصليبيين — القضاء على الدولة الفاطمية بمصر سنة ٥٦٧ هـ — ١١٧١ م — دعا للخليفة العباسي المستضيء — لأن صلاح الدين كان سنياً — فاعترفت سوريا ومصر حينذاك بسيادة خلفاء بني العباس الاسمية . ولما انتصر صلاح الدين على الفرنجة في معركة حطين المشهورة أرسل صلاح الدين إلى الناصر لدين الله العباسي الذي تولى الخلافة بعد المستضيء في سنة ٥٧٥ هـ عدداً من أسرى الفرنج ، وجزءاً من الغنائم فيها صليب من البرونز منقش بالذهب ، قيل إنه كان يحوى قطعة من عود الصيب الحقيقي ، فدفن الخليفة هذا الصليب ببغداد^(٢) .

وقد حاول الخليفة الناصر لدين الله محاولة ضئيلة لآخر مرة أن يحيى معالم خلافة ، ويبعث فيها شيئاً من النشاط والقوة ، وقد وجد الوقت ملائماً ؛ لأن سرء السلاجقة قد بدءوا يتخفون فيما بينهم ، ويكيد بعضهم لبعض ، ولأن صلاح الدين الأيوبي لدى مثل مصر والشام ، قد اعترف به ، فحاول استرجاع شيء من سمته المفقودة ببغداد . فظهر الأبهة والبذخ ، وأقبل على تشييد لأبنية . و أسس فام الفتوة على ما ذكرنا آنفاً ، وكان هذا النظام يضم رجالاً

(١) ابن الأثير ج ١٠ ص ١٩٤ .

(٢) ابن الأثير ج ١١ ص ٣٥٣ . وأبو شامة في كتابه الروضتين في أخبار العوتين

ج ٢ ص ١٣٥ .

من ذوى المناصب والجاه أكثرهم ممن ينتسبون لعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه^(١)، وكان الغرض منه تهيئة طائفة قوية من الفتيان علمهم يساعدون في الحروب الصليبية .

كانت محاولة الناصر هذه آخر مظهر من مظاهر البطولة العربية الإسلامية وإن شابها كثير من الترف واللهو ، والانصراف عن الجد ، والمشاركة الفعلية في القتال ، وقد أراد أن يبعث روح الحماسة في نفوس من حوله من الأشرف وذوى المناصب الكبيرة في الدولة ، ولكن هيهات ! فإن الأمة قد دبّ فيها الانحلال والوهن ؛ لأن العرب الفاتحين قد اختلطوا على مرّ الأجيال بالأعاجم المغلوبين ، ففقدوا بذلك صولة الغالب ، وصفات السيادة ، وبالمحطاط الروح القومية بين العرب ضعفت ألتهم وقواهم المعنوية ، ولم يطل الأمر بدوائهم حتى غلبهم عليها هؤلاء الذين خضعوا لهم من قبل . وكان للنسرى ، وما رافقه من نظام الحريم والحصيان ، واقتناء الجوارى والغلمان أثر في تقويض معنويات الأمة ، وإفساد الرجال ، وذهاب المروءة منهم . وبشكائر السررى تكاثر المولودون من بنين وبنات ، من أمهات محتفات في بلاط الخلافة ، وتبع محل للنحاسد والفتن ؛ زيادة عن أنفاسهم في ضروب اللهو والترف والتعنت ، وعكوفهم على مجالس الشراب والغناء .

قضت هذه العوامل المتعددة على نشأة الأسرة العربية
وأوردت أولياء العهد ضعفاً جسدياً وعقلياً وحقيقياً

(١) ابن الأثير ج ١٢ ص ٢٦٨ ، والفهرى ص ٤٣٤ ، وابن جبر ص ١١٣ ،
Fournier. B. Zur Kenntnis des islamischen Vereins-
wesens... (Leipzig, 1913)

أخلاقه ، فهو في منصب الوالى تنقصه في الغالب روح العبد^(١) . وهذا يدلنا على قيمة التفوق في ضروب القروسية . وأنه وحده السبيل للتملك والوصول إلى الولاية ، وكان كل مملوك ذى شأن يقتنى عدداً كبيراً من المماليك ، ويدربهم على فنون الحرب ، وشتون القتال ، والمهارة في الضرب بالسيف ، وركوب الخيل . والحق الذى لا مراء فيه أن هؤلاء القوم — لتفرغهم لشتون الحرب — ، قد حسّنوا كثيراً فى القروسية العربية ، ووضعوا لها قواعد وأنظمة دقيقة صرامة وفى ذلك يقول الأستاذ (كآرمير) فى تعليقاته على كتاب الملوكة للمقريزى قلا عن المؤرخ المصرى أبى المحاسن : « إن لعبة المناورة بالسهم بين العرسان هى من ابتكار ممالك قلاوون (القرن السابع الهجرى) وإن أحداثا العرب وإن كانوا يلعبون هذه اللعبة إلا أن طريقتهم كانت مختلفة^(٢) » .

كانوا يمتطون الجواد عارياً وهو بعد صغير ، ويقفزون على أجواد قفز ، ومنه إلى الأرض بدون سرج ، ثم وهو مُسرج ، وبدون سلاح ، ثم بعدتها كاملة حتى يكتسبوا السيطرة والاروة على الركوب . أحد ابن العرب مد قدم الأزمنة كانوا يفعلون ذلك ، وقد قال العمري : كان عمر بن الخطاب يأخذ يده اليمنى أذن فرسه اليسرى ثم يجمع جراميره^(٣) ، ويشف فكاً ثم يحدق بغير ضربه . وقال عمر بن الخطاب كذلك . « إن محور قوى » .

(١) راجع The Rise of The Egyptian question and The Rise of Mohamed Ali by Prof Shafik Ghorbal. p. 2.

(٢) راجع أبو المحاسن من عمرى بردى فى الجوامع لزهرة ج ٨ ص ١٦ وكذلك Qintreux re Hist de Sultane Mamlouks par Makrizi p. 58.

(٣) جراميره : بدنه .

يَنْزِعُ وَيَنْزُو^(١) » يعنى ينزع فى القوس ، وينزو على الخيل من غير استعانة بالرُّكْب . فليس ما قام به المالك جديداً فى هذا الشأن ؛ لأن طبيعة العرب فى محراثهم — كما ذكرنا — جعلتهم فرساناً محنكين بالفطرة والبيئة وكأنما عناء المتنبي بقوله يصف الخيل وفرسانها :

فكأنما خلقت قياماً تحتهم وكأنما خلقوا على صهواتها
وكان امالك فى حاجة إلى مثل هذا التمرين .

وإذا كان لهم من ميزة فى أهم تدرّبوا على كل أنواع الفروسية من من الرمي بالقوس ، والضرب بالسيف . فضلاً عن التمرين البدنى الصارم تدريباً منتظماً متواصلاً لا هوادة فيه ولا رحمة ، ولا مبالاة بالأخطار ، وقد أفردوا الدراسة الفروسية الكتب وارسائل الكثيرة الموزعة بين خزائن المخطوطات الأوربية ، ولم تنشر حتى اليوم : من ذلك : « نهاية السؤل والأمنية فى تعليم الفروسية » تصنيف مكتوت ارمح خازندار الملك الظاهر^(٢) . وكتاب الفروسية برسم الجهاد أيف محمد بن أحمد بن لاجين الحسامى الطرابلسى^(٣) ، والباب الأول منه : « فى ركوب الخيل والنزول بالرمح » والباب الثانى : « فى المناصب الحربية » والباب الثالث : فى الحروب وعلم الفروسية^(٤) . وقد أنشأ سلاطين الممالك كثيراً من الميادين لألعاب الفروسية ، وكان الميدان من السعة بحيث يقشاه بضع مئات من الفرسان فى وقت واحد . وكثيراً ما قامت المبارزة بين الفرسان بعضهم

(١) مسالك الأوصاف لشيخ الدين أحمد بن فضل الله العمري ج ٥

(٢) مخطوط بالمكتبة الوطنية رقم ٢٦٣١ Orient

(٣) مخطوط بمكتبة برلين رقم ٨٨٥

(٤) راجع A. S. Atiya : The Crusade in the Middle Ages p 545

وراجع كذلك مكتور على إبراهيم حسن : ممالك العربى ص ٢٧٢

وبعض في حضرة السلطان وقد وضعت للبارزة قيود وتعليمات خاصة قيدت في قوانين ودقائر ، وكان على البارز أن يستخدم كل مواهبه لخلق خصمه عن سرجه ، دون أن يضربه الضربة القاتلة ؛ ولذلك كانت المبارزة تتطلب الكثير من الخلق والبراعة . وقد مارسوا اللعبة (البولو) وكانت تسمى لعبة الصولجان ، ويطلق الصولجان على العصا التي تضرب بها الكرة . وذلك قبل أن تعرف أوروبا هذه اللعبة بقرون ؛ لأن إنجلترا لم تعرف هذه اللعبة إلا في أواسط القرن التاسع عشر تقلا عن الهنود .

وأنشئت في عهد المماليك جماعة كان يرأسها السلطان ، ولها نظمها الخاصة تسمى جماعة الفتوة ، وكان السلطان صاحب الحق في قبول الأعضاء وفصلهم . وكانت هذه الجماعة تحذو حذو فتيان الناصر لدين الله ، فتدرب على رمي السهام ، والنبال ، والبندق ، وتصيد الحمام للتمرين ، وتزني بسر وال الفتوة^(١) . وقد أبلى المماليك بلاء حسناً في الحروب التي خاضوها ضد الصليبيين ، وضد المغول ، ولا نسي أبداً أنهم هم لذي ردّوا تيار المغول اجرف بقيادة هولاكو الطاغية الذي عاث في بلاد المسلمين فساداً ، وطوّح بالخلافة الإسلامية ببغداد إلى الهاوية ، واجتاح كل مدن سوريا ، وحاصر دمشق إلى أن هزمه القائد العظيم الظاهر بيبرس قائد السلطان قطز ، وهو يحاصر دمشق حصاراً عسفاً ويلاح عليها بقسوة ؛ حتى تخر صخرة تحت سداك خيله كما حُرّت مدن إسلامية العتيدة من قبل ، فهزّمه هزيمة منكزة في موقعة عين جالوت^(٢) .

(١) السلوك للمقرئ ج ١ ص ٧٢٥ .

(٢) عين جالوت بين بيسان ونابلس فلسطين .

سنة ٦٥٨ هـ ، ثم هزمهم في بيسان وقتل منهم نحو النصف^(١) . فرد عن مصر وعن بلاد الإسلام شراً ما حقاً .

ولمّا هُزم المملوك يرحم الفضل في هزيمة الصليبيين والقضاء عليهم قضاءً مبرماً فقد هزمهم بيبس هزيمة مسكرة في موقعة المنصورة المشهورة سنة ٦٤٧ هـ . لقد كافح صلاح الدين الأيوبي هُزماء الصليبيين مكافحة شديدة ، وكسر حدّتهم ، وخصد شوكتهم . وقد استند ساعدهم بعد وفاته لكثرة النزاع بين خلفائه من الأمراء الأيوبيين ، ولولا الممالك لساد الصليبيون ، واستولوا على الدول الإسلامية جميعاً . فرى قلاوون سلطان المماليك بمصر يخف لقتالهم ويتزعززع منهم القلاع والبلدان ، فيفتح المرقب^(٢) سنة ٨٦٤ هـ ، ويفتح طرابلس التي لم يخرق أحد من قبله على التعرض لها لحصاتها ، كما كسر جيش النتر على حصص ، وكانوا في ثمدن أنف فارس^(٣) ، بيد أنهم صمموا على الانتقام من جيوش مصر ، وتوالت هجماتهم على مدائن سوريا في عهد غازان المغولي الذي اعتنق الإسلام ، وهزموا جيش السلطان الناصر في موقعة الخزندار^(٤) سنة ٦٩٨ هـ ثم فتحوا دمشق وعاثوا فيها وفي لندن المحورة لها مذبحة وأكثروا الساب والنهب والقتل . سنة ٦٩٩ هـ^(٥) حتى قال بعض شعراء الشام يصف المصائب التي حلت بهم من حرّاء غزوهم وفسادهم :

(١) السلوك للعقري ج ١ ص ١٧٤ ، وأبو الفداء ج ٣ ص ٢٠٩ وترجمة كاترين

للوك ص ٩٦ .

(٢) بقعة حصينة تعرف على ساحل بحر الشام بذكر أسامة بن منقذ في تاريخ القلاع

وخصود أسامة بن علي بن المصطفى ج ٤ ص ٤٥٤ Encyclopedia of Islam. Markab

(٣) مساهم لأبصار لابن أبي عمير ج ١٦ القسم ٢ ص ٦٥٠

(٤) تاريخ في كتاب بروج ج ١ ص ٩٢٨ — ٩٢٩

(٥) مساهم لسيّد لابن أبي الفضل ص ٦٤٤ — ٦٤٤ وكتاب السلوك للعقري

ص ٣٣ — ٣٤

رمتنا صروف الدهر منها بسبعة فماأحد منا من السبع سالم
غلاء وغازان وغزو وغارة وغدر وأغبين وغم ملازم
بيد أن السلطان الناصر قد أعدَّ عدته وخرج من مصر في سنة ٧٠٢ هـ
على رأس جيش كبير ، وخرج معه الخليفة العباسي . ويصف المقرئ هذه
المركة بقوله : « مضى السلطان والخليفة بجانبه ، ومعهما القراء يتلون القرآن ،
ويحثون على الجهاد ، ويشوقون إلى الجنة ، وصار السلطان يقف ، ويقول
الخليفة : يا مجاهدون ! لا تنظروا لسلطانكم قاتلوا عن حريمكم ، وعن دين نبيكم
صلى الله عليه وسلم ، والناس في بكاء شديد^(١) » ، وتقابل الجيشان في مرج
الصفير على مقربة من حصن فهزم جيش الناصر المغول هزيمة ماحقة . ومات
منهم كثيرون من شدة الظمأ ، وأسر انصريون عشرة آلاف ، وغموا
عشرين ألف رأس من الماشية^(٢) ، ولم تقم هؤلاء التتر بعد ذلك قائمة إلى عهد
تيمورلنك . وكارداً هؤلاء المماليك طوقان التتر عن مصر وعن البلاد العربية ،
ألحوا على الصليبيين بالغزو والقتال حتى طردوهم طرداً شنيعاً ، وذلك حين فتح
السلطان الأشرف خليل بن قلاوون مدينة عكا آخر معاقهم في بلاد الشام
سنة ٦٩٠ هـ^(٣) .

ولقد شهد لهم بابلون بالبراعة في فنون القروسية ، ولكن هؤلاء على
الرغم من براعتهم تلك في فنون القتال ، وشجاعتهم الماثمة ، لم يحرزوا من
الفتوة العربية إلا ناحية واحدة فقط وهي التفوق في الحرب ، ولشدة

(١) السلوك ج ١ ص ٩٣٣ .

(٢) أبو الفدا المختصر في تاريخ البشر ج ٤ ص ٤٠٠ .

(٣) أبو الفدا ج ٤ ص ٢٥ — ٢٦ .

الفائقة ، وفيما عدا ذلك ندر من كان منهم سخي اليد ، كريم القلب ، رحب الصدر ، وفيما بوعده . بل نرى على العكس من ذلك ، شدة التناحر فيما بينهم يثب بعضهم على بعض ، ويتولى العرش أقوام ساعداً وأكثرهم أنصاراً ، ويقتل السلطان السابق من غير رأفة ولا رحمة ، وقد كان من مماليكه الذين رباهم ، وعلمهم ، وقدّمهم ، كما قتل بيبرس الساطان قطز ، وكما قتل الأشرف خليل وهو يصيد في الصحراء بأيدي مماليكه . لم يكن هؤلاء المماليك يتحلون بتلك السجايا العربية التي وصفناها آنفاً ، ومع هذا كله فقد وضعوا للفروسية نظاماً محكماً ، وقد أخذ عنهم الصليبيون كما أخذوا عن صلاح الدين والعرب عامة كثيراً من نظم الفروسية وتقاليدها كما سيأتى في الفصل القادم إن شاء الله .

بين فتوة العرب وفروسية الغرب

كم كان بودى بعد أن تبعت الفتوة العربية في نشأتها بين أحضان الصحراء ، وفي سياحتها في الدول الإسلامية ، أن أذكر شيئاً عن عرب الأندلس ، وبلاد المغرب . بيد أننى رأيت أن هؤلاء لا يختلفون في تقاليدهم العربية الشريفة ، في أثناء قتالهم مع أعدائهم في سبيل الله ، أو في صلاتهم مع سواهم من الناس عن آبائهم الأول ، وأن تقاليد الفتوة ، وثمارها العطرة السنية قد حُملت معهم إلى أوروبا ، وظلت طابعا لهم في كفاحهم المبرر مدة ثمانية قرون سواء كان ذلك في ظل دولة بنى أمية أو في ظل ملوك الطوائف ، أو لدى المرابطين أو الموحدين . ثم إني رأيت أن حديثي عن فروسية العرب قد يفسح لى بعض المحال لذكر شيء موحز عن تأثير عرب الأندلس في فروسيه أوروبا .

وقد حفزنى الكلام عن فروسية الغرب ، ونحن في صدد التمت عن فتوة العرب ، ما رأيته ، ورآه غيرى من قبل ، من أوجه تشبه عديدة بين الاثنين ، وأن فتيان العرب وفرسان أوروبا قد تلاقوا في أكثر من ميدان . ولا ريب أن أول ما يحطر بذهن الباحث المدقق هو هذا السؤال : هل ثمة صلة بينهما ؟ وللإجابة المرضية عن هذا السؤال رى راجعاً إلى بعض صورته سريعة موحزة للفروسية العربية ، رسائلي ، ومميزات ، ثم تكلم عن صلة بينها وبين الفتوة العربية ، ثم أوزن بينهما .

والآن ! هل لفروسية تقيددهم ، وروء ، ين من ر سعيه ،

بعض الأمم ، أو أنه شيء طارئ عليها ، استعارته من سواها ، حين رأت .
أهدافه الجميلة ، وطابعه الإنساني ، أو بعبارة أوضح : ما أصل الفروسية الفرية ؟
ومتى نشأت ؟ وأين نشأت ؟

تعرف المعاجم الفروسية بأنها : « نظام عسكري إقطاعي خاص بالبلاء
وظهر في العهد الإقطاعي » ، وثمة نوع آخر ظهر إبان الحروب الصليبية ، ثم نوع
ثالث ظهر بعد انتهاء الحروب الصليبية يختلف في أهدافه وغاياته عن النظامين ،
ولم يعد طويلاً .

الحق أن الفروسية العربية قد مرت في أطوار ثلاثة . ففي أول الأمر
كانت نظاماً عسكرياً لا يضم إلا طائفة البلاء ، ولا يحارب هؤلاء إلا على
جياذ مُطَهَّمَةٍ ، ويكونون في سن تؤهلهم لحمل السلاح ، ولا بد أن يكونوا من
ذوى اليسار حتى يُعدوا أنفسهم إعداداً تاماً بالسلاح . وقد ابتدأ تنظيم
الفروسية طبقاً للتقليد (الإسكندنافية) ، فكل من يملك جوداً ، ولديه
رُبعون (مارك) ، وعدة كاملة من السلاح ، وله من الثروة ما يمكنه من
تددي نفسه باستمرار ، حتى لا يظفر بظفر زري يسىء إلى النبلاء يستطيع أن
يكون فارساً . ولم تكن في قرب طبقة خاصة من الناس متميزة عن سواها
تدعى طبقة الفرسان ، ولكن ليس الطبيعي لدى النبلاء هو الفروسية . وفي
شرب سات عتر صدر قائم يحتم أن يكون الفارس من طبقة النبلاء ، بل
كان كبريين فارساً ، ومن سبع من أربعة والعشرين منهم ، ولم يلتحق
خدمة رقيب سيدة . ومنذ القرن الحادي عشر وضعت الأنظمة
التي كانت قائمة في وقتهم : حرص الفارس على شرف الفروسية

l' honneur Chevaleresqua . ويمثل في الإخلاص والطاعة والشجاعة .

لقد كانت أول واجبات الفارس الإقطاعي هو أن يحمي سيده ، وكان يُعَدَّ إعداداً خاصاً كي يكون فارساً . فَيُنْتَزَع وهو في السادسة من عمره من بين أحضان النساء ، ويرسل إلى حاشية أحد الأمراء ، أو حاشية الملك ليتلقى تعاليم الفروسية ، ويتدرب من المراتب الدنيا ، فيقوم أول الأمر بأعمال منزلية ، ويراقب النبلاء في حركاتهم ، وآدابهم وشتى مناحي سلوكهم ، ويعطى في نفس الوقت تعليماً خاصاً يتناسب مع منزلة والديه ، ومع ذكائه ، واستعداده وبعد ذلك يلتحق بخدمة أحد الفرسان فيتعهد الخيول ويدرس طباعها ، ويشهد ترويضها ويتعود ركوبها ، ويصحب سيده تابعاً له في الصيد وفي ميدان القتال ، وفي انباريات الخاصة ، وقد يشترك معه في كل هذا ويساعده حتى إذا ظفرت مواهبه وتم استعداده ، وصار في سن تؤهله لأن يكون فارساً أُقيم له احتمال يشهده غيره من الفرسان ، ويقلد فيه السيف ، يقوده إياه أبوه ، أو أميره . ويصر به أبوه - مُنَح يده على قتاله ، وتُلقى خطبة كلها في تقاليد الفروسية والشجاعة ، ثم يعرض الفارس أجديده بعض ألوان من الفروسية^(١) .

هذا هو النظام الإقطاعي للفروسية ، وهو مصممٌ وُجدته الضرورة . إذ كان أمراء الإقطاع في حروب مستمرة بعضهم مع بعض . وكان لابد للأمير من حشد مدربين يحمونه وأسرى وبخافضون على أملاكه ، ويردون عنه عداوت مدافعيه . واضطر للأمراء أول الأمر إلى استخدام جنود برتبة منخفضة حشرت حمية على أيديهم إلى وحشية بنية . بعد هؤلاء إلى قرين برقة من مستوئم حتى

وتصقل من طباعهم الجافة ، ونحول بينهم وبين الصّعة والحقارة ، ثم قصرت الفروسية على طائفة السلاء ودوى اليسار^(١) .

ولما تن القرب حملاته المعروفة على الشرق باسم الحروب الصليبية ، كان هؤلاء السلاء هم عماد تلك الحملات ، يمحرون من بلادهم ومعهم حودهم المدربون على دعوات لغزو الشرق الأدنى ، وكان من الطبيعي أن تبارك الكنيسة هذا العمل ، لأن فيه دواءً عن الدين ، وقتالاً — في زعمهم — ضد الكفرة الملحدين ، وسار القسس يحصرون حققات الفروسية التي تقام لكل فارس حديد ، ثم على توالي الأيام صار القسيس هو الذي يقلد الفارس سيقه ، ويبركه ، ويغمسه في ماء المقدس ، وكان على الفتى أن يتطر ، ويتوب ويتقدم ، ويلبس التيبب البيض سَمَّة الضُر والصلاح ، ولذلك صار هذا التقيد العبري تقليداً دينياً ، شاركت فيه الكنيسة ورحلها أول الأمر ثم ستقت به ، ولم يعد الأمير أو الوالد هو الذي يقلد الفتى سيقه ، ولكن صار ذلك من مهمة الكنيسة . وقد أدت الحروب الصليبية ، وما فيها من احتلاط الفرس من متنى البلاد بعصره ببعض إلى إيجاد مميزات جديدة للفروسية ، وصارت أكثر تديناً وأعظم تشر ، وواحداً على كل شريف مسيحى . فقد كان وُجُود وحدت الفرس لإقصاء حماية سيده ، فصار من أول واجباته حماية كنيسة ، وقتل كفرة . وكان يحتفل بدخول الشاب في نظام الفروسية في يوم عيد من عيد مسيحية . كنيسة ، وأحياناً في ميدان

(1) Herdner Inees

^{٢٢}Hamanitie. 1. III ٥. ٤٣٦

القتال ، وقبل بدء المعركة^(١) .

كانت الفروسية العربية في أوجها في ذلك العهد المسيحي ، ولكنها انتهت عند استرداد المسلمين (عكا) سنة ٦٩١ هـ - ١٢٩١ م من يد المسيحيين على يد السلطان الأشرف خليل بن قلاوون^(٢) .

ثم تحولت الفروسية العربية في القرن الرابع عشر إلى فروسية صالة ، لا هدف لها ولا نظام ولا رابطة . رجع الفرسان الذين قاتلوا في الشر ، وقد تطورت أوروبا ، وابتدأت نهضتها الحديثة ، ولم يحدوا عملاً ، قطعوا يحومون البلاد باحثين عن المغامرات ، ونادين أنفسهم لأداء خدمات ، ومساعدة الضعفاء ، والأخذ بيد المكوبين ، وباحثين قبل كل شيء عن الحب ، ولا سيما حب النساء الثريات من زوجات الأشراف . وفي هذا العهد ظهرت الفروسية بصفات جديدة فيها كثير من سمات الفتوة العربية وإن اختلفت عنها في العاية . وأهم خصائص هذه الفتوة الحديثة : الحب ، وحرمة المرأة ، والرغبة في المغامرات ، والسخاء ، والمزاج وقت الخطر ، وحسن خدمة والتمسك بالوعد حتى الموت ، والحدب على الضعفاء ، وتمجيد الشجاعة الحربية . ولو كانت من الأعداء ، وعظمة النفس وسموتها وإخضاع القوة لحسية لدكم المذهب^(٣) ومحاربة الكبيسة والقمضاء على سطوها وفودها وتدخلهم في كل صغيرة وكبيرة من شئون الحياة^(٤) ثم تلاشى هذا النوع من الفروسية على

Encyclopédie, tome. V pp. 1137—1139. et

I. Pratique Chevaleresque des Arabes. p. 8.

(٢) أبو العدا ج ٢ ص ٢٥—٢٦ .

notule p. ٧. p 6.

—

مر الأيام ، وصارت أساطير تروى ، وقصصاً تكتب .

ولعلك رأيت من هذا العرض السريع كيف تطورت القروسية الغربية على مرّ الأيام من فروسية عسكرية تعتمد على القوة وحدها ، ليس فيها من سمو الروح ، ودماثة الخلق شيء ، ثم فروسية خاضعة لتعاليم الكنيسة ، مملوءة بالتعصب الدينى . ليس فيها شيء من سماحة العقل ، واتساع أفقه ، إلى فروسية حديثة ، فيها كثير من صفات الإنسانية ومثلها العليا . وقبل أن أخوض فى أسباب هذا التحول الأخير ، وكيف تأثر فرسان أوروبا بحضارة العرب حتى تهذبت طباعهم ، ورقّت حواشيتهم ، واكتسبوا منهم سمات النبل الحقيقى لا ببل الدم والنسب ، وكيف قلبوهم فى طباعهم ، وحلّوهم المثل الأعلى لهم ، أعرض بعض الآراء التى سجلها الباحثون عن نشأة القروسية الغربية وأصلها .

نرى بعض الباحثين ينكر وجود القروسية الغربية كما صورها رجال الأدب ويقول : كلما تعمق الإنسان فى دراسة التاريخ تبين له بوضوح أن القروسية الغربية من احترار الشعراء والقصاصين ، ولن يعثر أى باحث على وثيقة تروى قصة تمت أن القروسية — كما يعرفها الشعراء — سادت بلداً ما . إنها لوح من عهد حائلة أبون غير واضحة المعالم — بينما يعطينا المؤرخون فكرة مفصلة ، واضحة كاملة عن مآسم البلاء ووحشيتهم ومفاسد قصورهم ، واستعبادهم لشعب . وإن مرء ليعجب حين يقرأ بعد ذلك نؤمن مديد الشعراء وهم يحبون هذه القصود فى روياتهم . ويحلّعون على البلاء أردية المضيئة رعدة والكره والطاعة^(١) .

(1) S. de Simonda . De la Littérature du Moyen Âge . t. I. pp. 90 et 91.

ويرى بعض الباحثين أن القروسية الغربية في ثوبها الجليل لم تظهر إلا في الحروب الصليبية وما بعدها ، وأن ماسبقها في العهد الإقطاعي كان شيئاً قرياً من البربرية^(١) .

ويرى كثير من الباحثين أن أصل القروسية الغربية يرجع إلى العادة التي كانت متبعة في ألمانيا بإعطاء الرمح للفتى الذي أظهر الاحتيار أنه كفء لحمل السلاح^(٢) ، ويردها بعضهم كذلك إلى التقاليد الألمانية ولكن بتعطيل آخر فيقول : « كانت معظم القبائل الألمانية التي غزت أوروبا وانتشرت في شتى أنحاءها من الحاربيين ، وكان أغلبية هؤلاء الحاربيين فرساناً ، يمتطون الخيول ، وكان من الطبيعي أن يتطلع هؤلاء إلى مكافأة تتناسب مع بلائهم في الحرب . ثم تكونت على مر الأيام جماعات ينتسب بعضها للأمير ، وبعضها للملك أو الإمبراطور ، وألفت فيما بينها نظاماً خاصاً ، أو مدرسة حرية تتقن فيها تعاليم القروسية ، وأصول القتال والكر والفر ، يفسده الأحداث وإذا خلت مواهبهم دخلوا في خدمة بيل فارس أقدم منهم وأعرق في القروسية وفنونه مع خضوعهم التام له ، ولا يوجد على ما اعتقد أي أصل آخر للقروسية حرية غير هذا^(٣) .

وإذا سلمنا جدلاً أن أصل القروسية عسكري مأخوذ من عادات الألمانية وتقاليد رجال الحرب القمليين فيها ، وأنهم على مرّ لآلهم وصعوا هـ نظاماً حصاً ميز الفرسان عن سواهم ، ثم لدى وضع القروسية في كتاب

(١) - "The Germanic Races", p. 111.

(٢) - "The Germanic Races", p. 111.

(٣) - "The Germanic Races", p. 111.

(٤) - "The Germanic Races", p. 111.

تلك التقاليد السمية ؟ وأين الروح النبيلة الكامنة في نفس الفارس ، ومن يقول إن القروسية — وهي ثمرة الجمال الخالق — مأخوذة عن الألمان . إن التاريخ يرفض مثل هذا الادعاء . وكيف تسنى للألمان أن يضعوا المثل العليا للقروسية : من النمسا بالكلمة تعطى ، والسخط والأريحية ، والإخلاص ، والطاعة ، والإنسانية الكاملة ؟^(١)

« كان الألمان منذ وجدوا حتى اليوم عبيداً لفرأزم التي لم تهذب أو تصقلها الفكرة والمثل العليا والخضوع للواجب الإنساني ، فيهم أنانية ، وغلظة ، وصرامة ، وشهوة عارمة للإفساد ، إنهم يقدسون القوة الوحشية كما تظهر في الطبيعة ، أو كما تظهر على يد محارب سفك . وتدين الديانة الألمانية وتاريخ الألمان أنفسهم ، هو سجل للقتل وسفك الدماء ، وأعظم قربان يتقرب به الألماني ، ويسعد به نفسه هو سفك الدم الإنساني ، والجنة التي يطعم الجندي الألماني في دخولها هي المكان ندى تسيل فيه الدماء من غير انقطاع ، حيث يشرب المرء الخمر في جمجمة عدوه . ومث هذه الديانة لا ترتفع بالنفس الإنسانية . ولا تسهم في إسعاد البشرية وعلى رغم من عقيدتهم المسيحية فقد ظلت عبادة القوة دينهم ، والقسوة العارمة برزعتهم »^(٢)

ويؤكد (هردر) على الرغم من ألمانيته أن الفرنسيين كانوا أساتذة ناضجين في القروسية : بعد الحق السامي ، وتقاليدها المعروفة إبان القرون

(1) Wacyf Ghali. p. 9.

(2) Mignet. Mémoires de l'histoire de France et politiques. T. III, année 1811 : Comment l'Allemagne est entrée dans la Société Civilisée de l'Europe.

الوسطى^(١). وفي القرون الوسطى كان كل حق يعتمد على القوة ، وكان المثل الأعلى للمحارب هو النشاط والجلد ، فمن أين أتى للفروسية العربية إذاً هذا الخلق الذي هذب طباع الفرسان ، وجعل هدفهم الظهور بمظهر الإنسان الكامل ؟؟ .
يمنح كثير من الباحثين إلى أن الفروسية العربية قد اكتسبت ثروة نفسية وخلقية من الفتوة العربية حتى ظهرت في ثوبها القشيب الذي تفخر به . بل إن منهم من غالى فقال إن كلمة Chevalerie التي نعربها بكلمة فروسية مأخوذة من كلمة Chelval أو Cherval وهي السروال العربي الذي كان يميز الفتيان عن سواهم^(٢) . وأن أوربا لم تعرف الفروسية إلا عن العرب ، ويؤيده في رأيه هذا فريق كبير من الباحثين^(٣) ، ويعتدل فريق آخر فيرى أنها تألفت من عناصر عربية ، ومسيحية ، وألمانية معاً^(٤) .

يقول واصف باشا غالى : « لا ترجع الفروسية افرنسية إلى أصل روماني أو ألماني أو مسيحي أو عربي ، ولكنها فرنسية ، وليس معنى ذلك أنها لم تتأثر بالمدنية العربية إنها تأثرت بالتقاليد العربية فعلا في أساليب ، وفي فسطين ومصر إبان الحروب الصليبية ، ويتضح هذا التأثير بصف «فروسية افرنسية بصبغة حسنة ، ومظهر جميل ، وبدمئة ورقة ولطف لم تعده من قبل . »

(1) Herder . op. cit. p. 449.

(2) Memoire de l'Académie des Sciences, Belles - Lettres et Arts de Marseille années 1854 a 1868, p. 267; article de H. Louchet.

(3) A. J. Ducourt Recherches sur l'origine du blason.

(4) H. Louchet Les Arabes et des Maurs d'Espagne.

(5) A. J. Ducourt Le raisonnement de l'Histoire de France.

(6) H. Louchet L'Etat de l'Histoire littéraire et de littérature.

(7) H. Louchet.

البذرة فرنسية غرست في أرض فرنسية ، ولكن إذا كانت قد نمت سريعاً وظهرت قوية الاحتمال ، وأتت بأزهارها عَبيقة الشذا فضرة الألوان ، فإن ذلك بفضل شمس الشرق الساطعة ، وبفضل صَبَا نجد التي هبت عليها (١) .

ونحن لا نمارى في أن القروسية الغربية قد نبتت في أوروبا ، ولا نقالى مع الغلاة فندعى أنها عربية الأصل لحمة وسدى ، فذلك أمرٌ يخالف الواقع ، هذا إذا قصدنا بالقروسية ذلك النظام العسكرى ، الذى يتميز بالتدريب على فنون القتال ، والجلد ، واحتمال الصعاب ، ليس غير ؛ لأن مثل هذا النظام تتطلبه ظروف كثير من الأمم التي تلتحم مع سواها في كثير من ميادين القتال ، إما مُخيرة ، تتطلب الغزو والسيطرة ، وإما مدافعة عن نفسها تتطلب الحرية والعيشة الكريمة ، ولقد كانت أوروبا في القرون الوسطى في حرب دائمة بعضها مع بعض ، وكانت دويلات صغيرة لم تتوحد بعد ، وكانت كذلك بعيدة كل البعد عن المدنية وحياة الاستقرار ؛ لأن النهضة الأوربية الحديثة لم تبدأ إلا في القرن الثانى عشر بعد احتكاك أوروبا بالشرق ، وكانت أوروبا قبل ذلك لا تزال تتخبط في ديجور مطبق من الجهالة والظلم ، والقهر ؛ فلا بدع إذا حين ترى فيها هذا النظام العسكرى ، فإذا اجتمعت طائفة من الفرسان تحت إمرة رئيس كان لا بد من تنظيم العلاقة بينهم فيقسمون يمين الطاعة لرئيسهم ، والاخلاص له ، وعلى الوفاء لأخوتهم ، ورئيسهم يحترم كل وعد وعده ، ويبرم أى أمر تقوده ، ويوجههم إلى غاية واحدة (٢) .

أ. أن أوروبا الغربية قد فُدت من تقاليد الفتوة العربية فذلك أمر

(1) Wacyf Ghali, op. cit. n. 14.

(2) Lavissee et Rampaud, Histoire Générale

لا مراء فيه ولا شك ، ولقد أجمع على ذلك قرّ من خيرة الباحثين الأوربيين .
الذين لم يصمم التعصب النميم ، ويطمس على أفضلتهم الهوى المضيل ،
ومنهم من يرى أن تأثير العرب في أوربا جاء عن طريق الأندلس ، وأن
تقاليد الفروسية الغربية مأخوذة من عرب الأندلس^(١) لطول احتكاكهم
بفرسان أوربا مدة ثمانية قرون ، لم تخمد فيها نار الحرب برهة ، وقد تألب على
العرب أمم شتى من أوربا كلها ، وشهدوا صدق بلائهم في الحرب ، وكرم
قلوبهم ، وحسن معاملتهم ، ووفائهم بعهودهم ، وصارت هذه الصفات الكريمة
أمثلة علما يحتذيها فرسان الغرب ، ويتغنون بها .

وفي لغة (البروقنسال)^(٢) نجد كلمة galaubيا غلاوية المأخوذة من كلمة
(غلب) ، و (غلبة) العربية تعنى تلك الطبيعة ، والحالة النفسية والحمية التي
تحمل المرء على البحث عن المجد والشهرة ، ولا سيما في ميدان الشجاعة والفروسية ،
وتحدى كل من ينافسه في هذا الميدان حتى يغايه ، و galaubيا مرادفة للشجاع
والجرىء والفارس ، والمغلب في العربية المطلوب مراراً والمحكوم له بالثغبة
(ضد) ، ومن الفعل غلب يأتي اسم الفاعل غالب ، وغالب : لقب لسيدنا على
ابن أبي طالب ، وهو موجود في ديوانه ، وإن كان هذا الديوان كما يقرر تروحه
التركي (مستقيم زاده) من شعر الشريف المرتضى المتوفى سنة ٤٦٣ هـ ١٠٥٤ م
وقد ورد في قطعة من الديوان ص ١١٤ طبعة مصر سنة ١٢٢٥ .

هذا لكم من الغلام الغائب من ضرب صدق وقض . فوجب
وفاق المهامات والمذكب . نحى ، ثم اكتتب

^(١) Courtonne . Histoire de la poésie Provençale . t. III. p. 312.

^(٢) البروقنسال : إحدى مقاطعات فرنسا الجنوبية اشتهت على بحر المتوسط .

ومن أسماء على الفتى تبعاً لما أثر عن رسول الله أنه قال بعد غزوة أحد: « لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا علي »^(١). وقد علمت فيما تقدم منزلة سيدنا علي في سلسلة فتیان الناصر لدين الله^(٢) وقد كانت فتوة الناصر كما مرّ بك مصحوبة بشرب كأس الفتوة ، وقد أخذ الغرييون هذا ، و تراهم يشربون كأس القديس graal و يظن بعض الباحثين أن graal محرقة من الكأس بتأخير آل ، أو من (الجرعة) بتأخير آل^(٣).

إن أصول الفروسية العربية سواء الدينية التي ظهرت في العيد الكنسي أو الحديثة التي ظهرت بعد ذلك مأخوذة عن عرب الأندلس ، فقد كان للمرابطين نفس النظام الديني الذي نقله عنهم فرسان أوروبا. أما الفروسية الحديثة فرجعها كذلك إلى العرب ؛ إذ كان المرابطون يقومون بتدريبات عسكرية ورياضية عنيفة ، وكانوا يختارون من الجنود الأشداء الذين لهم صبر على احتمال المشاق ، ولم يكن يسمح لهم بالقرار ويموتون في الميدان من غير أن يولوا الأدبار^(٤) وكانت الصلات التجارية والعلاقات السياسية ، والحرب المتصلة ، والمعاهدات الكثيرة من الوسائل التي احتك فيها الغرب بالشرق منذ وطئت أقدام العرب أسبانيا في القرن السابع الميلادي ، وكانت معاهدات السلام التي

(١) Fauriel في كتابه المقدم ص ٣٢٦ ونقله عنه هامر بروجستال في عدد يناير ١٨٤٩

Hammar — Purgstall. op, cit. Journal Asiatique.

وراجع كذلك في هذا لمصوع :

Dictionnaire de la langue des troubadours par Raynmarc
t. 3. p. 418.

١٠ راجع ص ٢٤٠ من هذا الكتاب وما بعدها .

(3) Hammar — Purgstall op, cit.

(4) Fauriel, op, cit p. 321 — 326. et uo7١ F ٢٢٢.1
Musulman d'Espagne (introduction).

تعقد بين الفرنسيين والمسلمين وسيلة لأن يتعرف كلٌّ ما عند الآخر من مزايا خلقية ، وقد أدرك الفرنسيون شيئاً عن الإسلام وعرفوا أن المسلمين أكثر منهم مدنية . فلا عجب إذا أخذوا عنهم كثيراً وأفدوا منهم^(١) ، ولا سيما التهذيب الخلقى ، وتقاليد القروسية التي شكوا أنها حسب مزاجهم ، ويزيد هذا تأكيداً أن مقاطعات فرنسية عديدة ظلت تحت الحكم العربي رَدْحاً غير قصير من الزمن^(٢) ، ولا أدل على هذا التأثير من أنه لا تزال ثمة آثار تلك المدنية العربية في الزراعة والصناعة ، والتقاليد الخلقية ، وناغة — وبخاصة الكليات المتصلة بالقروسية ، بل وبعض التدريبات الرياضية — وفي الخيل والتفكير^(٣) .

ويقول Fauriel إن هذا الخلق العربي ، خلق القروسية وتثيرهم في أود؛ هو أحسن وأجل وأظهر شيء في أخلاقهم وفي نظمهم ، ولقد أثر أثر كبير في أخلاق أهل الجنوب والوسط من فرنسا ، حيث أنهم في خلال القرن العاشر عشر لم يروا في العرب الذين كانوا يعدونهم أول الأمر أعداء مسيحية ، لا قوم أكثر منهم مدنية . وكان من الضيعى جداً أن الناس ، وعلى الأقل طبقة ذات التأثير فيهم ، والتي بيدها قيادة المجتمع ، تمسك في أخلاقهم . وتأخذ عنهم أنظمتهم التي ترى فيها فائدة لهم مع تعديل ضروري يلائم حالهم .

لقد كان تأثير عرب أسبانيا على مدنية قروسية ولاسيما مدنية حتى اسمهم (مدنية القروسية) تأثيراً مباشراً ووضوحاً في نصوص . ومن مستحيل ألا

1. Fauriel, op. cit. p. 346.

2. Fauriel, op. cit. p. 346.

3. Fauriel, op. cit. p. 346.

تصل بوسيلة أو أخرى إلى الأدب الفرنسي (١) .

« وقد استعار سكان أوروبا من العرب مع قوانين الفروسية احترام المرأة وليست المسيحية على الرغم من أن الكل يعتنقها هي التي رفعت شأن المرأة ولكنه الإسلام (٢) » .

« كانت عزوات العرب الأولى لأسبانيا وفرنسا محوطة بالعظمة والأبهة ، لا يمكن أن يقرأ المرء إلا وتعروه الدهشة والحيرة ، وكان العرب يمتازون عن سواهم من الفزاة (كالنورمانديين والمجريين) بأنهم أمة بقيت على رأس المدنية مدة طويلة ، وأهم بعد حلاصهم عن فرنسا ظلت ترتعد من احتمال غاراتهم أمداً غير يسير ، ثم إن الحروب العظيمة التي تولوا كبرها ، سواء في الأندلس أو في أفريقية أو في آسيا في وجه الصليبيين ، قد أضافت إلى اسمهم لمعانا جديداً فوق اللعان الذي كان من قبل ، بيد أن كل هذا لم يكن كافياً لتفسير مكانة العرب العظيمة في الصدور لولا قصص الفرسان والفروسية التي كان يتغنى بها أهل فرنسا ومن جاورها خلقاً عن سلف ؛ فقد كانت هذه القصص الأسرار الوحيدة للأمراء والبلاء ، بر والشعب . وكان يعجب بتلك القصص وهتيك الأخبار من سير الأبطال كل من كان يدعى نفساً عالية ، وحساً نبهياً . وقد تضاعف كل تاريخ حاشي ، وهزل كل أدب سواها . وكان أكثرها شعراً ونفاً الشعر روة حصوا ، ويذهبون من بلدة إلى أخرى فينشدونهم ، حتى تترنح لهم أعظمهم . وكان لا يحتفل بعيد ولا موسم إلا بالدفع

(1) Fauriel. op, cit t III. 455.

(2) Florian, dans son livre Histoire du ...
G. Le Bon, Civilisation des Arabes. . 422.

أولئك الرواة في إنشاء تلك القصائد عن سير أبطال الوطن ، وكانت هذه السير تدور حول حروب المسلمين ، وعلى ما جالده صناديد الفرنسيين في دفع غاراتهم ولما كان في هذه القصص ، وتلك القصائد من المبالغة ما هو طابع كل القصص الذين يترنمون بوقائع تلك الأبطال ، كانت الواقعة الواحدة تتجسم وتنمو وتصبح أضعاف ما هي ، تحسيا لفضل أولئك الذين أبلوا في تلك الوقائع ؛ حتى صار في تاريخ كل مدينة وكل بلدة في فرنسا وإيطاليا أمير عربي ، أو بطل عربي يبارزه أمير فرنسي ، وبعد أن يشتد البراز ، ويطول العراك ، وتظهر فيه خوارق الأقدار ينتهي الأمر بالبداهة بتغلب البطل الفرنسي على البطل العربي .

« وعلى العموم فقد كان العرب لذلك العهد ، هم الأمثلة العليا ، ولأقبة البعيدة ، في الشجاعة والشهامة ، وعزة النفس ، ومكارم الأخلاق ، والنفوس المقدرة ، وقرى الضيف ، تشهد بذلك وقائع ونوادير كثيرة ، منها ما رواه بعض مؤرخي الأسبان من أنه في سنة ٨٩٠ أراد ملك أشتورية (أذفونس الكبير) أن ينتدب مؤدباً لابنه وولى عهده فاستدعى اثنين من مسامي قرطبة حرصاً على تهذيبه ، إذ لم يجد في المسيحيين حينذاك من هو كفء لهذه مهمة^(١) .

وما عليك إلا أن تلتقي نظرة عاجلة على الروايات والقصص التي تروى حبر الفرسان في الغرب لتعلم مدى تأثير التقاليد العربية لا في فرنسا وحدها ولكن في العالم المسيحي كله . إنا نعلم جميعاً أن هذه الروايات هي المصدر الوحيد الذي تُدرس فيه عادات السلاء ، بل وعامة الشعب ، وأنها وضعت قوانين واضحة للحروب ، ومثلاً علياً يحثونها الفرنسيون ، وأنهم كانت دروساً في النبوة ، حسن

(١) J. Bouchard. Invasion des Sarrasins en France en Savoie... etc p 311.

وترجمة الأمير شكيب أرسلان (تاريخ مزوات العرب) ص ٢٤٢ .

المعاملة ، وطرق الحياة ، وقد أتى في الفصل العشرين من رواية ترپان (Turpin) التي سبقت كل روايات الفروسية أن شرلمان قد تلقى الأمر بالفروسية ، وتشرب تعاليمها من الأمير العربي الذي كان يحكم (كولينو) في مقاطعة (بروفانس)^(١) ؛ وقد تآق (برنارد دي كاربيو) Bernard de Carpio أقدم فرسان الأسبان ، وأعظمهم صيتاً فنون الحرب على يد العرب حين التحق بجيوشهم محارباً في صفوفهم ، ولم يتميز ويشتهر إلا بعد أن حلق الفروسية ثمة ، وقد أفصحت رواية Le Cid عن تلك التقاليد العربية البيلة منذ القرن الثاني عشر^(٢) .

وقد حرص شعراء المسيحية على إذكاء الحماسة في قلوب مواطنيهم بوصفهم أخلاق أعدائهم العرب ، وتمجيد أعمالهم وكرمهم ، ووضعهم مثلاً عليا تحتذى ، حتى يجد هؤلاء في تقليدكم ، ويسيروا على نمطهم . وقد ضرب العرب كل مثل شريف لهؤلاء المسيحيين سواء في الشجاعة أو الكرم ، وحسن المعاملة في أى مكان حلوا به وفي أى زمان كانوا فيه . هاك الوالى عبد الملك (٧٥٥ م) يقذف ابنه وفلة كبدته بالرمح فينفذ من صدره لأنه رآه يولى الأدبار أمام قوة أعظم من قوته^(٣) ، وهاك عبد الرحمن الثالث يكرم عدوه اللدود (سناس أمير ليون) حين طلب منه أن يأتى إلى قرطبة ليسنشير الأطباء العرب في سنة ٩٦٠ م . فيؤمنه ، ويقدم له الهدايا وي زيد في إكرامه ، حتى يبرأ من مرضه ، وأين هذا مما فعله ملك

(1) Wacyf Chali, op, cit. p. 17. ٢٤٣ تاريخ غزوات العرب من

(2) Sismondi: De la Littérature du midi de la France. t. 7. ١٧٧١

(3) Viardot : Histoire des Arabes et de l'Espagne. t. 1. ١٨٤٥

t. II. pp. 118, 196, 278.

قتلته بدير القامى فى سنة ١٣٦٠ م حين دعا أمير غرناطة أبا سعيد إلى قصره فلبى
دعوته ، ولما رأى بيده خاتماً ثميناً راقه ، حسده ثم قتله ليستولى على الخاتم .^(١)
وهاك مثلاً آخر يدل على النبل والكرم ، وعدم التعرض للضعفاء والنساء
بأذى ، فقد ذهب ألفونس الثامن ملك قشتالة لمحاصرة (أورينغة) العربية فرأى
أمير قرطبة أن يرسل إلى المدينة المحاصرة مدداً ، بيد أن قائد هذا المدد لم يشأ أن
يشتبك فى قتال خارج المدينة يكون جيشه فيه الأقل عدداً وعدداً أمام عدو كبير
قوى العدد ، ورأى أن يحتال لإبعاد جيش العدو عن المدينة بمهاجمة (طليطلة)
حيث كانت تقيم ملكة قشتالة ، فلعل زوجها إذا سمع بذلك يترك (أورينغة) .
وأخذ القائد العربى فى مهاجمة طليطلة وحصارها ، ورأت الملكة — وقد عصرها
الهم والحزن — ألا ملجأ لها إلا أن تخلق العربى النبل تستمد منه النصر ، فرست
إلى القائد العربى تقول : إبنى امرأة ، وليس من شيم الفرسان قتال النساء ، فإذا
أردت قتالاً فعليك زوحي فإنه ينتظرك على أبواب (أورينغة) ، فبزت هذه الكلمات
مشاعر القائد العربى . وطاب أن يحيطها قبل أن يبرح مكته ، فصعدت إلى أسوار
المدينة — وكلها ثقة بشرف وعده ، طامة أنه لن يسبها ذىً — لحيةها جيش
العربى كله فى الوقت الذى دخل فيه زوجها مدينة (أورينغة) العربية واستولى عيها^(٢) .
فأى مثل فى الكرم والتضحية ، وحسن المعاملة ، والنخوة ، ضرب به هذا القائد العربى
المسيحيين فى عصره ، وبعد عصره ! ؟ .

(١) *La Civilisation des Arabes*: P. 387.

(٢) *La Civilisation des Arabes*: P. 387.

واستمع إلى مثل آخر من تلك الأمثلة السادرة في التاريخ ، وذلك حين تخلى الشعب عن ألفونس الحكيم في سنة ١٢٨٠ م ، فطلب المساعدة من ملك المغرب العربي يعقوب بن توفيق ، فاجب صريحه ، وعبر المضيق ، وقابل ألفونس في (زارا) ، وحين رآه هذا أراد أن يتخلى له عن كرسيه احتراماً له وإجلالاً ومهابة ، بيد أن يعقوب أحابه : إبق حيث أنت ، فما جئت إلا لمساعدتك في محنتك ، وحين أقوم بهذا الواجب ، وتصير سعيداً منتصراً ، وتستعيد قوتك سأنازعك هذا العرش ، وأصير عدوك^(١) ، فهل ثمة قلب أسخى من هذا القلب وأسمع !

ولم يكن تأثير عرب المشرق إبان الحروب الصليبية على أخلاق فرسان أوروبا أقل من عرب الأندلس والمغرب ، ففي أى مكان تلاقى فيه العرب مع الغربيين أظهروا تفوقهم الخلقى ، وأهم أكثر مدنية ، وأعلى كعباً في الحضارة من أعدائهم ، فبهروهم بهذه المثل الطيبة ، وحاولوا جهدهم أن يقتدوا بهم ، وفي ذلك يقول مؤرخ غربي مصنف : « إن زيادة اختلاط المسيحيين بالمسلمين ، وتقدير الصليبيين لفضائل خصومهم قدبراً أخذ ينمو على مر الزمن — وهى طهيرة تميز المتأخرين من مؤرخى الحرب الصليبية عن السابقين مهم تمييزاً واضحاً حياً — ثم ما كان من كثرة تقليد الفرحة المقيمى فى الأراضى المقدسة للشرقيين فى عاداتهم ، وأساليب حياتهم ، لم يحقق ذلك كله فى أن يؤثر فى أفكار هؤلاء الصليبيين وأحلافهم ، ومن أظهر ألوان هذا التأثير ، ذلك المسلك

(1) Florian Précis Historique sur les Maures , 57

السبح الذي سلكه كثير من الفرسان المسيحيين نحو العقيدة الإسلامية ، وهو اتجاه فكري كان أشد ما تشكوه منه الكنيسة (١) . وما يظهر القرو بين أخلاق الصليبيين قبل أن يختلطوا بالمسلمين ، ويأخذوا عنهم التقاليد النبيلة ، والمعاملة الرقيقة . وأخلاقهم بعد اختلاطهم بهم ما رواه أسامة بن منقذ في كتابه الاعتبار ، من أنه كان له أصدقاء من فرسان المعبد بيت المقدس ، فإذا زار بيت المقدس خصصوا له زاوية صغيرة بالمسجد الذي كانوا يحتلونه ، وتصدف له ذهب مرة ، ودخل المسجد للصلاة فهجم عليه أحد الفرنجة يريد أن يحوله عن الصلاة ، فادر إليه بعض فرسان المعبد The Knights Templar ، وأخذوه وأحرقوه عنوة ، واستأنف أسامة صلاته ، فاعتقلهم هذا "صليبي المتعصب" ، وهجم ثانية على أسامة ورد وجهه إلى "التروقاتلانية" : كذ صل " معاد فرسان المعبد إنه ، واعتذروا لأسامة ، وقتلوه : « هذ غريب وصل من بلاد الإفرنج في هذه الأيام (٢) » .

ولا أدل على أن هؤلاء الصليبيين قد تهذبوا على يد العرب من قول أحد مؤرخيهم : لقد هذب العربُ - سواء في التحرة أو لخروب - من لأخلاق الحسنه التي كان يتصف بها رؤساؤنا كما هذبوا من عادتهم الفسقه . فما لعربنا فقد تعلموا - من غير أن يفقدوا صحبتهم - مشاعر رقيقة وأخلاقاً حسنة الإنسانيه ، ومن شكوك فيه أن المسيحيين وحدهم : - ضمنكم كانت تستطيع أن تنهضهم هذه لأخلاق ، (٢) .

Europe 23d

[illegible]

لقد تعلم فرسان الصليبيين من احتكاكهم بالعرب في المعاملات وفي ميادين القتال كيف يهذبون من طباعهم الحرية الجافة ، وكيف يكونون ظرفاء كرماء أوفياء بالوعود ؛ لقد لانت طباعهم ، وصقلت خشوتهم لما رأوه من كمال أعدائهم ومعاملتهم الحسنة على الرغم من شجاعتهم . لقد اضطروا إلى ذلك اضطراراً في كثير من الأحيان ؛ لأنهم كانوا مرغبين على مقابلة الإحسان بمثله ، وعلى الوفاء بالوعد كما يفي أعداؤهم بوعودهم ، وعلى المحافظة على مواعيدهم ، وعلى السخاء كما يسخو العرب ، وعلى احترام المرأة كما يحترمونها^(١) .

ويؤكد بعض الباحثين أن القروسية العربية حسماً وروحاً قد تقاتلها أوربا عن العرب سواء في الحروب الصليبية أو في المغرب . كان صلاح الدين معاصراً للخليفة الناصر وكان معاصراً (ليرتشارد) قلب الأسد ملك إنجلترا والملك (فيليب أوجست) ، وهذا العصر هو أزهى عصور القروسية المسيحية ، وقد تأسس في ذلك الوقت نظام (فرسان المعبد) بعد أخذ بيت المقدس^(٢) وهو أحسن نول القروسية العربية .

ويظهر أن أخلاق صلاح الدين وحياته وما انطوت عليه من بطولة فائقة قد أحدثت في أذهان المسيحيين في عصره تأثيراً سحرياً خاصاً ، حتى إن نفراً من لمرسان المسيحيين قد بلغ من قوة إعجابهم به ، وابعادهم إليه أن هجرو ديارهم مسيحياً ، وهجرو قومهم ، وانصموا إلى المسلمين وقد طرح البصراية من سري من فرسان المعبد يدعى روبرت نوف سات ألباس

(1) Wacyf Gnalz, op . . n 22 Page ٢٠٠

(2) Hommer Purgstall ١٨١٢

Robert of st, Alpans في سنة ١١٨٥ ، واعتنق الإسلام ، وتزوج بإحدى
 حفيدات صلاح الدين^(١) . وبعد عامين غزا صلاح الدين فلسطين وهزم الجيش
 المسيحي هزيمة مكررة في واقعة حطين ، وكان جوي Guy ملك بيت المقدس
 ضمن الأسرى ، وحدث في مساء المعركة أن ترك الملك ستة من فرسانه يهرون
 إلى معسكر صلاح الدين حيث أسلموا بمحض إرادتهم^(٢) .

وكيف لا يعجب هؤلاء الصليبيون بصلاح الدين ، وقد كان سيلاً في كل تصرفاته مع أعدائه ؛ فها هو ذا ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا يصاب في المعركة أمام صلاح الدين فيسرع إليه صلاح الدين ويداويه بنفسه ، ولم يزل يعى به حتى يشفى من مرضه ثم يطلق سراحه (٣) .

وحينما فتح صلاح الدين بيت المقدس منح أهلها جميعاً الحرية ومداينهم
يد المساعدة بالأموال . ولما رأى نور الدين ريتشارد قلب الأسد في معركة ياقا
يحارب على قدميه ، لأن حصانه قتل في الميدان ، أرسل إليه حوادين كريتيين
قائلاً : إنه لا يليق بحمدى تتجاعع ناسل مثله أن يحارب راحلاً (٤) .

وهاك نور الدين يضرب مثلاً آخر في الببل والشجاعة الفتحة في ١٦٣ هـ حين مات (بودوا) فلم يث أن يستعمل وفاته في مهجة عسقلان ، وقول : إيه عمل غير إيساى ن ترعج قوماً محروبين على أميرهم . ومن شريف من حرى

Printed by William
Stubbs.

(۳) محمد ن. سیکری
at the fall of the

أن أهاجم على قوم غير مستعدين للدفاع (١) .

ويمثل لنا تاريخ الحروب الصليبية الثانية حادثة على جانب عظيم من الأهمية قصتها (أودو الدويلي) أحد رهبان القديس دينيس Denis ، وكان في صحبة لويس السابع ، في حلال هذه الحرب ، وكتب في وصفها ما نصه : « بينا كان الصليبيون يحاولون شق طريقهم براً عن طريق آسيا الصغرى إلى بيت المقدس ، مواء بهزيمة منكرة على أيدي الأتراك المسلمين في ممرات (فريخيا) الجبلية سنة ١١٢٨ م ، ولم يبلغوا مدينة (آتاليا) الساحلية إلا بشق الأنفس ، وقد حش الذين استطاعوا أن يرضوا المطالب الفادحة التي كان يفرضها عليهم تآمر الإغريق ، في الإبحار إلى أنطاكية ، وتختلف المرضى والجرحى وعامة الحجاج تحت رحمة الخونة من حفاشهم الإغريق ، الذين أخذوا مبلغ خمسمائة (مارك) من لويس على شريطة أن يمدوا الحجاج بقوة من الحرس ، وأن ينعنوا بالمرضى حتى يصبحوا من القوة بحيث يستطيعون اللحاق بزملائهم ، بيد أن الجيش لم يكدر يغادر المكان ، حتى وشى الإغريق بهؤلاء الحجاج العزل إلى الأتراك ، وأخذوا يرقبون في صمت ما يعاين هؤلاء التعسفين من المجاعة والمرض ، والجراح الدامية . ولما حاولت جماعة من الحجاج تبلغ ثلاثة آلاف أو أربعة أن تلود بالفرار حين شاهدوا الأتراك قادمين . هجم عليهم الترك فتبعوا انتصرتهم ، ولكم رأوهم في حالة من الشقاء تذيب القلوب وتستدر عطش . فكفر عن هجومهم ، وطفقوا يواسون المرضى ، وينغيتون الفقير ، ويشربون جوع شدي أشرف على الهلاك ، وبذلوا لهم جميعاً العطايا في كرم

(1) Marin, Histoire de Saladin Sultan d'Egypte . . .
t. I. pp. 78 et 95

وسخاء . بل لقد اشترى بعضهم النقود الفرنسية التي كان الأغريق قد ابتزوها من الحجاج قسراً أو خداعاً ، ووزعوها بأريحية وجود على المعوزين منهم ، فكان اليون شاسعاً بين العاملة الرحيمة التي لقيها الحجاج من الكفار (أى المسلمين) وبين ما عانوه من قسوة إخوانهم في المسيحية من الأغريق الذين فرضوا عليهم السخرة ، وأذاقوهم العذاب ألواناً ، وابتزوا منهم ما ترك لهم من متاع قليل ، حتى إن كثيراً من هؤلاء التعسفين دخلوا في دين مقتديهم . تحصى إرادتهم . لقد جئوا إخوانهم في الدين الذين كانوا قساةً عليهم ، ووجدوا الأمان بين أحضان الكفار الذين كانوا رحماء بهم ، ولقد بلغنا أن ما يربو على ثلاثة آلاف قد انضموا بعد أن تهنقروا إلى صفوف الأتراك . آه ! لها لرحمة أفسى من القدر ! لقد منحوهم الخبز ، ولكنهم سلبوهم عقيدتهم ، وإن كان من المؤكد أنهم لم يكرهوا أحداً منهم على بيذ ديه ، و'كتفوا' لنا قدموه لهم من خدمات^(١) .

وإذا لم يكن صلاح الدين عربياً ، وإذا لم يكن لأترك عرباً ، فإنهم جميعاً مسلمون ، قد اهتموا بهدى هذا لدين الحنيف الذي أتى صاحبه لينمى مكارم الأخلاق العربية التي ست في الصحراء عبقة الشذا ، وفتح أريجها في كل حد حـ فيه العرب والمسلمون .

وما يروع أن يكون هذا مسك لأتراك مسلمين ، ومسيح صلاح دين وور لدين ، وسوهم من قود مسلمين مع لأتراك مسعدة . يبرى راسد قلب الأسد يذبح سرى مسلمين من وئعو

على الرغم من المعاهدة التي نصَّ فيها على منحهم الحرية والحياة^(١) ، فأى بون شاسع بين هذه الأخلاق الفظة ، والمعاملة الوحشية ، والتمصب الذميم الذى يظهره المسيحيون دائماً ، وبين تلك الأخلاق النبيلة ، والفتوة الكاملة التى يظهرها المسلمون^(٢) . لقد ارتكب ريتشارد فى معركة عكا إثمين عظيمين : قتله الأسرى الضعفاء الذين لا يملكون حولاً ولا قوة ، وقضه العهد ، وغدره وخيائته .

استمع إلى المقرئ يصف معاملة سلاطين الممالك لأسرى الصليبيين والمغول : وإذا انتهت الموقعة الحربية ووضعت الحرب أوزارها أحصيت الفنائم والأسرى ، وكان كل أمير يستولى على غنيمة ، عدا الأسلحة فإنها كانت كلها شول إلى السلطان ، وليس للجنود أو لقوادهم أن يأخذوا شيئاً منها إلا بإذنه . أما الأسرى فكانوا من نصيب السلطان ، الذى كان يأخذ منهم ما شاء لنفسه ، ويأمر بتوزيع ما بقى من النساء والغلمان على الأمراء . أما الرجال ، فقد كان السلطان لا يتصرف فى أمرهم بشيء إلا بعد معرفة أقدارهم ومراتبهم ، ومكانتهم بين ذويهم ، فمن كان منهم ذا مقام خاص طلبت منه الفدية ، وأُخلى سبيله . " من كان منهم من العامة ولا ينتظر منه فدية ، فكان يرسل إلى "مكنة خاصة بالأسرى"^(٣) .

حقاً إن عظمة الفتوة العربية ، و لأخلاق الإسلامية تتجلى فى تلك المعارك الدامية التى دوت قديماً بين العرب المتعصب والإسلام السمح ، وفى ذلك

(١) Marin : Histoire de Saladin, Sultan d'Egypte . . .
t. II p 306 et 307 — Stanle — London — Poul Sal
tali of the Kingdom of Jerusalem, . . . ١٢٦٠ .

١٢٦٠ . . . ١٢٦٠ م ١٢٦٠ م ١٢٦٠ م ١٢٦٠ م .

يقول (ستانلى لين بول) : « لقد أجمع الذين كتبوا عن الحروب الصليبية على أن فضائل المدنية : العظمة ، والسماحة ، والعفو ، والفروسية الحقيقية ، والتهديب اللّث ، كانت كلها فى جانب العرب والمسلمين إبان هذا القتال المرير ^(١) » .

ومن كل ما تقدم نستطيع أن نجمل تاريخ الفروسية العربية فيما يأتى : —

١ — لم تظهر الفروسية العربية متحيزة بالشرف والمُثل الخلقية *Culte de l'honneur* إلا فى القرون الوسطى ، وهى قديمة لدى العرب قدم تاريخهم .

٢ — كانت فى طبقة خاصة من الناس هم النبلاء ، وأمراء الإقطاع وفرسانهم ، وكانت صفة عامة للعرب جميعاً الذين لا يعرفون نظام الطبقات ولا يقروه .

٣ — ابتدأت أول الأمر للحماية من وحشية محترفى الحرب ، ثم تحدث فيها الكنيسة ، ثم اقلبت على الكيب .

٤ — أخذ فرسان العرب عن العرب كلّ تقاليد الفروسية حقيقه من شجاعة وكرم ، وسماحة ، وعفو عند المقدرة ، واحترام للمرأة ، ووفاء بالعهود . وحماية للضعفاء ، وإن لم يصلوا إلى ما وصل إليه العرب . لأن هذه الصفات كانت طبيعیه لدى العرب ، متأصلة فى لاوسمهم ، وحررت سيدهم . وورثوه عن آبائهم ، وحث على ذلك . فتميزت عوامهم عن تكبير فى قلوبهم وضبابهم ، فلا يتكبرون ويستعبدون لأنهم فى بعض النواحي انعكس من ذلك درس العرب الكبير ، عندنا ، وصلى عليهم

تصميمهم ، وإن أقادوا كثيراً من الدماء ورقة الجانب وكثيراً من سمات الفتوة العربية بعد أن اختلطوا بهم .

• — ظهر نظام القروسية في أوروبا أولاً مصبوغاً بصبغة عسكرية بحثة ، من غير أن يسم بصفات خلقية شريفة ، ثم تحلى بالأخلاق الذريفة بعد ذلك ، ولدى العرب ظهرت الفتوة الخلقية أولاً ولم يظهر نظام الفتوة إلا متأخراً على عهد الناصر لدين الله ، حين رأى العرب أنفسهم في حاجة إلى قوة ونظام يحفظان عليهم أخلاقهم .

وخير ما أختتم به هذه الفقرة هو قول (ليميتز) J. Lemaitre : « من العجب أن الشعر العربي في أثناء الحروب الصليبية كان له تأثير خفي لست أدري كمه في صوغ المثال الأخلاقية لفرسان فرنسا »^(١) .

وقول (شاتو بريان) : « تميز عهد القروسية في الغرب بوجود النظام الإقطاعي ، وطغيان الإمبراطور وحاشيته ، وظلمهم للناس . أما العرب فلم يكن لديهم نظام إقطاعي ، بل كان العربي الذي يعيش في الصحراء ، ويقوم في خبائه — مهم كان فقيراً معدماً — يتمتع بكامل الحرية ، وله من جميع الناس كل التقدير ، وهو شجاع ، حر ، كله نشاط وحيوية ، لا يعرف له سيداً غير الله »^(٢) .

ولا يسعى أن ينتقل إلى نقطة أخرى من البحث قبل أن أثير إشارة سيرة في تأثير العرب على فرسان أوروبا من حيث احترام المرأة ، والحب ،

(1) Wacvi Ghah p. 1.

(2) Crateaubriand. Analyse raisonnée de l'Histoire de France (Étude de la Chevalerie etc.) 782

والشعر : ظهر فرسان أوروبا في أواخر عهد القروسية الغربية بمظهر الاحترام للمرأة ، لا لتلك صاحبة المقام الممتاز في المجتمع فحسب ولكن لجنس النساء بعامة .
مهما كانت منزلتها الاجتماعية ، وورقت طباعهم الحربية ، وخشوتهم التي اشتهروا بها في القرون الوسطى ، وصاروا أدمث خلقا ، وألطف معاملة ، وأرق حاشية ، وكان هذا كله من أثر الفتوة العربية التي أفادوا منها كثيرا .

اشتهر العرب من قديم بعاطفتهم المشبوبة ، وحبهم القوي ، واحترامهم للمرأة ، حتى في الجاهلية ، ولما جاء الإسلام رفع من شأنها ، وأعطاهم حقوقا ، وسأوى بينها وبين الرجل في الواجبات والتكاليف ، وكانت المرأة هي النعمة للشعراء ، تغسوا بمحاسنها وذكرياتها في أوائل قصائدهم ، بل نظموا في حبها أقوى الشعر العاطفي وأرقه في كل الآداب . واشتهر من بينهم من يهوى هوى عذريا شريفا ، يرقى بالإنسانية إلى منزلة التجرد من المادة ، إلى مرتبة الملائكة . وهذه حقائق موجزة لا تحتاج مني إلى تقرير أو تفصيل ، وخير لنا أن ستمع إلى الباحثين الغربيين يدلون بشهادتهم في هذا الموضوع : يقول (هوربان)^(١) :
« هؤلاء المسلمون أرق الناس حبا ، وأكثرهم خشوعا ، وأشداهم عاطفة . وإذا أحب أحدكم امرأة — وإن حبها حتى تصير أميرة بيته — أصحت حاكمة منطق السيادة ، ومعودة لا تسارع لهذا الذي ملكته قلبه . من أجل انه يسعى العرب وراء المجد ، ولكنهم يستطيعوا أن يسيروا في سبيل الثراء حتى يقدموا لمن أغلى ما يملكون من مال ، وحياة » .

ويقول (سيسموندى) في أوثر الثرى : تسع عشر : ترى أنه

(1) F. H. B. P. L. - Histoire de la Maures.

المسلمين مقدمات في أعينهم . وليس الحجاب لمن سجننا كما يزعم الناس ، وإنما هيكلًا يُعبدون فيه ، ولا يسمح المسلم أن ينقص زوجته أى شأن من شئون الحياة ، أو ألم من الآلام ، بل إنه — لرجولته الكاملة — يتحمل كل شيء وحده ، ولا يكلفها عملاً ، والشعر الذى يفصح به عن حبه وعبادته لها هو الذى نجده فى شعر القروسية الغربية»^(١) ، يقول هذا وقد بلغت المرأة الغربية فى الحضارة ، ورفعة المنزلة فى اجتماع شأناً كبيراً ، فإياك بكتاب القرون الوسطى ؟ .

تميز عهد القروسية الغربية دون سواء بالحب الذى يختلف اختلافاً جوهرياً عما كان عليه الأسر فى روما أو بلاد الإغريق ، فقد تحول الحب الساذج الخشن إلى احترام عميق للمرأة ، والبعد عن المادة ، وخلصت المشاعر الساذجة مكانها إلى نوع من التقديس الصوفى . كان المبدأ لدى الفرسان أن يحبوا ، وكان الحب فى نظرهم فضيلة ، بل منبع كل الفضائل ، ولهذا صار جميع الفرسان فضلاء . لأنهم يحبون ، أو يتظاهرون بأنهم يحبون ، وصار الحب نظاماً تعليمياً وعرف حب بأنه أصل كل نشاط ، وكل فضيلة خلقية ، وكل مجد .

صارت محاسن الحب فى القرون الوسطى عقيدة لا تنازع ، وارتفع شأن الحب حتى أصبح مذهباً اجتماعياً ، له قانونه ، ومحاكمه ، وكهنته ، والمستشهدون فى سبيله .

ولا أدل على تثرثر - ن أوربا — ولا سيما فرنسا ووسط فرنسا وجنوبها — عمة عربية من شيوع ضهرة غريبة تميزت بها القروسية الغربية و

(1) Sismondi, op. cit. p. 96.

طورها الأخير ، أى بعد عن أن اشتد اختلاط هؤلاء الفرسان بالعرب إبان الحروب الصليبية وفي أسبانيا ، وفي وسط فرنسا وجنوبها ، تلك الظاهرة هي اقتران الشعر بالفروسية . فمذ صار الحب مذهباً أصبح قرض الشعر من الأمور الضرورية التي يجب أن يكمل بها الفارس نفسه ، بل أصبح شرطاً من شروط الفروسية . وصار لازماً على كل الفرسان صغاراً وكباراً أن يقولوا الشعر ، ومن لم يستطع أن يقرض الشعر بنفسه ، ليتغنى بحبه ، ويفصح عن لواعج قلبه ، أنشد شعراً سواه (١) .

وهذه الظاهرة ولا ريب لم تشع بينهم إلا لتأثرهم البالغ بتقاليد الفروسية العربية ، فقلما تجد فارساً عربياً ، ولا سيما في العصر الجاهلي ، لا يقول الشعر ، ولا يتغنى بحبه ، ويرتل آيات وجده . كان جُلُّ شعراء العرب الفرسان محبين ، ينقثون في قصائدهم لواعج أفئدتهم ، وبارحهم ، لحقيق أو متخيل على الأقل . فالغزل إما أن يصدر منهم عن عاطفة صادقة تنبئ عن قلب دلسه الوجد والعشق كما نرى عند عنتره ، وإما أن يكون عن تظاهر بهم حب دون أن يكمن وراءه صدى في العاطفة . وكذلك كان كل شعراء (التروادور) محبين أو تظاهروا بالحب ، وكانوا يخشون قصور موت ولأمرهم كما فعل العرب من قبل ؛ إذ توجهوا بتصائدهم إلى الحنفاء ولأمرهم . ويقول الأستاذ حب (٢) :

« في نهاية القرن الحادى عشر ظهر في جنوب فرنسا على حين غرة عرب

(١) I. I. . 529.

(٢) H. K. (I. I. . 529).

نظر ترجمته العربية ص ١٠٧ و ١٠٨.

جديد من الشعر ، صناعاته جديدة ، وله موضوع جديد ، ونفسية اجتماعية جديدة وليس في الأدب الفرنسي القديم إلا شيء قليل مما يمكن اعتباره مهداً لهذا التطور ، على أننا نرى من جهة أخرى أن في هذا الشعر الفرنسي الجديد بعض وجوه شبه قوية بينه وبين نوع خاص من الشعر الذي كان معاصراً له في إسبانية العربية ، وهل هناك أقرب إلى العقل والبديهة من أن نظن أن الشعراء الأقدمين في إقليم (بروفانس) كانوا متأثرين بالتماذج العربية .

« وليست جدة الشعر البروفانسي آتية من ناحية موضوعه فحسب ، ولكنها آتية من ناحية الطريقة التي اتبعت في صوغ هذا الموضوع ، وذلك العشق الخفاق الذي كان يعبر عنه هذا الشعر تعبيراً غنياً بالصور الخيالية ، ممتازاً بالصقل والتجويد ولم يكن من ذلك العشق الذي كانت تعبر عنه الأغاني الشعبية الساذجة المفعمة بالوله والهيام ، وإنما كان هذا العشق مذهباً عاطفياً . ولم يجد ذلك العشق مثله الأعلى في الفتاة ، وإنما وجدته في الزوجة ، وهي التي كان لتقديسها ، وتقدير خدماتها سلطان أخلاقي أثر في حياة الشاعر فجعلها حياة غنية نبيلة معاً ، فأين نشأ إذاً هذا الضرب من الحب أو هذا التقديس للسيدة ؟ »

« لا يمكن هذا الضرب من الحب نتيجة لتقاليد ذلك العصر ، كما تظهر ممثلة في آداب الشعب ، سواء كانت هذه الآداب تيوتونية ، أو رومانية . يقول ريتير : ولم يحدث أن امرأة في أي زمان ومكان كانت تحنى رأسها ، وتخضع لمعل القوة والبش والجبروت والسلطان أكثر مما كانت تفعله المرأة من نساء الطبقة المتوسطة في العصور الوسطى » .

« وقد كان حب مزنة عظيمة في الشعر العربي ، والعرب هم أول من

عنى بتحليل الحب ، وال عاطفة ، فهذا ابن داود فى كتاب الزهرة نراه يرتب فى شعره كل مظاهر الحب ويصنفها ، ويفصلها ، ويشرح طبيعة الحب وقوانينه وتأثيراته ، وطرق التعبير عنه ، وكان فى كل هذا متأثراً بذلك المثل الأعلى الذى نص عليه الأثر : « من عشق فكتم فف فمات فهو شهيد » .

ولقد كان للشعر فى الأندلس منزلة سامية ، وكان يجرى على كل الألسنة . ومن بين أولئك الشعراء الذين لاحظهم ، والذين عرفت أسماء طائفة منهم ، وأعفلت أسماء طائفة أخرى يصح أن نتخذ اسم الشاعر الفارس سعيد بن جودى ، وقد اقتبس المستشرق دوزى أشعاره مثلاً على موضوعاً هذا^(١) . وهنا نرى أن المثل الأعلى للحب العذرى الأفلاطونى قد صدف قبولاً عاماً . وابن حزم يضرب المثل فى الإسلام للتطرف الدينى والجدل العنيف ، وشهرته فى الغرب هى أنه مؤسس علم الأديان المقارن ، ومع ذلك فقد ألف كتاباً فى الحب هو كتاب (طوق الحمامة) ، وضمنه أشعاراً شرح بها ما كتبه ، فجاء كتابه معدداً لكتاب الزهرة ، بل ربما كان متفوقاً عليه . وابن حزم هو لئى يعتقد بنظرية الأفلاطونية فى الحب وهى : (أن الحب وسيلة بها يتحد فى الحياة متدن مفضلان لماهية علوية واحدة) ، وبهذه الروح الخيالية الخاصة كان يكشف بن حزم عن تحليل للحب ، هو من وجوه عدة ذلك التحليل لئى تراه عند جماعة (التروبادور) فى القرن التالى ، وإن كان هؤلاء قد قصروا عن إدراك ما سمى إليه ابن حزم فى وصفه للحب .

ولئن كان كثير من شعر العرب بالأندلس يقيه لشعراء عرب محيتم

(1) Histoire de la littérature de l'Espagne.

في غير ما تكلف ، فإن ما وصل إلينا منه كان في الغالب شعراً مصقولاً متقن السبك ، أشبهته قرائح الشعراء ، والشاعرات في البلاط ، وكان هؤلاء هم الأرستقراطية في صناعة الشعر ، ولم يكن الأسراء والوزراء أنفسهم يستشعرون ضعة في مجازاة أولئك الشعراء ، بل كان من الشعراء أنفسهم من يتقلدون مراتب الوزارة والإمارة .

ويقول الأستاذ جب كذلك : « في بداية القرن الثاني عشر للميلادى ظهر نوع جديد من الشعر هو الزجل ، على يد (ابن قزمان) ، وهو وإن كان معاصراً للأوائل من شعراء التروبادور — فإنه كما صرح هو بذلك — كان يسلك طريقة ثابتة ومألوفة في الأندلس . أما شعره من حيث هو فن ، فقد كان عربياً في صناعته وقوافيه ، وإما تملأه انقلاب من ناحية العروض ، فأصبحت أوزانه معتمدة على النبرات ، وليست معتمدة على التفاعيل . وقد كانت مقطوعاته الشعرية محكمة البناء لكي تقوم بضامها جماعة ، إذ أن الكثير من أشعاره كان عبارة عن مأس تمثيلية وصعت ليتغنى بها المتكسبون بالشعر في الطرقات » .

وإذا وازنا بين هذه المقضوعات الشعرية عند الأقدمين من شعراء (پروانس) تكشف لنا مشاهات ذات بال ، فإذ أنتعار (وليم دي بواتيه) William de Poitiers كانت تصاع أحياناً في نفس الأوزان التي صيغت فيها شعر (بن قزمان) ، وأحياناً أخرى تختلف عنها اختلافاً يسيراً مصدره رغبة في حسن تلك الأوزان ملائمة للقاء الفردي ، بعد أن كانت معدة لأن يتغنى بها جماعة (١) .

(1) Gibb : The Legacy of Islam.

ولقد ذهب بعض الباحثين إلى القول بأنه « إذا كانت أوروبا مدينة بديانتها لليهود فكذلك هي مدينة بقصصها للعرب ، فإننا ندين لهذه الثقافات المتقاربة التي استوطنت الحضبة السورية العربية — وهي الحضبة التي تضم فيما تضم فلسطين — بأكبر قسط من تلك الحيوية التي جعلت أوروبا في القرون الوسطى تختلف من الناحيتين الفكرية والروحية عن الإمبراطورية التي كانت تحت الحكم الروماني^(١) » .

كان يصحب شاعر التروبادور عازف يتغنى بشعره ، ويوقع الأضام على آلة ذات ثلاثة أوتار ، متشهماً بالشاعر العربي الذي كان يصحبه الراوى يتغنى كذلك بشعره ، وهذه الآلة للموسيقية التي كانت تصاحب الشاعر الپروفانسى تشبيهة بتم الشبه بتلك الآلة التي كان يحملها الراوى الأندلسى ، وهي قرية جد القرب من (ربانة) الشاعر المصرى الذى كان يسمرائس بيشدهم قصة عترة أو أبى زيد الهلالي فى أحياء القاهرة نوضية ، وفى مدرل لأرواء بالريف .

وكما تباهى الشاعر الفارس من شعره التروبادور بن محبوبته ذات حاء وحب وبُبلُ أمعن فى إخفاء اسمها ، وكفى عنه ، وفتح به من حيد ، وسكن لايفصح به ندأ ، وهو وحده الذى يدرك عفته ، ودبت يده به من الس كل مذهب^(٢) . ونعت به فى شمس شمس شمس شمس العزير لدى كثير مكى عن سموتة التيد اعراء قى

قاسى منها المحبون أهوالا أن أحدهم إذا صرح باسم محبوبته فى غزله حُرِّم عليه لقاءها ، والزواج منها ، وطائفا استعمل الشعراء صيغة المذكر فى أشعارهم الغزلية إمعانا فى إخفاء المحبوبة ، وعدم افتضاح حبها ، وقد يسمونها أحيانا بأحد الأسماء الشائعة فى الشعر كيند ودعد والرباب .

وإذا فحصنا عن وصف المرأة عند شعراء التروبادور وجدناه كبير الشبه بما جاء فى الشعر العربى فى : « نضرة كورد الربيع ، بيضاء كالزنبقة أو الآس ذهبية الشعر ، لها عنق كالعاج المصقول ، ووجه حلو القسماست مستدير ، وجهه عالية ناصعة مصقولة كالمرآة ، وعيونها خضراء دائمة للرح والضحك ، وفمها صغير كفى الطفل ، وشفاتها فى لون زهرة الخوخ ، أما أسنانها ففاضة البياض ، صغيرة منسقة ، متلاصقة . وهى عبلة الشوى ، مدملجة الساقين ، مستديرة الكعبين ، لها خصر رقيق ، وقد رشيق ، و صدر ملىء ، ويد رخصة بيضاء طويلة » (١) .

وهذا ما كان يتطلبه العرب من المرأة . استمع العربى يقول لآخر وقد أراد أن يتزوج : « خذ ملساء القدمين ، ثقاء الفخذين ، ضخمة الذراعين ، رخصة الكتفين ، دامة السدين ، حمراء الخدين . كحلاء الغنيتين ، زجاء الحاجبين » (٢) .
نينا الشفتين ، كجاء الجبين (٣) . . . الخ (٤) ، وهاك ما قالته عصام حين أرسلها حارت بن عمرو ملك كدلة لتزى له بنته عوف بن محلم فجاءت تقول له :

(1) Gautier. La Chevalerie. pp. 375 et suiv.

(٢) دليمة الحاجبين فى قول .

(٣) اسبح فتاة ما بين الحاجبين .

(٤) رجم يوحى لأرب للآلوسى - ٢ ص ١٠ .

رأيت جبهة كالمرآة المصقولة ، يزيناها شعر حالك كأذاب الخيل ، إن أرسلته
خلته سلاسل ، وإن مشطته قلت عناقيد جلاها الوايل^(١) ، وحاجبين كأنما
خطا بقلم ، أو سوّدا بحم^(٢) ، تقوّسا على مثل عين الطّبية العبّرة^(٣) ، بينهما
أنف كحد السيف الصنيع^(٤) ، حَفَّت به وجنتان كالأرجوان^(٥) ، في بيض
كالجنان ، شق فيه فم كالخاتم ، لذيد المبتسم ، فيه ثناباغر ، ذات أثر^(٦) ،
قلب فيه لسانا بفصاحة وبيان ، بعقل وافر ، وجواب حاضر ، تلتقى فيه
شفتان حراوان ، تجليان ريقا كالشهد ، في رقبة بيضاء كالقضة ، ركبت في صدر
كصدر دمية ، وعُضدان مُدْجَجان ، يتصل بهما ذراعان ، ليس فيهما عظم
يُمس ، ولا عِرْق يُبْس ، ركبت فيهما ككفّان دقيق قصهما ، لئن عصبها ،
تعقد منهما إن شئت الأمان ، تتأ في ذلك الصدر ثديان كزمرتين . . .
الـ (٧)

فمن كل ما تقدم ترى عظم أثر شعره (پروف س) وفراشهم ناشعر
العربي ، وأساليب الفتوة العربية ، في معانيها الحقيقية ، ومشها الصبي ، من شجاعة
ووفاء بالوعد ، وكرم ، واحترام للمرأة ، ونهمهم لهمو هذا الشعر الذي يقيص
بالمعنى وهو العذري . حين حكوّ الحرف في فوههم ، ونهمهم صرور
يقولون الشعر على لحن آخر : موضوعا ، وسجعيا ، وقديما ، ومرويا رحيلا

(١) لوايل : الشعر الشديد . (٢) حم : حمرة .

(٣) عبّرة : ممثلة احسن . أحسن صورة .

(٤) صنيع : لم يتبل ، عرق .

(٥) لأرجوان : أصبح ذا لون شديدا .

(٦) ذات أثر : فيها زخرفة . عن صفة . وذلك لدهم وحدهم

راجع يوحى ذوق لاوى ٢٠ ص ١

وطريقة إنشاء . فهل ثمة من يجادل في أن الفتوة العربية قد أثرت أثراً كبيراً في فروسية الغرب ؟

ولا أريد أن أتعرض للقصص الغربي الذي تأثر بالفروسية العربية بشيء من التفصيل ، فحسبي تلك الإشارات العابرة التي سبقت إليه ، ولا أريد أن أتعرض لذكر مئات الكلمات التي ساقها فوريل ، ورايبرا ، وسيسمو دي ، وغيرهم للتدليل على أخذ الفروسية الغربية من العرب ، وحسبك أن تعرف أن كلمة تروبادور مأخوذة من كلمة طرب أي غنى ، وإن كان بعضهم يقول : إنها مأخوذة من كلمة trouver بمعنى وجد ، ولعلك تعلم أن وَجَدَ من معاينها في العربية حَشَقَ من الوجد وهو الهيام وتدة العشق .

ولنعد الآن إلى شيء من الموازنة بين قوانين الفروسية الغربية ، وتقاليد الفتوة العربية ، فترى أن قانون الفروسية كما يراه جوتيه (١) يتكون من ثمانى أصول ، منها أربعة دينية وأربعة مدنية ، فما الدينية فهي :

١ — أن تصدق كل تعاليم الكنيسة ، وتمتثل لأوامرها ، فإن فعلت ذلك ولو أدى هذا إلى استشهاده في سبيل عقيدتك دخلت الجنة . وهذا المبدأ الأول مقرر في الإسلام ، فإله سبحانه وتعالى يقول : « إِنَّ الْإِنْسَانَ خَلَقَ هَلُوعاً ، إِذَا مَسَّهُ الدَّرُّ خَرَّ ، وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَوْعاً ، إِلَّا الْمُصَلِّينَ ، الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ، وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ، لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ، وَالَّذِينَ يُعْرِضُونَ عَنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ، إِنْ عَذَابَ رَبِّهِمْ

(1) Gautier : La Chevalerie . p 3.

غير مأمون ، والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ، والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ، والذين هم بشهاداتهم قاننون ، والذين هم على صلاتهم يحافظون ، أولئك في جات مُكْرَمُونَ (١) »
وقال تعالى : « ولا تقولوا لمن يُقتلُ في سبيل الله أمواتٌ ، بل أحياء ، ولكن لا تشعرون (٢) » .

وقال تعالى : « والذين آمنوا بالله ورُسُلَهُ أولئك هم الصديقون ، والشهداء عند ربهم ، لهم أجرهم ونورهم ، والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحابُ الجحيم (٣) » .

وقال تعالى : « ومن يضع الله والرسولَ فأولئك مع الذين أسماهم الله عليه من الدين والصدقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً (٤) » .

٢ — أن تسمى الكنيسة ، وتبدل كل ما تستطيع من ماب ، وماس ، وفيس في سبيل بصرتها وقويتها .

وقد مر لله سبحانه وتعالى في أكثر من آية كريمة بالدفع عن نبي وحديثه ، والبدل في سبيل صرته : قال صلى الله عليه وسلم : « الدين مودع ، ومعدرو ، وحاهدو في سبيل الله ، ومودعهم ، ومعدروهم ، ومعدروهم ، ومعدروهم » .

١ - سورة البقرة من الآية ١٧٥ - ١٧٧

٢ - سورة البقرة من الآية ١٧٧ - ١٧٩

٣ - سورة البقرة من الآية ١٧٩ - ١٨١

سورة التوبة من الآية ١١ - ١٢

٤ - سورة البقرة من الآية ١٧٧ - ١٧٩

وقال تعالى : « أدين للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ، ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، والله عاقبة الأمور (١) » .

وقال تعالى : « افروا خيفاً وثقلاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ، ذلك خير لكم إن كنتم تعلمون (٢) » .

٣ - والأمر الثالث أن نشن على الكافرين حرباً لا هوادة فيها ولا رحمة . فإذا كان الأمر الثاني قصد به الدفاع عن الكنيسة ، فإن الأمر الثالث قصد به إخضاع الكافرين لأمر الكنيسة ، فالثاني سلبى ، والثالث إيجابى .

لقد نفذ المسيحيون هذا الأمر بالدقة ، ولم يتهاونوا فيه يوماً واحداً في حروبهم الطويلة مع المسلمين حتى اليوم ، نفذوه بحماسة ، وحمية ، وتعصب ديم ، ويقول حوته « ليس أدما القصص إلا أحاديث هذا الصراع الكبير مزيج » . وقد استشهد هذين البيتين ، وهما يفصحان عن حال المسيحيين ثم الإصلاح في صراعهم ضد المسلمين :

« إلههم يحاربون جموع الأتراك متطوعين

وكثير منهم يمتدو في دماهم »

ولم يخفف الموت ، والهزيمة أحياناً من حدة الحقد في قلوب هؤلاء الغزاة الصليبيين القساة ، بل تراهم في معاركهم ضد المارقين يتخيلون أن نعيم السماء عظيم ، ولذلك يثبتون في المعركة ويصمدون لأعدائهم وهم يقولون : « إذا كنا راقدين في جنات النعيم ، فإننا سننزل منها لمحاربة المسلمين ^(١) » .

ويقول واصف غالى باشا ^(٢) : « إننا نعلم أن المسلمين في أوج قوتهم وعظمتهم قد أظهروا كثيراً من رحابة الصدر باطناً وظاهراً . أما في الظاهر ، فإنهم لم يقدموا أبداً على هذه الأفعال التي تتم عن تعصب ذميم ، ولم يُقهرُوا أحداً على الإسلام في حروبهم الطويلة مع الصليبيين ، وفي حروبهم مع القوط بأسبانيا ، أو مع جنود أوروبا بفرنسا وسواها . لأن القرآن في الحقيقة يطلبهم بأن يندروا من يريدون الحرب معه ، ويدعوه أولاً إلى الإسلام : « وادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ، وَجَادِلْهُمْ بِنُتْقَانٍ هِيَ أَحْسَنُ . وَإِنْ رَأَوْكَ مِنْهُمْ مُخْلِئِينَ عَنْ سَبِيلِهِ ، وَهُمْ عَادُوں مُنْتَدِينَ ، وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا مِنْ مَّا قَبْلُكُمْ بِهِ ، وَإِنَّ صَدْرَتَهُمْ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ^(٣) » .

ويقول تعالى : لا إكراه في الدين قد تبينَ لرشدٍ مِنَّا ^(٤) .

ويقول السير توماس أربونا ^(٥) : « ولكن مع سيطرة محوطة دائمة لإرغام الطوائف من غير المسلمين على قبول الإسلام . أو عن قسوة صمدية » .

^(١) The Muslim Conquest of Spain, p. 71.

^(٢) The Muslim Conquest of Spain, p. 212.

^(٣) سورة النحل الآية ١٢٤ .

^(٤) البقرة الآية ٢٥٥ .

^(٥) The Muslim Conquest of Spain, p. 212.

قصد منه استئصال الدين المسيحي ، ولو اختار الخلفاء تنفيذ إحدى الخطتين لاكتسحوا المسيحية بتلك السهولة التي أقصى بها فرديناند وإيزابلا دين الإسلام من أسبانيا ، أو التي جعل بها لويس الرابع عشر المذهب البروتستانتي مذهباً يعاقب عليه متبعوه في فرنسا ، أو بتلك السهولة التي ظل بها اليهود مبعدين عن إنجلترا مدة خمسين وثمانمائة سنة ؛ ولكانت الكنائس الشرقية في آسيا قد انزلت انزالاً تاماً عن سائر العالم المسيحي الذي لم يوجد في جميع أنحاء أحد يقف في جانبهم ماعتبارهم طوائف خارجة عن الدين ، ولهذا فإن مجرد بقاء هذه الكنائس حتى الآن يحمل في طياته الدليل القوي على ما قامت عليه سياسة الحكومات الإسلامية بوجه عام من تسامح نحوهم .

إننا نقول في غير نخر أو ادعاء أو تعصب لديننا . إن العرب المسلمين في فتوحاتهم العظيمة التي حوّلوا بها وجه التاريخ كانوا مثلاً أعلى للجنود الشرفاء والفرسان العظماء جاءوا للعالم بخير رسالة ، تخرجهم من الظلمات إلى النور ، ومن سجن القهر والذل ، إلى روضة العدل والحرية ، ولذلك قابلوهم بكل ترحاب وفتحوا لهم صدورهم ، وتحولوا طائعين غير مقهورين إلى هذا الدين الحنيف ، ومن أبي منهم إلاّ التمسك بدينه ، فهو في حلٍّ من أمره ، غير مضطهد أو مُساء إليه ، استمع إلى ميشيل الأكبر اليعقوبي بطريق أنطاكية ، وهو يقرر أن يد الله مع المسلمين في فتوحاتهم ، وأنهم آتوا بخير العالم وبركته ، وذلك مدّون في كتب كنائس الشرق تحت الحكيم الإسلامي خمسة قرون ، لأنه كتب في منتصف القرن الثاني عشر . فذكر فطائع هرقل ضد ... - - - في بين وقال : « وهذا هو السبب في أن إله الإنتقام الذي

تفرد بالجهروت والقوة ، والذي يدل دولة البشر كما يشاء فيؤتيها من يشاء ، ويرفع الوضع - لما رأى شرور الروم الذين لجئوا إلى القوة قهبروا كنائسنا ، وسلبوا أديارنا في كافة ممتلكاتهم ، وأنزلوا بنا العقاب في غير رحمة ولا شفقة أرسل أبناء إسماعيل من بلاد الجنوب ، ليخلصنا على أيديهم من قبضة الروم . وفي الحق إننا إذا كنا قد تحملنا شيئاً من الخسارة بسبب انتزاع الكنائس الكاثوليكية منا ، وإعطائها لأهل خلقيدونية ، فقد استمرت هذه الكنائس في حوزتهم ، ولما أسلمت المدن للعرب خصص هؤلاء لكل طائفة الكنائس التي وجدت في حوزتها ، ومع ذلك فلم يكن كسباً هيئاً أن تتخلص من قسوة الروم وأذاهم ، وحنقهم ، وتحمسهم العنيف ضدياً ، وأن نخذ أنفسنا في أمن وسلام^(١) .

وبلغ الجيش الإسلامي وادي الأردن ، وعسكر أبو عبيدة في (لخل) كتب الأهالي المسيحيون في هذه البلاد إلى العرب يقولون : « يا معسر المسلمين ! أنتم أحب إلينا من الروم ، وإن كنوا على ديننا ، ثم رُفِي لنا ، وأرأف بنا ، وأكف عن ظلمنا ، وأحسن ولاية علينا ، ولكنهم غسود غير ثمره وعلى منازلنا »^(٢) .

لقد كان ديدن المسلمين مدد خرجوا للجهاد في سبيل الله على يد أمير المؤمنين الكريم ، وسنة بيه العظيم ، رائدهم هدية نشره ، وأنتصر بهم على شريرهم ، فريص العليل المحتج إلى مدو ، فو لأسير حتى نرى ثمره ، فانت

11. np. 412-13. «...»
١ - ...

٢ - فتوح الشام لمحمد بن عبد الله بن عبد الحميد ...

نفسه النُّل فهو في أمس الحاجة للحرية والمواساة . هَاكَ أبا بكر يخاطب أول
بَعْثٍ وجهه للغزو بعد وفاة رسول الله ، ويعطى له التعاليم التي ما حاد عنها
المسلمون قط ، والتي كانت رحمة وبركة على العالم أجمع : «يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَفُوا أَوْصِيكُمْ
بِعَشْرٍ ، فَاحْفَظُوا هَآءِهِنَّ . لَا تَخُونُوا ، وَلَا تَقْتُلُوا ، وَلَا تَغْدُرُوا ، وَلَا تُمَثِّلُوا ،
وَلَا تَقْتُلُوا طِفْلاً صَغِيراً وَلَا شَيْخاً كَبِيراً ، وَلَا امْرَأَةً ، وَلَا تَعْتَرُوا نَحْلاً وَلَا تَحْرِقُوا
وَلَا تَقْطَعُوا شَجَرَةً مُشْرَةً ، وَلَا تَذْبَحُوا شَاةً ، وَلَا بَقْرَةً ، وَلَا بَعِيراً إِلَّا لِمَا كَلَهُ ،
وَسَوْفَ تَمْرُونَ بِأَقْوَامٍ قَدْ فَرَّغُوا أَنْفُسَهُمْ فِي الصَّوَامِعِ فَدَعُوهُمْ ، وَمَا فَرَّغُوا أَنْفُسَهُمْ
لَهُ ، وَسَوْفَ تَقْدَمُونَ عَلَى قَوْمٍ يَأْتُونَكُمْ بِأَنْيَةٍ فِيهَا أَلْوَانُ الطَّعَامِ فَإِذَا أَكَلْتُمْ مِنْهَا
شَيْئاً فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا» (١) .

تميز المسلمون بالتسامح مع أهل الديانات الأخرى ، وفرضوا عليهم الجزية
في نظير حمايتهم إذا أبوا الدخول في الإسلام ، فهي ليست عقاباً لامتناعهم
عن قبول الإسلام ، وإنما أجراً لحمايتهم لأنهم ممنوعون من الانخراط في سلك
الجيش الإسلامي ما داموا لم يسلخوا . ولا أدل على ذلك من تلك الحادثة التي
وقعت في حكم عمر بن الخطاب ، ذلك حين حشد هرقل جيشاً ضخماً يصد
قوات مسلمين المختلفة ، فكان لزاماً على المسلمين حينئذ أن يركزوا كل
نشاطهم وقوتهم في المعركة التي أحدثت بهم ، ولما علم أبو عبيدة قائد المسلمين
بذلك كتب إلى عمر بن أمية مفتوحاً بالشام يأمرهم بأن يردوا عليهم ما جُي
من خزينة من هذه المدن ، وكتب إلى الناس يقول : « إِنَّمَا رَدَدْنَا عَلَيْكُمْ
أَمْوَالَكُمْ لِأَنَّكُمْ لَنَا مِنْ جُوعٍ وَإِسْكَمٍ قَدْ اشْتَرَطْتُمْ عَلَيْنَا أَنْ نَمْنَعَكُمْ

ولما لا قدر على ذلك ، وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم ، ونحن لكم على الشرط ، وما كتبنا بيننا وبينكم إن نصرنا الله عليهم « ، وبذلك رُدَّت مبالغ طائلة من مال الدولة ، فدعا المسيحيون بالبركة لرؤساء المسلمين وقالوا : « ردكم الله علينا ، ونصركم عليهم (أى على الروم) فلو كانوا هم لم يردوا علينا شيئاً ، وأخذوا كل شيء بقى لنا » ^(١) .

بمثل هذا الخلق الكريم ، والساحة الحلوة ، والدين الرحيم اقتصر المسلمون ، وغزوا القلوب قبل أن يغزوا البلاد ، وشتان بين فظائع مسيحيين وحسنة المسلمين ؛ حتى لقد آثر المسيحيون من أهالى الشام وفلسطين حكم المسلمين على حكم الصليبيين بعد أن أجلهم عنها ، ولما فتحت بيت المقدس رحب أهلها المسيحيون بالسادة الجدد ، واطمأنوا إليهم ورضوا بحكمهم ^(٢) لأنهم ذاقوا من فظاظة الصليبيين الأوربيين وعسفهم ما لا يطاق .

لم يلجأ المسلمون يوماً إلى اضطهاد المسيحيين ، ولا كراهته على الإسلام إلا فى النادر ، ثقة منهم بأن الإسلام دين العقل ، وأن كل من وهبه الله شيئاً من العقل سيهتدى للدين من غير قير ، وسيكون إسلامه صحيحاً خالصاً لا نفوس فيه ، فيفيد الأمة ، ولا يكون دسيسة عليها . وقد حار كثير من الباحثين الغربيين فى سر عظمة الإسلام ، فمنهم من رأى أن « للإسلام فى جوهره دين تنبؤ ومع معانى هذه الكلمة من نوجيتين الاستتمقية والتاريخية ، فإن تعريف لأسلوب Rationalism بأنه طريقة تقيم العقائد الدينية على أسس مدنى . مستمدة

(١) كتاب الحجاج لأبى يوسف ص ٨٩ القاهرة ١٣٠٢ هـ .

(٢) H. Prutz : Kultur aus Licht der Kreuzzüge. pp. 146—7—150. Berlin 1881.

من العقل والمنطق ينطبق على الإسلام تمام الانطباق . . . قد جهر القرآن دائماً بمبدأ الوحدانية في عظمة وجلال وصفاء لا يعتريه التحول ، ومن العسير أن نجد في غير الإسلام ما يفوق تلك المزايا ، ومن المتوقع لعقيدة خالية كل انخلو من جميع التعقيدات الفلسفية ، ثم هي تبعاً لذلك في متناول إدراك الشخص العادي أن تمتلك ، وإنها لتمتلك فعلاً ، قوة عجيبة لا كتساب طريقها إلى صمائر الناس ^(١) .

ويرى بعضهم أن سر القوة الخارقة للعادة التي أظهرها الإسلام في أزهر عصوره حين الفتح كامن في إدراك هذا الدين وجود الله ، وليس قولنا إن الله واحد بأعظم من قولنا إنه موجود بمعنى أن وجوده هو حقيقة الكون المطلقة ، وأن إرادته هي العليا ، وأن قوته لا تحد ، وهذا معناه الإيمان بأن هناك إرادة ؛ بأن ممتة إرادة مطلقة عليا لا تقاوم في وسط كل ما يغمر الكون من الاختلال والاضطراب والفساد الذي يحمله في صورة من الظلمة والوحشة تبعث على الفرع والرهبة ، كما أن معناه الإيمان بأن الرجل مسير طوع هذه الإرادة ؛ يظهرها ويلتزم الطاعة لها . . . وهذا هو الذي أمدَّ حوافل المسلمين بوسائل الفتح التي لا تقهر ، تلك الوسائل التي بعثت فيهم روحاً من الاقياد الحربي ، والنظام العسكري ، كما بعثت فيهم ازدياء الموت ، على صورة لم تعرف قط من قبل في أي نظام سابق ، وهذا هو الذي يعطيا في كلمة ، حسب ما يحده متمتلا في أي روح صادقة فعالة بين المسلمين — ذلك العمود الفقري لأحلاقهم ، أعى ذلك الثبات في العزيمة . والقوة في الإرادة ، وذلك الصبر الذي لا يعرف

(1) Edouard Montet . La Propagande Chrétienne et ses adversaires Musulmans op. cit. — 8. (Paris 1899)

سبيلا إلى الشكوى ، والاستسلام لأشد المصائب ، وأصعبها ، كل ذلك قد ميز
خير أنصار هذه العقيدة وجمالهم »^(١) .

ولا أريد هنا أن أستطرد ، فأورد عدداً من النصوص الوفيرة لدى والتي
سجل بها علماء المسيحية إعجابهم بالإسلام ، وعدم لجوئهم إلى القسر والإكراه
في سبيل دعوته عملاً بقوله تعالى ، مخاطباً نبيه « أفأتى تكبره الناس حتى
يكونوا مؤمنين » ، وحسب أن أقول ما قال فورنيل : « ليس في التاريخ أى
حادثة تدل على اضطهاد المسلمين أو ظلمهم للمغلوبين »^(٢) .

٤ — والمبدأ الرابع من مبادئ القروسية الغربية الدينية هو المحافظة على
أمراء الإقطاع مهما كانت هذه الأوامر ، ولو خالفت العقل ، لأن نظرية التفويض
الآلهي كانت سائدة في ذلك الوقت ، وكان الحاكم يعتقد أنه خليفة الله في الأرض ،
يفعل ما يشاء دون مراجعته أو تقض ، أما الإسلام فقد أمر ما حقاً بطاعة أولى الأمر
حيث يقول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول
وأولى الأمر منكم »^(٣) ، ولكن طاعة أولى الأمر ليست طاعة عمية ، فإن
الإسلام — دين العقل والمنطق — قد حدد هذه الطاعة في قوله عليه الصلاة
والسلام : « لا طاعة لمخوق في معصية خالق » وجاء في الأحكام الشرعية
للمأوردى : « من الواجب أن تمتص إلى أولى الأمر ، وإن خيبت طام
أن أوامره ليس فيها ما يفصب له ، فإذا أمروك أن تفصب له فلا تمتص له »^(٤)
ولا تضعه »^(٥) .

1 — 28^e M. and Church. p 28^e — 1
(Lo 111 p. 59)

(١) سورة النساء الآية ٥٩ . (٢) لأحكام الله المأوردى . ٣٠٣ .
(٣) سورة النساء الآية ٥٩ . (٤) لأحكام الله المأوردى . ٣٠٣ .

إن علاقة المحكوم بالحاكم قد حددها الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم
 حبت يقول : « والذين يَجْتَنِبُونَ كِبَارَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ ، وَإِذَا غَضِبُوا هُمْ
 يَغْفِرُونَ ، والذين استجابوا لربهم ، وأقاموا الصلاة ، وأمرهم شورى بينهم ،
 ومما رزقناهم ينفقون ، والذين إذا أصابهم البغي هُمْ ينتصرون ، وجزاء سيئة سيئة
 مثلها ، فمن عفا وأصلح فأجره على الله إن الله لا يحب الظالمين ، وَلَمَّا انتصرَ بعد
 ظلمه أولئك ما عليهم من سبيل ، إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون
 في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم ، وَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ
 الْأُمُورِ ^(١) » .

بل إن العرب في الجاهلية كانوا في مثل هذه الديمقراطية العجيبة ،
 لا سَيِّدَ وَلَا مَسُودَ ، وإنما اُرئيس منهم شخص تهلته صفاته الممتازة لأن يرأس
 قومه . فإذا حاد يوماً عن الجادة ، أو غرَّه ما هو فيه من سلطان حرجوا عليه ،
 بل قتلوه ، ولقد مررت بك أمثلة عدة في هذا الكتاب عن ذلك ، وحسبى هنا
 أن أذكر ما قاله دوزي : « كان يشترط في رئيس القبيلة ست صفات : الجود
 والشجاعة ، والخلم ، والصبر ، والتواضع ، والنصاحة . ولم يكن يعترف به رئيساً
 حتى يعرض كل ما يملك ، وحتى يضع تحت قدميه كل ما هو عزيز عليه ، وحتى
 يخدم قومه كما يخدم العبد سيده » ^(٢) .

وهكـ مثلاً و حد أصر به هب ليدل على المساواة التامة بين المسلمين ،
 ون لحكم . ولو كان رسول الله لا يستطيع أن يفلت من القصص ، في غزوة

(١) سورة الشورى : الآيت ٣٦ — ٤٣

(2) R. Dozy : Histoire des Musulmans d'Espagne, t. 1, p. 117.

تلا من سورة ص ٧١ .

بدر خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطى الصفوف ، وفي يده قدحٌ يعطى به القوم فمرَّ بِسُوَّادِ بْنِ غَزِيَّةٍ ، وهو متقدم من الصف ، فطعن في بطنه بالقدح ، وقال : استوياسو^١اد ، فقال : يا رسول الله ، أوجعتني ، وقدَّ بَعَثَكَ اللهُ بالحق والعدل ، فأقَدْتَنِي ، فكشف رسولُ الله عن بطنه وقال : « اسْتَقِدْ » ، فاستنق سوَّادُ رسول الله صلى الله عليه وسلم وقبَّل بطنه ، فقال النبي : ما حملك على هذا ياسو^١اد ؟ قال : يا رسول الله ! حضرة ما ترى ، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمَسَّ جلدي حلدك ، فدعا الرسول له بخير (١) .

وأظننا لا ننسى حادثة عمر بن الخطاب مع عمرو بن العاص حين جاء المصري يشكو إليه ابنه ، واستدعاه من مصر وقال له : « يا عمرو ! متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً » ، وحادثة الإعرابي مع عمر بن الخطاب حين خطب الناس وقال لهم : لو رأيتم في أعوجاجاً ققومي ، فقل له : إعرابي : لو رأيتم فيك أعوجاجاً أقومناك بسيوفنا » فأين كن هذا من نظرية تفويض لإلهي . والحكم المطلق التي سادت أورما في عهد الإقطاع ؟ ؟

أما الأصول الأربعة الديوية في الفروسيّة كما هي عليها (حوتيه) فهي : الشجاعة ، والوفاء بنوعه ، والسخاء ، ونعمة الضيف . واقدمت في تحليل هذه الصفات في القصول الأولى من هذا الكتاب واسهمت في الاستشهاد بالشعر ، وحوادث ، كما أتي في هذا الفصل ورتبته أكثر من مثل بين فروسية الغرب ، وفتوة العرب . وأتت تحت عنوان في الذي امتد به العرب ، والذي كان غرساً في أورما مثلاً يندى . وعدد ذلك صوره .

(١) سيرة ابن هشام : ٢ - ٢٢٨ و ربيع اصدى : ٢ - ٢٦٢ .

إننا لا نأرى في شجاعة فرسان أوروبا ، ولا كسها كانت شجاعة غير مهذبة ،
ينقصها الإيمان بالمثل العليا ، وفيها وحشية وقسوة ، وغدر ، ولقد مرَّ بك
ذلك المثل السيء الذى ضربه (بيدر القاسى) ملك قشتالة مع أنى سعيد أمير
غرناطة وهو فى ضيافته ، وكيف اغتاله لينهب خاتمه الثمين الذى فتنه ، وأسوأ
منه ما فعله ريتشارد قلب الأسد مع أسرى موقعة عكا ، وكيف ذبحهم ،
وخفَّر ذمتهم ، وقضى عهدهم ، وأبى إلا أن يكون أشد قسوة من وحوش القلعة ،
فهل كان هذا هو العفو عند المقدرة ؟ وهل بهذا أسرتهم فروسيتهم ؟

إن تاريخ الحرب المسيحية ملطخ بالدماء ، وينم عن تعصب ذميم وحقد
بالغ ، ووحشية فظيعة لا تمت إلى الإنسانية أو الدين بأى صلة . ولعلنا نجد
مثلاً نبيلاً أو معاملة طيبة فى حروبهم القديمة والحديثة ، بل ترى الغدر
والخيانة ، وقضى اليهود دينهم وشيئتهم ، ويظنون أنهم أوتوا من رجاحة
العقل ، وحصافة رأى ما يوحى لهم هذا ، بل والأدهى من كل ذلك أنهم
يدعون التفوق الجنسى والعقل على غيرهم من الأمم . إذا كانت العبرة بالبطش
وعن يملك اليوم المدفع والقنابل فيم لا شك أرقى ، ولكن العبرة بالنفس
التي تكمن وراء المدفع ، وبالببل والخلق الكريم . إن غاية الإنسانية هى الحد
من العرائز الدنيا ، والبعد عن العصور الأولى البدائية ، والسمو بالمسلك الخلقى
للإنسان . ولكن ما تشهده منهم قديماً ، وما تشاهده اليوم ينم بأنهم أبعد
لأس عن دركات هذه المعانى الكريمة .

٥ - مرادى يذر) مشهور بالسيد^(١) القمبيطاري محارب فى صفوف المسلمين

(١) وعنه تسمية حاتم حكى (كورنى) الشاعر القرشى قصته المشهورة (Le Cid) .

بالأندلس اليوم ثم يخونهم غداً ، وأخيراً يحارب يوسف بن تاشفين ، ويحاصر بآلنسية حصاراً يدوم تسعة أشهر ، قتل في ١٥ من يولية سنة ١٠٩٤ م ، وكان يرجى من السيد أن يكون في أخلاقه من النبيل ما هو جدير بفرسان المنصور الوسطى ، وما هو خليف بفارس له شهرته ، ولكنه على عكس ذلك ، فما كاد أهل بلنسية يسلمون له حتى نكل بهم تنكيلاً بالفا ، فأحرق القاضي بن جحاف وهو حي ، وذبح الآلاف من أهل المدينة المسلمين ، وفرق الغنائم في أصحابه . ولم يغفر له الموحدون هذا الصنع الشنيع فما زالوا به حتى أوقفوا به في (سيونكا) فهزموه هزيمة منكرة انتهت بموته في يولية ١٠٩٩ م^(١) .

فإن هذا المثل الزرى الذى لا يليق إلا بالهجم المتوحشين مما فعله المنصور ابن أبى عامر حين أسر ذات يوم عدداً من الجنود الأسبانيين ، وطلب منهم أن يلقوا سلاحهم ، ففضلوا الموت على إلقاء السلاح ، و كان منه إلا أن أفصح لهم الطريق ليأخذوا بحيت عدائه ؛ إكدرأ منه لشجعتهم ، وكان في استطاعته قتلهم جميعاً ، ولقد قدره المؤرخون العربون حق قدره يقول عنه Ferrars فيريراس : « إنه لعلى خلق عظيم » ، ويقول عنه Marden موسدن : « إن المنصور قد هدم بالحديد والدر مدن حتى قاومت ، وسكه أى أن يصب أى شخص قل صالة إذ سلطوعية^(٢) .

وإن هذا المثل الذى رواه مؤرخو العرب - نسبهم عن منصور بن قيس - من إطلاقه سرح ألف وثلاثة عشر مسيحي من تكوير وروم حين -

(١) راجع توث إسماعيل رحمة الله عليه ٧٧ - ٧٨ .

Arabs et de More-
١١٠٠

انلخبر بانتصار جنده في إحدى المواقع الحربية الكبيرة سنة ٩٩٧م شكر الله (١) ،
ولقد وفيت موضوع الشجاعة عند العرب حقاً ، سواء كانوا في الجاهلية
أو الإسلام ، وليس من همي أن أضرب أمثلة على شجاعة فرسان أوروبا ، وحسبي
ما ذكرت من أمثلة للموازنة في هذا الباب .

أما الكرم فقد ذكرت سببه عند العرب (٢) ، وأن الطبيعة قد جعلتهم
كرماء ، حتى صار لهم جبلةً وطبعاً ، ولقد جاءهم الإسلام فزاد بما وعدهم من
جزاء عظيم في الآخرة ومن إرضاء الله تعالى ما كان في نفوسهم من أريحية ، فصاروا
يوجدون ؛ لأنهم فطروا على الجود ، ولأن في ذلك مثوبةً ، وخيراً للمجتمع .

قال الله تعالى : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ،
ولكن البر من آمن بالله ، واليوم الآخر ، والملائكة والكتاب ، والنبیین ،
وآتى المال على حبه ذوى القربى والیتامى ، والمساكين وابن السبیل ،
والسائین ، وفى الرقاب ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، والموفون بعهدهم إذا
عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا
وأولئك هم المُنقون » (٣) .

وقال تعالى : « مثل الذين يُنفقون أموالهم فى سبیل الله كمثل حبة
أُتت سبع سنابل فى كل سنبله مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء ، والله
واسعٌ عليم » (٤) .

(١) تاريخ غزوات العرب (ترجمة الأمير شكيب أرسلان) ص ٢١٩ .

(٢) راجع باب الكرم فى هذا الكتاب ص ٥٩ وما بعدها .

(٣) سورة بقرة الآية ١٧٧ .

(٤) سورة اسرة الآية ٣٦١ .

وقال تعالى : « الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، ثُمَّ لَا يُتَّبَعُونَ
مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى ، لَمْ أَجْزُئُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ
يَحْزَنُونَ » (١)

ففي هذه الآيات الكريمة تبيان لمن يجب لهم الصدقة ، وحثّ عليها ،
وذكر للجزاء الحسن الذي ينتظر المتصدقين ، على أن تكون صدقاتهم بلا منّ
ولا أذى على حد قوله تعالى : « قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ
يَتَّبَعُهَا أَذًى » (٢) ، أو على حد قول الشاعر :

لا خيلَ عندك تهديها ولا مالٌ فليصد النطق إن لم يُشمد الحالُ
قال تعالى : « فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ، فَكُ رَقِيبَةً ،
أَوْ لَاطِعًا فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ، يَتَّبِعُهَا مَقْرَبَةٌ ، أَوْ مَسْكِينٌ ذَا مَتْرَبَةٍ ، ثُمَّ كَانَ
مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالرِّحَةِ ، أُولَئِكَ يُصِيبُ الْمَيْمَنَةُ » (٣) .
ولقد نُقِرَ من البخل ، وأُعد لبخلاء عذاباً عظيماً ، وعصمهم على بخسهم ،
فإنهم لا يعطون من عند أنفسهم ، وإن يعصون من أمر الله . قال تعالى :
« وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ ، بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ
سَيُلَوِّقُونَ مَا بَحَلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَبِمَا كَفَرْتُمْ سَوْفَ تُعَذَّبُونَ ، وَبِمَا كَفَرْتُمْ
تَعْمَلُونَ خَيْرٌ » (٤) .

وقال تعالى : « يَأْتِيهِمْ لَيْلٌ مَوِيَّةٌ فَكُلُوا مِنْ لَدُنْهُمْ وَلَا يَبْغُوا ، كَذَلِكَ يُفَصِّلُ اللَّهُ لِلْإِنْسَانِ مَا لَهُ فِي سَبِيلِهِ ، وَلِئَلَّامِنْكُمْ شَاقِقٌ يُجَادِلُكُمْ فَيَكْثُرُونَ أَهْجًا »

(١) الآية ٢٦٢ .

(٢) الآية ٢٦٣ .

(٣) سورة البعد .

(٤) سورة محمد الآية ١٨٠ .

والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ : يَوْمَ يُنْفَخُ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فُتُكُوى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ، هَذَا مَا كُنْتُمْ لَأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنُزُونَ» (١) .

ولقد استجاب المسلمون لطبيعتهم وانطَرَمَهم السليمة ، ولداء الله وترغيبه ، وحذرو بطشه وعقابه ، وكان لهم في رسول الله أسوة حسنة (٢) ، فكان منهم أجواد في الإسلام ، لم يرَ التاريخ مثلهم بين جميع الأمم .

فهذا عبيد الله بن عباس ابن عم رسول الله لا تحصى مكرماته ، ولا يملك المرء نفسه حين سماعها إلا أن يعجب لهذه الطبيعة السمحة : جاءه رجل من الأنصار فشكى إليه أمره ، وأنه ولد له ولد وأن أمه قد ماتت وهي تلهه ، فأمر وكيله بأن يشتري له جاريةً تحتضنه ، وأن يدفع له مائتي دينار للنفقة على تربية الطفل ، وقال للأنصاري : عُدْ إلينا بعد أيام فإنك جئتنا وفي العيش يَبَسُّ ، وفي المال قِلَّةٌ . قال الأنصاري : لو سبقت حاتمًا يوم واحدٍ ما ذكرته العربُ أبدًا ، ولكنه سبقك فصرت له تاليًا وأنا أشهد أن عفوك أكثر من مجهوده ، وصَلِّ كرمك أكثر من وابله (٣) .

ولقد شاطر الحسين بن علي ماله حين حبس معاوية عنه ما يستحقه ، وقد أعطى سائلًا ألف درهم واعتذر له ، وهو أول من فطر جيرانه ، ووضع الموائد على الطرق في الإسلام وفيه يقوى الشاعر :

وفي السقِّ الشَّهَاءُ أَضْعَمَتْ حَمَصَ وَحَدَوْا وَلَحَا تَامِكًا وَمَمَزَّعَا

(١) آتية الآية ٣٤ ، ٣٥ .

(٢) راجع ص ١٤٣ من هذا الكتاب وما بعدها .

(٣) راجع ص ١٤٣ .

وَأَنْتَ رَيْعٌ لِّلْيَتَامَى وَعَصَّةٌ إِذَا التَّمَسَّخَلُ مِنْ جُودِ السَّمَاءِ تَقَطَّعَا
أَبُوكَ أَبُو الْفَضْلِ الَّذِي كَانَ رَحِمَةً وَغَوْثًا وَنُورًا لِلْخَلَائِقِ أَجْمَعَا (١)

وَمِنْهُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ ، وَقَدْ لَامَهُ قَوْمُهُ لِأَنَّهُ أَعْطَى امْرَأَةً مَالًا كَثِيرًا وَقَالُوا
لَهُ : إِنَّمَا لَا تَعْرِفُكَ ، وَكَانَ يَرْضِيهَا الْيَسِيرَ فَقَالَ : إِنْ كَانَ يُرْضِيهَا الْيَسِيرُ فَأَنَا لَا أَرْضَى
إِلَّا بِالْكَثِيرِ ، وَإِنْ كَانَتْ لَا تَعْرِفُنِي فَأَنَا أَعْرِفُ نَفْسِي (٢) .

وَمِنْهُمْ سَعِيدُ بْنُ الْعَاصِ ، وَقَدْ وَهَبَهُ مَعَاوِيَةُ سَرَّةَ خَمْسِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ لِيَصْلَحَ
بِهَا حَالَهُ وَيَشْتَرِيَ ضَيْعَةً تَعِينُهُ عَلَى مَكْرَمَاتِهِ فَقَالَ لَهُ : بَلْ أَشْتَرِي بِهَا حَدًّا وَذَكَرًا
بَاقِيًا ، أَطْعَمَ بِهَا الْجَائِعَ وَأَزْوَاجَ بِهَا الْيَتَامَى ، وَأَفْلَكَ بِهَا الْعَانِي وَأَوَاسَى بِهَا الصَّدِيقَ
وَأَصْلَحَ بِهَا حَالُ الْجَارِ . فَلَمْ تَأْتِ عَلَيْهِ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَعِنْدَهُ مِنْهَا دِرْهَمٌ (٣) .

وَلَيْسَ مَعْنَى شَهْرَةِ هَؤُلَاءِ أَنَّ سِوَاهُمْ مِنَ الْعَرَبِ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا بِمَخْلَاءٍ . بَلْ
إِنْ كَثِيرًا مِنْهُمْ كَانُوا عَلَى دَرَجَةِ عَظِيمَةٍ مِنْ كَرَمِ الْيَدِ ، وَلَوْ كَانُوا ذَوِي مَثَرَةٍ ،
وَلَا أُرِيدُ أَنْ أَفِيضَ فِي ذِكْرِ أَحْوَادِ الْمُسْلِمِينَ جَمِيعًا وَأَتَّبِعُهُمْ فِي شَيْءٍ "التَّارِيخُ" مِنْ
أَمْثَالِ مَعَاوِيَةَ ، وَلِرَشِيدٍ ، وَلِأَمِينٍ ، وَلِأَشْمُونٍ ، وَلِالْمُتَوَكِّلِ ، وَسَيْفِ الدُّوَّةِ
وغيرِهِمْ . وَقَدْ كَفَاهُ الشُّعْرَاءُ مَقَامَ تَسْجِيلِ كَرَمِهِمْ ، بِمَحْدُودِهِ مِنْ شَعْرِ فِي
عَلَى الدَّهْرِ .

وَحَسْبِي فِي هَذَا مَقَامُ أَنْ أَضْرِبَ بَعْضَ أَمْثَالٍ لِمَعَاوِيَةَ بَيْنَ كَرَمِ الْعَرَبِ ،
وَمَا كَانَ عِنْدَ مَعْسَرِيهِمْ مِنْ شَيْءٍ ثَوْرٍ مِنْ رُجِيحٍ وَنَحْرٍ . . . يَكُنِ الْعَرَبِيُّ
كَمَا ذَكَرْتُ يَصْدُرُ فِي كَرَمِهِ مِنْ قَاوِمٍ ، يُؤَيِّدُهُ رِيَّةٌ ، وَبِهِ كَرَمٌ مَحْدُودٌ .

ولم يكن هذا شأن أهل أوروبا ، فقد نصَّ قانون (بورجنديا) على أن « أى
أسرى لا يقدم للغريب غطاءً وماراً ، يدفع غرامة مقدارها ثلاثة قروش ، وإذا
قصده غريبٌ بيتَ بورجندي ودله هذا على بيتِ روماني ، تخلصاً منه ينرم ثلاثة
قروش لأنه لم يُعْصِفْهُ ، وثلاثة أخرى لأنه دله على بيت الروماني » (١) .

وروى التاريخ الأوربي أن شارلمان أسر أحد أسراء العرب ، وأدخل عليه
وهو بين فرسائه وحاشيته والموائد موضوعة ، والكل يأكلون ، فصاح فيه
إمّا أن ترتد عن دينك وإما أن تقتل . فقال الأمير العربي : بل أوتر القتل
فقال شارلمان : وماذا ؟ قال ستعرف بعد برهة ؛ مَنْ هؤلاء الأشخاص الضخام
الذين يلبسون الفراء ، ويجلسون على مائدتك ؟ فقال شارلمان : لهم مطاردة
وقساوسة . فسأله الأمير العربي : ومن هؤلاء الحفاف الذين يلبسون السواد ؟
وحباب لهم رهبان يصلون من أجل . فسأله مرة ثالثة : ومن هؤلاء الذين
يجلسون على الأرض ، ويلقى لهم هُتات المائدة ؟ فأجاب شارلمان : لهم الفقراء
فصاح الأمير العربي : أهكذا تعامل الفقراء ؟ إن هذا مخالف للشرف والارواة .
ولا يرضى ربك الذي تعبده . والآل . لا ! لن أتصر أبداً وهذه سمة دينك ،
وإني أفصح صوت (٢) .

وتذكرني هذه الحادثة ببحري يظهر منها الفرق الشاسع بين كرم العرب
وكرم سواهم . وذلك أنه استولى أبو عبيد بن مسعود التقى أيام عمر بن الخطاب

(١) رجم Austin Thierry في كتابه Lettres sur L'histoire de
France p. ١٥٢.

(٢) رجم Pierre Damien dans la Chronique du Empire
Gautier o . ١١١ .

على كسكر^(١) وسرح المتى بن حارثة وغيره من القواد ، يغيرون على النواحي ،
صالحه من خاف ممن بقى . وجاءه الدهاقين بآنية فيها أطعمة فارسية ، وقالوا :
هذه كرامة أكرمناك بها قرى لك . قال : أأكرمتم الجند وقريتهم مثله ؟
قالوا لم يتيسر ، ونحن فاعلون ، قال : لا حاجة لنا فيه ، بش المرء أبو عبيد ! إن
صحب قوماً من بلادهم ، أهرقوا دماءهم دونه ، أو لم يهريقوا ، فاستأثر عليهم شيء
يصيبه ، لا والله لا نأكل مما أفاء الله عليهم إلا مثل ما يأكل أوساطهم . ولم
يأكل من طعام آتى به الدهاقين غداة ذلك اليوم حتى علم أنهم قربوا مثله لجنده
جميعاً^(٢) .

وأما كرم النفس فقد سقت فيما سبق أمثلة عديدة على عدم تعصب المسلمين
وأهم وسعوا برحمتهم ، ودينهم ، وكرم نفوسهم أهل الذمة الذين أوا أن
يسلموا وخضعوا لحكمهم ، ولو كان هؤلاء متعصبين حقاً لأبادوهم ، واستأصلوهم
ولقد جنى عليهم هذا التسامح في بعض الأحيان ، فقد سمحوا للصارى لأ-س
بأن يظلوا تحت رعايتهم ، وأظلموهم بعدلهم ، وأعدقوا عليهم من خيرتهم ،
ولكنهم أصمروا لهم الشر ، وكانوا حريصين عليهم حين ضعفوا حتى طردوهم من
بلادهم .

وتاريخ أوروبا المسيحية ملطخ بالتعصب الدينى ، وقد لاقى يهود على
أيديهم في كل الأزمنة ألواناً بشعة من العذاب والأصهد ، وقد ذكر (دورى)
في سياق تعليقه لسرعة فتح العرب للأساس أن اليهود وذرء كبر لهم عوفاً

(١) كسكر إقليم واسع عاصمته خسرو - بور ، وصارت مددت (واسط) فصبتها

(٢) راجع الطبرى ٤ ص ٦٤ ، وابن الأثير ٢ ص ٢١٣ ، وابن خلدون ٢ ص

لأن رجال الدين الكاثوليك قد أرهقهم وأذلهم ، واستعبدوهم ، وذكر أن الناس في القرون الوسطى كلما سألوا : لماذا نرى هذا العالم الذي ينبغي أن يكون مثلاً أعلى في القرايس اقلب جحياً ؟ أجابتهم الكنيسة : لأن هذا من غضب الله الذي يرى أن قتلة ربنا لا يزالون كثيراً .

وبدأ اضطهاد اليهود سنة ٦١٦ م ، وأعطوا مهلة سنة ليتصرفوا ، وإلا طردوا خارج إسبانية وصودرت أملاكهم ، وجُلد كلُّ منهم مائة جلدة ، وقد تنصر منهم عدد كبير ، ولكنهم ظلوا يضربون اليهودية ، ويختنون ، فقرر جمع الأساقفة مصادرة أولادهم لينشئوا في ظل الكنيسة ، وظلوا يعذبون أكثر من ثمانين سنة ثم طردوهم من الأندلس ، ومن أثر البقاء منهم حكم عليه بالرق ، فلما جاء المسلمون فرحوا بمقدمهم فرحاً شديداً ، وحرروهم ، فكانوا من أعظم أنصار الإسلام (١) وذكر صاحب فتح الطيب أن المسلمين كلما فتحوا بلداً من بلاد الأندلس انضم اليهود إليهم ، وأقامهم المسلمون حرساً عليها لحفظها ، وكانوا أدلاء للمسلمين على مواطن الضعف في المدن الإسبانية (٢) .

ولقد وضح أحد المسلمين ، حين طُرد العرب من أسبانيا لآخر مرة في سنة ١٦١٠ م الفرق بين اضطهاد المسيحيين للمسلمين وإرهاب محاكم التفتيش ، وتسامح المسلمين في أثناء تاريخهم الزاهر بأسبانيا بقوله : « هل حاول أسلافنا

(١) راجع R. Dozy Histoire de Musulmans d'Espagne. t. II. pp. 45-6 Leyden. 1865.

وراجع M. Reinaud وكتابه Invasion Des Sarrazins en France en ٧١١ م وترجمة الأمير شكيب أرسلان (تاريخ غزوات العرب) ص ٣١ ، ص ٢١٠ .

(٢) راجع أشرى في فتح الطيب ص ١٠٠ - ٢٨٢ .

المنتصرون ولو مرة واحدة أن يستأصلوا المسيحية من أسبانيا حين كان في مقدورهم أن يفعلوا ذلك ؟ : ألم يسبحوا لأبائكم بأن يتمتعوا بحرية في دينهم ؟ ألم يوصي نبينا بأن تترك الحرية الدينية لأهالي البلاد التي يفتحها العرب بحمد السيف مهما بلغت آراؤهم الدينية من حق وخرق ؟ ، وأنتم لا تستطيعون أن تظهروا لنا شيئاً ما عن أى حادثة خاصة بسفك الدماء ، أو تقديم للمحاكمة في سبيل نشر الدين الإسلامي ، كما تفعل اليوم محاكم التفتيش المقوَّنة في استئصال المسلمين (١) .

واقداً اصطنع الخلفاء في كل العصور أشخاصاً مسيحيين ، كأطباء ، وكتاباً و مترجمين ومنتجين ، وشعراء ، مثل بنخيشيوغ الطبيب التسطوري مع أبي جعفر للنصور ، وابنه جبرائيل مع هارون الرشيد ، والأخطل مع بني أمية . وحنين بن إسحق وأسحق بن حنين ، ومتى بن يونس ، وثابت بن قرّة وغيرهم مع خلفاء بني العباس . مما يدل على رحابة الإسلام وكرم نفوس المسلمين .

فأين هذا كله من ذلك التعصب الذميمة الذي أضرمه المسيحيون ضد الديانات الأخرى من يهودية وإسلام ، وغيرهم . بل اضهدأرهب المذهب المسيحية بعضهم بعضاً ، وقامت حروب عديدة في أوروبا من أثر هذا التعصب المذهبي كحرب الثلاثين عاماً بين البروتستنتية والكاثوليكية ؟

وأما كرم القلب فيكفي للدلالة عليه أن ريتشارد قلب الأسد قد مرض في خلال الحرب الصليبية فحزن عليه صلاح الدين لأيوياً ، وحنوه ، وكب من عاداتهم تقدير الأعداء الصرحاء الشجعان . وبف ضاب ريتشارد - حين تمكنته

1. A. A. 22. da " is explained, vol. II. pp. 215-216.
10

الحجى - فأكهة ، أرسل إليه صلاح الدين الكثرى والتفاح ، والتلج الذى كان يأتى به من الجبال كل يوم لأجله^(١) .

فأين هذه المعاملة السمحة ، والقلب العظيم ، من تلك الفظائع الدامية التى ارتكبها الصليبيون المسيحيون فى بلاد الشرق الإسلامى ؛ وأين هذا من محاكم التفتيش التى قامت فى أسبانيا ، والتعذيب الأليم الذى احتمله المسلمون بعد أن ضعفوا ، وأكروه على الجلاء أو التنصر ؟؟ .

وهاك مثلاً آخر على كرم القلب العربى للسلم ، وعلى تلك المعاملة المثالية للأعداء ، فقد وقع (جان دى برين) أسيراً فى يد الملك الكامل بدمياط ، فلما حضر أمامه أخذ يبكى وينتحب . فقال له الملك الكامل : مم تبكى أيها الملك ؟ فقال أبكى لأنى تركت القوم الذين أتولى أمرهم يموتون جوعاً ، ويموتون غرقاً : فرق الملك الكامل له ، وبكى مثله ثم أرسل ثلاثين ألف رغيف للفقراء والأغنياء من جيش عدوه على السواء ، أربعة أيام متوالية^(٢) .

لقد كان المسلمون يعملون بقول الله تعالى ، ويمثلونه فى كل حركاتهم وأقوالهم : « ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفار . حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق ، فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره إن الله على كل شئ قدير^(٣) » .

وبقوله تعالى : « ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً ، أفنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين^(٤) » ،

(1) Stanley Lane Poole. History of Egypt in the Middle Ages p. 355.

(2) Gustave Schlumberger. Récits de Byzan e t de l'Orient .

سورة بقرة آية ١٠٩ . (٤) سورة يونس الآية ٩٩ .

ويصدق فيهم وحدهم قول أحد الباحثين الفرنسيين : « إن مهمة الفارس الحق هي حماية المرأة ، والأرملة ، واليتامى والرجال الذين في حاجة إلى العون والغوث ، لا الرجال الأقوياء » (١) .

وكان من تقاليد العرب في الفروسية ألا يجهزوا على جريح ولو كان من أشد أعدائهم ، وهذا قيس بن عاصم يبكى ويتندم أشد الندم لأنه قتل الحطيم في حروب الردة . ورجله مقطوعة وهو لا يعلم أن برجله شيئاً (٢) . ومن تقاليدهم إكرام رسل العدو (٣) ، وهذه هي نصيحة على بن أبي طالب لأصحابه يوم صفين وفيها كثير من سنن القتال عند العرب ، وسمات الفروسية الحقة : « ولا تقتلوهم حتى يقاتلوكم ، فأنتم على حجة ، وتركهم حتى يقاتلوكم حجة أخرى . فإذا هزمتهم فلا تقتلوا مذبراً ، ولا تجهزوا على جريح ولا تكشفوا عورته ، ولا تمثلوا بقتيل ، وإذا وصلت إلى رجال القوم ، فلا تهتكوا سيئر ، ولا تدخلوا داراً ، ولا تأخذوا شيئاً من أموالهم ، ولا تهيجوا امرأة ، وإن شتمن أعراضكم وسببن أمراءكم ، فإنهن ضعاف القوى ولأنفس » (٤) .

كان هذا شأن العرب في حروبهم : شامة ، ومروءة ، وفتوة ، وخدمة . وغوث للضعيف ولو كان من أعدائهم ؛ وهذا سر كفر قريش في بدر أوصى بهم النبي عليه السلام خيراً ، قال أبو عزيز بن عمير : كنت في رهط من لأبصار حين أقبلوا بي من بدر ، فذكر إذ قم غداؤهم إذ عتاهم خصيرون

(١) راجع ص ١٢٠ من هذا الكتاب .

(٢) راجع أيام العرب في الإسلام ص ١٥٦ .

(٣) راجع وصية أبي بكر قواد برهته في غزوة بدر في ص ٢٨ ،

وابر الأنبياء ص ٢٠٠ .

(٤) راجع في يوم صفين ص ٥٥ ، ص ٢٣٥ ، ص ٢٠٠ .

ياخلبز ؛ عملا بوصية رسول الله إياهم بنا ، ما تقع في يد أحد منهم كسرة خبز إلا تقحف بها ، فاستحي فأردها على أحدهم ، فإردها على ما يسها ، وكان أبو عزيز هذا صاحب لواء المشركين يوم بدر^(١) .

وأما الوفاء بالوعد فقد مر بك عدة أمثلة على وفاء المسلمين وغدر الصليبيين والأوربيين في حروبهم : غدر ريتشارد قلب الأسد بأهل عكا بعد أن استسلموا له على الرغم من المعاهدة ، وغدر السيد القمبيطار بمسلمي بلنسية بعد أن استسلموا له ، إذ لم يكن هؤلاء الغريبيون ، ولا يزالون حتى اليوم . يعرفون الرحمة بالضعفاء المغلوبين على أمرهم ، أو يتدخلون لحمايتهم حتى قال فوريل : « كنت أود أن أتأكد من تدخل الفروسية الغربية في الأمور الاجتماعية والسياسية إبان القرون الوسطى بحقائق مؤكدة لا يتطرق إليها الشك ، تحدد في نفس الوقت طبيعة هذا التدخل ومقداره في قائمة الضعفاء ، ولكن حقائق من هذا النوع لا يوجد لها أثر في التاريخ ، وليس أماسا إلا وثائق شعرية تلمح إلى مثل هذا ، وكلما تدل على أنه تدخل في مصلحة الأقارب أو من ساطة قضائية أو أنوية »^(٢) .

* * *

لا يزال القدر والحياة ، وعدم الوفاء بالعهود ، والاستمساك بالخدعة ، واتخاذ القسوة والعنف ديدن الغربيين حتى اليوم في حروبهم ، وكأما حردتهم الطبيعة القسوة التي عاشوا في ظلالها حقبا طويلة من الزمن من كل معنى الإنسانية ، وهم إن أهـدو إبان القرون الوسطى شيئا من تهذيب الطباع ، ودماثة الحـق ، وعـربـ مثـل العـبـ قـلا عن العرب . فقد تنكروا لها بعدما صارت

ربـ الأمـ الإسلامـة لمصرى مـ ١٥٨ - ١٠٠

حـ دورـ Four في كتابه P. 437 Des-Provencal, t. I.

حضارتهم مادية لا تؤمن بغير الحديد والبار ، والقهر والغلبة ، والجشع والطمع واستعباد الشعوب ، واستنزاف دماؤها ؛ وليس ما عمله الإنجليز في فلسطين ، والعراق ، ومصر ، وفي كل بلد نزلوا به ، وما عمله الفرنسيون مع البربر والعرب في مراكتش ، والعرب في تونس والجزائر ، وما عمله الطليان مع أهل طرابلس ، وقتلهم عمر المختار وهو في شيخوخته بعد أن أبلى في حروبهم ، وكان من واجب الفروسية ، والتعاليم المسيحية أن يكرموه لشجاعته ، ومحبتة للحرية ، ولشيخوخته وضعف منته ، ولكن هيهات وهم قوم جردوا من كل معنى الإنساني .

أيها العربي المسلم لقد قدمت بين يديك هذا البحث ، وأجهدت نفسي في أن أعرفك حقيقة نفسك . وأنت من أمة كانت عرة في جبين التاريخ لم ير العلم ولن يرى خيراً منها ومن دينها . وأنت اليوم في يقظة عقلية ، ووعي قومي ، ولن يفيدك شيئاً أن تُنسخ شخصيتك ، وتفرك الحضرة العربية ، والقوة المادية ، قانهمز وأعمل على أن تسود بالحق والعدل ولرحمة ، والقوة والقوة ، وشر الإنسانية بتمامه قومك السامية ، وهداية ديك لرحمة لعل يرجع عن غيه ، ويعود إلى رسته . إن التاريخ ينتظر أن تقب صفحاته ، وتسطر فيها عهداً جديداً كله خير ، ومرحمة لك ولعيرك .

هذه صفحات في فلسفة الحق العربي ولغوية العربية ، تكشف عن روح العظمة بها . وإن تقوم الأمة قائمة على تراث حق نادر - حقيقة عظم . وواحي القوة فيها . فليست رمتي . رحيش يكذب . ولا ساقدم ب سدر سن القوة العربية غير ترمم تسمم صفحات لمقيد من هذا كتاب حتى تكلم ترمم ترمم .

صور من الفتوة العربية

مرودة ووقاء^(١)

خرج النعمان بن المنذر ملك الحيرة يوماً للصيد في كوكبة من فُرسانه ، وضربت له قبة مز أدِيم على طرف الصحراء ، ومعه حاشية ضخمة ، وجفان وقيان ، ثم ركب فرسه اليعموم^(٢) ، وكانت ملّ الجواد طول الجلام ، فما أن اعتلى صهوة ، حتى راح يمزعُ غرباً في أعنته كالطير تنجو من الشؤبوب ذى البرد ، والصحراء تعبق برّياً الخزمي والعرار ، والريح بليلة ندية ، والشمس تُسفر تارة وتحتجب أخرى ، والسماء مبرقطة بالغيام ، والنعمان فرحٌ مريح يُرخي لجواده العنان ، والجواد يطوى أدِيم الفلاة طيه لا تكاد سنا بكه تمس الأرض من فرط عدّوه ، وما هي إلّا برهة حتى لاح له غير^(٣) قد اكتنز لحما ، وطبق شحما ، وأحسن بالخطر الداهم فهو يعدو عدّو الظليم^(٤) ، يروم النجاة وأين النجاة ؟ وخلفه قيد الأوابد^(٥) ، يعدو على أثره .

وأنغل النعمان في الطراد ، وأخذت الجواد حُمياً الصيد ، فانطلق يطوى الحزون^(٦) ، وينهب القفار ، لا يلوى على شيء ، ولا يكفكف من غربه

(١) نصح الأمثال لميداني ص ٤٦ ج ١ . والمستطرف في كل فن مستظرف ج ١ ص ١٩٩ ، والأغانى ج ١٩ ص ٨٨ ط الساسي ، ومعجم البلدان ج ٦ ص ٢٨٥ .
والخاسن والأضداد للجاحظ ص ٥٨ ، وبلوغ الأرب للأوسى ج ١ ص ١٢٧ ، والخاسن واساوى ص ١١٧ ، وقصص العرب ج ١ ص ١٦١ .

(٢) اليعموم : الأسود . (٣) المير . حمار الوحش .

(٤) صم . ذكر النعام . (٥) وحوش الفلاة .

(٦) جمع حزن وهو الأرض لصلبة .

زجرُ النعمان له ، وقد أدرك أنه قد سيطرته عليه ، وأنه انفرد عن أصحابه ، وأنه
أُمن في القلاة . وبينما هو في شغل بجواده ، تفتحت أبواب السماء بماء منهر ،
والتس النعمان مأوىً يأوى إليه وقد كفكف الجواد من غُلواته ، ورطب ماء
السماء حرارة رأسه ، فبدأ واستكان ، وسار على هيئته ، بعد أن توارى عن ناظره
الخير في دغلٍ كثيف .

ورأى النعمان عن بعد خباءً فدلف إليه ، ووجد به رجلاً من طيء يقال له
حنظلة ، ليس معه في هذا القفر الموحش إلا امرأته . وبجانب الخباء شاة سمينة .
فقال النعمان : هل من مأوى ؟ فقال حنظلة : على الرّحب والسعة ، وخرج إليه ،
وتأقاه يبشر وسماحة ، وهو لا يعرفه ، ثم دخل على امرأته وقال لها : أرى رجلاً
له هيئة ، وما أخلقه أن يكون شريفاً خطيراً ، فما الحيلة ؟ ، فقالت : عندي شيء
من طحين كنت أدخرته ، فاذبح الشاة ، وسدّ صنع من الطحين خبز ملة^(١) . وقام
الطائي ، فحلب شدة ، ثم ذبح ، وأطعم النعمان من لحمه ، وسقه من لبنها ، وبات
يسامره ليئته ، ويروي له خبره وخبر الصحراء الواسعة الفجج ، والنعمان في أشوة
عما يسمع ، وفي غبطة لهذا الكرم الذي أظهره نحوه ذلك البدوي الفقير ، على غير
علم بمكانته .

وبعد أن تمتع ما شاء بحديث مضيفه ، وبهواء الصحراء السّجّج رقرق ،
لعب الكرى بعقد جفاه ، فدم نيئة هتة ودنة . وأيقضته شعة شمس
وخيوطها الذهبية تداعب مقنتيه . ولم لبس ثيابه . ومتى جرد ، وستّ ذن

(١) الملة : الرماد الحار ، وخبز الملة ما يصنع به .

من رب مشواه ، وهم بالمسير قال الطائي : يا أخاطيء اطلب ثوابك ، أما للملك .
النعمان ا قال : أفعل إن شاء الله .

ثم عاد النعمان إلى أصحابه ، ورآهم في قلق زائد عليه بيد أنهم وجدوه في أمن
وعافية ، تتراءى سمات المسرة على أساور وحبه ، وأخذ يقص عليهم بآه وأه
قضى ليلة ممتعة كل المتعة يساعده هذا البدوي ربيب الصحراء ، وأه وجد فيه
صيداً أغنى وأسمن من صيد القلاة . وأه نعيم بمقامته أيما راحة ، وقد رأى من
الطائي كرمًا لا يُحَدُّ ، لأنه جاد بكل ما يملك من حطام الدنيا ، وهو شاته التي
كانت تطفئ ظمأه بلبنها ، على غير علم بمكانته واسمه .

ومضى زمان ، والنعمان يتربقب قدوم الطائي عليه ، ليرد له بعض ما طوق به
عنته ، ولكن الطائي لا يُسمع عنه خبر ، حتى إذا كانت سنة شبيهة ، أتت
على الأخضر واليابس ، بنحلت فيها السماء ، واقطع الحيا ، وأجهد أهل البادية حتى
أكلوا البراييع وخشش الأرض ، والطائي يحاهد نفسه ، ولا يود وإن مات أن
يقدم على النعمان ليذكره بيده لديه ، وكيف يطلب على صرع المعروف جزاء ؟
وكيف يتقاضى ثمن الأرمحية ، ولو كان صاحبه مَلِكًا يقصده سادة العرب
وأشرافهم يسألون من حباته وحم عطايه ؟ .

وأخذت امرأته ترج عليه أن يقد نفسه ويقدّها ، وأن يُطمئن من سموخ
نفسه . ثم إن النعمان ملك لا سوقة ، والواحب أن يؤمه طالباً رفته ولو لم تكن
ثمة له راحة ، وبعد لأي ومجودة عيفة لنفسه قبل أن يأتي الحيرة .

... سرى في حشيتته خراج اندبته ، تناكى السلاح ، ممتطياً جوده
... يدتية ، وما رأى الطائي عرفه ، وتغير وجهه حين

رآه وتقطعت أساريه وظن الطائي به الظنون ، وتدم على أن قصده ، ولو كان
في لبثه بباديته حينه ، إلى أن قال له النعمان :
— أنت الطائي المنزول به ؟ .

— نعم !

— أفلا جئت في غير هذا اليوم ؟

— آيت اللعن ! ، وما كان على بهذا اليوم .

— والله لو سمع لي في هذا اليوم قابوس أبي لم أجد بدأ من قتله ، فطلب
حاجتك من الدنيا ، وسل ما بدا لك ، فأبكت مقتول !

— آيت اللعن أيها الملك العظيم ! ، وما أصنع بالدنيا بعد نفسي ؟ وماذا
جئت حتى أستحق القتل ، وقد قدمت توأ من البادية ؟

— لا يوم نرسي ، ولا مدصر من قتلت ، وذاك على ترغم من كرمك
عدى .

— فإن كان لا بد ، فاحلني حتى ألي ، أهلي ، فأوصي بهم ، وأهبيهم حلهم ،
ثم أنصرف إليك .

— أقم لي كفيلا بموافاتك .

— إن كنتي عند أيها الملك العظيم ، وركن في صدق لعدمتي .

— لأبد من كميل !

فالتفت الأعراي إلى حشية نعر يتبرس وجره . ويتوصر أهل حير
ووقع نظره على شريك بن عمرو رديف^(١) نعر . وحب مدمته فـ : :

(١) رديف الملك : هو الذي يركب خلفه ، ويشرب منه ، ويعطيه دمه .

يا شريك يا بن عمرو
يا أخا كل مصاب
يا أخا النعمان فك الـ

هل من الموت محالة
يا أخا من لا أخاله
يوم ضيقاً قد أتى له

وامتقع لون شريك ، وصمت برهة تجاذبته فيها عوامل شتى ، وهزته الأرمحية ، وقال لنفسه : إن هذا الرجل أهلٌ للكرامة بعد أن سمعت من الملك عظيم فعله على غير معرفة به ، وستكون مآثرة يتحدث بها العرب ، وقد اختارني من بين جميع الحاشية لما توشم في من الأرمحية ، وستكون سبة لو خيبت أمله ، وما أظله يخف وعده . ولكن هه أخلف ، وطالبني الملك بتنفيذ وعيده . فأبى لى به بعد أن تضمره الصحراء فى جرفها . وحان يوم البؤس فى العام القابل ، أليس فى ذلك حتفى لعير جريرة ارتكبتها ، وفى سبيل نخوة كاذبة ، وهل أنحى بسفى ، وأحرم ولدى حياتى من أجل هذا البدوى الجلف ؟ .

ورفع شريك رأسه ، وأبى أن يتكفل بالأعرابي ، فوثب رجل من
كعب يقول له قُرَاد بن أَجْدَع ، وقال للنعمان : أبيت العن أيها الملك الجليل !
هو عي ، فقال النعمان : أَفْعَلْتَ ! قال : نعم ، فضمته إياه . وطمع لسان الطائي
بشكره ، وأكده أنه لن يخلف وعده ، ولن يخيب رجاءه فيه . وأمر النعمان
تطائي بخمسمائة مائة معكـ زيتها مَعْدَان^(١) وضح في أوبارها الأبد ، فمضى
بها الغنى لأهله ، وقر حص الأجل حولا من يومه ذلك ، إلى مثل هذا اليوم
من قديم .

رے سے اذیت کس میں علیہ لال وی مثالہ : حسک ولا کالسعدان ، وتوضیح
مکرہ نہ ہو ۔ من شوت *

ثم مضى الحول ، ولم يبق على الأجل المضروب إلا يومٌ ، وقال النعمان
لقراد : ما أراك إلا هالكا غداً ، فقال قراد :

فإن يك صدر هذا اليوم ولّى فإن غداً لناظره قريب

ثم أصبح النعمان في يوم يؤسه ، وركب في خيله ورجله ، وهو في كامل
شكته كما كان يفعل في مثل هذا اليوم من كل حول ، حتى أتى العريين^(١) .
وأخرج معه قراداً . وهو يتسم له ، ويقول : لقد حان حيلك يا قراد ، فودّع
الديا ، وتلّ منها قبل أن تغادرها . وقراد ثابت جأته ، وثق في الله ، وفي وعده
ذلك الضأى ، الذى رأى فيه سميت الببل على الرغم من فاقته وخشوة مضربه .
وأراد النعمان أن يتعجل قتل قراد ، قبل أن يأتى الضأى ، إذ كان يعز عليه أن
يقتل رجلاً أسدى إليه صنيعاً جليلاً . فمر بالطع أن يُمدّ ، وبأسيف أن
يطيح رأسه حين وقف بين العريين ، وتبيّ قراد لموت ، بيد أن ورر . اعمر
عز عليهم أن يقتل قراد جزء أريحته ، فقالوا بمنع : ليس سلك أن يمد حتى
يمضى النهار ، فعلى الضأى أن يصدى في وعده .

وولى النهار سريعا على قراد ، وكادت الشمس تحجب^(٢) . ونخت
تودع الديا بابتسامة صفراء من فمها الذهبى . وأرحت دويث من شعره عير
الأفق الغربى في نون المصرا ، وجرّ لأفق . وسكنت ديا سكوت تودع
للشمس الخبيبة ، ونظر بعون إلى قراد . وقال : لآ يا قراد يبق لك لآ

(١) قران دفن فيهما . معان صديقي . كى ياده . وأمر بشبه . وهو في
سكره ذات ليلة ، ولما أفاق نام على قتلها ، ودوسه على ثرى ، وورث هيبه .
بدم أول من يراه وهو واقف بينهما في مثل هذا يوم من تلابيه .

(٢) تحب : تقيب .

تنجز ما وعدت ، قهياً للموت ، وإذا امرأته تشق الصفوف ، مولولة ناجبة ،
ممولة ، باكية ، وهي تقول :

أيا عين بكى لى قراد بن أجدا رهينا لقتل ، لا رهينا مودعا

وقد سمعت عيون السامعين لنعيها ، أسفا وحزنا على قراد بن أجده ،
إلا عين النعمان فإنها كانت جامدة ، وود أن يروى نفسه الظمأ بمنظر الدم
للمراق ، وأن ينقذ الطائي بقتل الفداء ، ولم يهتز قلبه لصوت الأسى واللوعة
ينطلق شجياً كثيباً منبعثاً من قلبها الدامى .

ووقف قراد على النطم^(١) ، وهم السيف بقطع رأسه وشخصت إليه
الأبصار ، وهو مستسلم للموت فى ثبات عجيب ، وجراحة من يعرف أنه ما آتى
منكراً فيتندم عليه ساعة حينه ، بل آتى جيلاً يثلج صدره ، ويذكر بعده ، وإذا
شخص يترأى من بعيد فى نهاية الأفق ، فصاحت بطانة النعمان : كف أيها
السيف حتى يأتى هذا الشخص ، فيعلم الملك من هو ، فاعله الطائي قد برّ بوعده ،
ووفى بكلمته .

وانتظر الجميع ، وأبصارهم شاختة على هذا الذى قد بدا فى طرف الأفق
وقد حبسوا أنفاسهم ، وصمتت ألسنتهم ، وهو يتضح لم شيئاً فشيئاً ، حتى
ظهرت معالم وجهه ، فإذا هو الطائي ، قابض أصداق قراد ، وابتم قراد نفسه
وردت إليه روحه التى غربت عنه أو كادت ، ودبت الحياة فى وجهه ، ومُر
الجميع تقدم الطائي إلا النعمان ، فقد شق عليه مجيئه ، وقال له :

— ما حدث عى الرجوع بعدم أفلت من القتل ؟

— إنه الوفاء أيها الملك ، أبيت اللعن .

— وما حملك على الوفاء ؟

— إنه وعد العربي ، ودمته ، وشرفه ، وحاشاي أن آتي بما يخل بالشرف فأكون سبة لأهلي ، ولقبيلتي أبد الدهر . وما أنا ممن يخاف الموت حتى يقبع في بيته وبدع غيره يقتل من أجله . وأنا على ثقة بأنني لم أرتكب جريرة فأنسى على نفسي العار ، وأنني أقتل إرضاء للملك ، وتحقيقاً لعادة اعتادها ، وقد أبي لي نفسي ، وسوء جدتي أن أقدم عليه في يوم يؤسه ، فأتى حتفى . وهذا قضاء من الله لا راد له ، وأجل قد انتهى أمدى ، ومنية قد حان حينها ، فهي أيها الملك العظيم فاني رهن أمرك . وأما أنت يا قراد ، فصفحة عما قدمته لك من إساءة واضطراب ، وما كنت لأنسى لك هذه اليد الكريمة ، وقد صممتى لدى الملك ، وأكون سبياً في إراقة دم ركي كدمك . وإلى ما ميت اليوم فمن طيء بأسرها تعلم مقدار صنيعك . وجيم عارفتك .

وذهل المعين ، ودُهشت حاشيته لهذا النبيل الذي يمكن في هذه الأسمان ، وهذه النفس الرفيعة التي تنقطر في تلك الكلمات : وطرق النعمان برهة . وهو يرى أنه أمام مثاليين من الأمثلة العليا في الوفاء والبرودة ، وفاء الطائي وقد مشى لحيه بنفسه ، وقد كان يسجي عن أن تناله يد ، محتماً بـ "أوسمى" (١) :
تَزَلُّ الوَعُولُ العُضْمُ عَنْ قَذْفِهِ وَتُصْحَى ذُرَّةُ نَاسِمَاءِ كُوفَرٍ (٢)
ومروءة قراد وقد بدد نفسه لموت ، وكان معه قاب قوسين أو أدنى .

(١) جلي طيء . (٢) كوامراً : سماعة

وأخذ يحدث نفسه ، وكيف يكون الأم الرجلين ؟ وما هذه العادة الوحشية ، وإراقة الدم البريء لغير ذنب اقترف ؟ إنها نزوة شيطان ، وفي سبيلها أطوح بالجليل . إن هذا الطائى خلّيق أن يحيا ، وهو على ما يتحلى به من كرم وأريحية ، ووفاء ، وفتوة ، ورجولة كاملة^(١) .

ورفع النعمان رأسه وقال يا أخا طيء . لقد شاء الله أن ينجيك من القتل ، والله ما أدرى أيكما أوفى وأكرم . أهذا الذى نحا من القتل فعاد ، أم هذا الذى ضمنه ؟ والله لا أكون الأم الثلاثة . ولقد بهرتمانى بصنيعكما ، حتى عافت نفسى هذا العمل الذمى ، ثم أمر النعمان أن يهدم الغريين ، وأقلع عن تلك العادة الخبيثة ، وأشأ الطائى حين سمع أمر النعمان بهدم الغريين يقول :

ما كنتُ أخلف ظنّه بعد الذى أسدى إلى من الفعّال الحالى
واقعد دعتنى للخلاف ضلالتى فأيتُ غير تمجّدى وفعالى
ولقد أجزل العمان عطاه . وعاد إلى قومه معافى مكرماً ، بعد أن كان ودّعهم وداع المفارق لهم إلى الأبد ، وداع الذى حات منيته فهو يمشى إليها طواعية واختياراً ، فكان فرحهم بقدومه حياً لا يقدر ، وقد حمدوا له وفاءه ، وقراد مروءته . ولعنن عفوه .

(١) روى فى تحليل برده طائى أنه قال : دينى ، وقال له النعمان : وما دينك ؟ قال : سيرة نبيه . قال : أعرضها على ، فعرضها ، فتنسب هو وأهل الحيرة جميعاً ، وعندي أن هذا التنسب لا يصح . كانت معروفة بالحيرة قبل العرب . وكانت قبيلة المباد كلها نصارى .

وقد روى فى المعروف راجع : Huard : Histoire des Arabes.

فارس الشهباء

كانت الشمس تضرب وجه الأرض بسياط ماتهبة، وتصب على الأودية انققرة
حمامتقداً ، تحمله أشعتها المتأججة ، ووقف فارس في فجوة بين جبلين ، يحيل بصره
يمنةً ويسرة ، عله يجد طليته في مسافر أعياء الرحيل ، وأحده الحر فطلب
الراحة والظل في كف هذا الجبل لأثره ، فيأخذه على غرة ، ويسابه متاعبه
كدأبه في كل مرة يقصد فيها هذا المكان الذي يقع في مفترق الطرق ، بهذه
الصحراء الواسعة الفجاج ، الموحشة المساك .

وكاد يئس ، ويعود أدراجه صفراً الكف . وطال به الانتظار وهو لا يرى
على مدى البصر إلا وهجاً متلألئاً تنقته الأرض من خوف المتهيب ، فيعود متعباً
في طبقات الجو . ثم عد نفرسه عن تين ، وتضع رهوة إلى الأفق تمتد . ثم يجد
أحداً ، ثم عد نفرسه عن يسار ، وكان في هذه المرة أسرع جدّاً . إذ أصبح بقعة
سوداء تتحرك صوبه سريعاً ، مميّزتها عينه حادة ، بأنها فارس مثله قد قُبِلَ
من طريق اليمامة ، فامتلا قلبه بشراً ، إذ كان واقعاً من تجمعت ومهذبة . وأنه
لا كف له في ميدان الوغى ، وُعد البرزة .

وأخذ الفارس ينو منه سريعاً ، فيذ هوقى مجدولاً القدر ، حسب لهيئة ،
بهى الصلعة ، قد ثبت عنده ، وه حادة حية فرد تحيته في عحية ثم سبه :

— من الفتى ؟

— وما سؤالك في أمر لا يعير

— مستندم على قحتك وتحيرت . نعم وأحزنى من أنت .

— إن كان ذلك يثير فضولك ، فأنا الحارث بن سعد . فارس الشهباء .

— خذ جذرك فإني قاتلك !

— لقد طلعت في حلمي ، فكذلك أمك فمن أنت ؟

— عمرو بن معد يكرب الزبيدي .

— الدليلُ الحقيِر ، والله ما يمنعني من قتلك إلا هَوَانُ أمرِكَ واستصغارُ

شأنك ؛ فأخذ عمرو يتأمل الفتى ويتمجب من جرأة جنانه ، وسلطنة لسانه ، وقد كان يظن أن اسمه سيقذف الرعب في قلبه ، فإذا هو يحتقره ولا يأبه له ، وعزا ذلك إلى حبله بما هو مقبل عليه من خطر ، أو إلى غروره بمِيعَة شبابه ، فقال له :

— دع عنك هذا ، وخذ جذرك ، فما من قتلك بد !

— يا عمرو ابق على نفسك ، فإني من معشر ما أثكلهم فارس قط !

— هو الذي تسمع ، ولن ينصرف إلا أحدا ! وستعلم بعد أينما الحقيِر ،

فتردد الفتى هنيهة ، كئيباً عنَّ له أمر أو خشي التلوث والملك في مبارزة هذا الصلوك ، وأمامه مهمة أُحلَّ خطراً ، ولكنه أفاق من تردده سريعاً وقال :

— اختر لنفسك ، إما أن تُطرد لي ، وإما أن أُطرد لك .

فضن عمروُ الفرصةَ مواتية ، ولم يشأ أن يعرض مهارته للاختبار ، فقال :

— اطرد لي .

فَصَرَدَ . وحمل عليه عمرو بكل ما أوتي من قوة وأيد ومهارة ، وظن

أنه قد غررَ رُءُوحَ بين كتفيه . ونسكن التني في لباقة العليم . وخفة الظليم^(١)

وحرص الحكيم تفادى ضربته ، بأن انطوى تحت الفرس حتى صار لها حزاما
ثم نشط كالأجدل^(١) ، ورفع قناته فقتع بها عنقاً وصار تحت رحمته ، ورهن
ضربته ، وقال له :

— يا عمرو ! خذها إليك واحدة . ولولا أنى أكره قتل مثلك لأرديتك
قتيلاً .

فشر عمرو بن معد يكرب ، الفارس الأُمِّيم ، وصاحب الوقائع المشهورة ،
ومن له الاسم اللدنى في أرجاء البادية ، بالصغار والموان ؛ وقد غلبه على أمره
فتىٌ حَدَثٌ لم يكذب ينبت عنده ، فأجابه في إصرار وئاس .
— والله لا ينصرف إلا أحدنا .

فعرض عليه الحارث بن سعد فارس الشهباء عرضه السخى ، كما فعل
أول الأمر ، وخيَّره في الطراد ، فاختر عمرو موقفاً الأول وقال له :

— ضرد لى .

فَضْرَدَ الفتى وملاأت الحمسة والعيظ قب عمرو ، وتحمعت منه كعب
فى سربته فلما طن أنه تمكن منه ، وأنه وضع الرمح بين كتفيه ، إذ باقنى يتسبب
فرسه ، ويسجو من ضربته ، وإذا به يطمش على صبرة جواده ، ويخص على
عمرو فى منح المصر ، ويقع رأسه قدسه ثنية ، ويقور لعمرو وقد متقع وجهه
وظن أنه من 'هالكين :

— اذهب ثنية ضيق صغرك وضعته تبت .

فعر على عمرو موقف حبيبة وعر مدى وقته . وتكر قوه .

(١) لأحدن : العار .

وجاشت إلى النفس أول مرة فرذت على مكروها فاستقرت
فأخذته الحية ، وأى أن يستسلم ، وفضل ، الموت حقاً ، على أن يكون طليق
هذا الغلام الحدث ، فيلوك الناس فيما بعد اسمه ، وتذهب هيئته ، وتضعف
صولته فقال لعمرو :

— والله لا ينصرف إلا أحداً فاطرد لى .

فاطرد الفتى ، وتهياً عمرو لضربته الأخيرة ، وتذكر هزيمته ، وخزيه ،
كما تذكر شرفه وفروسيته ، وحمل على خصمه كأنه الصخر يدفعه السيل من
أعلى الجبل ، وهوى برمح ، وظن أنه قد ناله بعطب فيه هلاكه ، ولكن الفتى
ترجل من فرسه فى خفة ورشاقة فأخذته الضربة ، ثم استوى على الفرس فى سرعة
عجيبة ، وقمع رأس عمرو بقناته ثالثة ، وبت برهة يتمتع فيها باسكسار الفارس
المقدام ، قطاع الطريق ، وذى الصيت المديد ، وقد طأطأ رأسه ينتظر القتلة ،
ولكن الفتى قال له وهو يتسم ابتسامة المدل بنصره وفتوته وسماحة نفسه ،
ورحابة صدره ، الواصل من أمره .

— يا عمرو ، س أطلقك الدابة على ألا تعود . ولنؤلا كراحتى قتل مثلك

لترككت لقي اغيور القلاة ، فأذهب لشبك .

فصرخ عمرو صرخة أخرجت من أعماق نفسه ، وقال : القتل أحب إلى

من هذا ، ولا تسمع فزسن العرب بموقى ميت .

وأتى الفتى فى صوت جبورى قوى فيه برت التصميم ، والإرادة المبرمة .

— عمرو ، العفو عن ثلاث ، وإذا تسكنت منك فى الرابعة ، فإمن

قتل ... وسد .

وَكَدْتُ أَغْلَظًا مِنَ الْإِيمَانِ إِنِ عَدْتُ يَا عَمْرُو إِلَى الطَّعَانِ
لَتَجِدَنَّ لَهَبَ السِّنَانِ أَوْ لَا فَلَسْتُ مِنْ بَنِي شَيْبَانَ
فَذَهَبَ بِهَذَا مَا تَبَقِيَ فِي نَفْسِ عَمْرُو مِنْ مَقَاوِمَةٍ ، وَجَلَدَ عَلَى الطَّعَانِ ، وَامْتَلَأَ
قَلْبُهُ رَهْبَةً وَهَيْبَةً لِهَذَا الْفَارِسِ ، وَأَكْبَرَ مِنْهُ هَذِهِ الْجُرْأَةُ ، وَالْمُبَارَاةُ ، وَالْأَسْنُ ،
وَالسَّامَاةُ فَقَالَ لَهُ :

— أَنْتَ أَوَّلُ فَارِسٍ أَذْعَنَ لِي ، وَإِنْ لِي إِلَيْكَ حَاجَةٌ .

— وَمَا هِيَ ؟

— أَكُونُ لَكَ صَاحِبًا .

— إِيَّاكَ لَنْ تَطْلُقَ مَعِيَ صَبْرًا ، وَيَحْكُ ! أَتَدْرِي أَيْنَ أُرِيدُ ؟

— لَا وَاللَّهِ !

— أُرِيدُ الْمَوْتَ الْأَحْمَرَ عِيَانًا .

فَقَالَ عَمْرُو ، وَقَدْ 'زَدَادَ' إعْجَابُهُ بِفَارِسِهِ وَتَحَرَّكَ فِي غَسِّهِ الْقَصِيرِ ، لِيَعْرِىَ مَدَى

شَجَاعَةِ هَذَا الَّذِي هَزَمَهُ ، وَوَصَمَ جَبِينَهُ بِالْعَدْرِ :

— أُرِيدُ الْمَوْتَ مَعَكَ .

— إِذَا قَامَضَ بَنَا .

فَسَارَا يَوْمَئِذٍ أَجْمَعٌ ، حَتَّى جَنَّ عَيْنُهُمَا لِلَّيْلِ ، وَمَضَى شَطْرُهُمَا ، وَهَمَا بِمَقْدَنِ

الرَّيْحِ لَا يَسْتَرِيحَانِ أَوْ يَخْفَقَانِ مِنْ حِدَّةِ عُلُوِّهِمَا ، إِلَى أَنْ دَخَلَا فِي حِمَى حِمَى مِنْ

أَحْيَاءِ الْعَرَبِ ، فَقَالَ الْفَتَى لِعَمْرُو فِي صَوْتِ خَفَاتٍ :

— هُنَا فِي هَذَا الْحِمَى الْمَوْتُ الْأَحْمَرُ فِيمَا أَنْ تَمْسُكَ عِزَّ فَرَسِي . وَهَلْ وَاقَعَتْ

بِحَاجَتِي ، وَإِمَّا أَنْ تَنْزِلَ وَأَمْسُكَ فَرَسَكَ فَتَنْبِيَّ حَاجَتِي ، وَمِنْ بَخْتِ قَدَرٍ

عَلَى ذَلِكَ .

البعد — هكذا — طيا حتى بدت غرة الصياح من بين سجوف الليل الدامس .
فابتسمت له الدنيا ابتسامة الحبيب لحبيبه ، وأخذت الصحراء تنشر مفاتها بين يديه .
ثم ما لبثت ذُكاء أن طلعت بوجهها الوضاء وشعرها الذهبي المرسل . فقال الفارس
لصاحبه :

— يا عمرو ! التفت فانظر هل ترى أحداً .

— إني أرى كوكبة من القربان .

— أغذذ السير — وهيات أن فوتهم . انظر أقليل عددهم أم كثير ؟ فإن
كانوا قليلا فالجلد والقوة وإن كانوا كثيرا فليسوا بشيء .

— إنهم أربعة أو خمسة إن لم يخفى بصرى .

— أغذذ السير ، فستكون معبدة لا يعلم مصيرها إلا الله .

وأخذت القافلة تجرد في سيرها — استطاعت ، ولكنها كانت مقيدة مخضرة
الناقة ، فسرعان ما سمعوا وقع حوافر احميل تضرع آذانهم وكثرت مذكرات موت ،
فقال الفارس لعمرو :

— كن عن يمين الطريق ، وقف ، وحول وجه دوايك إلى الطريق ، ونهتبه
لاستقبالهم ؛ فإن ذلك أكرم بنا .

ودد لقوم سهم ، فإذا هم ثلاثة نفر : تنبأ بدت عليهم دلائل القوة وامتدة
وكرم البحار ، وشيخ وقور قد امتلأ صفة وعافية . على الرغم من شيعه وحته ، وقد
استوى على صهوة حواده استرء الفرس حبيب . كان هذا شيخ له حورية
وكان الشابان أحويها . ووقفوا تحفه فرس سبد ووحيد ، وقات شيخ
في صوت ملى لين :

— خل عن الجارية يا ابن أخى .

— ياعم ! لقد حُلَّتْ بينى وبينها ، وهى مُنِيَّة النفس ، وسيدة القلب ، وما كنت أنتظر أن تردنى ، إذ خطبتها إليك ، خائفاً ، وعجبت لأمرك ، فإنك لن تجد لها أكفاً منى بعلا : شرفَ مَحْتَد ، وشجاعة قلب ، وكرم يد ، وحسبى أنى أفتى إلى الدوحة التى تفرَّعت منها حبيبة قلبى .

— ليس المقام يا ابن أخى مقام عتاب وجدال ، واستعطاف . ولقد خسرت بجرأتك الليلة على انتهاك حرمتى ، وخطف ابنتى ، ما بقى لك فى نفسى من احترام ، وفى قلبى من مودة . تغل عن الجارية ، واصرف لشألك .

— ما كنت لأخليها ، ولا لهذا أخذتها ولن أدعها إلا وأنا أشلاء ممزقة .
فدومك وما تريد :

فقال الشيخ لأصغر ابنه : اخرج إليه .

فخرج إليه فتى فى عصفوان شبابه يجر رمحاً ، وكان الناظر إلى الفتاة يرى وجهها قد علتة صفرة الاضطراب والخوف . وقد وَجَبَ قلبُها وجيباً شديداً ، وهى بين عاملين : عامل الخوف عن حبيبها ، وابن عمها ، وعامل الحرص على حياة أحب .

وجاء العتيان حولات صادقات ، ورهن كل مهما على أنه كفء لصاحبه وندته فى الطعان . بيد أن فارس الشهباء كان أثبت منه ضربة وأسرع يداً ، وفى صرته من صرباته الدفدة ، أصمى غريمه فسقط مضرجاً بدمه .

فصار سيح لابه لآخر : خرج إليه فنوت خير من حياة ياطخها العار ،
ويصم : —

نخرج القتي وكان أعظم من أخيه جثة وأصلب عوداً ، وأقوى طعنة ،
فحمل عليه الحارث بن سعد فارس الشهباء ، وقد قارت ضفه ، وحى قلبه ،
وهو يرتجز :

لقد رأيت كيف كانت طعنتي والصعن للقرن العنيف همتي
والموت خير من فراق خلتي فقتلتى اليوم ولا مذلتى
ثم شد على خصمه شدة ، وصوب إليه طعنة ، وجأ بها جوفه فخر صريعاً
يتشخط بدمه ، بعد أن جرحه غريمه جرحاً بائعاً في ثغره ، وأبلى في سراع بلاء
مجيداً .

فقال الشيخ لفارس الشهباء : خل عن الظعينة ، فإنى لست كمن رأيت .

— يعر على ياعماء أنى قتلت أخوى فى ميدن الشرف ولحب ، ووفى ن
أتملى عن عدل الروح ، طيبة بذلت نفسى ، حسبك أن قبل أخوه ، فدمى
وإياها ، ولا نلجئنى لقتلك ، فلك فى قى منزلة عاية ، وهيبة عظيمة ، هربك
لا ما أبقيت على ما بيننا من قربى ومودة .

— هيهات يا بنى ! وقد صرع ابنائى دفاعاً عن شرف أهين ، وكرامة مهت .
أولئلى يوجه هذا الكلام ؟ وأنت جد عيب بما كسبت يداى من ثخر فى مبادئ
البطولة والبأس ، إنى أحذرك ثخر عن الفتة ، واضطق لشمتك .
— دولك القتال إن أردت .

— اختر لنفسك . فإن شئت دزلتك وإن شئت صردت .
فزل القتي ، وزل الشيخ ، وكست ترى فرسين كل منهم مدرء إهبة

تجدة ، وحيوية ، وقوة تريح الأرض تحت أقدامها ، وارتجز الشيخ وهو يمشى ،
إلى خصمه :

ما أرتجى عند فناء عمرى سأجعل التسعين مثل الشهر
يخافنى الشجعان طولَ دهرى فى خدش عِرضى قاصمتُ الظهر
ومشى الحارث مشية الأسد الرئبال وهو ينشد .

بعد ارتحالى وطويل صبرى وقد ظفرتُ وشفيتُ صدرى ،
للموت خيراً من لباس الغدر والمار أهديه لى بكر
وتباريا ساعة فما وجد أحدهما فى صاحبه غفلة أو ثغرة ينفذ منها إلى بدنه .
فقال الشيخ :

— يا بن أخى إن شئت ضربتك ، فإن أبقيت فىك بقية فاضربنى وإن
شئت قابداً أنت ، فإن أبقيت فى بقية ضربتك .
فقال الفتى ، وقد ظن أنها فرصة :
— أنا أبداً .
— هت !

فاتضى الفتى سيفه ، ورفع يده فى حبروت وعنف ، فلما نظر الشيخ أنه أهوى
ضرب بطله سيفه صرية قد مهب أمعه وغذت من ظهره ، وكانت ضربة الفتى
قد وقعت جاسية ندبدة على هامة الشيخ فضرت فضاضاً ، وسقطا ميتين تبكيهما
الشجاعة المذلة ، والقوة الجالدة .

وذهبت عمرو بن معدكرب . وقد رأى من هذه لبطولة النذة ،
... ..

، وناقة وجارية ملء إهابها حسنا وملاحة وشبابا . فأخذ بمخطام الناقة وأزمع إلى داره ،
قالت الفتاة :

— يا عمرو ! إلى أين ولست بصاحبك ولست لى بصاحب ، ولست كمن
رأيت .

اسكتى !

— إن كنت لى صاحباً حقاً ، فأعطني سيفاً ورمحاً ، فإن غلبتني فذلك ،
وإن غلبتك قتلتك .

فتردد عمرو ، وقد ارتاب في شجاعته وكفاءته لهذه الفتاة ، بعدما رأى من
أهلها كلٍّ مثل نادر في المقدرة على القتال والشجاعة الخارقة ، وأبى أن يعرض
شجاعته مرة أخرى للبلاء ، فزجرها ورفض أن ينيلها ما طلبت .

فرمت نفسها عن البعير ، وأقبلت نحوه تنور :

أبعد شيخى ثم بمد أحرقى يطيب عيشى أو تضيب تنى
وأصحتن من لم يكن ذا همة هلا تكون قبيل ذى ميقى !
ثم انزعجت سيفاً من يده ، في قوة وعف ، تخوف عمرو وشن أنها ستقتله .
ولكن لا . إنها غمست السيف في صدرها حتى نفذ إلى قودده ، وهوت على
إثر ذلك بشحب دمه ، وتميخص روحه . فمست كل هد بسرعة زائدة ، وما تبين
عمرو أنها قتلت نفسها أقبل عليها فقات ، وهى تحود بنفسه . لأخيراً :

إنى جد سعيدة ، إذ خفت من أحب و عيس همة همة ، ودوت من
الفضلات التى تخفوه من سيوف و فرس عيب نرسى بساب ، عبيدة .
ثم فارقت الحياة .

حامى الطبيعة

الشمس مائةٌ توقدُ بالضحي ، ورمال الصحراء تزفر زفرات ملتهبة تعلو
صعداً في طبقات الجو كأنها فحيح الصلال الرقط ، أو أنفاس جهنم ، وتهب
أمواجاً أمواجاً كأنها بحر من لهب ، وخلت البیداء من الحياة فلا ترى
إلا رملاً متوهجة ، وصخوراً جائئة ، وكثباناً قائمة . بيد أن فرساناً أروا على
الأربعين يقوده فارس بنى جشم ذريد بن الصمة قد اقتحموا غمرات هذا
البحر المتقد ، وخبوهم تنهت نغوباً وظماً ، وأحسامهم تنضح عرقاً ، ورووسهم
تكاد تذوب من وقدة الشمس ، وواردياك البساط الرملى المديد الذى تمشى
عليه جيادهم ، وكأنها تنتقل على رمضاء زاهية الجمرات .

وما أن رأوا صخرة عاتية ألقت ظلها على الأخرم - وادى بنى كنانة -
حتى أووا إليها أشد ما يكونون تعباً وصباً ، وأعظم ما يكونون لهفة ونشوقاً
إلى الراحة ، والاختفاء من هذا السعير .

خرج هؤلاء الفرسان من ديارهم قصد غزو بنى كنانة والتسكيل بهم .
لأحقاد قديمة متوركة ، قد تأصلت في قلوبهم ، وترات متبادلة قد أقضت
مضجعهم ومازت نفوسهم صغية وإحماً . حرجوا لطمهم يبالون من خصومهم
ما يفصل عنهم عار هزيمة ساقية ، وأعيهم كذلك يصيبون شيئاً من الخير في تلك
السهة محدبة التى تتعصى الأخضر واليبس ، ولا سبي ولبنى كنانة واد لا تزال
منه تبتدئ شرعة ، قد قومت القحط وقت لعمهم ، كتدز لهما ، وكثرة شحم
ديارهم .

وما أن استقر بهم المقام حتى قال لهم قائدهم دُرَيْدُ بْنُ الصَّعَةِ : الرأى أن
نظلَّ هنا يومنا هذا حتى يأتى الليل فنبدأ النارة ويكون بذلك قد استرحنا
واستجمت جيادنا ، فنقوى وإياها على حر المعركة ، ثم إن القوم الآن أيقاظٌ
وقد أوت إبلهم إلى مرابضها في أكثاف الحى ، ولو أغرنا عليها واستغاث
أحدُ عبيدهم لمبوا إليه جميعاً سيوفهم مُشرَّعة ، واسكات معركةً يهزم فيها
الأقلون عدداً ، فواقفه صحبه على رأيه وطفقوا يلهون ويضحكون ويستريحون
وبيناهم كذلك إذ لاح لهم رجل فى ناحية الوادى ومعه خنينة ، فقال دريد :
« قد يرا هذا الرجل ، وينبه علينا قومه إن تركناه ، فهو لا شك ميم صوب
الحى ، والرأى أن قتله أو أسرهِ ويكون هذا أول الغنم . فمن منكم يتصدى له
وله كل ما معه حتى الظامينة ؟ » فقام شاب فى عفتوان العمر يكاد يتفخر قوة
وصحة وحياة وقال : « إني له » ، فقال له دريد : « لا ذولك برجل » . فمتضى
حواده ونا انتهى إليه صاح ، ونُح عليه أن يستمر ولا فهو من هالكين ،
فوجد منه إعراضاً وإباء ، ثم رآه يلقى زيمم لرحلة ويقرب للصعدة :

سبرى على رِسْلِي سِرّاً لآمنِ سِرّاً دَرَجِ دَرَجِ حَتَّى مَا كُنْ
إِنْ اتَّأْنَى دُونَ قَرْفَى تَأْنَى أَتْبَى بِلَاىَ وَحَرَى وَعَيْبَى
وأقبل على العارس بوجه طلق ، وسيف مصتٍ وقاب : « حـ حـ حـ
بنفسك ، واحفظ ميم تدبك . فست لي ريد ، ويرى أهت ودهت نسيح
وعودك الفض وعمرت البصير ، . قدر فارس بن حسيه : « ليس ولد رى
النكوص من سبيل ، نخذ حدر . إني قاتلت .

ثم جالا حولات ، وحجلا حمالات صدهت ، وكان حراً فارس و مشه

صريعاً يشحط في دمه إثر ضربة فائكة من حامى الظمينة الذى أخذ فرسه وأعطاهما لها .

ولما رأى حريد أن رسوله قد طال به اللكث بحث بفارس آخر لا يقل عنه أيداً ، وشجاعة ، وصلابة عود ، وعِظَمَ هيئة ، فلما انتهى إليه ورأى صاحبه مجذلاً ، والرجل قد أخذ مخطام البعير وهو منطلق كأن لم يحدث حدث ولم يلق الردى فارسٌ تبجاعٌ ، صاح به مهدداً إن لم يستأسر ، ولكيه تصامم عنه وظل مطلقاً لا يلتفت إليه ، ففز على فارس بنى جشم أن يَهْمَلَ هذا الإهمال فغشيه نحواده ، فلما قرب منه ألقى زمام الراحلة إلى الظمينة وكر راحكاً على مهاجمه وهو يقول :

خَلَّ سَبِيلَ الْحَرَّةِ النَّيْعِ لِمَكَ لَاقِ دَوْهَا رَيْبِهِ
فِي كَفِّهِ خَطِيئَةٌ مَطِيئَةٍ أَوْ ، لَا . نَفْذَاهَا طَعْمَةُ مَرْيَبِهِ

فالتعن مى فى الوغى شريع

ووحده نذرى من ساقه صون القتال ، وأشد نسا ، فخال معه حولات وحمل عليه حملات دهم حملات الأسد تحمى عرينها ، وما هى إلا رهة حتى صرع مهاجمه صرعة تنبئة ، وألحمه صاحبه فى وادى الموت ، أما حامى الظمينة فـ . عاديه وشوة لا تنصر منه برديه ، ولعزة تملأ حياته ، وقاله يقيص به . و . وأحد يتود أعير وستنف سيره ، وهى تنظر إليه نظرت تفصح وشرة ، تم . به صرة ليرة . فى ارجل لى يعر

ويكرمها ويحميها فلا تذلل ولا تهان ، نظرة المرأة إلى الرجل القوي الشجاع الماهر .

وما كاد يخطو خطوات حتى سمع فارساً ثالثاً يصيح به ، قد أرسله حديد لينظر ما صنع أصحابه من قبله ، ولكنه لم يتوقف أو يتريث بل ظل مسطيقاً يقود ظليته ويحرر رمحه ، فزاد هذا الإعراض الفارس التهاماً وقد رأى صاحبه مجادلين معمرين ، فمدا صوته وهو يتميز من العيظ ، ويود أن يزيقه إرباباً إرباباً ، فقال حامى الظمية لها : « اقصدى قصد البيوت » ثم أقبل على مهاجمه يقول ماذا تريد من ستيم عاس ألم تر الفارس بعد الفارس ؟

أرداهما عامل رمح يابس

فرد عليه فارس بنى حشم : « أريد أن أذيقك كئس موت ، وأريق دمك ، وأكأ لك ، ومثل بحسبك حزاء وودقة على ما قدرته يدك من قتلك هدين الطمين ، والسيد بن الشريمين ، فقال حامى لصعيبة : وينحث ألم يكن في مثبها لك عطاء ؟ أتني إلا أن تاحق بهم ؟ عرب عبي . وإلا فأنت في عداد المالكين » فقال قرنه : هيهات لن يبرح إلا أحدهم نخذ جذرته فإن صهي يرتقون عودى .

فقال : — « ن تعودوى يمدى عد رمح » ، وحمل عليه حمة رذته قتيلاً وأكسر فيها رمحه ، وتركه يتحط في دمه ومضى نحو صاحبه . ثم أتت إلا أن تنتظر كيف تكرم بهية عد سرع . ثم ربه يعود مصرعاً والانتسامة ملء فمه ، عادت به طمأينته ، ووعص فمه رهقاً وسجداً . كبرى في كيف هذا الفارس البطال . وم كل حركة قد سعد حده رجا .

فكان أليفها وقرينها مثل صاحبها هذا بأساً ونجدة وقوة ، واستأنف سيره حتى أشرف على بيوت الحى .

ولكنّ دريد بن الصمة قد رآه أن يذهب رسله فلا يعودون ، وظن أنهم قتلوا الرجل وأخذوا الظعينة أسيرة ، وأنهم قد نزلت بهم نزوات فاعتدوا عليها ، أو أنهم اختلفوا فيما بينهم على الغنيمة فاقتتلوا ، وهاج أصحابه واضطربوا ، واستنكروا غياب أصحابهم ، فهدأ روعهم واطلق بنفسه ليقف على حلية الأمر فوجد أصحابه قد قتلوا ، فلحق بحامى الظعينة وألقاه بدون رمح ، وعز عليه أن ينازل مثل هذا البطل المغوار الذى أردى ثلاثة من أشجع فرسان بنى جُشم وأدراهم بفنون القتال ، وهو أعزل من السلاح ، فقال له دريد : أيها الرجل مثلك لا يقتل ، ولا أرى معك رجماً ، والليل ثائرة بأصحابها ، وهم فى شك من أمرك ، ولو رأوك لقضوا عليك فدونك هذا الرمح ، وإنى منصرف إلى أصحابى فسيطهم عنك إعجاباً بآسك وبلائك فى القتال ، وشجاعتك النادرة المثال .

وأنصرف دريد وقال لأصحابه : إن فارس الظعينة قد حماها ، وقتل أصحابكم وانتزع منى رعى ، وعفا عني ، ولا مضطع لكم فيه ، فأنصرفوا قبل أن يحيطكم ببوكمائة ويجهزون عليكم ، فإنه على وشك أن يصل إلى بيوت الحى » فأنصرفوا ، وقد دريد فى ذلك

ما إن رُيتُ ولا سمعتُ مثله	حامى الظعينة فارساً لم يُقتل
أردى فارس لم يَكُورَ نَزْة	ثم استمر كأنه لم يفعل
تدور تدور به قُوح	مثل الحسام جفته كف الصيقل

يُزْحَى^(١) ظليته ويسحب ذيله متوجهاً يئناه نحو المنزل
وترى القوارس من مخافة رجه مثل البغاث خشين وقع الأجدل
بألت تنعري من أبوه وأمه ياصاح من يك مثله لا يُعْهِل
انصرف فرسان بني جشم ، وقد أخفقت غارتهم ، واضطروا أن يعودوا
أدراجهم وقد ردهم فارس واحد عن غايتهم ، ولا تزال الشمس تقدح فوق
رءوسهم ونصب شبيب النار على لأرض فتزيدها ضراماً ، ولا يزال حرّ
الرمل يشوى أطراف الحيل وهي تعدو بهم في ذلك الجحيم .

ورآهم حامي الظئينة وهم ينطلقون قتال :

إن كان ينفك اليقين فسألى عنى الضئينة يوم ودى الأخرم
إذ هي لأول من أتاها هبةً نولا طعن ربيعة بن مكدم
إذ قال لي أدنى القورس مية خلّ الضئينة ضئعاً ، لا تندم
فصرفت راحلة الظئينة حوه عهد ليوم بعض ما لم يعد
وهتكت بالرمح الطويل إهده فهو صريعاً سيدين ولهم
ومنحت آخر بعده جياشة نخلاء فافرة كشدق الأضج
ولقد شفعتها بآخر ثالث وأبى الفرار لي لعدة تكري

دارت الأيـم دودتها ، وانصرفت بضع سنوات ، تهد في حرب بين
القبيلتين ، وفي كل غرة تشحن القلوب عما وحقد وموجدة ، وتتلخص حـور
العداوة في النفوس . ثم كان أن شارت بكر كسة عن بني حـم غرة تنوء
أخذوم فيها على غرة فقتلوا منهم حقاً كبير ، برؤوس سد كثير ، وكن

(١) يزحى : يسوق سوقاً رقيقاً .

فيمين أسر بطل بني جشم وحامى ذمارها وفارسها المليم دريد بن الصمة ، ولم يعرف بنو كنانة أن في حوزتهم سيد قومهم ، وأعظمهم همة وجراً ، وورضى بالأسر موقناً أن الحرب سجال ، وأنه سيدينهم في غد كما دأبوه اليوم .

وبينا هو في محبسه عندهم منلول اليدين ، لا يملك لنفسه شيئاً ولا ضراً ، ورجال الحى قد انصرفوا لشئونهم في الضحى ولم يتخلف في البيوت إلا الشيوخ والنساء والأطفال ، عن بعض فتيات الحى أن يلهين بمداعبة الأسرى ، والنظر إليهم وهم يرسفون في الأغلال والقيود ، ولعل عند أحدهم حديثاً ممتعاً أو قصة طريفة تذهب ما هن من ملل ، ودلقن يحدوهن الخمر ويمغزهن العتب إلى حيث دريد بن الصمة ، وكان وحده بعيداً عن بقية الأسرى من بني جشم في بيت رجل اسمه محارق وهو الذى أسره ، وما أن رآيه حتى صرخت إحداهن صرخة ارتفعت لها أخواتها وقالت : « هلكننا والله ، ماذا جر علينا قومنا ؟ هذا والله الذى أعطى ربيعة ربحه يوم الطعينة » : ثم ألقت عليه رداءها وقالت : « يالْقَوْثَى أما جارةٌ نه مكيم ، هذا صاحبنا يوم الوادى » فسأله من هو ؟ فلم يحد بدأ وقد رأى أملاً في البجاة أن يذكر اسمه . فحاط : دريد بن الصمة .

فقل النسوة في صوت واحد : الفارس المغوار ، ياللعار !! لقد أكبرنا يوم فستك يوم الطعينة ، وقد لا يصدر هذا إلا من كريم عظيم ، فسألن . — من صحى الذى حى بضربة وأردى ثلاثة فرسان من خير شباب بني — رُشَيْر من بطنوة واشجاعة والدربة مادفعنى إلى أن أكرمه وتبنيته . ورشيرة شحات من أحارته :

— ربيعة بن مكرم .

— وما فعل ؟

قتله بنو سليم ؟

— فافلت الظئينة ؟

— أنا هي ، وأنا امرأته

فطأطأ رأسه أسفاً على ذلك القارس ولا كباراً لامراته التي عرفت الجليل ،
وتقدمت لتجزيه معروفاً بمعروف وأجارت من قومها .

ولما عاد رجال الحى تشاوروا في أمره بعد أن أخبروا خبره وعرفوا عِصمه
منزله ، وجيل قدره ، وأن المروءة عند مثله لا تضع سدى ، وأن ما قدمه من
سابقة خير لبطلم يوم الظئينة قد طوق جيده بالمعروف .

فقال بعضهم : لا ينبغي أن كفر سمته على صحبه . هو هال للخير
والكرمه .

وقال آخرون : والله لا يخرج من أديب إلا برض محرق لذى سره .
وكاد الأمر ينتهى إلى هذا ، وتحقق المرأة في مسعده ، ويدب لشق بين
أحياء بنى كنانة ؛ لأن عشيرتها - بنى فراس - سيقفون مع ويشدون زره .
واكبها تقدمت إلى القوم ، في قديتهم وهي متقمعه ، وشب صوت
قوى عذب :

منجزى دريدا عن ربيعة سمته	وكر مريء يخزيه كبر قدمه
فإن كان خيراً ، كان خير حزوّه	وب كبر شره . كن شر مدمه
منجزيه معى لم تكن بصغيرة	بعشه رمح يعويل مقوم

قد أدركت كفاه فينا جزاءه وأهل بأن يجزي الذي كان أنما
فلا تكفروه حق نعماء فيكم ولا تركبوا تلك التي تملأ الفما
فلو كان حيا لم يضق بثوابه ذراعاً ، غنيا كان أو كان معدما
فكروا حديدأ من إسار مخارق ولا تحلوا البؤسى إلى الشر سلما
فكان شعرها القول الفصل ، وأجمع القوم على أن يطلقوه من أسرهم
في غده ويقدموا لمخارق ما شاء من فدية إذا أبي أن ينزل على حكمهم وينصاع
لأمرهم . ولكن مخارقاً لم يكن ليخرج عن أمر أبرمه قومه وأجمعوا عليه ،
وأبى له أن يشذ عنهم وفيهم سادة بنى كنانة وأرأب الرأي والحكمة فيها
فلما أصبح الصباح أطلقوه وأخذته جارية - وهي ريطة بنت الطعان إلى
دارها وكسته وجهزته بمطية وزاد سلاح ولحق بقومه ، وقد آلى ألا يغزو
بنى كنانة بعامة . وبنى فراس بمخاصة ما عاش . وقد بر بقسمه فاستقرت سيوف
القبيلتين في أعنادها ، وحفظت دماء بريئة من أن تراق على مذبح البغي والثأر .
وهكذا كان حمى الظعينة سيد شريفا عفايا في حياته حين حمى امرأته ،
وفي مماته إذ كان سبأى في سر السلام وحفظ الأرواح ولدماء .

نار

في سَجْوَةِ الليل الدامس ، وهواء اليد يترقرق صفاء ولينا وحلاوة . ونجوم السماء تتألق بنور لامع تَفَاز ، بشق حُلُكَةِ الديحور ، وتزين حيد السماء بعقود درية فتاة ، أقبل شبحٌ يَمُحُّ الخطأ حناً نحو أحياء بني عبس وقد هدأت نَأْمُتُهُمْ حتى طوى بابَ زهير بن جذيمة العسى . ونعى زهيراً إلى أهله وعشيرته ، ونبأهم بأن خالد بن حفص بن كلاب قد قتله غدراً .

ريعت أحياء بني عبس للرثزة الجسيم ، وأقض صوتُ النعي مضجعه ، وأخذ تباهم وذوو الحمية يتوعدون القاتل الفادر ، ويدبرون الأمر للأخذ بثأرهم حتى لا يَفُتَ منهم ؛ وراح النساء يبكين في زهير سيدته وكرمه وشجاعته ، وتشت أصواتهن سكون الليل فدت مفزعة رهيبة مقبصة لئلا يصدور . أما خالد فقد أيقن أنه قد اقترب أمراً إذ ، وأنه لا قبل له بنقطة نبعمة وبني عبس بمخضة ، وصار يلجأ إلى مختلف القبائل عهم يخبرونه من طائفيه ، قالني الأبواب أمامه موصدة والأشراف منه نافرة للشرف البالغ الذي كان يتمتع به زهير ، ولعظم المصيبة في قتله .

ضاق على خالد الأرض بما رحبت وعلم أنه هلك لا محالة ، وأنه حر على قومه حرباً ضروساً سيفنى فيه العدد ليرفير ، فيشؤم مجرت يده ، وفترف من كبيرة ! . وحين دب اليأس في قوده وكاد يستسلم قمضته هتية ، وهري تعصره ، وتسدف في وجهه المنافذ ، لاح له بصيص من أمل في حوار العن بن منذر

ملك الخيرة ، حتى وصلها وهو لا يكاد يصدق بالنجاة ، واستجار بالنعمان ، فأجاره ، وهذا روعه ، وسكن جأشه ، فأيقن بالسلامة .

أنزل النعمان خالداً منزلاً كريماً . وأمر خدمه برعايته وأخيه ، وطلب إليهما أن يحضرا طعامه ومجالس أنسه ولهوه وشرا به ، فكان ذلك فوق ما أمل خالد وقدر .

أما بنو عبس فلم تهدأ ثأرتهم ، وحين علموا أن خالداً صار للنعمان جاراً صمموا على محاربة بنى عامر ، وأخذ قيس بن زهير يعد للحرب العدة ، ويجمع الرجال والعناد ، حتى صارت أسبابها لديه حاضرة ولم يبق إلا السير لغزو بنى عامر في ديارهم أخذاً بثأره ، وانتقاماً من عدوه . حينذاك قال له الحارث ابن ظالم :

— يا قيس ! أتم أعلم بحربكم ، أما أما فسأرحل إلى خالد حتى أقتله :
— قد أجاره النعمان ، فأنت لك به ؟
— لأقتله . ولو كان في حجره .

— دولك وما تريد ، وما ذلك على شجاعتك ونأسك بعيد . أما نحن فوجهتنا ببو عامر ، ليلاقوا وزراً ما حره عليهم سفهاؤهم ، فلنسأل الله أن يكتب لك السلامة . ويكتب لنا الظفر .

كان الحارث فتى لا كافتيان ، ريان الشباب ، فارغ العود . مقتول السعدين قوى العصل ، متين التركيب . ينموك حسمه بفتوة بالغة ، وأيدٍ غصية . وكان فوق هذا وسيم . حمير نصعة ، حلو الحديث ، ومن أعلم العرب بآيام . وأحدر فرسه . ومواقف نحوه واعترة التي وهما أبطالهم ، والمعصية

يستعر لظاها . وكان يروى كثيراً من أشعار الحماسة والبأس . كما كان فارساً شهيراً خبيراً بالقتال وأساليبه ، ذا قواد جلد ثبّت على الحوادث .

فلا بدع إذا رأيته يخرج وحده ليقتل جار النعمان ملك الحيرة أخذاً بشأره وغسلاً للعار الذي لطمخ به قومه ، قصص صوب الحيرة ، يتبعه رجل من بني محارب حتى أتى باب النعمان ، فاستأذن ، فأذن له النعمان ، وفرح به فرحاً عظيماً ، وأقبل عليه يحدّثه ويؤاكله تمرًا ، وسر من حديثه ووجد فيه متعة ولذة فأصنى إليه دون جلسائه جميعاً ، وكان من بينهم خالد بن جعفر — والحارث لا يعرفه — فلذغت الغيرة والحسد أفئدةً منهم ، وكان قواد خالد أشدّ تآلاً ، وأعظم كداً فقال للحارث :

— يا أبا ليلى ألا تشكرنى !

— من أنت ؟ وعلام ؟

— أد خالد بن جعفر ، وقد قتلت زهيراً ، فصرت بعده سيد غطفان .

لم يقدر الحارث أن القحة تبغ بخالد مبلغت ، حتى ينبجح منه بأنه قتل سيد قومه ويطلب منه الشكر عليه ، وعلم أن خالدًا متحرراً عن هذا الإلحاح به بالنعمان وكانت في يد الحارث تمرات ، فاضطربت يده حين سمع مقرر حننه وحدثه رعدة ، وجعل التمر يسقط من يده وهو يقول :

— أنت قتلته !! أنت قتلته !!

فلما رأى النعمان ذلك ، وهو يعلم من الحارث ، وما يقع من قوته وشدة

وبصره بالقتال نحس حاداً بعصده . وقوله :

— هذا يقتلك .

— أَبَيْتَ اللَعْنَ ! فَوَ اللَّهِ لَوْ كُنْتُ نَاتِمًا مَا يَقْظُنِي !

فكظم الحارث غيظه ، وهدأ نفسه ، ولم يشأ أن يهدد أو يتوعد ، أو ينم عن ذات قواده ، وزال مابه من رعدة ، فاستأنف حديثه لينأحلوأ ممتعاً كما كان ، وتقشع اربداد وجهه ، وعلته ابتسامته السايية ، كأن لم يكن منذ هنية قد تغير وامتنع . وورهن بضبطه خلجات نفسه ، وتحكمه في أحاسيسه وأعصابه على هذه الصورة البليغة على أنه رجل قد نضجت رجولته ، وليس فتى حدثاً تستفزه الحوادث ، ويفلت من يديه زمام نفسه .

وانصرف السمار من لدن النعمان ، وانصرف خالد وأخوه معهم ، وما دنت الريبة من قواده قط ، في أن الحارث يصمر له شراً . أو أنه يستطيع أن يخفر ذمام النعمان ، وهو الملك العتيد الطويل الباع . وكان من عادة خالد إذا دخل قبته أشرحه^(١) زيادة في الحيلة ، ففعل ذلك كعادته واستسلم لنوم عميق يزيده هدوءاً هواء البيد الرقراق ، وسيميا الليل .

أما الحارث فقد ابث عند النعمان قليلاً بعد انصراف السامرين ، ثم استأذن ونفسه العتية يحيش فيها العصب المكسوت كالترحل ، وبوده لو وجد خالد أمامه حتى يفتك به فتكة تكون عرة لسواه من المغرورين الجبناء ، ولكن خالد كان قد أوى إلى حيمته مطمئناً وادعاً .

وحين انتصف الليل وكاد ، وهدأت العيون ، وأطبقت الحيرة أحفانها تحتصصها نيباً في رفق وحن ، وتنفحاً بنسيمها العير الماعم ، تسال الحارث وحده . رسينه في يمينه هُصْتَمًا ، وأخذ يتحسس طريقه حتى وصل إلى قبته

(١) شرح الفجعة : دخل قصر عراها في من بين أشراجها .

خالدا في فناء قصر النعمان ، وكان الحراس قد غلبهم النعاس وأمال رهوسهم ، فلم يستيقظوا لخطواته الخفيفة الملمثة ؛ ثم هتاك عرسى القبة بسيفه ، ودخل رابط الجأش ، فألقى خالدا مأثما ، وأخوه إلى جبيه . فأيقظ خالدا ، فاستوى قائما فرعا ، ورأى الموت أمامه عيانا ، فقال له الحارث :

— ياخالدا أظننت أن دم زهير كان سائغا !؟ أو حسبت غطفان تدع لك دم ربها ، وتتركك وادعا في ظل العرين تتمتع بجواره . وطعمه ، وبجوس طربه ؟ لقد أقسمت لأقتلنك ولو كنت في حجره ، وهذا بر قسمي . ثم علاه بسيفه حتى قتله . واتبه عتبة فرأى أحاه مصرح بدهه . فقل له الحارث في صوت ملؤه الجد والصرامة :

— لن نبست لألحقنك به !

انصرف الحارث ، ووجد دمه يتطرد فريسه خارج وشتى كاهم جواده ، ووكزه فمضى يسوق رقيق ، ويهوى نيداء نيب مريع ، يرقه قرأت عيئه ، وبقا غضبه ، وسكت نسبه .

وخرج عتبة على أثره صارحا حتى أتى بـ العرس ، وهو يدي : يسوء جواراه ! ، ياسوء حواراه !
فأجيب : لارونغ عيك !

فقل : عتبة لوئيس الحرس رقد تسرع بيه : دحر حرس
تقتله ، وأخفر ملك ، فسوء حواراه .

كان رئيس الحرس يعاه مكة الحارث بن
نسبه يستطع أن يات في الأمرين رت

رجاله ، ولكنه كان يعلم كذلك أن الملك قد أجاز خالدا ، وأن الحارث قد أخفر ذمام الملك ، وأن هذه إهانة عظيمة ، وإثم كبير . فلم يجد بداً من إخبار مولاه ، فأوحى إلى بعض الجوارى بذلك ؛ فبهت النعمان حين أفضت إليه بالخبر ، واستعظم ما اقترف الحارث ، ووجه القوارس في طلبه ، وأمرهم أن يأتوا به حياً أو ميتاً ، وحذرهم بأسه وسطوته ، وشدة ميراسه .

اختار رئيس الحرس ثلثة من أشد رجاله بأساً وأيداً ودُرْبَةً ، فانطلقوا على جيادهم الفارهة المضمرة ، وعند السحر سمع الحارث ورفيقه وقع حوافر الخيل تجدد في أثره ، فوكز كلاهما جواده واستحثه على الإسراع ، ولكن أنى لجواديهما أن يسبقا خيول النعمان ؟ ولما لم يجد الحارث من المعركة بداً ، انتحى ورفيقه ناحية من الطريق ، وانتظر في ثبات وصبر فوارس النعمان .

فلما حادوه انقض عليهم ورفيقه ققتلا جماعة منهم ، وقتل كذلك تابعه ، وبقى الحارث وحده ، فتكاثروا عليه ؟ بيد أنه كان القارس المحنك فلم يروعه عددهم ، وكان يتقى ضرباتهم بمحذق وحيلة ويشد بسيفه عليهم ، فلا يضرب فارساً إلا قتله ، ولا يقصد جماعة إلا فرقها ، ثم إذا تكاثروا عليه كرة أخرى راغ منهم . وانتفى في عتقوان ، وبس ، وحسة ، يرى سيفه من دمائهم ، ويغمسه في أفئدتهم . ووجد القوم أنهم أمام شيطان مريد ، وفرس عنيد ، وبطل صنيدي ، ولما رأى أنهم قد هابوه ، وأن هجمته قد ألفت في قلوبهم الرعب ، لوى عنان جواده ، واطلاق يمينه . وقد أنحنته 'جرح . ولكنه لم يأبه لها ، وظل جواده يسبح في الجو كالأحرار حرس قد نر من قفصه .

أما فوارس النعمان فقد رجعوا إليه يحملهم الخزي ، ويحدوم العار ، ويرفهم
الانكسار .

وذهبت قصة الحارث بن ظالم مع خالد بن جعفر في شتى نواحي البيد ، يحكيها
الناس بالإكبار والإعجاب ، ويسردها الفتيان في متديباتهم ، والنساء لأولادهن .
ولكن حساد الحارث كانوا كثيرين ، فلم يستسيغوا هذا النصر ، وقال عمرو بن
الإطنابة أحد شائى الحارث وحساده :

عَلَّلَانِي وَعَلَلَا صَاحِبِيَا	وَاسْقِيَانِي مِنَ الْمَرْوَقِ رِيَا
إِنْ فِينَا الْقِيَانُ يَعْزِفُن بِالضَّرِّ	بِ لَقْتِيَانِنَا ، وَعَيْشَا رَضِيَا
يَتَنَاهَيْنَ فِي النِّعَمِ وَيَضْرِبُ	نَ خِلَالِ الْقُرُونِ مِشْكَادِيَا
أَبْلَغُ الْحَارِثِ بْنِ ظَالِمِ الرَّعْ	لِدِيدِ وَالنَّادِرِ الْمَذُورِ عَلِيَا
إِنَّمَا تَقْتُلُ النَّسِيمَ وَلَا تَقْدُ	تَلْ يَقْضُنْ ذَا سِلَاحِ كِيَا (١)

لبت الحارث في قومه حيناً ، وفي كل يوم يقي من إعزازهم له ، وتكريمهم
تشجاعته وبأسه ، ونفسه العار عنهم ، وللأخذ بثأرهم . ماجله يقنى في حب
قبيلته ، والنود عنها ، وينذر الذور ألا يفرط في حقوقه ، أو يدع عدو يكيد
لها هادىء البال .

وكانت بعض حراجه عميقة ، ولكن تنباهه ، وفتوته وحيويته ، وما أحيط
به من عناية ورعاية ، جعل البرء يمتسى إليه سريعاً ، ويستبد سجنه وعاميته ،
يواد إلى امتطاء حواده لدى شركه معرك مع شر رمس معرب . ولا سمع نب

(١) لكى لشجاع ، أو لاس السلاح .

قاله عمرو بن الإطنابة صمم على أن يسير إليه ، ويبارزه ، ليريه أى فارس هو وأنه لا يقتل النيام ، ولكن يُردى فى حومة القتال أشجع القوارس ، وأكلهم عدة وسلاحاً .

كان عمرو بن الإطنابة فارساً معدوداً فى قومه ، له صيت وله بأس ، ومواقف محمود ، وأيام مشهودة ، وكان مشهوراً بنجدته ، وكرمه واعتداده بنفسه ، حتى لقد أقسم ألا يدعو رجلاً بديل إلا لى دعوته ، ولم يسأله عن اسمه ، لقرط ثقته بنفسه ، ولعظم ما كلف به من المروءة والسجدة وإغاثة المضطر .

فلا عجب إذا نفّس على الحارث بن ظالم مكاتته ، وما يتمتع به من صيت مديد وإنما ينفس على المرء نظراؤه ولِدَاتُهُ . وكان الحارث يعلم عن عمرو شيئاً كثيراً ، ويعلم قسّمه هذا ، وأنه ليس له بند ، إذا جد الجد .

أتى الحارث حى عمرو بن الإطنابة ، وأخذ يسأل حتى اهتدى إلى خيامه ، فلما جن الليل هتف به فخرج إليه ، لا يسأله عن اسمه ، بل قال له .

— ما تريد ؟

— أعنى على إبل لبني فلان ، وهى منك غير بعيد ، وإنها لغنيمة باردة ؟

— لقد دعوت سميحاً .

ثم دعا عمرو بفرسه وأراد أن يركب حاسراً ، غير شاكى السلاح ، فقال له الحارث : ألبس عليك سلاحك ، فإنى لا آمن امتناع القوم ، والحذر جنة وربما نزلت بيننا وبينهم معركة .

نستألم عمرو وخرج معه بكامل سلاحه ، فلما برزا فى الأرض الفضاء ، ركب من مكن القوم ، قال الحارث لعمرو :

- يا عمرو أيكما أشجع أنت أم الحارث بن ظالم ؟
— لو التقينا وشهدت صراعنا لعلمت أنه لا يثبت لى فى معركة ، ولا يقوى على ضربات حسامى .
- وكيف هذا ؟ أو ما سمعت ما فعله بخالد بن جعفر وبقوارس النعمان ، وأظنك قد قلت فى هذا شيئاً من الشعر ، فبربك إلا أعدته على . . . فشد عمرو أليابه فى هجم الحارث . فقال هذا :
- أظنك قد ظلمته
- لا والله ما ظلمته ، وإنه ليعلم أى فتى يلاقى ، حين أثبت له .
- إذاً خذ حذرَكَ يا عمرو ، فأنا أبو ليلى وقد دنت ساعتك .
- بُهِت عمرو لهذه المفاجأة . ورأى أن الحارث غير تاركه إلا قتيلاً معفر الوجه ، لكن عز عليه أن ينهزم أمامه ، ويستسلم له طواعية فقل :
- ليليك يا حارث ! فطأ تميم هذه الآلوة حتى تشفى ما فى صدرى بقتلت
- خل عنك هذا وخذ حذرَكَ ، فلا يحدى تشجيعك نفسك شيئاً .
- واحتدم القتال بين الفارسين برهة ، ثم أطح الحارث بضربة حدقة شديدة السيف من يد عمرو ، ووضع ظُبةً حسامه فى نحره وقال له :
- كيف ترى نفسك ، وهل ترى الحارث بن خالد رهيداً ، لا يتر لا اليام ، ويخاف من الكفة الأبطال ؟ !
- اقتلنى بربك فاقتر أحب إلى من نحر .
- إني لا أحب قتل مثلك ، ففبك من "هجرة" ، وحب سير ما يدعونى لمن عليك ، والعفو عنك .

ثم جز نصيته وأطلق سراحه وقال :

عللاني بلذتي قينتي	قبل أن تبكي العيون عليا
قبل أن تذكر العواذل أني	كنت قدما لأمرهن عصيا
ما أبالي إذا اصطبحت ثلاثا	أرشيدا دعوتي أم غويا
غير ألا أمر الله إني	في حياتي ولا أخون صنييا
بلغتني مقالة المرء عمرو	بلغتني وكان ذاك بديا
فخرجنا لموعده فالتقينا	فوجدناه ذا سلاح كيميا
غير ما نأتم يروع بالاي	ل موعدا بكفه مشرفيا
فرجعنا بالصفح عنه وكان الم	ن منا عليه بعد تلييا

تأبط شراً

حملت به أمه كرمها (١) ، ووضعت كرمها ، فجاء آية في الذكاء ، وحدة
الخاطر ، وشجاعة الفؤاد ، وعظيم الحيلة ، ثم تيمم وهو طفل ، فركبته الشدائد
وشحذت همته الحاجة ، ولم يجد حوله معينا أو نصيراً ، فقويت ثقته بنفسه ،
واعتمده على ساعده وضربة سيفه . لم يألف تربيت الأب وتدليله ، وابتسامته
وتقبيله ، وإنما نشأ في حِضْن أمه ، تحته على طلب العيش لنفسه ولها ، وأنى له
أن يجد اللقمة قريبة المنال ، كما يجدها أبناء السراة والأثرياء من القبيلة ، وقد
خلّقه أبوه صيفر الكف إلا من نفس كبيرة ، فلا إبل يرعاها ، ولا حمى يحس
ذماره ، ولا جياذ ينيه بركوبها عجباً وخيلاء ، ويغير بها على الأعداء ، فيسر
ويغير ، ويملا بيتته خيراً كما يفعل المياسير الشجعان . وكان ذا نفس آية ،
وعزيمة قوية ، فأف من أن يعيش عالة على غيره ، ينتظر البر يناله من ذى
ميسرة عطوف ، أو ذى رحم كريم : أو يسندى الأكف ويريق ماء وجهه
وكرامته ، ويقطعه مزقاً في سبيل ملء البطن .

أجل ! إن ديارهم كانت مجذبة ، يحوع فيه الإنسان ويعرى . إن لم يتحول
عنها في طلب الكلاً والحصب والماء ، وهكذا كان تدن دوى نيسر من
القبيلة يكثرون من النجعة ويرتدون موطن العشب ويرى ، وسوقوت
نعمهم آلافاً ، ومعهم غيرهم من نرد دمينه . حتى يتسحر عرى وحدتهم ،
ويطمع فيهم جار قوى . أو سدو عايش ، فيسرهم رهم .

(١) العرب يعتقدون أن المرأة إذا ماتت وهى مضطربة ماتت .

في هذه البيئة الحشنة الجاسية ، وفي هذا البيت المعدم الحزين ، وفي حضن هذه الأم النايظة ، نشأ ثابت أبو زهير بن جابر مرهف الحواس : يسمع مشى القطا في سكون الليل ، ويشم رائحة الظباء قبل أن تتراءى للعيون ، ويرى في فسحة الصحراء وصفاء الأفق لمسافات شاسعة . وكان إذا خرج للصيد أو الفارة حسبته شيطانا ، فكله حواس يقظة متوثبة .

إذا فات شيء سمعه دل أنه وإن فات عينيه رأى بالسامع
قليل ناعس العين إلا غيابة تمر بعين جاثم القلب جاثع
إذا حن ليل طارد النوم طرفه ونص هدى الحافظ بالمطامع
يراوح بين الناظرين إذا التقت على النوم أطباق العيون المواجه

كان يترصد أسراب الظباء عند موارد الماء ، وهو بعد صبي حدث ، فيتخير تلك التي قد اكتنزت لحما وقد طُبِّقت شحما ، فيعدو خلفها وهي تنقز فزعة ، وتسابق الريح جريا ، ولا يلبث أن يقبض عليها يجتمع يديه . وكان كثيرا ما يرى متطاعا سيفه تاركا بيته في غزاة أو صيد ، فإذا سئلت عنه أمه أحابت : « لأدرى لقد تأبط شرا وخرج » ، فغاب عليه اللقب وعرف به وسمى الناس أن اسمه ثابت أبو زهير بن جابر ، وقالت له أمه ذات يوم إيان الكمة : ألا ترى غلمان الحى يحتسون لأهلهم الكمة فيروحون بها ! » فقال لها : « أعطنى حرايك حتى أجتى بك فيه » فأعطته ، فملأه لها أفاعى من أكبر ما قدر عليه ، ووضع بين يديها ، وكأه بهذا ينبها أنه أعظم همة من أن يحتى الكمة . يفعل العبد الضعف ، قليلو الحيلة الذين تعوزهم الجراءة رزق رزق .

ولقد زاد من شقاوته ، وتسعد من ضرواته ، وهياً له أسباب التردد والجفوة
والشدة والفتك ، إن أمه أبت أن تظل بغير بعل ، وأن ترضى بابنها واليا يعزها
وبترضاها ، ويضع بين يديها كل ما حنت يدها ، فتزوح أبا كبير الهذلي
الشاعر الفليق ، و « ثابت » لا يزال غلاماً صغيراً ، فاستمزت نفس الصبي ،
ونقر من هذا الدخيل على حرمة ، وكره من أمه ما أتت ، وكان لا يراه أبو
كبير إلا سربد الوجه مقطب الجبين ، كأنه ينوى شراً ، وازور عن أمه
وصدف عن ترضيها ، دون أن يجرحها بقول أو فعل ، ولكنه كان صموتا حذرا
ينظر إليهما شذراً ، ويطوى في حنايا نفسه أمراً .

فلما ترعرع ، وراه أبو كبير يزداد كل يوم صلابة عود وجراءة حنان ،
وطلاقة لسان ، وإحكام رمية ، وسرعة عدو ، خشي على نفسه مه ، فقل
لأمه : « ويحك قد والله راسى أمر هذا الغلام ولا آمه ، مد ترين ؟ » .
قالت : « فاحتل عليه حتى تقتله » . وهكذا بعته أمه يعة نخس ، ولكن هيات !
فهو في حصاة من نفسه عن أن يمسه سوء من قبل أمه أو زوجها .

طلق أبو كبير يفكر في أمره وأمر الغلام . وكيف يتدنى له أن يقتله ! ،
بات من هذا الشأن في همٍ مقيم ، حرمة الكرى خشية أن يتب به لعلاء ويرديه
لأنه حرمة أمه وهي - على ما بها من حشوة وحفوة ، وغظ كبد - كل
ماله في هذه الدنيا ، والتي من أحب نف نوحش وستطاب امرأة ، ومعين
في الغارة ، واقترحه على اموت عريه مرت ومرت لا يفكر إلا أن حنمه
نما تكاد تهلك مسغبة وعرياً ، فيزداد حرقة ويهدم إلى موت متى يرد
عليها حياة أو ينياب تشتهى .

ومضت أيام وأبو كبير لا يهتدى لحيلة أو يوفق لرأى ، وبينما هو فى قَدِيّ
قومه ذات مساء ، والقوم يسرون ويروون أخبار فتيانهم ، وكلّ يباهى بشجاعة
ابنه وفتوته ، ويفخر على عشيرته بما أبلى به فى الغارات أو النجدة أو السباق .
ولم يسمع القوم لأبى كبير صوتاً مع أنه يأوى فى بيته أشجع الفتيان وأكبرهم
همة ، وأجرأهم جناحاً ، وأشدّهم فتكة ، فسأله أحدهم :

— ما بال شاعر القوم لا يثنى على ثابتٍ ربيبه ، ويعطى بأسه وأيده ،
وقوة مراسه ، وواسع حيلته ، واسمه تتضاءل أمامه هذه الأسماء ، وتتطامن
خزيك ، فما صارعه منهم غلام إلا صرعه ، ولا سابقه عداء إلا سبقه ، ولا بارزه
فارس إلا كاد يفتك به .

فقال أبو كبير : « لم يصل إلى من نبأ هذا شيء ، وهو غلام صموت ،
ينطوى على نفسه فلا يعرف له سرّاً ؟ » .

— أو لم يبلنك أنه عزم على أن يتزوج الغول^(١) ، وأنه يفضى مأواها
ويتخذها خلية وجارة ؟ ، وهذا لعمرى ما لم يجرؤ عليه إنس من قبل ، وهو
غاية ما تصل إليه السطوة والبطش .

فامتقع وجه أبى كبير ، واضطرب قواده ، وتراخت أعصابه ورأى فى مثل
نح البصر يد هذا الغلام تقبض على عنقه بصرامة وقسوة فتستل روحه وتدعه
جثة هامدة !! ولكه تسك وتحد وقال وهو يتصنع الدهشة :

— أوتد فنى ؟

١ - غول : حيوان خيالي من تخیلات العرب ويقول الشاعر .
— أو لم يبلنك أنه عزم على أن يتزوج الغول (١) ، وأنه يفضى مأواها

— ألم تسمع شعره الذى يقول فيه :

فأصبحت والنول لى جارةً فيا جارة أنت ما أغولاً !
ومن يك يسأل عن جارتى فإن لها بالأوى منزلاً !

كان هذا فوق ما يطيق أبو كبير سماعه ، فلم يلبث إلا هنيهة حتى التف بشملته ، وحيا القوم وانصرف ، وهم فى عجب من أمره ، إذ لم يعقب ولداً ، وأخرى به أن يفخر بربيبه هذا ، وهو من هو من بلاغة يقول ، ونخدة ، وجراءة ، وهمة . ولم يعلموا ما يسوره من القلق ، وما يخزيه من الجزع والخوف على نفسه ، لأنه تطاول وتزوج أم هذا الشيطان ، ولم يدروا أن تبط شراً يحقد عليه ، ويتربص به الدوائر ، وأنهم كلماذكروا بشه وشجاعته ازداد منه أبو كبير رعباً وخشية .

مضى عام أو بعض عام ، وأبو كبير برم بحياته وحيمة هذا القلام يراه غصة فى حلقه ، وتسجى فى نفسه ، وقضى فى عينه ، وكذا سمع الدس يفاخرون بشجاعته وحيلته ازداد هما ومرض غماً . وزاد الطين بنة أن تبط شر كان فحق لسان بليغاً ذريعاً يأمر من يحدثه بفصاحته وعذب حديثه ، وأنه كان كريماً ذا مروءة وشهامة ، يعين الكَلَّ ، ويطعم الجُدَّ ، ويغيت المسوف ، يسعد أن يشركه طعامه ضيف ، ويقسم ماله ذو عيلة . أو جر معمم ، لا يبقى شيئاً مما يغنمه فى الغزو بل يفرقه على فقراء المشيرة بنفسه رشيقة ، وتسبح محبباً إلى كل نفس ، عزيز على كل قلب ، لا قلب أبو كبير غداً وساء لا مرأى . ولا سي والتقى يقبله دوماً بتجده وغضبه وزدره . يتحدث بحسه وبتيح بوجهه عنه إذا رآه ، وأحياناً يتمر فيحسب أبو كبير قسمة توء

وتهديداً ، بينما هو مع غيره من الناس طلق الوجه ، لطيف العشرة ، رقيق الحاشية ، جذاب الحديث ، حسن البشر ، فيمضه ذلك ويؤله ، ويتمنى أن تنزل عليه صاعقة من السماء أو تحسف به الأرض ، حتى تهدأ نفسه وتزول وساوسه ، وتذهب هواجسه ، وتعود إليه طمأنينته التي فارقت منذ أن منى بأم هذا الشيطان .

وفي ذات مساء ، والقوم يسمرون كماداتهم في نديهم ، وقد عاودوا ذكر فتیان الحى وما يأتون به من ضروب القروسية والحمية ، وأبو كبير معهم يخوض فيما يخوضون فيه ، ويروى من نوادر الشجعان مثل ما يروون ، ولكنه يتعاشى ذكر ريبه تأبط شراً ، حتى لا يسمع من أمره ما يزيد جزعه ورعبه . ولكن كيف يذكرون أولى السجدة والقروسية من شباب الحى وينسون تأبط شراً وهو منهم فى الطليعة ، فقال أحدهم : أو ما سمعتم حادثة تأبط شراً وابن براق مع بحيلة ، فتساءلوا فى لهفة عما حدث إذ كان بينهم وبين بحيلة عداوة قديمة وإحسان وأحقاد . فقال المتحدث : « فى ليلة عارية تَئِف من بردها الأطراف وتيس ، والريح تزفرف وتلهب بسبطه الوحوه ، والظلام يتراكم كسفاً كسفاً كأن الدنيا كهف بعيد الغور شديد العتمة ، أغار تأبط شراً وابن براق على بحيلة ، وساقوا بعض غنمها ، فأحس بهم القوم ، وخرجوا فى آثارها ، فمضيا هاربين فى جبال السَّراة ، ولزما الأرض نوعرة وأعلى الجبال ، وعارضتهما بحيلة فى السهل ، وابتدراها إلى عين ماء بالضئف . وختبتوا فى دغل قريب من العين ينتظرون تسمم نعيرين ، وسما لا بدریان من أمر المطاردة شيئاً . ثم جاء العين وقد بلغهم . فمضوا سعياً ضئيلاً . »

قلنا وقم عليها قال تأبط شرأ لابن براى : « أقل من الشرب فإنها ليلة طراد ! » .

— وما يدريك ؟

— والله رب الأرض والسماء إني لأسمع وجيب^(١) قلوب الرجال تحت قدمي .

— ذلك وجيب قلبك .

— والله ما وجب قط ولا كان وجابا .

وضرب بيده عليه ، وأصاح نحو الأرض يستمع ، ثم قال :

— فورب السماء إني لأسمع وجيب قلوب الرجال .

— فإني أنزل قبلك .

— « إلههم ستركونك ، وست معنى دلفرد . وكانهم بقصدوى ،

فإذا أخذوني ، وطلبت إليك أن تسلم معي ، فسد بين يديهم . ثم ظفر الكلال وانتعب حتى إذا طمعو فيث ، وقت « خذوه حنوه ، ذجدي عدو إذا أكون قد انطقت » .

ثم نزل ابن براق ، وبرك وشرب ، وكان قس مغيرين شوك ، وأصغرت بأسا ، فلم يعن به القوم ، وتركوه وهم في الصلة لا يرم ولا يحس . ثم قرب تأبط شرأ ، وما كاد يتوسد ماء حتى وثرو عنه فحربوه . وأجروا من العين مكتوفا ، وابن براق قريب منهم لا يصعور . ي . بعدوب من فقال لهم ثبت : إنه من أصف . من وثرو عنه وثرو

(١) حقائق القلب ، وكان من اسمه قرب وثرو .

استأسر معي فسيدعوه عجيبه بعدوه إلى أن يعدو بين أيديكم ، وهو واثق من نفسه أنه إذا انطلق لا يلحق ، وله ثلاثة أنواع من العدو : أولها كالريح الهابة ، والثاني كالفرس الجواد ، والثالث يكبو فيه ويعثر ، فإذا رأيتم منه ذلك فخذوه فإني أحب أن يصير في أيديكم كما صرت إذ خالفني . قالوا : فافعل .

فصاح به تأبط شراً : أنت أخي في الشدة والرخاء ، وقد وعدني القوم أن يمتنوا على وعليك ، فاستأسر وواسني بنفسك في الشدة ، كما كنت أخي في الرخاء فضحك ابن براق ، وعلم أنه قد كادهم ، وقال : مهلا يا ثابت ، أيستأسر من عنده هذا العدو ؟ ثم أخذ يعدو ، فاطلق أول الأمر كالريح كما وصف لهم ، وفي ثاني شوط كالفرس الجواد ، وفي الثالث جعل يكبو ويعثر ويقع على وجهه ، فقال ثابت : « خذوه ، خذوه » فعدوا بأجمعهم فلما أن نفسوا عنه شيئاً عدا تأبط شراً ، وهو مكتوف ، وعارضه ابن براق فقطع كتافه ، وأفلتا جميعاً وتركاً بحيلة في حصرة وندامة لخسرانها نعمها ، وإفلات عدوها من يديها ۱۱

وما أن فرغ من قصته حتى أخذ القوم يتضحكون ويتندرون على بحيلة ويثنون على تأبط شراً ، ويفخرون بحسن تأتبه للأمور ، ونضج رأيه وشدة مراسه ، وقوة حواسه . ولكن شخصاً واحداً من بينهم كان كثيباً واجماً حزيناً، كان هذا الثناء سهام تحز في قلبه وتدميه وكأنما هو شيخ بحيلة ، قد آلمته وحزت في نفسه الخيبة . كان ذاك الشخص أبا كبير الهذلي ، وحق له أن يأسى ويضرب ، وهو يرى ريبه يشتد ساعده كل يوم ، ويبلى في النارة بلاء حساً ، رقة أريم أبو كبير مُرد في تلك الليلة ، وصمم على أن يقتله قبل أن يبلغ مبلغ رجل . ويكرب أتمه مَنَعَة فيه وأقوى سَكِمة ، وقبل أن يغدر به ويتب

عليه أو يحتال لاغتياله . فهض من ندى قومه وكله عزم وحزم على أن ينفذ ما ارتأى دون تريث أو تلوم .

لم يكن أبو كبير هيابة وعديداً ، بل كان شجاعاً ذريماً ، وإنما كان يخشى أمر العلام ، لأنه ريبه ، ويبيت معه في بيت واحد . أما وقد فوضته أمه في قتله فلن يتسبه عن ذلك شيء .

قال له في الغد : هل لك في أن تخرج معي للعزو ؟

قال : ذاك من أمري . قال : فامس بنا ، نخرج غازيين ، ولا زد معك ، فسارا ليلتهما ويومهما من الغد ، حتى ظن أبو كبير أن العلام قد جاع وما أمسى قصد به أبو كبير قوماً كانوا له أعداء ، فلما رأيا درهم من بعد ، قال له أبو كبير : ويحك ! قد جعنا ، فلو ذهبت إلى تلك الدر فلتست لنا منها شيئاً !

فمضى تأبط شراً ، فوجد على الدر رحين من نصر العرب ، وتقدم فتكا ، وقد أرسله أبو كبير ثمة ليقفله ويتخلص منه ، ويبرأ من دمه ثم قومه ، فسأياه قد غشي درهم وثبا عليه ، وكان أحدهما أدنى إليه من صاحبه فردى الصريب منه نحر صريحا ، وكر على الآخر فرماه ، وذلك في سرعة وحذو ، وبضعت باهذات شديداً من يد حاذقة صلبة ، ثم جاء إلى درهم وأخذ حزمه ، وأتى به أبو كبير فقال له : كل ، لا تسبه الله بملكك ولا يكمل هو ، فقال له : ويحك أخبرني عن قصصك ، وأخبره ، وردد منه حوقاً ورهباً ، ونمسي منه على حذر شديد .

ثم مضيا في ليلتهما وصداً ، وكر يقول أبو كبير ثلاثاً : حتر
في صف اليلت تثت تحرس فيه وره ، وتـ ـ ـ ـ ـ لآخر . وفي كل ليلة

يقول له تأبط شرأ : « ذلك إليك . اختر أيهما شئت » . فكان أبو كبير ينام أو يتظاهر بالنوم حتى ينتصف الليل ويحرسه تأبط شرأ ، والله يعلم أن الرجل ما كان يفتش عينيه الكرى ، وهذا الشيطان جالس على رأسه ، وكيف يأتيه النوم وقلبه مهب الهواجس والخاوف ، وهما وحيدان في فلاة مقفرة ؛ فإذا نام تأبط شرأ في النصف الآخر من الليل نام أبو كبير كذلك لا يحرس شيئاً ، إذ لم يبق أول الليل .

فلما كان في الليلة الرابعة ظن أن العاس قد غلب على الغلام ، لأنه نام أول الليل إلى نصفه . وحرسه تأبط شرأ ، فلما نام الغلام قال أبو كبير لنفسه : الآن يستقل نوماً ، وتمكسى فيه الفرصة ، فلما ظن أن الكرى قد أخذ بمعاقد أجنده ، أخذ حصاة لحذف بها مهب واقفاً على قدميه وقال : ما هذا الذي أسمع ؟ قال : والله ما أرى ، لعل بعض الإبل تتحرك ، فقام وطاقف بها فلم ير شيئاً ، فعاد فنام . وأخذ أبو كبير حصاة أصغر من تلك فرمى بها ، فوثب ، فطاقف ورجع إليه . فقال : يا هذا : إني قد أسكرت أمرك ، والله لئن عدتُ أسمع شيئاً من هذا لأقتلك ! قال أبو كبير : فبت والله أحرسه خوفاً أن يتحرك شيء من الإبل فيقتلني .

أصبح الصباح ، ولم يلب أبو كبير وطره ، وولت منه الفرصة ولن تعود ، وتبين له أن ربيبه هذا داهية لا يغلب أو يخل ، فلما رجعا إلى حيهما آلى على نفسه لا بدخل على امرأته حتى ترضى نفس تأبط شرأ ويعطمن هو على حياته ، وترأب يعيش معه في سلام ودعة ، وشد في رحلته هذه قصيدة يصف مهب - بعد ترأب يستير مهب إلى قسوته وطباعه :

وإذا نبذت له الحصاة رأيتها ينزو لوقعها طُموْر الأخیل^(١)
 ما إن يمسُّ الأرضَ إلا تَنكِبُ منه وحرف الساق طيُّ المَحْتَلِ
 وإذا رميت به الفِجَاج رأيتها يَهْوِي غارِمْهَا هُوِي الأَحْدَلِ^(٢)
 وإذا نظرت إلى أسرة وجهه برقت كبرق العَرْض التَهَالِ^(٣)
 يحى الصحاب إذا تكون كرهةً وإذا همُّ نزلوا فهُوِي العُيَلِ^(٤)

(١) الطُموْر : الوثوب ، والأخیل : صقر ، أى يأتى حين جمع الحصاة كما شئت صقر
 (٢) الفِجَاج : جمع فج وهو الصريق أو سبع من نوعه . وهَوِي : لا يرمي
 إلى أسفل ، والمُحَارِم : جمع حرم وهو يصعب على من يقاتله ، والأَحْدَل : صقر ، وهُوِي
 لبيت أنه صاحب حملة لا يمازى صهبا .
 (٣) الأسرة : المصومى فى جمع . يَتَوَدَّد : يتردد ، أى يتردد فى البيت .
 تعرق أشراق السحاب الماشقق ، برقت كبرق العَرْض : عروءة بركة وشمس .
 (٤) العيل : جمع عائل وهو فقير . يَهْوِي : يتردد ، أى يتردد فى البيت .

قى كرىم^(١)

— أى حاتم ! إنى على سفر ، وقد خلّفتك فى مالى ، فأحسن القيام
عليه والتعهد له ، ولا تكن مبذراً متلافياً ، أو كزاً كَنُوداً ، فالتبذير يورث
الفقر ، والفقر ذُلٌّ ، والكزازة تعقب المذمة وقالة السوء ، وللموت خيرٌ للفقير
إن عاش فقيراً يتصلك ، أو ذمياً نتحاماه العشيرة .

— لقد نصحت واعياً يا أبتاه ، وأرحو أن تسعفى خِلالى فلا أخيب ظلك ،
أو أضيع نصحك .

ومضى عبد الله بن سعد الطائى ، والد حاتم لطيفته ، وخلف حاتمًا يرعى
ماله ، ويقوم بأمر العشيرة من بعده ، وشعر حاتمٌ أنه أصبح ذا تبعات ، وأنه
سيدٌ نفسه ، والمتصرف فى مالِ جَمٍّ ، وخيرٌ كثير . ونازعته نفسه منذ بَرَحَ
والده إلى المكرمات ، وكان يتحرق شوقاً إلى أن يغنم لقومه وعشيرته حُسنَ
الاحدوثة وطيبَ الذِّكرِ بحميل الفُعال ، وهبّلت أن تثنيه نصيحة سمعها
من والد بَرٍّ حريص ، أو نظرةً إلى عواقب الأيام ، وما تتدخره من نوائب .
وكان حاتمٌ يخرج فى غلّانه لرعاية الإبل والغنم كل يوم ، ويظل يرتقب
الطريق علَّ غريباً قد أُصرَّبه الونى^(٢) ، أو ففد منه الزاد ، يقرّيه التحية

(١) بلوغ الأرب للآلوس ج ١ ص ٧٢ وما بعدها ، والأغانى ج ٨ ص ٢٤٦ ،
وذيل الأمان ص ٢٢ ، ١٥٣ ، ١٥٤ وسمط الآلى ص ١٢ ، والعقد الفريد ج ١ ص ١٠٨ ،
وأمثل النبأ ج ١ ص ١٧٣ و de percerval ص ٦١٣ ج ٢ ، خزانة الأدب ط السليمة
ج ٢ ص ١٦٠ .

(٢) الونى : التعب والضعف .

فيقوم بحقه ، ويظهر له بالغ كرمه . وفي ذات يوم مرَّ به ثلاثة نفر لم يتعرف على واحد منهم ، فسألوه القري ، فقال لهم : ويحكم ! أنسألون القري ، وهذه الإبل والنعم أمامكم ، وما هي بالقليلة حتى تحجبون ، وما أنا بالبخیل الكثر حتى تترددون ؟؟ انزلوا على الرحب والسعة .

ونزل هؤلاء ، ففعر لكل واحدٍ منهم ذقة قد اكتنز لها ، وغنظ سنأماً ، وكانوا جوعاً قد قفد منهم الزاد منذ يومين ، لكن هيات أن يأتى أحدهم مهماً بلغت به المسغبة ، والطوى ، على ناقة سمية وحده . وبعد أن أكلوا أطيب ما قدّم لهم ، وشربوا لبناً صريفاً^(١) ، واستجبت مغذيتهم ، هبوا يواصلون الرحلة والسنتهم تلبج بحمده ، وتتنى على أريحته وجوده ، فسألهم حاتم عن أسمائهم ، فعرف أنهم عبيد بن الأرض ، وشر بن أوى حازم والباغة الدياني ، وأنهم في طريقهم إلى ديار المدرة يطبون برؤفد . فقل حاتم : يح بخ ! إن ضيوفى سادة الشعر فى البيداء ، وشه لن تدرحوا حتى أقسم بيسك كل ما بين يدي من إبل وشاة^(٢) ، وأخذ يفرق بينهم ما ستخدمه نوه عليه من مال وأوصاه بحسن رعايته ، حتى لم يبق لديه من شيء . وارتحل سمر بعد أن عرفوا أن هذا النجم الذى أخذ يتهق في سمه خيرة ، فيهرسند حوده كل عين ، ويفتن كل نفس ، ويخب كل نيب ، سمه حاتم سي . وقرت نفس حاتم نعل ، فتدحق سمية سمه حاتم في صدره . وكان من إدراكها عاجزاً ، وقد كان سعيداً جداً بمرادها . سمره محدد ،

(١) الابن الصريف : أى حب . سمه .

(٢) وشاة : سم شاه .

سيذيعون في الناس كرم طيء ، ويرفضون لها ذكراً . ولم يخطر على باله هنية
 مانصحه به أبوه ، ولم يفكر إلا في أنه قد أتى أمراً حميداً .
 ومرت الأيام وآب والده من سفرته ، ودُهِش حين رأى الدراح خلواً
 من راغية أو ثاغية^(١) ، وعجل بسؤال حاتم عما صار إليه ماله ، فقال له حاتم .
 لقد طوقتك به مجد الدهر طوق الحمامة ، وقصّ عليه نبأه ، وأخذ يُحسِّن له
 ما فعل ، ويذكر له أن هؤلاء الشراء سيشيدون بذكره ، وسيخلدونه على
 الأيام . ولكنّ والده أصمّ أذنيه فلم يستمع لدفاعه عن نفسه . وقال له : لقد
 ضيعت مالى ، وفرطت في نصحي ، ولو بقيت معي لجلبت على الفقر كلما
 أحست بالغنى ، فان أساكنك بعد اليوم أبداً ، ولا آويك أو أعينك ،
 فأت وشألك ، لقد ورثت خلال أمك غنية بنت غفيف ولم ترث
 حرم أصيبك .

فقال حاتم : أجل لقد ورثتها ووعيت قولها .
 لعمر كقدماً عضنى الجوع عضةً فأليتُ ألا أُمْنَع الدهرَ جائعاً
 فقولا لهذا اللأيمى اليوم أعفنى وإن أنت لم تفعل فقمض الأصابع
 يا ابتاه ! ليس فراقك بالأمر اليسير ، ولكن طاعتك واجبة ، وإن
 مثلى لن يعدم قوتاً ، وأنا بعد في ميعة الصبا وشرخ الشباب وسأفارقك مستجيباً
 لأمر ك لا قالياً لك ولا زاهداً في أبوتك ، واعلك تراجع نفسك بعد ، فإن
 دعوتنى لبيت ، أطوع من بنائك ، وأمضى من حسامك .
 كذ حاتم على الرغم من حداثة سنه ، فارساً مغواراً وكأنما خصته العناية

بجبانها ، فكان إذا قاتل غلب ، وإذا غنم ، أنهب^(١) ، وإذا ضرب بالقِدام فاز ، وإذا سابق سبق ، وإذا أسر أطلق . ولذلك كان ميمون النقيب لا يُقدم على عملٍ إلا كُتب له فيه الفلج والثنج . ومن كان مثله في شجاعة جنانه ، وطلاقة لسانه ، وروعة بيانه ، وسمحة يده ، وصرامة سيفه ، وأصله عريقة لا يعيش بالبادية في مَثَرَة وقافة ، وله في غارات قومه على أعدائهم أوردتهم عن ديارهم متنع لكسب الغنى ؛ ولذلك لم يلبث بعد أن فارق أباه إلا أمداً يسيراً حتى صار من أثرياء قومه ، وأعلام فرسانهم ، ومشاهير أجودهم ، ورغب فيه عذارى طيء ، ولكنه لم يستجب لرغباتهم ، إذ سمع بخيال ماوية بنت عبد الله من بني تميم ، كما سمع بجمالها سواء من فتيان قومه . وخرج هو وأوس بن حارثة الطائي في طلب ماوية .

وجعهما الطريق يزيد الخليل الفارس أنيم ، ودلف إلى باب ماوية بنت عبد الله ثلاثة من خير من أنجبت الصحراء ، شجوعة وبشاً وكرماً وسيدة . وخطبها كل منهن لنفسه ، وأخذ يعدد مناقبه ، ولكنها آثرت حاتم شبيب وتزوجته . وقد لامتها أمها لأنها اختارت المتلاف الذي لا يبقى من المال رقيقاً ، فقالت لها يا أماه املئ أصلح من شأنه ، فإن لم أستطع فسيترن سمي باسمه ، وسيكونان مثلاً مشروداً في الندى والجود .

ونزلت ماوية في ديار طيء بين جببين منيعين : جَرَسَمَى ، وفي بيت الرفيع العمد ، مَهْوَى الضارين ، ومقصد المعتفين ، وشيث الخجيين ، وشمس المكرويين ، وسعدت أمداً بما كانت ترى وتسمع من كرم زوجة وريثيت .

(١) أنهب ماله : جعله نهياً للناس بأخذه من غير مَقَال .

وتوطيد سيادته ، وفي كل يوم يضرب في الجود مثلاً يُزري بما سبقه ، وفي كل غارة يجلب لها من الخير والمال ما تهش له نفسها ، وتطري به جدّها ، ولكن مَرَّعَان ما تراه يتبدد بين يدي حاتم فلا يُبقى منه ولا يذر . ولقد رآته يوماً وقد وفد عليه عبد قيس بن خُفَاف النُزَجِي يَدُثُّ حاجته ، وأنه تَحْمَلُ في قومه دِمَاءً ، وتَطْلُوع لإصلاح ذات البين بينهم ، وأن يده قصرت عن أن تفي بما تحمله وأبي قومه أن يعفوه ، وأمهاتهم حتى يأتي من يحملها منه وأشدّه .

حَلَّتْ دَمًا لِلْبَرَاكِمْ جَمَّةً فَجَنَّتْ لِمَا أَسْلَمْتَنِي الْبَرَاكِمْ
وَقَالُوا سِيفَاها : لِمَ حَلَّتْ دَمَانَا قَعْنَتْ لِمَ يَكْفِي الْحَالَةَ حَاتِمُ
مَتَى آتَتْ فِيهَا يَقْلُ لِي مَرْحَبَا وَأَهْلًا وَسَهْلًا أَخْطَأْتُكَ الْأَشْأَمُ^(١)
فِيحْمِلُهَا عَنِي ، وَإِنْ شِئْتَ زَادَنِي زِيَادَةٌ مِنْ حَلَّتْ عَلَيْهِ الْمَكَارِمُ
يَعِيشُ النَّدَى مَا عَاشَ حَاتِمُ طَيِّءٍ فَإِنْ مَاتَ قَامَتْ لِلِسَخَاءِ مَاتِمُ
وَقَالَ رَجَالٌ : أَتَنْهَبُ الْعَامَ مَا لَهُ قَعْنَتْ لِمَ إِنِّي بِذَلِكَ عَالِمُ
وَلَكِنَّهُ يَعْطَى مِنْ أَمْوَالِ طَيِّءٍ إِذَا جَلَّفَ الْمَالَ الْحَقُوقُ الْوِزَامُ^(٢)
وَكَانَ فِي مِرْبَاعِ حَاتِمٍ مَا يُرَى عَلَى مَائَتِي بَعِيرٍ سَوَى يَبِيهَا وَفَصَالِهَا^(٣) قَدْ
أَرَاكِهَا تَوَّأً غِبَّ غَارَتِ عَلَى بِي تَمِيمٍ ، وَقَالَتْ مَا وِيَّةٌ حِينَ رَأَتْهَا : هَذِهِ بِضَاعَتُنَا
رُدَّتْ إِلَيْنَا . وَالسَّكْبُ لَمْ تَهْدَ سَهْلًا لَابُرْهَةِ ، وَإِذَا حَاتِمٌ يَهْبِهَا جَمِيعًا لِهَذَا
النُّزَجِي وَهُوَ يَقُولُ لَهُ : خُذْهَا فَإِنْ وَفَتْ بِأَحَالَةِ فِذَاكَ ، وَإِلَّا أَكَاثِبُهَا لَكَ ،

(١) الْأَشْأَمُ : ضِدُّ الْيَاسَنِ أَوْ ، الَّتِي يَنْتَشِرُ مِنْهَا .

(٢) حَاتِمُ الْمَالِ : دَهَبٌ بِهِ وَاسْتَصْلَحَ .

٣ . نَيْبٌ : لَوْقُ الْمَسْنَةِ ، وَالْقَصِيلُ : وَلَدُ النَّاقَةِ إِذَا فَصَلَ عَنْ أُمِّهِ .

حتى لا تُروِّع قومك بأموالهم ، ولأن مثلك في نجاته وشرفه ، وإصلاحه ذات
البين ، وحقنه للدماء البريئة وتحمله للديات أهل لأن يُعان .
فضحك عبد قيس ملء شذقيه ، وقال يا حاتم ! إن كل بعير دفعته إلى
ذنبه في يد صاحبه ، ولا يزال ثَمَّة من يطالبون فزاده حاتم مائة بعير فأخذها
وانصرف ، وحاتم يقول .

فلا مَنْ عليك بها فإني رأيتُ أنْ يُزرى بالجيل
ومضى عام وبعض عام ، وماوية ترى المال يأتي وافراً ، ويصرف عاجلاً
فهرمت بحياة حاتم ، وراعها وقد ولت تدبيراً أنه لن يرث من حاتم مالا ، بل
سيرث أمما ، وأنه سيعيش فقيراً معدماً إذا ظل حاتم على إسراره ، وإتلافه لنا
يغنمه ، وأخذت تلومه وتعذله ، وتطلب منه أن يفكر في العواقب ، وحاتم يرد
عليها مرة بقوله :

وعاذلة قامت على تلومني كنى إذا أعطيت ملاً أضيده
أعاذلُ إن الجود ليس يهلكي ولا يحلد النفس الشحيحة لؤب
ومرة ثاية بقوله :

أماوي إن المال مالٌ بذله فأوله شكرٌ وآخره ذكر
وقد يعلم الأقوام لو أن حتماً أراد ثراءً المال كن له وثر
فإني وجدى ربٌّ واحد أمه أخذت فلا قتال عليه ولا ثمر
غنيما زماناً بالتقصد والغنى وكل سقاء وهو كماء نهر
فما زدانا مأوى على ذي قرابة عد ولا زرى أحلامه نهر
وفي كل مرة تلومه يأنسدها شعراً يتحدث فيه عن كرمه ، ويشرح مسفته ،

وهي تصير على مضض ، معالة النفس بأنه قد يشوب إليه يوماً رشده ، ويدرك أنه أبو صينية ، وأن واجبه إزاءهم أن يخلف لهم مالاً يغنيهم ذلّ المسألة ، وضراعة الحاجة ، ولكن هيهات أن يرعوى مثل حاتم ، وقد جُبل على الكرم ، وله في إتيان ماله ألف سبيل وسبيل .

ولم يزد له لومها إلا تمادياً في كرمه ، وقد نذر أن ينحر في كل يوم من رجب^(١) عشرة من الإبل يطعم منها الناس ، وكان يوقد النار على يفاع من الأرض ليلا لتجلب الضيفان ، وماوية تشكو لجاراتها تحرقه في الغنى وإتلافه ماله ، وهن قد يعذلهن معها ، وهو لا ينصت للعدل ، ولا يكف عن جوده .

وفي ذات يوم كانت أمام خبائها ، وأمامها عدى وسفانة ياعبان ، وقد خرج حاتم في سفرة له في خلال الأشهر الحرم ، وهي آمنة مطمئنة عليه لفرط شجاعته ، ولأن هذه الأشهر قد حرم فيها القتال ، وقد جلست إلى جاراتها يتحدثن بأخبار البادية ، وفي الحروب والغارات ، والحملات والديات ، وإذا برجل يناديها :

— يا أم عدى !

— لبيك !

— إن حاتماً أسير بأرض عَنَزَه ، وهو يطلب الفداء مائة من الإبل .

— حاتم أسير ! صاحت النسوة مجتمعات ، وروّع الحى ، وأخذن يسألن

هذا الرجل عن أسر حاتم ، وكيف أسر في الأشهر الحرم ؟ ومن أسره ؟

— لا ترعن . لقد مرّ حاتم في سفرته بأرض عَنَزَه فناداه أسير لهم أن

(١) كان رجب من الأشهر الحرم في يكف فيها العرب عن القتال ، فلا يحيدون من
بها . وهذا هو الذي ذكره في نحر حاتم هذه الإبل في كل يوم من هذا الشهر .

أغثنى يا أبا سنانة ، فقد أكلنى الإسار والقمل ، فقال له حاتم ويحك ! ما أنا
بيلاد قومي فأجبرك ، وليس معى شيء ، فأفك أسرك ، وقد أسأت بى إذ نَوَّهت
باسمى ، ومالك بعد أن استنجدت بى إلا أن أفك إسارك ، وسأوم به التزوين ،
واشتراء منهم على أن يضع نفسه فى القيد بدلا منه إلى أن يأتيه الفداء ، وأرسلنى
كى أحضره .

— فصاحت ماوية ! هذا شأن حاتم يابى إلا أن يكون كريما ولو فى ديار
غيره . إن هذا الرجل لن يرجع عن غيئه حتى أموت حسرة ولوعة . دونك
أيها العزى مائة من الإبل فداء حاتم ، ولعله يتعظ بعد أن ذاق ذلَّ القيد ،
والم الأسر .

ولما عاد حاتم من رحلته ، وأنبأ امرأته بما حدث له اشتدت فى تعنيفه ،
ولكنه طمأنها بأن بيت الكريم لن يضمَّ أبد الدهر ، وأنشدها قوله :
أماوى لا يغنى الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدرُ
أماوى إن يُصبح صدائى بقفرة من الأرض لا ماء لدى ولا خمر
ترسى أن ما أنفقت لم يك ضررى وأن يدي مع بخلت به صفر
وأنشدها كذلك :

أهن للذى تهوى التلاد فإنه إذا ميت كان اللدُ نهباً مُتَّسماً
ولا تشقين فيه فيسمد وارث به حين تغشى أغبر الجوف مضماً
يقسمه غنماً ويشرى كرامة وقد صرت فى خط من الأرض أنغم
قليلاً به ما يحمدك وارث إذا معك كنت تحب معتم

وعلمت ماوية أن حاتم لن يبقى على شيء من منه ، وأنه إن مات فسيركهم

حفر الكف ، وإن خلف لها الصيت اللديد ، والذكر العطر ، ولكن ماذا يغنيها الذكر والصيت ، والبادية كثيراً ما تشح بخيرها ، وتُجذب الأرض ، وتُرى من النبات ، وتبخل السماء بمائها رَدْحاً غير قصير ، وتشوى حرارة الشمس وأوارها وجه الغبراء ، ويهزل الحيوان ، ويقل الماء وقد تهلك الماشية ، ويصيب الناس الجوع والضر . وإذا لم يكن لدى المرء زادٌ مُدخر حتى تحود السماء ، وتهتز الأرض ، وينبت البقل ، وترعى الإبل ، وتحميا ، هلك مسغبةً وجوعاً هو وعشيرته أجمعين . وقد أصابت سنةٌ من هذه السنوات الممحلة طيئاً ، وأتت على كل ما أدخره الناس ، واقشعرت الأرض ، واغبرَّ أفق السماء ، وراحت الإبل ضامرةً هزيلة ، وضنت المراضع على أولادها فاتبضُّ بقطرة ، وأيقن الناسُ بالهلاك ، وأن لا منجاة لهم منه إلا بمعجزة من الله .

وقد قدم حاتم كل ما لديه من إبل وشاة ، وأطعم بها قومه وأهله يوماً بعد يوم . وليلةٌ بعد ليلة ، حتى أتى عليها جميعاً ولم يبق إلا فرسه ، وقد عود الناس أن يستحيب لطلباتهم ، ويحقق رغباتهم ، ولا يرد لهم سؤالاً ، كأنما أوتى خزائن الأرض ، أو فُتحت له أبواب السماء ، وكأنما في قدرته أن يحقق المعجزات ، وذلك لساحة نفسه ، وعدم احتحازه أى شيء مما يملكه عن سواء من المعتنين^(١) .

وفي ليلة من أيام الشتاء الدردة وقد هبت فيها ريحٌ زفوفٌ تعضُّ الجسمَ - عاًًً . وتقف سبب الأخراف وتيس ، والناس يصطلون ويتعللون بالسار - ريف - عن الماء ، والأرض - في كل بيت وكل خباء يصرحون من الجوع

وتشقى أصواتهم أجواز القضاء فتسقط لهم قلوب ذويهم ، ولا يملكون لهم إلا كلمات معسولة لا تسمن ولا تنقى من جوع ، وأولاد حاتم عبد الله ، وعدى وسفانة قد فتك السَّعْبُ بأمعائهم وهم يتلون المأوئَةَ شَقِيَّةً ، ويثنون أبنائهم مفرغاً موجعاً ، وأخذ حاتم يعلى ولديه بالحديث ، ويتناوم عنهما ينمان ، وقامت ماوية إلى الصبية تعللها كذلك ، وتسوم علها تدم . وكيف ينام الجائع ؟ وهو إن دام ساعة فستصرخ بطنه صرخة مُرْعِبة يهب لها واقفاً بعده . ولم يكن باليسير على حاتم وماوية أن يريا الأطفال يتضورون من الجوع ، ويعوثون من لآل ولا يملكان لهم حيلة أو وسيلة إلا حديثاً خُولا لا يغنى عنهم شيئاً ، ولو استغنى أحدهما أن يقطع مُرْعة^(١) من لحمه فيقدمها لأولاده لقعل ، ولكن هل أبقت لهم تلك السنة العجفاء الشحيحة لحماً يقطع ؟

وبينما حاتم وماوية يتذاكران أمر هذه الحاجة وهذا القحط الشنيع الذى لم تر البادية مثله ، ويدعوان الله أن يفرج الكُرْبَةَ ، ويزيل النُجْمَةَ ، إذ رجع طرف الخباء ، فقال حاتم : من الطارق ؟

— أنا جارتك هدى ، أتيتك من عند صبية يتعاونون غواءً لدثب بخائفة ، وما وجدت مُعَوَّلاً إلا عليك أبا عدى ، فارحمهم رحمتك الله .

وقال حاتم على البديهة وبدون تفكير أو تردد :

— أعطيهم فقد أتبعك يا وإياهم .

وخرجت المرأة مسرعة تتعثر في ثياب فرحها ، وهى تدرى من أمر حاتم وأولاده شيئاً .

(١) المرعة : القطعة من اللحم .

وعجبت ماوية من أمر حاتم ، ونظرت إليه نظرة دهشة واستفسار ، ثم قالت له :

— يا عجبا ! ماذا عساك تقدم لهذه المرأة وأولادها من طعام ، وبيتك لا يحوى مما يؤكل كثرة ، ولو كان به شيء لأطعمنا أولادنا ، وقد رأيت الساعة ما بهم ؟ إنك أسرفت فيما سلف من الأيام فلم تبق لنا شيئا ، وها أنت ذا تستجيب لاستغاثة جارتك ، ولا تستجيب لعويل أولادك . ولست أدري لعمر الله ماذا ستفعل بها وبأولادها إلا أن تذبح لها أحد صبيتك ، وليس هذا على كل حال بمستغرب منك ، فإنك رجل سيء التصرف .

— أقل عليك اللوم يا ابنة عبد الله ، فوالذى نفسى بيده ، لقد لبيت دعاءها وأنا لا أدري من أمر نفسى شيئا ، ولا أعرف لهذا الأمر مخرجا ، ولكن ما كنت أستطيع أن أردّها خائبة ، وقد أتت تشكو الضر ولو ذبحت لها أحد صبيتى كما قالت . وليس أمامى من شيء ينحر إلا فرسى هذا الذى تخلف من كل ما وهبني الله من نعمه ومال .

ولم يكد حاتم يتم حديثه مع ماوية حتى أقبلت جارته هند تحمل اثنين ، ويمشى بجانبها أربعة ، كثها نعامه حولها أولادها ، وقد اصفرّت منهم الوجوه وغازت العيون ، وهزّلت الأبدان ، وعلت شفاههم بسمّة الأمل ، وفي عيونهم بريق الرجاء . وكثر كن الموت يطاردهم وهم في فزع منه ورهبة ، فنجوا منه في حِضْن حاتم .

زادت حاتم كل هذه في فيب إلى فرسه زَمِيْعاً^(١) في غير تردد ،

ووجاً لَبَّتَهُ^(١) بملدية فَخَرَهُ ، والدمع يتترقق في عينيه أسفاً لقراق هذا الجواد الذي طالما صاحبه والوغى مستعر الوطيس ، والمنايا تمد إليه أيديها البشعة المملطة بالدماء ، والأسنة مشرعة ، والسيوف مصلطة ، والمَجَاجُ يعقد فوق الرؤوس سحباً ، فنجا به من التهلكة . ولكنه أفاق سريعاً من إطراقته لأن عيون الصبية جميعاً كانت تمتد إليه وترقب فعله ، وحاشاه أن يظهر أمامهم وأمام جارته بأنه مُتَلَوِّمٌ^(٢) في إكرامهم وقد صار حواده جثة هامدة ، فخذ يكشط جلده ، ثم دفع الملية إلى المرأة ، وقال لها : شاكك .

وأيقظت ماوية أولادها ، بل كانوا أيقاظاً من قبل أن تنى إليهم ، وأنى لمن كان في مثل حالهم أن يستغرق في نوم ؟ ؛ وذهب يمشى في الحى ، ويأتيهم بيتاً بيتاً ، ويقول : هبوا أيها القوم ، عليكم بالنار ، فاجتمعوا ، الطعام ! الطعام ! ووفد الناس على النار أفواجا كأنهم أشباح هجرت رموسها . يحرون أرجلاً أضعفها الونى ، وآداه^(٣) الهزال ، والتفوا حول النار يقطعون من لحمه ويأكلون في نهيم بالغ ، وحاتم منتفخ برده ، وقابح في سحبه ينظر إليهم . تعلو وجهه بسمة الرضا عن نفسه ، وعن فعله ، وينشرح صدره لضحكهم وتزاحمهم على الطعام ، واختطفهم له . وثبت صبه نفسه لأية مترعة أن يمد إلى الطعام يداً ، أو أن يذوق منه مِرْزَةً ، وبه لأحوج . به منهم جميعاً غرَضٌ ما أضر به الجوع . وأرهقه نظري . وسـ يكون حتى : يبق .

(١) وجأ : طعن . ولته : شئى . حـ . رجة .

(٢) متلوم : متردد .

(٣) آداهما : أتعابها .

القرس إلا عظم وحافر ، ولو كانت هذه تؤكل ما تركوا منها شيئاً . وأنشأ حاتم حين رأى هذا يقول :

مهلاً نوار أقلى اللوم والقذلاً ولا تقولى لشيء فات : ما فعلاً
ولا تقولى لمال كنت مهلكه مهلاً وإن كنت أعطى السهل والجبلاً
يرى البخيل سبيل المال واحدة إن الجواد يرى في ماله سُبلاً -

ومرّت هذه السنة الموحشة ، هلك فيها من هلك من الناس ، وحفظ الله حاتمًا وولده وامراته ، وأصابهم الرخاء بعد الجذب ، وكثر لديهم المال والخير ، ولكن ذكرى هذه الأيام السود ظلت في أذهان الناس بعامة ، وفي ذهن ماوية بخاصة ، لأنه كان بين يديها من الخير ما تستطيع أن تقى به نفسها وأولادها الآلام والضر ، وها هي ذى اليوم ترى الخير يتدفق ، والمرباع يَفْصُصُ بالنعم ، فهل تدخر من ذلك شيئاً لوقت الحاجة ؟ وهل يمكنها حاتم أن تفعل ؟ إنها تراه كعادته مشوى الضيفان وأبناء السبيل ، وفي كل ليلة بيابه عشرات يطلبون القرى ، لا يعرفون باباً سوى باب خباته ، ولا يحاولون أن يعرفوا غيره من العشيرة . وماوية لا تكره الضيفان ، ولكنها تفزع من كثرتهم ، ومن عظم ما يتكلف حاتم في سبيل مكرماته . وكانت لا تخفى فزعها عن أحد من أهل وعشيرته ، تشكوه إليهم كل حدثهم .

وكانت ماوية لا تزال على الرغم مما مرّ بها من أحداث ، ومن سنين رسيمة جميلة تتطلع إليها العيون إعجاباً ، وكان لحاتم ابن عم يدعى مالكا وكانت هي الطام . حلوا الحديث ، كثير المال ، وطالما تسكت إليه ماوية

أمر حاتم وتخرقة في ماله ، وهو ينظر إليها معجباً رقيق شابها ، وغضارة صباها ، وجمال وجهها ، وفي ذات يوم وقد أخذت تبته شكواها المألوفة من حاتم ، قال لها مالك : ماتصنعين بحاتم ؟ وقد صبرت عليه أمداً ، وسيذهب إتلافه المال بشبابك ، إنه إن وجد شيئاً أتفه ، وإن لم يجد شيئاً تكفه ، ولئن مات ليتركن ولده عيلاً على قومه ، وإن لي فيك رغبة فطلقه وأما أزواج بك . إنى خير منه لك ، وأكثر مالا وأعاهدك أن تمسك شريك وعلى ولدك ، وتعيشى معى في نعيم ورقاةة عيش . فقلت مودبة : إن ماقت لحق يامالك ، ولكن حاتماً رجلاً لم يجبد الزمان بمنله ، وقد آثرته على سواه ممن تقدم إلى ، ومن العار أن أترك رجلاً ملء الأسماع والأبصار ، وأهجر بيته وهو والد صييتى .

هوأتى عليك الأمر . إن حاتماً كيف بكمومه . وهو لا يفكر فيك ، ولا في أولادك ، وإنما يفكر في الطوين ، ولذين 'تقطعهم السبيل ، وأضلهم البيداء . ويقدم لهم خير ما كسبت يده . ولو كان يفكر فيك حقاً ، ولك في قلبه منزلة ، ويرعى شئون صييتك لأحسن التدبير ، وعسى لفته كما يعمل ليومه . إنك لازلت في ربا العمر وريبع الحية ، ومن أعر أن تضيعى شبابك مع رجل لا يراعى حق رعاية ، ولا يقدر جهلك كلفه قدره ، وستمرك السنون وتذهب ضلوة شبيبك ، وتضرين فى نور فتتدمين عى أن أولت منك هذه القرصه النحة ، وقد تحببت صبح ولا تسعى بتردد عيى سلطان . وما زال هـ مائت ، يخسرها بحسب حديثه . وهى توزر يسه وين

حاتم ، وقلبها ظمآن للحب والرعاية ، وفكرها يمتد للمستقبل ، والبادية غدارة تأتي بها سنوات تمصّد الخير حصداً ، وأخيراً ذهب ماها من تردد وطلقت حاتماً .

وكانت ماوية من أولئك النسوة اللاتي اشترطن لأنفسهن حق طلاق أزواجهن ، وكانت المرأة إذا أرادت أن تطلق زوجها ، حولت باب خبائها ، فإن كان الباب من المشرق جعلته إلى المغرب ، وإن كان قبل اليمن جعلته قبل الشام ، فإذا رأى الرجل منها هذا علم أنها عنه راغبة ، وله كارحة ، وأنها طلقتها فامتنع عنها ، وحرّم خيائها على نفسه .

وأتى حاتم ذات يوم فوجد ماوية قد حولت باب الخباء ، فقال لابنه عدى . ما ترى أمك ؟ ماعداً عليها ؟ قال لأدري اغير أنها غيرت باب الخباء ، وكأنه لم يفتن لما قال ، فدعاه وهبط به بطن الوادي .

وجاء المساء ، وأخذ ضيوف حاتم يغشون داره ، وينزلون بباب الخباء كما كانوا يفعلون ، حتى صارب عديتهم خمسين رجلاً ، فضاقت بهم ماوية ذرعاً ، ورمت بهم ، فقلت لحريتها : اذهبي إلى مالك فقولى له : إن أصيافاً ختم قد برؤا سوهم حمسون رجلاً فرسل إلينا بباب تمرهم ، ولن نغيبهم^(١) وقات جاريتهما . انطرى إلى حبيبته ومه . فإن شافك بالمعروف فأقبلي منه ، وإن صط رأسه . ورحى وذنيه .

وبست احاريتها إلى ملك ، ووحدته متوسداً وطباً من لس ، ويقظته ، بريرة ، وقات في غم : إنه هي الليلة حتى يعلم الناس مكانه .

١٠٠ : امرت ، بمعنى : وعقبه : سقاه في ذلك الوقت .

فأدخل يده في رأسه ، وطأ أطرافها حتى ضرب بالحيه على زوره ، وقال لها :
أقرئي عليها السلام وقولي لها : هذا الذي أمرتك أن تطلقى حاتنا من أجله ،
وما عندي من ناقة كبيرة قد تركت العمل حتى أقدمها لضيوف حاتم ، وما كنت
لأنحر صقيفة غزيرة بشحم كيلها ، وما عندي لبن يسكني صيفه .

فرجعت الجارية ، ووصفت لها حاله ، وكيف رآته متوسدا وطبا من لبن
وأعلمتها بمقتله ، فذهب كل ما راود قلبه من احترام له ، وإعجاب به ،
وعلمت أنها كانت تفرط في سيد من أشرف لئيم في سبيل رحل ساقط
الهمة ، عديم اللروة على كثرة مله ، ولو كان يحسن حقاً به فيه رغبة ، لى طيبته
وأظهر نفسه بأنه لا يقل عن حاتم جود ، ولا سي وحاتم غير موجود والضوف
يخرجونها ، ويقفون بباب خباياها .

وقالت لحاربتها : ويلك ! انخى عن حاتم وقولي له : إن صيدك قد نزلوا
بنا الليلة ، ولم يعمو تمكك ، ورسد إيباب سحره وبعثه ، ورسد سمه ،
فإنه هي اللبنة حتى يعرفوا مكانك .

وأنت الجارية حاتنا فصرحت به ، فقل حاتم : لئيم . قريباً دوت .
فقلت : إن ماوية تقرأ عليك السلام ، وأنها به صيرة يوم تلت وي
فقل : نعم وى ! .

ثم قم إلى الحلق من قدامهم ، ورسد يدك حتى تنال
لحي صيده ، وغرهم ، وحاصدهم ، وبساتيمه ، ويقربهم :

وبنى لعمد صيد مدم . ربا . . . غير سمه .

ولمحتة ماوية فجذبته من ردائه ، وأخذت تصيح به : هذا الذى طلقته
فيه ، تترك ولدك وليس لهم شيء . ولكن هيهات أن يثنى عن طبع جبل
عليه ، وأدركت ماوية أنه على الرغم من إتلانه ماله رجل تفخر به ، ويفخر به
العرب ، وأنها ستخلد معه كما قالت لأُمها ، فأقلت عن لومه وعاش حاتم ما عاش
ثم ذهب في فم الزمان أحذوثة عطرة ومثلاً نادراً ، ورمزاً للسكرات .

لا حرّ بوادي عوف^(١)

وقفت سُخاعة بنتُ عوف بن مُحمّد أمام خباثتها تشهد فرسان قومها كيف يردون غارة بني عبس ، وكيف يدافعون عن أعراضهم ، ويحمون ذمائرهم ، ويحودون بالأنفس في سخاء وحيّة ، لا ينكصون على أعقابهم . أو يولون الأدبار . لقد أبلى قومها بلاء حساودا صوا في جدّ وصرامة ، بيد أنهم كانوا قلة فلم تغن عنهم شجاعتهم شيئا ؛ إذ كان معظم الرجال بعيدين عن الحى فلم يستجيبوا للاستغاثة ، وتكاثّر الأعداء على الحمة يصرعونهم واحداً بعد واحد ، وسخاعة ترقب المعركة بقلب واجف ، ونفسٍ سريع ، وعين حائرة ، ووجه شاحب ، لأن زوجها ليث بن مالك قد أتى بداء البجدة زميلاً^(٢) ، وهي تخشى أن يُضرع فتكون نها للعزاة ، وسبية ممتهة . وتفقد بعلا كرمها ، فتدب من بعده وقد عاشرتة فحبتة ، وهي ترى لدائرة تدور على قومها ، ومنحل موت يتخطف الفرسان ، وهم يتحدوه في إصرار وعناد وجراة .

كانت نظراتها تتبع في لهفة وعجلة حركات جود شهب وسط المععان ، يحول ويصول ، ويكر ويفر ، وفرسه لا يفتك يرمع سيقاً شديداً ويهوى به في قوة وبطش . ثم رأت الفارس يخر صريعاً ، ويغنى صهوة حورده ، وتدوسه الخيل أساكهم ، وفارسين من الأعداء يحرسان سببه ، ويتقود حورده خيلاً أحومة ، فسحت عيها لسمع سحر وتغررت بكاة دميتها تسد بين فرده ،

(١) الأمثال للعبد ج ٢ ص ٢١٩ ، وفتح الأرب ج ١ ص ١٢٥ .

(٢) زميلاً : سريداً .

ولكنها أبت أن تستسلم للحزن ، وطفقت تفكر في أمرها وقد ترملت وققدت
رجلها وحاميتها ، وشغلها همها وأمرها عن المعركة الدائرة ، وما راعها إلا الفرسان ،
يعدون صوبها ، ويتقدم اثنان فينهبان الخيل ويسوقان من فيه أسرى ، ويأخذان
خماعة سبية ، وقد راعهما منها جمال فائق ، وثبات عجيب ، وأنف شامخ يرم عن
عزة وكرم تختد :

انتهت الغارة ، وردت السيوف إلى أغمادها ، وقفل بنو عبس إلى ديارهم .
وخماعة وأهل زوجها ، وكثيرات من نساء قومه يسرن وراء الخيل حفاة سافرات
الوجوه مهينات ، يحشن رجال غلاظ جفاة .

ينظرون ثمزراً إلى من جاء من عرض بأوجه منكرات الرق أحرار
وكان مَرَوَانُ القُرَظُ بْنُ زَيْنَبٍ^(١) رئيس بني عبس يومئذ ، وكان يضرب
به المثل في العزة والشهامة والمروءة ، فحلت منه التفاتة نحو السبايا ، فرأى بينهن
امراً يتفرق ماء الحسن والملاحة في وجهها ومخايلها ، ممشوقة القوام ، مرفوعة
الرأس ليست كبقية من يسير معها مشية ، وشخصية . فسألها :

— من أنت ؟

— خماعة بنت عوف بن محلم .

— بنت سيد بني تميم ، وأحد أجواد العرب ، وأعزهم ، وأشجعهم ؟ ! .

وأسفه ! .

تمت لرجاله :

— أسيرة من هي ؟

١ - مَرَوَانُ القُرَظُ بْنُ زَيْنَبٍ ، لأنه يروى اليمن وهو مات القُرَظُ .

فأجابه رجل منهم :

— أسيرة عمرو بن قارب ، وقواب بن أسماء .

فالتفت إليهما مروان وقال :

— حكمانى فى خجاعة .

حكناك يا أبا صهبان .

— اشتريها منكما بمائة من الإبل .

— قبلنا حكم سيد بنى عس .

فأمرها مروان أن تغطى وجهها قنالا : والله لا ينظر إيه عرى حتى ردك
إلى إليك . وضمها إلى أهله ، وأوصاهن بها خيراً ، لأن بنت لعز وريته ،
وسليلة الأرومة الكريمة ، والحسب لرفع والسودد وحده ، معشت حمراء
بضعة أشهر فى بيت مروان ما رآه مرة إلا من وراء حجاب ربيبه .
وما رأت وما سمعت من أهله وخدمه مذكره بها سلبية معوية .
لأن عين مروان اليقظة كانت تتبعها فى السر وحر ، بل لآية فى
العرب من أباد كريمات ، وفضل سابع ، وذكر حميد .

دخل الشهر الحرام ، ومن الناس العرب ، وضعت توب فى
والولد والأهل ، لأن العرب جميعاً تحرم قتال فى هذه السور .
السيوف إلى أعماده وتصع حوس^(٢) ويخرج الناس فى بيت .

(١) الأشهر الحرم أربعة وهى : ذو الحجة وعمره ورجب . وكان
العرب لا يستحلون فيها قتالاً ولا حياض منهم .
ولهذا كان العرب يستحبون دماءهم فيقودون .

(٢) المراد هنا الإبل .

يستمطرون شآبيب رحته لتفسل أوضار نفوسهم ، ويجمعون في الأسواق يتاجرون ، ويتفاخرون ، ويعقدون المحالفات .

حين دخل أول هذه الأشهر ، وارتاحت النفوس من الجهد والقتال والسفر والحذر الشديد ، جهز مروانُ خِماعَةً أحسن جَهاز وآتَمه ، فكساها الديباج والحريز ، وأخدمها الجوارى والعبيد ، وأكرمها غاية الإكرام ، ثم حملها إلى عكاظ كأنها أميرة من بيت ملك عتيد ، ولم تكن سبيةً أسرت بظبي السيوف ، وأمسة الرماح ، وافتديت من آسريها بمائة من الإبل على حَنقٍ منهما وسخط .
صحبها مروان في رحلتها هذه ، فلما دنا من عكاظ تقنع على عادة فرسان العرب ، حتى لا يعرفه أعداؤه ، ومن لم عنده ترات فيترصدونه في ساحات القتال ويبدلون أقصى جهدهم للانتقام منه والقضاء عليه . وعكاظ — عادة — تَغْصُ بفرسان العرب من كل القبائل ، فلا يعدم أن يكون هناك قرنٌ موغر الصدر مَوْجدةٌ وحفيظة يتوسمه فيتربص به الدوائر عند أول لقاء^(١) .

فلما انتهى مروان بأمانته إلى منازل بني شيبان — قوم خِماعة — قال لها .

— هل تعرفين منازل قومك ، ومنزل أبيك ؟ .

— هذه منازل قومي ، وهذه قبة أبي .

— اطلقي إلى أبيك ، فإنه أهل لكل مَكْرُمة .

والتفت مروان إلى قومه وأشد :

رَكَدَتْ عَلَى عَوْفٍ حُماعَةٌ بعدما خلاها ذَوَابٌ غير خلوة خاطب

(١) عكاظ : نخل في واد بينه وبين الطائف ليلة وبينه وبين مكة ثلاث ليال ، وبه كانت تنام سوق للعرب وهي أعظم أسواقهم ، ويأتى إليها فرسان العرب وعظماؤهم وشعراؤهم وحسابوهم وتجارهم .

ولو غيرها كانت سيئة رحمه لجاء بها مقرونة بالذوائب
ولكنه ألقى عليها حجابها رجاء الثواب أو جِذار العواقب
فدافعتُ عنها : ناشبًا ، وقبيله وفارس يفتوب وعمر بن قارب^(١)
أما خجاعة فدخلت إلى قبة أبيها ، وخلفها جواربها وعبيدها ومعهم عتدها
وما أكرمها به مروان ، فلما رآها أبوها عوف بن محم ، ولم يكن ينتظرها ، قال
لها في دهشة :

— ما وراءك يا خجاعة ؟ —

قصت عليه خبرها ، وأشادت بما فعل مروان ، وكيف نازع قومه وتحداهم
في سبيلها وكيف حفظها عزيزة مكرمة ، وجعلها أحسن جهاز وآتة ، وأخدمها
وسهر على راحتها منذ أسرت حتى بلغت قبة والدها .
• فقال أبوها : يا بنية : إن مروان لثمل في العزة ، أم تسمعي العرب يقولون :
أعزُّ من مروان القرظ ، ولقد طوق جيدي بمنن جسام ، وهيهت أن أفيه حقه
وإن كان مثله في عزته ومروءته وسؤدده لا يرتقب على حسن صنيع آخر .

* * *

دارت الأيام دورتها ، وغزا مروان بكر بن وائل على حين غرة ، فسبي
ونهب ، فلما عاد الفرسان والرجال إلى أحيائهم ، وسمعوا بما حدث لقومهم ،
عزَّ عليهم ألا يثأروا من ذلك الذي استباح حاهم ، وأسر أساءهم ، ونهب
أموالهم ، فببوا يقصون أثر جيشه في عدد عديد ، وخيل مسومة ، وسلاح وعدة
كاملة ، وثبت لهم مروان ساعات ، ثم خاض فريق من جيشه بالأسلاب والسبأ ،
أما هو وصناديد قومه فوقفوا يدرءون العدو ويروغونه في ثبات وحسن حيلة ،
(١) هذه أسماء الذين اعترضوا عليه في فدائها وحاولوا استرقاقها .

ولكن أئبى له أن يثبت طويلاً وقد تكاثرت عليه بنو بكر بخيرة فرسانها ،
وجزاء كبير من حيشه قد انفصل بينى البجاة ، وبعد جولات صادقات ، وقتال
عنيف ، وقع مروان ومن بقي من رجاله أسرى ، بعد أن تكسرت سيوفهم
وتحطمت رماحهم ، وأثخنت الجروحُ خيولهم ، وسقط كثير من الفرسان صرعى
مضرحين بالدماء تدوسهم منابك الحيل في غير شفقة أو رحمة .

ومضى بمروان أسره وهو لا يعرفه ، فأتى به أمه مختلاً نفوراً فقالت له أمه :
إليك لتختال بأسيرك كأنك جئت بمروان القرظ ! .

فقال لها مروان وهو يرسف في الأغلال :

— وما تر تحين من مروان ؟ .

— عظم فدائه .

— وكم تر تحين من فدائه ؟ .

— مائة بعير .

— ذلك لك على* ، على أن تؤديني إلى خاعة بنت عوف بن محلم .

— ومن لى مائة من الإبل .

فأخذ مروان عوداً من الأرض ، وقال لها : هذه لك بها^(١) .

نصبت به إلى عوف بن محلم^(٢) . فما عرف عوف أنه مروان ، وأخبر

سليمته حمدة قلت له : يا أبت إني أسرته من بني بكر بن وائل ، ولما

١ - ما يكن عده ويمى من مطب الأيمان والمواثيق والعهود .

٢ - عرف بمرسى الحاملية . وكان مطاعاً في قومه ، قوياً في عصيته .

رأت - - - - - في سنة ٤٥٠ ق هـ

أستعين بك على الوفاء له بما في أعناق من أباد ومن ، وادكر إذ كنت سبية
فعداني ، ومهينة فأعزني ، وغريبة فأرلي مع أهله ثم أسلمني إليك لم أمتهم بنظرة
عربي إلى وحيي ، وكنت عنده في نعيم وعيش رغيد ، والحمد لله الذي أمكننا
من هذه الفرصة حتى رد إليهم الجليل .

فقال لها أبوه : إن مروان قد أهل السيف في رقاب قومك وقد أحزم
على عرة مكشورت ترثهم عنده ، ولكي سحيره معك ، ولا سبيل إليه
إلا فوق هامتي .

وما أن علمت سو بكر بخبر مروان حتى سعت جوعها إلى عوف بن عمرو
يطلبون منه أن يسلم مروان إليهم حتى يقتصوا منه على ما حنت يدها في أرواحهم
وأموالهم ، فأبى عليهم عوف — وكانوا يحلوه ويطيحونه ، وببائس قصته مع
ابنته ، ودكرهم أن كلا منهم معرض لأن يؤسر في حومة القتل ، ولأسير حقه
أن يفدى لا أن يقتل . وبعد حذل شديد ، أدعوا رثيه ، وزكو مروان
لعوف بن محلم ، وكان تنازلهم هذا تصحية كبيرة قدموه رئيسهم وسيدهم

وظل مروان أياماً عند عوف في كف خناعة ورعايتها ، تحبون أن تسكرمه
كما أكرمها ، وترد إليه الجميل على قدر طاقتها ، وفي ذات يوم دخل عوف
خبياءه ناذي لهم متعكر الوجه ، ونكرت حماسة ثمره ، ومشت يده في الحنف
ودعة تسأله عما أهله ، وأزال سماحة وجهه وشفته ، فكان . . .
سأل مروان :

— خبرني يا أبا صبيان عم نحص سحرور من هذه — حيرد . . .

— لم يكن — علم الله — بي وبينه — حيرد . . .

بالمهدايا والأموال ، فینزلنی خیر منزل ، ویکرمنی وقوی . وفي ذات يوم أراد أن يعاملني كما تعامل الملوك رعيتهما ، أو السيد من دونه في الشرف والنزلة ، فأبت علي نفسي أن أجالسه ، وبقيت أياماً عنده مغاضباً له ، فأرسل إليّ يستزيرني ، فلما دخلت عليه لم أصالحه ، فعاتبني لتخلفي عن مجلسه ، فتعلت ببعض المعاذير ، وقلت لعلها كانت هفوة فيه ، ولكنه أيقن أن في نفسي شيئاً لأنني لم أضع يدي في يده . وفي نفس اليوم استأذنت في العودة فأذن لي بعد لأي ، وقد انقطعت عنه رَحمًا من الزمن ، وعلمت أنه ساخط عليّ .

فقال عوف : لقد علم أنك متحرم بذيامي ، فأرسل إليّ يطلبك ، وأنت تعلم مكانة عمرو بن هند لدينا ، وأن ديارنا تتاخم دولته ، وأن الصلات بيننا قوية متينة ؛ ولكنني أخبرت رسوله : أن ابنتي أجارته وليس إليه من سبيل ، وإني في انتظار رده ، وإن كنت أعلم أنه سيتمز غيظاً حين يستمع للجواب ، بيد أنه يدرى عزة قومي فلعل ذلك يخفف من غلوائه .

ومضت أيام قضاها عوف في همٍّ مقيمٍ معقد ، لأن الحرب بينه وبين عمرو بن هند ليست بالشئ الهين اليسير ، ولكنها حرب تكلفهم شططا ، وتودي براحتهم ، ونعيمهم ، وتراق فيها الدماء بسخاء . وأخذ يقلب وجوه الرأي وحده دون أن يستشير أحداً من قومه ، خشية أن يستحثوه على تسليم مروان لسبق أخطائه معهم ولعظم جريرته لديهم .

ثم جاء رسول عمرو بن هند ينبيء عوفاً أن الملك لن يعنو عن مروان حتى يضع يده في يده — سمة المبايعة والمعاهدة والخالف والولاء — وبذلك يثق الملك به . ثم بغيره ، ثم بغيره على حواشي دولته ويتنقصها من أطرافها . فقال

عوف : يضع يده في يد الملك على أن تكون يدي بينهما ، وكأنه بذلك يحتاط لئلا يروى بن هند تجاره ، أو ليبرهن الملك على أنه صار حليفاً لمروان على كل من نأواه أو همّ بشيء يسوءه .

فلم يسمع عمرو بن هند إلا أن يستجيب لطلب عوف . ثم قدم عوف ومروان الخيرة ودخلا على الملك فوضع مروان يده في يده ، ووضع عوف يده بينهما ، وعفا عمرو بن هند عن مروان وقال : « لآخر بوادي عوف » أي لا سيد به ينازعه سلطانه ، فصارت مثلاً .

همة (١)

جلس الحارث بن عوف للمرى ذات مساء مع رِخلائه يَسْمُرُونَ أمام أخبيتهم
بديار ذُبيان ، يتوسدون حشايا من الرمل الناعم الأملس ، والبيداء من حولهم
ساكنة لاتسمع فيها رِجساً ولا جَرَساً ، قد استسلمت لنوم عميق ، تداعبُ
وجهها ريح الصبا النديّة الرقراقة ، فتمعن في غفوتها . وصفحة السماء تتحلى
بالنجوم الزُّهر ، ما بين مجتمعة ومتفرقة كحلى الحسناء ، والبدر يسطع بنوره
الباهر فيزيد في بهاء الصحراء وروعها وجلالها ، والجبال جاثمة من حولهم
تبعث الرهبة والخشية في النفوس .

وجرى الحديث بين الحارث بن عوف ورِخلائه حول الحرب الضروس
التي خاضوا غمارها مع أبناء عموماتهم بني عَعبس أربعين سنة ، أتت على
الطارف والتلبد ، وتقطعت فيها وشائج القرّبي وقُلّ بها غرْب عطفان وتبدد
تراؤها ، وُسِّدَ رِجلُها . وقتلُ بَطاطها ، والقوم لا يزالون في حِدَّتْهم وشرّتهم
لا يودون رَدّ الصّوارم إلى أعمادها ، وكلُّ قتيل جديد يبعث ثأراً جديداً ،
وحقداً تنديد ، وهم ن آ يكفكفوا من عُوائهم أو يرتدعوا إلى صوابهم
حتى يتأفوا ويصيروا سداً في الدُّيُن .

رحل الحارث بن عوف بمس لخروج من هذه الحرب سيلاً ، وكيف

يأتى السى لحقن الدماء ، ورتق الفتوق ، ورأب الصدع ، ولم الشمل ،
ورجع بنى عبس إلى ديارهم ، وقد طافوا بأحساء الجزيرة ، ولفظتهم كل قبيلة
وتألب عليهم القوى والضعيف . وقد كانوا مع أبناء عمومتهم فى منعة ، ومقام
رفيع ، يداً قوية وبطشاً شديداً على كل من تحدته نفسه بالنظر إلى ديارهم ،
وطالما خاضوا غمرات الحروب معاً يردون كيد بى عامر وغير بنى عامر ، ولم
يكن أعز منهم فى العرب قبيلأ وأقوى منة . وأرفع حصوناً ، وأطول يداً .
وعرجوا فى حديثهم على ذكر العزة ، والسيادة والشرف ، فدل
الحارث خلأه :

— هل ثمة فى العرب من إذا خطبت ابنته ردتى ؟

فقال خارجة بن ريسان :

— نعم !

— ومن ذك ؟

— أوس بن حارثة الهذلى .

— إني أعلم مكة أوس فى قومه ، وكيف حدث لذرورة فى النحر
والجود ، حبس لا يسكر بيته ، كريم لا يقطع عطية ، قيس لا يضمن على
رأيه ، تتجاع لا يضم نزيله ، عزيز لا يمارعه ، وشامس لا يماره من منابر
حين وفدت عليه وفود العرب رين . حتى برصه . نيم عن حديث
نور العرب^(١) . وأ ، قد حمى إلى أوس - حارثة . يكن أوساً يبحر
مكان فى قومي ، ومنع ثرائى ، رثرائى . رثى من نحر فى الحرب ،

(١) المختار من رسل العرب .

وفي السيادة أراحه بالنكب ، وما أظنه يجرؤ على رَدِّي إن خطبت إليه
إحدى بناته ، ولقد عزمت على الرحلة إليه ، فهل تصحبني يا خارجة لتشاهد
كيف أنه لا يستطيع رَدِّي .

— هون عليك الأمر يا حارث ، واربأ بنفسك أن تضعها موضع البلاء
والاختبار ؛ وإذا كان أوسٌ على ما أعلم فله شأنه بيناته ، ولن يفض من
منزلتك أنه لا يستجيب لرغبتك .

— لا بد من الرحلة إليه .

إذا فأنا معك .

وفي الصباح تجهز الحارث وخارجة ومعهما غلامٌ للحارث ، ويمموا جميعاً
صوب أجأ وسُلَمَى حيث منازل طيء . وقصدوا لتوهم منزل أوس بن جاريه
ووجدوه بفناء المنزل ، فلما رأى الحارث بن عوف هتس لمقدمه ، وتهلل وجهه ،
وبالغ في تحيته والترحيب به لأن الحارث لبس بمجهول المكانة لدى أوس ،
وقال له أوس :

— مرحباً بك يا حارث ! هيا انزل على الرحب والسعة .

— لقد جئتُك خاطباً !

هكذا قال الحارث من غير استئناس ، أو مقدمة بين يَدَي طلبته ، وثوقاً
من نفسه ومنزلته ، واعتزازاً بهما ، فُجابه الحارث .

— لست هناك !

فأرْبَدَّ وجه الحارث بن عوف ، ولوى زمام ناقته ، وولّى ظهره للحارث
ساراً يصق سكمة ، وقلبه يفور بالغضب والشجن ، لأنه جرح في كرامته

جُرْحًا قَتَارًا هِيَهَاتَ أَنْ يَنْدَمَلَ ، وَأَخَذَ خَارِجَةً يَهُونَ عَلَيْهِ أَمْرُهُ وَيَقُولُ لَهُ : لَقَدْ حَذَرْتُكَ غِبَ عِزْمَتِكَ هَذِهِ ، فَنَفَى أَوْسٍ صُلْفَ ، وَهُوَ لَا يَمُدُّ أَحَدًا مِنَ الْعَرَبِ لَهُ نَدَاءً وَكَفَتُوا لِمَصَاهِرَتِهِ . وَأَبَى الْحَارِثُ أَنْ يَحْيِيَهُ ، إِذْ كَانَ فِي شُغْلٍ بِنَفْسِهِ وَأَخَذَ يَحْتَثُ نَاقَتَهُ حَثًّا شَدِيدًا كَأَنَّمَا يَرِيدُ النُّجَاةَ مِنْ تِلْكَ الدِّيَارِ الَّتِي ذَاقَ فِيهَا مَرَارَةَ الْحَزَنِ وَالْعَارِ .

وَوَقَفَ أَوْسٌ هُنَيْيَةً يَفْكُرُ فِيهَا قَالَ ، وَيَنْظُرُ إِلَى الْحَارِثِ بْنِ عَوْفٍ وَهُوَ يَنْصَرِفُ لَطِيفَةً ، ثُمَّ دَخَلَ عَلَى امْرَأَتِهِ ، وَالْغَضَبُ قَدْ أَلْقَى عَلَى وَجْهِهِ قُبَابًا ، وَكَانَتْ امْرَأَتُهُ مِنْ عَبَسَ ، فَقَالَتْ لَهُ :

— مَنْ رَجُلٌ وَقَفَ عَلَيْكَ فَلَمْ يُعْطَ ، وَلَمْ يُنْبِذْ رَاحَتَهُ ، وَلَمْ تَقْدَمْ لَهُ بِقَرَى .
ولم تكلمه ؟؟

— ذَاكَ سَيِّدُ الْعَرَبِ الْحَارِثُ بْنُ عَوْفٍ نَرَى .

— فَمَا لَكَ لَمْ تَسْتَنْزِلْهُ ، وَأَنْتَ تَعْلَمُ أُنَى عِصْقَايَةِ ، وَهُوَ عَلَى مَا ذَكَرْتَ مِنَ الْمَكَانَةِ ؟

— إِنَّهُ اسْتَحَقَّ !

— وَكَيْفَ ؟

— جَاءَنِي خَاطِبًا .

— أَهْتَرِيدُ أَنْ تَزُوجَ بَدَنَتِكَ ؟

— بَعْدَ .

— فَإِذَا تَزُوجَ سَيِّدَ عَرَبٍ هُنَ ؟

— قَدْ كَانَ دُونَ .

— تدارك ما كان منك .

— بماذا ؟

— تلحقه فقرته .

— وكيف وقد فرط منى ما فرط إليه ؟ وعزيز على نفسى أن أرجع فى كلمة قلتها .

— هو عن عليك ! ، تقول له : لقيتنى مغضباً بأمر لم تقدم فيه قولاً ، فلم يكن عندى فيه من الجواب إلا ما سمعت ، عدتْ ولك عندى كل ما أحبتْ فإنه سيفعل .

وقد رد هذا الكلام ما عزب من صواب أوس ، وعلم أنه هو الذى استحق ، إذ عجل بالرفض ، فالحق بالحارت وصاحبيه .

وحانت من خارجة التفاتة ، فرأى أوساً يمدو خلفهما على جواد فارم ، فقال للحارت — وهو لا يكلمه غماً — هذا أوس بن حارثة جاؤ فى أثرنا فقال الحارث :

— وما صنع به ؟ امض بنا .

فما رأهم الحارث لا يقفون صاح بهم : يا حارث ؟ قف هنيهة . فوقف وكلمه بما أوحى به امرأته ، فرجع معه مسروراً . ودخل أوس منزله ، وقال لزوجته : هذا هو قد رجع ، ولست أدري أى بناتى أصلح له ؟ ادعى له فلانة — أكبر سناً — فنته فقال لها :

— ي . هذا الحارث بن عوف سيد من سادات العرب ، وعلم من

أوس بن حارثة . وقد أردت أن أزوجه لك منه ، فما تقولين ؟

وأطرت الفتاة قليلاً تفكر ثم رفعت رأسها وقالت :

— لا تفعل ؟ —

— ولم .

— إني امرأة في وجهي أثر من دملمة ، وفي طبعي بعض الغلظة . ولست بآبنة عمه فيرعى راحي ، وليس بجمارك فيستحي منك ، ولا آمن أن يرى مني ما يكره فيطلقني ، فيكون عليّ في ذلك مافيه ، وأجلب لك لإساءة ، ولبيتك الشين .

— مارك الله عليك يا بنية ، لقد أظهرت رجاحة عقل ، وثاقب رأي ، فحوصك الله خيراً منه .

ثم قال لزوجته : ادعى لي فلاته — يريد وسطى بابه — فدعته ، وقدر لها ما قال لأختها من قبل فأجابته بمثل إجابته ، وزدت ثم حرقاء لا تحسن صنعة ، وأنها تخشى أن يحذفها ما يكره فيضيق . فعد لها خبير ، وقدر لامرأته : ادعى بئيسة — صغرى بابه — فدعته أم . وأنت بئيسة . قد مدت غضارة وبصارة ، كئن وجهها الدينارية تلق زلفاً ، وكثمت الحصن لا موديتي ويترنح ، يشع من عينيها بريق ينم عن كرم ذكاء ، ونزوة صرامة ومضاء . كئيهما سيفن في جفنين ونهاخذ كغريص تنفح ، وتنه كبرت . ردد ، وجبهة كفلق الصبح . فقال له أبوه حين رآه : حياي . يا بئيسة ، تهن حدثك ! .

— هذا يا أبته ! .

— جاءني حدث من عوب سيد ديب مفضلاً . قد تهنين .

— أنت وذاك ؟

— قد عرضت ذلك على أختيك فأبتاه .

ولم يذكر لها ما قالتا ، فقالت :

— لكنتى والله الجميلة وجهاً ، الرفيعة خلقاً ، الحسبية أباً ، فإن طلقنى

فلا أخاف الله عليه بخير .

— بارك الله عليك يا بنية ، وجعلك منجبة ودوداً .

وخرج أوسٌ إلى الحارث بن عوف ، ونفسه راضية ، لأنه يعلم من سُمَيَّة أنها راجحة العقل ، وأنها كفء للحارث ، وأنها المرأة التي لا يخشى عليها إن اغتربت عن أهلها لقرط دهائها ، ورقة خلقها ، وقال للحارث : يا حارث زوجتك بُهَيَّسَةَ بنت أوس ، فقال الحارث : قبلت .

وأمر أوس بيتاً فضرب للحارث ، وأنزله إياه ، ثم دعا وجوه قومه ليرحبوا بصهره ، وسيد غطفان ، وبالغ في الحفاوة به وإكرامه .

وأخذت زوجة الحارث تهيب من أمر بهيسة ، وتعدّها للزفاف ، ونساء طيء يهنئونها بزواجها ، وكلٌّ توصيها بوصية حتى يدوم عيشها في كنف زوجها وهي عن بلادها مائية ، ليس لها مشير إلا رأيها ، وماوعته من مصاح أحيائها وبعد أن فرغن من تحييزها زفها النساء إلى خباء الحارث بن عوف ، ولكنه ما لبث هنيهة معها حتى خرج ، وهو يقول لخارحة : هيا بنا إلى ديار ذييان .

— وما المعجلة ، وقد زفت إليك عروسك ؟

— قد أدت أن أبى بها وقالت : مه ! أعند أبى وإخوتى ؟ هدا والله .

— إذا فلنرحل ما دام هذا أمرك وأمرها .

وودعت بهيسة أباهما وأما وإخوتها ، ثم سارت في هودجها مع زوجها وصاحبه ، وهي رابطة الجأش ، ساكنة النفس ، واثقة من أمرها ، كأنها لم تفارق عشها الذي فيه درجت ، وتودّع أهلاً أعزاء عليها ، وكأنها تقدم على أمر قد أرمته من قبل ، وفكرت فيه ملياً .

وبيناهم في الطريق أخذت نفس الحارث تراوده ليخلو بها ، فأمر خارحة أن يسبقه ، فلما انفرد بها ، جلس وإياها هنيهة على جاب الطريق ، ولكنه ما لبث أن لحق بخارحة ، فقال له :

— ما بالك لم تلبث بجانب زوجك إلاّ أمداً يسيراً ، هل ردّتك عنها ؟

— أجل ! لقد قالت هذه للمرأة ! أَكَمْ يُنْعَلُ مَالُمةٌ لَجِيمةً ، أو السبيبة الأخيذة ؟ ، لا والله ، حتى تنحر الجُرُزَ ، وتذبح النعم ، وتدعو العرب وتعمل ما يعمل لمثلي !

فقال خارحة :

— والله إنى لأرى همة عالية ، وعقلاً راجحاً ، وأرجو أن تكون امرأة

منجبة بن شاء الله .

ووصات همة زائلة الصغيرة سيدها صوب ديار دُبين بعدد ، وحارب ابن عوف يفكر في عيوسه لأبيّة نفس ، وكيف يسوسها في مُستقبل . وهي على ما رأى من ألفة ، وترفع عن الصغر ، وردة قوية ، وتبدّ يشعر بحود باحترام وتقدير ومحبة ، ولم تهر في نضرة مجرد امرأة تكسبهم ، ودبّ في فؤاده للأمل بأنها ستكون منجبة ، وتلد راء وست — يسمو على توس بن حارثة

في عزته وكرمه وعلى الحارث بن عوف في سيادته وشرفه .

وصار يحدث خارجة بما يعتلج في صدره ، وبأبه سعيد الجَد إذ وفق .
للرواج من بُهَيْسَة ، وأمه لولا تمهيس خارجة وإثارتها له ما عزم على الرحلة إلى
أوس وما رجع بهذا الصيد النفيس ، وظلا في حديث بهيسة ، وأوس بن حارثة
حتى وصلا إلى ديار ذيان .

وما أن استراح الحارث من وعشاء السفر حتى أخذ يُعيد للرفاق عُدَّته ،
فأحضر الإبل والنعم ، ودعا سادات ذيان ، وذوى الرأى فيها ، وأقبل النساء
على داره ليشاهدن هذه العروس التي يعد لها كل هذه العُدَّة ، وقد علمن بمكانة
أبيها ، ومزلة في العرب ، ورأينَ حملا باهرا أخادا ، وعقلا حصيما ، ولساما
ذريبا بصيحا ، وكرامة ، واعتدادا بالنفس ، وترفا ، فأحببها بعضهن ، وأقبلن
عليها يرحن بها ، ويحننها ، ويؤسسا في غرتها ، ويحاولن خدمتها ، وحسدها
بعضهن على ما حباها به الله من جمال جسم وكمال خلق ، وحصافة عقل ،
فأشحن بوحوهين عها ، وانصرفن والحسرة تلدغ قلوبهن ، وكلَّ تحاول أن
تتلمس فيها عيبا ، فهذه تقول : إنها متكبرة ذات صلف ، والويل لآل الحارث
مها ، وهذه تقول : إنها متعبهة ، كثيرة الحديث كأنها تفرض فيا الجهل
والعناء ، وهذه تقول : لم تلاحظن سعة عينيها إنها لعمرى بحيفة . . . وهكذا
تسب آياتها لهرة في بطنهن سيئت ومحاسنها عورات .

و . . . لقوم للطعام ، وقام الحارث وآله وخدمه عليهم ، والكل يهتف

ت . . . بصبرة أوس بن حارثة الطائي سيد العرب ، ويرحون أن

ر . . . ربح حارث ، ورحل المساء ، وهو قريح مسرور بأن عروسه

لقد كنت أظن يا ابن عوف أن هذا الأمر لا يخفى على مثلك ، وإني لم أمتنع عليك زهداً فيك ، أو خوفاً منك ، أو كراهية لك ، ولكن أحببت أن يسكون مقدمي عليك سبباً في رفع ذكرك ، وتخليدك بالأثر الطيب والعمل الصالح مدى الدهر ، فأخرج إلى هؤلاء القوم ، وأصلح بينهم ، ثم ارجع إلى أهلك فلن يفوتك ما تريد .

فسر الحارث من حديثها ، وتحركت همته العالية ، ونفسه الطموح لتحقيق طلبتها ، وقضى ليلته بعيداً عنها في خباء وحده ، وهو يفكر فيما اقترحته عليه وهل يستطيع وحده أن يتحمل ديوات القتلى ؟ ، وهل ثمة من يرغب في السعي معه في هذا الأمر الجلل ؟ ، وأخذ يستعرض أشرف قومه وأجوادهم : عيينة ابن حصن الفزاري ، إنه حقاً رئيس قومه ولكنه أحق موتور ، . . ابن سيار إن فيه كزازة ، ليس لها إلا هَرَم بن سنان المرّي ، إنه ذو أريحية ، وصاحب همة ، وسماحة يد . واطمأن قلبه حين اهتدى رأيه إلى هرم ، وعزم أن يبكر في التحدث إليه في شأن الصالح ، وأغنى قليلاً قبل أن ينبجج الصباح ، وقام حين أشرقت الشمس وقلبه مغمم بالأمل في تحقيق رجاء بهيسة بنت أوس . وحاده خارجة بن سنان قبل أن يبرح خبائه ، وسأله : كيف قضى ليلته مع عروسه ؟ ، فقص عليه قصتها معه ، وما طلبته منه ، فقال له خارجة :

— والله إني لأرى همة وعقلا ، ولقد قالت قولا .

— في الحق ياخريجة ، لقد ازددت بها شغفاً ، ولها محبة وإعجاباً ، ويبيت مثلها في النساء كثير . فإنها منومة ، وصاحبة رأي ، ودلت على أنها حقاقت سيد من سادات العرب ، وأخت عرابة الذي قال فيه الشاعر :

.. رية رعت لحده تلقاها عرابة مالمين

وتريد أن يكون زوجها أهلاً لها في السيادة والشرف ، يلبح الناس بحسده .
كما تريد أن يكون مقدماً خيراً وبركة على من حلت بهم ، فتحتل من قلوبهم
أرفع منزلة ، وأسمى مكانة ، وهكذا يكون النساء .

والآن يا خاتمة ! لقد فكرت ملياً في هذا الأمر الذي عرضته بهيسة
ولم أجد إلا هرم بن سنان معواناً في الصلح بين الناس ، فها بن إليه .
— لقد أصبت ، فهرم جدير بأن يتزعم معك شئون قومه ، وقد صدق
زهير حين قال فيه :

تراه إذا ما جثته متهللاً كذاك تعطيه الذي أت سئله
وصدق كذلك حين قال فيه :

قد جعل المبتغون الخير في هرم والسائلون إلى أبويه طرقة
من يلقى يوماً على علاته هريماً ينق السحابة والدي خبة
لو نال حتى على الدنيا عكره وفق نساء لنت كفه لأفقه
فها بنا عرض أمر الصبح على قوم . وما إخالهم لا توفين إليه . بعد
أن طحتهم الحرب طحاً . وإن لم تقل غريمهم كما صنعت يبي عموهم عس .
وخرج الحارث بن عوف ميماً صوب هرم بن سنان ، وما كاد يعرض
عليه الأمر حتى تهلل وجهه ، ووضع كل ماله بين يدي الحارث إذ كان
في المال ما يزيل الأحقاد ، ويذهب الآحزن ، ويعيد للنفوس هدوءاً . ويدبر لهم
ويرد عبساً إلى أوطانها ، وقد شردوا في كل مكان وطوفوا في جريرة .

وكانت عيسى قد ملئت الحرب كما ملئت ذيين ، من سميت لتضوف
بشتى الأماكن ، والنزول بمختلف القبائل ، يلاقون منهم عتاة وزهدة حتى
قال لهم قيس بن زهير ، قائدهم وصاحب حرمهم : رجعوا إلى حوسكم من

ذبيان ، قلموت معهم خير من البقاء مع غيرهم ، وقالوا له : سر معنا ، فقال : لا والله ، لا نظرت في وحي ذبيابة قتلت أباهما أو أخاهما أو زوجها أو ولدها . وسمعت عيسى بمسعى الحارث بن عوف فجاءوا وبرزوا عليه ، ودكروا له ما قدموا من أحله ، فكان فرحه بمقدمهم لا تسعه الديار العريضة ، لأنه وجد في نفوسهم مثل ما في نفسه ، وحدها مهيئة مشوقة للصلح . ودعا هَرم بن سنان إليه ، واحتسب كل فريق من القبيلتين قتلاه وتحمل الحارث بن عوف ، وهرم بن سنان ديابة مَن زاد من القتلى ، فكانت ثلاثة آلاف بعير ، دفعها للموتورين في ثلاث سنوات ؛ وتجد الناس لها ذلك الموقف الفذ ، وذاع اسمها في العرب كلها ، ولكن شخصاً واحداً أبى أن يَدْخُلَ فيما دخل فيه قومه من الصلح ألا وهو حُصَيْن بن صَنْمُز المري ، فقد قتل وَرْدُ بن حابس العبسي أخاه قبل الصلح ، وأقسم لينتقم له ، فلما علم بالصلح أبى أن ينصاع له ، وأخذ يترقب الفرصة المواتية ليبرئ يمينه .

وجاءته الفرصة سريعاً بعد الصلح ، إذ سرَّ به ذات مساء رحل من
عس ، فأخذ يسأله عن نسبه حتى علم أنه من عشيرة ورد بن حابس فقتله ،
فأثارت بنو عس ، وكاد الصلح ينقص ، وتعود الحرب على أشدها ، ولكن
الربيع بن زياد سيد عس أقتار عليهم بأن يركبوا إلى الحارت بن عوف ، فلما
علم حارب بروكوبهم إليه ، ورثى في وحوهم الشر وأنهم عارمون على قتله هو ،
رضوا صدحه هذاخذته منه أرسل إليهم اسه ومعه مائة من الإبل ، وحيَّهم
ر يتر دية قتيبيهم مائة من الإبل ، فإن أتوا فها هو ذا يقدم اسه ليحقق
سوء ريبك صدح دستحي الربيع بن رناد وسو عس ، وقبلوا الدية

وذلك تمّ الصلح على يد الحارث وفضل هبسة بنت أوس زوجه .
وقد حدّ الشعراء الحارث بن عوف لهذه الكريمة التي طوّق بها
قومه وذلك حيث يقول زهير بن أبي سلمى في معلقته ذاكراً مسعاه هو وهرم
ابن سنان في هذا الأمر الخليل .

سعى ساعياً عيظ بن مروة بعدما تهرّب من بين العشيرة بالدم^(١)
فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله رحاً ستوه من قريش وحرّمه
يميناً لعم السيدان وجدنا على كل حال من سحيل ومزّه^(٢)
تداركنا عبساً وديار بعد ما تدوا ، ودقوا بينهم عطر مئتم^(٣)
وقد قمتا إن يدرك السلم واسعا عمال ومعروف من القول كسم
فأصبحتما مها على خير موطن عيدين فيهم من سقوى ومأتم
عظيمين في عني معد هديّة ومن يستبح كبر من عدي يعصه^(٤)
وستقبت هبسة حارث بن عوف حين تمّ له الصبح ، وحشد في الحارين
بما يابق بمكاته وسعيه ، ووضعها حارث من فة نه في اسويد ، لاهم كات
امرأة أين منها السعد ! .

(١) من الحارث : يد تشق وجرح ما فيه ، كان قوم في ولاء ووحدة ، فتغنى أمرهم ،
وافصدت وحدتهم .

(٢) السيدان : الحارث بن عوف ، وهرم بن سنان ، وكلام من فنان وسحيل الحارث
المتول على قوة واحدة ، ولاءه لهرم بن عوف ، ومضى : مع سيد واحد حين
تأخرت لأمر قد يرميه ومزّه : مذهب في كل حال في شدة لائس وسبوتة .

(٣) مئتم : امرأة كات : مع وودع حرمه من سقوى ومأتم .

في عطرهما ، ودخلوا حرب فقتوا حرمه حارث بن عوف ، وحشد في الحارين ،

(٤) يعصه : أي يأتى أمرهم ، أو يسمعهم .

السخي العداء^(١)

كان المهاجرُ بن عبد الله والي اليمامة ذات يوم جالساً في حاشيته . وكل من له قضية بيني الفصل فيها ، أو طَلَبَة يروم قضاءها ، أو ظلم وأراد النصقة والعدل ، دخل على الأمير نائراً بين يديه خبيثةً نفسه ، ودخيلةً أمره . والمهاجر ابن عبد الله ينصت ويفكر ، ويستشير ذوى الرأي من جلسائه ويصدر أمره . ولما انقضى عليه بعض الوقت وهو يوزع العدل على الرعية ، ويغيث المكروب ، وينصف المظلوم ، ويعين المحتاج ، أحضر بين يديه أعرابي جلف ، خفيف اللحية ، أشعثُ الشعر ، في وجهه ندوبٌ جراحٍ قديمة ، قصيرُ الثياب ، نحيف البدن ، مفتول العود ، يحيط به رجال الشرطة في حرص وعناية كأنهم يخشون إفلاته ، أو كآته شيء ثمين أحرزوه بعد جهد وعناء وما كان لهم أن يفرطوا فيه . ولما مثلوا بين يدي الأمير قال أحدهم :

— هذا يامولاي سُحيم الأزدي ، الذي روع الأمنين ، وقطع الطريق وعاث في البلاد فساداً ، وقتل وسرو ، والذي طالما طاردناه وتمنينا القبض عليه وقد أمكننا الله منه بعد طرادٍ عنيف ، وقد ألح عليه السُغبُ وقلة ما بالبيداء من خير ، لشدة الجذب هذا العام ، فورد هذه المدينة عله يحدبها ما يقيم أودّه ويسك ذممه ، يمشي على حذر خائفاً يترقب ، وقد راب أمره أحد رجالى فَرسل إلى من أبنتى خبره دون أن يضع عنه بصره ، وما أن رأيته حتى

١ : عن روضة الأخبار لابن قتيبة ج ١ ص ١٨٧ وقصص العرب ج ٢ ص ١٩ .

عرفته ، وقد لحنى قعر كأن به مساً من الشيطان ، أو أنه قد رأى شبح الموت .
ولكننا طاردناه حتى أمعن فى الصحراء فلم نلقه عنه إلا وهو مغلول اليدين
يرصف فى القيود .

فقال الأمير : أحقاً ما يقول الشرطى ياسحيم ؟ .

— هو بعض الحق يامولاي .

أو عندك شيء آخر ؟

— إني لا أزهى بالسلب والقتل . ولكن مضى على حين من الدهر ، وأذ
أقحم الصعاب ، وأرد المكره فى سبيل الرزق ، وقد أخذت للأمر عدته فكان
لى بغير لا يُسبَق ، وخيلٌ لا تُلحَق . وإذا خرجت فى غزاة أو غارة لا أرجع
خائباً ، وعندى جنان كالجبيل الأشم لا تزلزله لحدوت وتروثه الكورث ، ويد
صنع مهرة فى 'تقدس بستی صوبه' ودوته

ولم أكن أتورعُ عن قتل من يعترض سبيلي ويزحى فى طريقى ، أو من
يروم بى سوءاً ، ويبغى إحباط مساعى ، وإفساد تدبيرى . وكان ذلك سبباً
وطيشاً أعترف بهما بين يدي الأمير ، لا عن خوف من عقاب أو ضيق فى سفر .
فإني على يقين من عظم جريرة وكبر الإثم ، ولكنى حقيقة ، بعد أخذى
نفسى منذ زمن ألا أقول مَيْناً .

— وألم يكن لك فى فؤادك رغبة فى أن يغيبك من قعر بلادهم لآدم
وسلب عبد الله ، وما يجب لك من حزن ؟ . كذب عني من كذب
فهل أجبت بيدك من بيتك يدركك ثم

والآن أخبرني ياسحيم عن بعض عجائبك قبل أن تفصل في أمرك وندعك لحكم الله .
 — أيها الأمير — لا زلت مؤيداً — إني والله لا أخشى الموت وقد اقتحمتُ
 عليه عرينه سرّات ومرّات ، وتمثلته في كل خطوة في غارة ، وكل ثنية في طريق ،
 وكيف لي أن أهابه اليوم وقد بلغت من العمر ما بلغت : وإني أقول غير معذّر
 عن نفسي : إن مادفني إلى ما فعلت هو غرورُ الشباب ، وجرأةُ الجنان ، وسوء
 الصحبة ، وتصريف القضاء . ولقد كنتُ موقناً أن هذا اليوم آتٍ لا ريبَ فيه
 إن عاجلاً وإن آجلاً ، وإن نجوتُ في الدنيا فلن أسلمَ في الآخرة .

أما عن عجائبي فكثيرة ، ومن أعجبها أني خرجت في يوم قاتظ يتوهج لهبا ،
 وقد التمت شيئاً أطعمه فلم أجده ، وخلفتُ ورائي صبيّة يتضاغون من الجوع
 وآليتُ ألا أرجع حتى أغنيهم عامهم هذا لهما ولبنّا . ومضيتُ في طريقى لا أجده
 إلا رملاً سافياً ، وصخوراً عاتية ، ويباباً قفراً خلا من الزرع والضرع . ولما
 اشتدّ بي الجوع حتى كدت أهلك وارتد عن عزمي ، شاهدت ضباً يطلُ برأسه
 من جحر ، فأنحنت راحلتى ، وقلت لنفسي سأتباع به حتى يأتى القرج . ثم مددت
 يدي إلى جحره ولما صار في يدي عافته تقسى على ما بي من جوع ، فعلقته على
 قتب بعيري : خشيةً ألا أجده سواء وأضطر إلى أكله . وانطلقتُ في طريقى
 وأما لا أكاد أتماسك إعياء وسغباً ، ثم مررت على خباء واسع عليه
 مظهر الثراء والرخاء وليس به إلا عجوز شمطاء . فقلت لنفسي أخلق بهذا الخباء
 أن يكونَ له رائحةٌ من غنم أو إبل ، ودنوتُ من الخباء ، فحييتُ المعجوز ،
 فبرأت الحية وفاتت .

١ ٢ ٣ ٤ ٥ ٦ ٧ ٨ ٩ ١٠ ١١ ١٢ ١٣ ١٤ ١٥ ١٦ ١٧ ١٨ ١٩ ٢٠ ٢١ ٢٢ ٢٣ ٢٤ ٢٥ ٢٦ ٢٧ ٢٨ ٢٩ ٣٠ ٣١ ٣٢ ٣٣ ٣٤ ٣٥ ٣٦ ٣٧ ٣٨ ٣٩ ٤٠ ٤١ ٤٢ ٤٣ ٤٤ ٤٥ ٤٦ ٤٧ ٤٨ ٤٩ ٥٠ ٥١ ٥٢ ٥٣ ٥٤ ٥٥ ٥٦ ٥٧ ٥٨ ٥٩ ٦٠ ٦١ ٦٢ ٦٣ ٦٤ ٦٥ ٦٦ ٦٧ ٦٨ ٦٩ ٧٠ ٧١ ٧٢ ٧٣ ٧٤ ٧٥ ٧٦ ٧٧ ٧٨ ٧٩ ٨٠ ٨١ ٨٢ ٨٣ ٨٤ ٨٥ ٨٦ ٨٧ ٨٨ ٨٩ ٩٠ ٩١ ٩٢ ٩٣ ٩٤ ٩٥ ٩٦ ٩٧ ٩٨ ٩٩ ١٠٠ ١٠١ ١٠٢ ١٠٣ ١٠٤ ١٠٥ ١٠٦ ١٠٧ ١٠٨ ١٠٩ ١١٠ ١١١ ١١٢ ١١٣ ١١٤ ١١٥ ١١٦ ١١٧ ١١٨ ١١٩ ١٢٠ ١٢١ ١٢٢ ١٢٣ ١٢٤ ١٢٥ ١٢٦ ١٢٧ ١٢٨ ١٢٩ ١٣٠ ١٣١ ١٣٢ ١٣٣ ١٣٤ ١٣٥ ١٣٦ ١٣٧ ١٣٨ ١٣٩ ١٤٠ ١٤١ ١٤٢ ١٤٣ ١٤٤ ١٤٥ ١٤٦ ١٤٧ ١٤٨ ١٤٩ ١٥٠ ١٥١ ١٥٢ ١٥٣ ١٥٤ ١٥٥ ١٥٦ ١٥٧ ١٥٨ ١٥٩ ١٦٠ ١٦١ ١٦٢ ١٦٣ ١٦٤ ١٦٥ ١٦٦ ١٦٧ ١٦٨ ١٦٩ ١٧٠ ١٧١ ١٧٢ ١٧٣ ١٧٤ ١٧٥ ١٧٦ ١٧٧ ١٧٨ ١٧٩ ١٨٠ ١٨١ ١٨٢ ١٨٣ ١٨٤ ١٨٥ ١٨٦ ١٨٧ ١٨٨ ١٨٩ ١٩٠ ١٩١ ١٩٢ ١٩٣ ١٩٤ ١٩٥ ١٩٦ ١٩٧ ١٩٨ ١٩٩ ٢٠٠ ٢٠١ ٢٠٢ ٢٠٣ ٢٠٤ ٢٠٥ ٢٠٦ ٢٠٧ ٢٠٨ ٢٠٩ ٢١٠ ٢١١ ٢١٢ ٢١٣ ٢١٤ ٢١٥ ٢١٦ ٢١٧ ٢١٨ ٢١٩ ٢٢٠ ٢٢١ ٢٢٢ ٢٢٣ ٢٢٤ ٢٢٥ ٢٢٦ ٢٢٧ ٢٢٨ ٢٢٩ ٢٣٠ ٢٣١ ٢٣٢ ٢٣٣ ٢٣٤ ٢٣٥ ٢٣٦ ٢٣٧ ٢٣٨ ٢٣٩ ٢٤٠ ٢٤١ ٢٤٢ ٢٤٣ ٢٤٤ ٢٤٥ ٢٤٦ ٢٤٧ ٢٤٨ ٢٤٩ ٢٥٠ ٢٥١ ٢٥٢ ٢٥٣ ٢٥٤ ٢٥٥ ٢٥٦ ٢٥٧ ٢٥٨ ٢٥٩ ٢٦٠ ٢٦١ ٢٦٢ ٢٦٣ ٢٦٤ ٢٦٥ ٢٦٦ ٢٦٧ ٢٦٨ ٢٦٩ ٢٧٠ ٢٧١ ٢٧٢ ٢٧٣ ٢٧٤ ٢٧٥ ٢٧٦ ٢٧٧ ٢٧٨ ٢٧٩ ٢٨٠ ٢٨١ ٢٨٢ ٢٨٣ ٢٨٤ ٢٨٥ ٢٨٦ ٢٨٧ ٢٨٨ ٢٨٩ ٢٩٠ ٢٩١ ٢٩٢ ٢٩٣ ٢٩٤ ٢٩٥ ٢٩٦ ٢٩٧ ٢٩٨ ٢٩٩ ٣٠٠ ٣٠١ ٣٠٢ ٣٠٣ ٣٠٤ ٣٠٥ ٣٠٦ ٣٠٧ ٣٠٨ ٣٠٩ ٣١٠ ٣١١ ٣١٢ ٣١٣ ٣١٤ ٣١٥ ٣١٦ ٣١٧ ٣١٨ ٣١٩ ٣٢٠ ٣٢١ ٣٢٢ ٣٢٣ ٣٢٤ ٣٢٥ ٣٢٦ ٣٢٧ ٣٢٨ ٣٢٩ ٣٣٠ ٣٣١ ٣٣٢ ٣٣٣ ٣٣٤ ٣٣٥ ٣٣٦ ٣٣٧ ٣٣٨ ٣٣٩ ٣٤٠ ٣٤١ ٣٤٢ ٣٤٣ ٣٤٤ ٣٤٥ ٣٤٦ ٣٤٧ ٣٤٨ ٣٤٩ ٣٥٠ ٣٥١ ٣٥٢ ٣٥٣ ٣٥٤ ٣٥٥ ٣٥٦ ٣٥٧ ٣٥٨ ٣٥٩ ٣٦٠ ٣٦١ ٣٦٢ ٣٦٣ ٣٦٤ ٣٦٥ ٣٦٦ ٣٦٧ ٣٦٨ ٣٦٩ ٣٧٠ ٣٧١ ٣٧٢ ٣٧٣ ٣٧٤ ٣٧٥ ٣٧٦ ٣٧٧ ٣٧٨ ٣٧٩ ٣٨٠ ٣٨١ ٣٨٢ ٣٨٣ ٣٨٤ ٣٨٥ ٣٨٦ ٣٨٧ ٣٨٨ ٣٨٩ ٣٩٠ ٣٩١ ٣٩٢ ٣٩٣ ٣٩٤ ٣٩٥ ٣٩٦ ٣٩٧ ٣٩٨ ٣٩٩ ٤٠٠ ٤٠١ ٤٠٢ ٤٠٣ ٤٠٤ ٤٠٥ ٤٠٦ ٤٠٧ ٤٠٨ ٤٠٩ ٤١٠ ٤١١ ٤١٢ ٤١٣ ٤١٤ ٤١٥ ٤١٦ ٤١٧ ٤١٨ ٤١٩ ٤٢٠ ٤٢١ ٤٢٢ ٤٢٣ ٤٢٤ ٤٢٥ ٤٢٦ ٤٢٧ ٤٢٨ ٤٢٩ ٤٣٠ ٤٣١ ٤٣٢ ٤٣٣ ٤٣٤ ٤٣٥ ٤٣٦ ٤٣٧ ٤٣٨ ٤٣٩ ٤٤٠ ٤٤١ ٤٤٢ ٤٤٣ ٤٤٤ ٤٤٥ ٤٤٦ ٤٤٧ ٤٤٨ ٤٤٩ ٤٥٠ ٤٥١ ٤٥٢ ٤٥٣ ٤٥٤ ٤٥٥ ٤٥٦ ٤٥٧ ٤٥٨ ٤٥٩ ٤٦٠ ٤٦١ ٤٦٢ ٤٦٣ ٤٦٤ ٤٦٥ ٤٦٦ ٤٦٧ ٤٦٨ ٤٦٩ ٤٧٠ ٤٧١ ٤٧٢ ٤٧٣ ٤٧٤ ٤٧٥ ٤٧٦ ٤٧٧ ٤٧٨ ٤٧٩ ٤٨٠ ٤٨١ ٤٨٢ ٤٨٣ ٤٨٤ ٤٨٥ ٤٨٦ ٤٨٧ ٤٨٨ ٤٨٩ ٤٩٠ ٤٩١ ٤٩٢ ٤٩٣ ٤٩٤ ٤٩٥ ٤٩٦ ٤٩٧ ٤٩٨ ٤٩٩ ٥٠٠ ٥٠١ ٥٠٢ ٥٠٣ ٥٠٤ ٥٠٥ ٥٠٦ ٥٠٧ ٥٠٨ ٥٠٩ ٥١٠ ٥١١ ٥١٢ ٥١٣ ٥١٤ ٥١٥ ٥١٦ ٥١٧ ٥١٨ ٥١٩ ٥٢٠ ٥٢١ ٥٢٢ ٥٢٣ ٥٢٤ ٥٢٥ ٥٢٦ ٥٢٧ ٥٢٨ ٥٢٩ ٥٣٠ ٥٣١ ٥٣٢ ٥٣٣ ٥٣٤ ٥٣٥ ٥٣٦ ٥٣٧ ٥٣٨ ٥٣٩ ٥٤٠ ٥٤١ ٥٤٢ ٥٤٣ ٥٤٤ ٥٤٥ ٥٤٦ ٥٤٧ ٥٤٨ ٥٤٩ ٥٥٠ ٥٥١ ٥٥٢ ٥٥٣ ٥٥٤ ٥٥٥ ٥٥٦ ٥٥٧ ٥٥٨ ٥٥٩ ٥٦٠ ٥٦١ ٥٦٢ ٥٦٣ ٥٦٤ ٥٦٥ ٥٦٦ ٥٦٧ ٥٦٨ ٥٦٩ ٥٧٠ ٥٧١ ٥٧٢ ٥٧٣ ٥٧٤ ٥٧٥ ٥٧٦ ٥٧٧ ٥٧٨ ٥٧٩ ٥٨٠ ٥٨١ ٥٨٢ ٥٨٣ ٥٨٤ ٥٨٥ ٥٨٦ ٥٨٧ ٥٨٨ ٥٨٩ ٥٩٠ ٥٩١ ٥٩٢ ٥٩٣ ٥٩٤ ٥٩٥ ٥٩٦ ٥٩٧ ٥٩٨ ٥٩٩ ٦٠٠ ٦٠١ ٦٠٢ ٦٠٣ ٦٠٤ ٦٠٥ ٦٠٦ ٦٠٧ ٦٠٨ ٦٠٩ ٦١٠ ٦١١ ٦١٢ ٦١٣ ٦١٤ ٦١٥ ٦١٦ ٦١٧ ٦١٨ ٦١٩ ٦٢٠ ٦٢١ ٦٢٢ ٦٢٣ ٦٢٤ ٦٢٥ ٦٢٦ ٦٢٧ ٦٢٨ ٦٢٩ ٦٣٠ ٦٣١ ٦٣٢ ٦٣٣ ٦٣٤ ٦٣٥ ٦٣٦ ٦٣٧ ٦٣٨ ٦٣٩ ٦٤٠ ٦٤١ ٦٤٢ ٦٤٣ ٦٤٤ ٦٤٥ ٦٤٦ ٦٤٧ ٦٤٨ ٦٤٩ ٦٥٠ ٦٥١ ٦٥٢ ٦٥٣ ٦٥٤ ٦٥٥ ٦٥٦ ٦٥٧ ٦٥٨ ٦٥٩ ٦٦٠ ٦٦١ ٦٦٢ ٦٦٣ ٦٦٤ ٦٦٥ ٦٦٦ ٦٦٧ ٦٦٨ ٦٦٩ ٦٧٠ ٦٧١ ٦٧٢ ٦٧٣ ٦٧٤ ٦٧٥ ٦٧٦ ٦٧٧ ٦٧٨ ٦٧٩ ٦٨٠ ٦٨١ ٦٨٢ ٦٨٣ ٦٨٤ ٦٨٥ ٦٨٦ ٦٨٧ ٦٨٨ ٦٨٩ ٦٩٠ ٦٩١ ٦٩٢ ٦٩٣ ٦٩٤ ٦٩٥ ٦٩٦ ٦٩٧ ٦٩٨ ٦٩٩ ٧٠٠ ٧٠١ ٧٠٢ ٧٠٣ ٧٠٤ ٧٠٥ ٧٠٦ ٧٠٧ ٧٠٨ ٧٠٩ ٧١٠ ٧١١ ٧١٢ ٧١٣ ٧١٤ ٧١٥ ٧١٦ ٧١٧ ٧١٨ ٧١٩ ٧٢٠ ٧٢١ ٧٢٢ ٧٢٣ ٧٢٤ ٧٢٥ ٧٢٦ ٧٢٧ ٧٢٨ ٧٢٩ ٧٣٠ ٧٣١ ٧٣٢ ٧٣٣ ٧٣٤ ٧٣٥ ٧٣٦ ٧٣٧ ٧٣٨ ٧٣٩ ٧٤٠ ٧٤١ ٧٤٢ ٧٤٣ ٧٤٤ ٧٤٥ ٧٤٦ ٧٤٧ ٧٤٨ ٧٤٩ ٧٥٠ ٧٥١ ٧٥٢ ٧٥٣ ٧٥٤ ٧٥٥ ٧٥٦ ٧٥٧ ٧٥٨ ٧٥٩ ٧٦٠ ٧٦١ ٧٦٢ ٧٦٣ ٧٦٤ ٧٦٥ ٧٦٦ ٧٦٧ ٧٦٨ ٧٦٩ ٧٧٠ ٧٧١ ٧٧٢ ٧٧٣ ٧٧٤ ٧٧٥ ٧٧٦ ٧٧٧ ٧٧٨ ٧٧٩ ٧٨٠ ٧٨١ ٧٨٢ ٧٨٣ ٧٨٤ ٧٨٥ ٧٨٦ ٧٨٧ ٧٨٨ ٧٨٩ ٧٩٠ ٧٩١ ٧٩٢ ٧٩٣ ٧٩٤ ٧٩٥ ٧٩٦ ٧٩٧ ٧٩٨ ٧٩٩ ٨٠٠ ٨٠١ ٨٠٢ ٨٠٣ ٨٠٤ ٨٠٥ ٨٠٦ ٨٠٧ ٨٠٨ ٨٠٩ ٨١٠ ٨١١ ٨١٢ ٨١٣ ٨١٤ ٨١٥ ٨١٦ ٨١٧ ٨١٨ ٨١٩ ٨٢٠ ٨٢١ ٨٢٢ ٨٢٣ ٨٢٤ ٨٢٥ ٨٢٦ ٨٢٧ ٨٢٨ ٨٢٩ ٨٣٠ ٨٣١ ٨٣٢ ٨٣٣ ٨٣٤ ٨٣٥ ٨٣٦ ٨٣٧ ٨٣٨ ٨٣٩ ٨٤٠ ٨٤١ ٨٤٢ ٨٤٣ ٨٤٤ ٨٤٥ ٨٤٦ ٨٤٧ ٨٤٨ ٨٤٩ ٨٥٠ ٨٥١ ٨٥٢ ٨٥٣ ٨٥٤ ٨٥٥ ٨٥٦ ٨٥٧ ٨٥٨ ٨٥٩ ٨٦٠ ٨٦١ ٨٦٢ ٨٦٣ ٨٦٤ ٨٦٥ ٨٦٦ ٨٦٧ ٨٦٨ ٨٦٩ ٨٧٠ ٨٧١ ٨٧٢ ٨٧٣ ٨٧٤ ٨٧٥ ٨٧٦ ٨٧٧ ٨٧٨ ٨٧٩ ٨٨٠ ٨٨١ ٨٨٢ ٨٨٣ ٨٨٤ ٨٨٥ ٨٨٦ ٨٨٧ ٨٨٨ ٨٨٩ ٨٩٠ ٨٩١ ٨٩٢ ٨٩٣ ٨٩٤ ٨٩٥ ٨٩٦ ٨٩٧ ٨٩٨ ٨٩٩ ٩٠٠ ٩٠١ ٩٠٢ ٩٠٣ ٩٠٤ ٩٠٥ ٩٠٦ ٩٠٧ ٩٠٨ ٩٠٩ ٩١٠ ٩١١ ٩١٢ ٩١٣ ٩١٤ ٩١٥ ٩١٦ ٩١٧ ٩١٨ ٩١٩ ٩٢٠ ٩٢١ ٩٢٢ ٩٢٣ ٩٢٤ ٩٢٥ ٩٢٦ ٩٢٧ ٩٢٨ ٩٢٩ ٩٣٠ ٩٣١ ٩٣٢ ٩٣٣ ٩٣٤ ٩٣٥ ٩٣٦ ٩٣٧ ٩٣٨ ٩٣٩ ٩٤٠ ٩٤١ ٩٤٢ ٩٤٣ ٩٤٤ ٩٤٥ ٩٤٦ ٩٤٧ ٩٤٨ ٩٤٩ ٩٥٠ ٩٥١ ٩٥٢ ٩٥٣ ٩٥٤ ٩٥٥ ٩٥٦ ٩٥٧ ٩٥٨ ٩٥٩ ٩٦٠ ٩٦١ ٩٦٢ ٩٦٣ ٩٦٤ ٩٦٥ ٩٦٦ ٩٦٧ ٩٦٨ ٩٦٩ ٩٧٠ ٩٧١ ٩٧٢ ٩٧٣ ٩٧٤ ٩٧٥ ٩٧٦ ٩٧٧ ٩٧٨ ٩٧٩ ٩٨٠ ٩٨١ ٩٨٢ ٩٨٣ ٩٨٤ ٩٨٥ ٩٨٦ ٩٨٧ ٩٨٨ ٩٨٩ ٩٩٠ ٩٩

وتسأير زيدا الليلة فإنه سيأتى عما قليل بالإبل ،

قلت : « لقد كدت أطلب ذلك من شدة ما بى من الإعياء والجوع
لولا أنك تكرمت فسبقت إلى الفضل ، لا زال رزقك موفوراً ، وخيرك
مشكوراً » .

وانتهيت ناحية وأرحت بعيرى والشمس على وشك الغيب ، وقد بدا
على وجهها الصفرة والشحوب كأنها جَزِعة من فراى هذه الأرض ، أو كأنها
مجهدةٌ عبية من عناء يومها ، وطول سفرها ، وأخذ أديم الأرض يبرُد ، وهو
الصحراء يرق ويلطف . وما أن توارت الشمس بالخجب ، ونشرت في الأفق
نوبها الأرجوانى تلوح به لهذه الدنيا مودعة قبل أن تدخل في سجون العتمة
حتى طلعت علينا مائة من الإبل الضخمة وفيها شيخٌ عظيم البطن كبير المهمة
ضخم الجثة كثير اللحم ، والشحم ، ومعه عبدٌ سودٌ عملاق ، شيفٌ مسفر ،
ستيم لوجه ، عيظ الشفتين مكثز جبن .

فما رآنى الشيخ رحباً وترحيب جود ثنى يهش بمنيف ويسر ،
بمقدمه ، ثم قام إلى ناقة فاحتلبها . وناولنى الإماء فشربت . يشرب رجل ،
وهو ينظر إلى بعين فاحصة فأخذ ما تنقى ففصر به حبهته . ومن ثم قام إلى
تسعة أيتق فاحتلبهن جميعاً ثم شرب كل إماء من . وناولنني به سمرى واتعجب
لبطنته وعظم شهيته . وتقد ضنته وناولني سبغدر فبش حبهته لا فري . وبش
بدا كأنه لم يتناول شيئاً . وحسرتى وهو يتسمر ، فـ :

— ولأن منضى صعدما .

قلت لنفسى : « ليس هذا إلا وحشٌ يأتى عن ردى ، ثم هو من

كله يجذ في أمعائه متسعا ، لطعام « ولكن راعى وايم الله أنه عمد إلى جوار^(١) حنيد فذبحه وطبخه ودعاه للطعام معه ، فأكلت ما يأكل الرجل ، وتركته ينهش اللحم نهشاً ويلقى العظام بيضا ، حتى أتى عليه كله لم يفكر في عبوز أو عبد ، وأنا أزداد منه عجباً وأقول : أخلق بذى البطة أن يكون خواراً ضعيفاً قليل الهمة . وهذا لعمرى ما أبغيه في ليلتي تلك . وبعد أن فرغ من طعامه لم يعد لديه مئيلٌ للسمر أو الحديث ولكنه تمهل وتراخى وأخذ الكرى يداعب أجفانه ، فحشا كومةً من الرمل وتوسدها ، وراح يغط غطيطة البكر شدَّ عقله .

أخذت أتأمل هذا الجسم الطويل الممتد ، وهذه المعدة التى تملو وتنخفض مع النفس وقد تكوّرت وبرزت ، وهذا الإهاب الخشن ، واليد الجاسية ، والقدم العليظة ، والرأس الضخم ، والجلثة المتفخخة ، وقلت بعد أن بيقنت أن النوم قد حره إلى بئر العميقة وتمكن منه كل التمكن : هذه والله لنعيمة ، وأنى لهذا البطن أن ينته لمن يسطو على إبله ويطردها . ثم قمت إلى فخل إبله نعطته^(٢) ثم قرنته إلى بعيرى ، والتفت فوجدت العبد قد لحق بسيده فى مهامه اليوم ، فزادنى ذلك إقداً ، وصحت بالمحل فأتبعنى ، واتبعته الإبل فصارت خلوى كأنها حبل ممدود ، وأخذت أحذو وأغى وأجد السير ، وبعيرى يكاد يظير سرعة ، ومع هد له آله ضرباً باليد ، ورَكَلًا بالرحل وكنت أقصد^(٣) شية^(٣) بين وبينها مسيرة ليلة للمسرّع ، فلغتها فى مطلع الفجر بعد أن بلغ مني أحد كل مدح .

^١ جوار : ولد البقرة .

^٢ وصحت فى الحسام وهو ما يوصم فى آفقه ليداد به .

^٣ شية : حتى فى الطريق .

على بينة من أمره . وحالقت فيه متحدية كأتى أشعره بثبات الجنان وعظم
المنة . فقال :

— أنسحو نفسك عن هذه الإبل ؟

قلت : لا . (وقد فهمت مغزى سؤاله وما فيه من تهكم لاذع ، ولكننى
تماسكت وتجلدت) .

فأخرج من كنفاته سهمها كأن نصله لسان كلب ، ثم قال :

— ترى هذا الضب الذى علقته على قتبك !

قلت : أجل .

قال : أبصر بين أذنيه .

ثم رماه فصدع عظمه عن دماغه . ونظر إلى ثم قال :

— ما تقول ؟

قلت : (وأما والله أهيبه وأخاف شره) : أنا على رأي الأول !

قال : أنظر هذا السهم الثانى فى فقرة ظهره الوسطى ،

ثم رمى به دون عناية وكأأنه يلهو ، فجاء فى الفقرة الوسطى كأنما قدره

بيده ثم وضعه بأصبعه ، ثم قال :

— أرايت ؟

قلت : لى أريد أن أثبت .

وأتى فى هذا أحاول أن استنفذ أسهمه وأعلم مبلغ مهارته التى لا أرتاب

فيه ، وتسد زدد إعظامى له ، وخوفى منه ، ولولا الحياء وبقية من رجولة

وتسجد لأتقيت ، لاحت قدميه ، لأننى مهيا أوتيت من قوة لن أصل إلى

«حريجه وتقوّه الجسى ، وأيده وجلده . فقال :

— انظر هذا السهم الثالث فى أصل ذنبه ، والرابع والله فى بطنك .
ثم رماه ولم يخطئ . موضعه ، وكأننا أزال هذا السهم كل ما فى قسى
من رية وأدركت أنى قد وقعت من هذا الشيخ على داهية خبير من شياطين
الصحراء ، الذين ترمسوا بها وعركوا الحوادث وعركتهم فما ازدادوا إلا جراءة
وصلابة فقلت :

— هل أزل آمنًا ؟

قال : نعم .

فتمجبت من سماحته وعفوه عني ، وقد خنت عهديه بعد أن تحرمت بدمه
وأكلت من طعامه ولم أرع حق الضيافة . وقد رى من كفته وسرعة عدوه
وشدة أيده ومهارة يده ما أثبت تفوقه عني ، وأن فى مكته أن يردني قتيلا
بواحدة من هذه لأسمه بعينه قبل أن أدومسه وأعرف نى شخص هو ،
ولكنه أبى إلا أن يكون سمحاً كريماً .

فزلت ودفعت إليه خُطام الفحل وقت :

— هذه إنك لم يذهب منها ورقة .

وَأَنَا مُصْرَمَتِي يَرْمِي سَمِيهِ يَنْجُو قَلْبِي ، وَمَا نَجَيْتُ وَ .

— أقبل !

فأقبلت والله خوفاً من شره لاخيه فى حيرة

ودوت حتى صرت بين يديه ، يرمي سميهِ ينجو قلبى ، وما نجيت و .

أتهيبه وقد جف ريقى ، وتصيب العرق من جبينى ، وعلا وجهى الخزي
والخيبة ، وكنت منه كما يكون الولد الصغير المذنب أمام والده الوقور ، قال :

— أى هذا ! ما تظن أنى فاعل بك ؟

قلت لا أدرى ، ولكبك تقدر أن تفعل الكثير ، لولا أنك أمنت بزولى .

قال : ما أحسبك جشمت الليلة ما جشمت إلا من حاجة .

قلت : أجل .

قال : — لو اقتصرت حتى الصباح ، وأشرت إلى بحاجتك ، ولم تخفى

ذمتى وتتسلل فى سُدفة الليل بإبلى كما يفعل اللصوص الهياون ، لأعطيتك رزقاً

وفيراً ولكن أبى عليك ضعف هملك إلا أن تفعل ما فعلت ، وليس لك عندي

بعد كل هذا إلا بعيرين ، فاقربهما وامص لطيتك ، وإياك أن تعود لمثلها .

كان هذا أعجب من عفوه السابق وحقنه لدمى ، وكان أبعد مما كنت

أقدر ، فوجت وأطرقت إطراقة الخزي ، وقد أكبته حدأ ، وأدركت أن له

قبلاً كبيراً رحياً ، ونفساً طيبة سخية . ولم أتنا أن أتركه دون أن أطلعه على حقيقة

أمره عندي . فقلت : أما والله حتى أخبرك عن نفسك قليلاً !

ثم قلت : والله رأيت أعرايياً قط أشدّ ضرراً ، ولا أعدي رجلاً ،

ولا رعى يداً ، ولا كرم نواً ، ولا أسحى نفساً منك .

عندت فى يمين من آمن بوقه فترتها ، ومضيت فى طريقي دون أن

أدرك أنى فاعل بك . وكان أشجع مضيف وأسهل

عذرة الفوارس^(١)

في يوم قاتظ شديد الحر ، يذوب منه أديم الأرض ، ويتوهج لهواء ،
وتضطرم اليبداء ، وقد سكنت الريح ، وأربد الجو ، وظلت الشمس تصب
على الأرض تنواظها الملهب في غير مازحة ، جلس رجل طويلاً القمه ،
عظيم الهامة ، ضخم القسما ، غليظ السفتين ، صب العود ، مفتول العضلات
أسود الوحه كأنه زبيبة ، في عوس وإمترق ، وقد رفع عصاه ونقى غير رده ،
وقبع تحت هذا الغل الصئيل يستتر من أبواب جهنم مفتحة ، وحر اليبداء ينفج
وجهه ، وأمامه إبل عديدة ترعى الحسك ، والسعدن ، مصها قائم وعصا
بارك ، وهو في شغل عمده نفسه .

وبه هو يتر من شدة غيظه يعني ، ولا يستطيع التمسك من حر
الحجير - تعرب يريح إلى ما طلع به لأن سيده ، وامرأة سيده يتر
عليها دب . وجاءه فتى أسود الوحه ، يشبه قوة وبه ودرده ، خصه :

(١) هذه صورة عذرة الفوارس كما استطعت أن أستخلصها من مكتب دارس الأدبية
والأدبية لوثوق . وهي من السورة السابعة كما وردت في نسخة دارس مشهورة
راجع II. p. 519 (H. ١٣٥٥) - H. ٢٥٣٥ - E. ١٠٠٠ - F. ١٠٠٠
وراجع شعرة مصرانية من ١٥٤ ، وراجع شرح لأرب-اللاهسي ١٢٠٠ - ١٢٠٠ ، وراجع فاعل
٢٠٠ من ٢٠٠ ، والأعرط طه في ذلك ج ١ ص ٥٢ . وراجع دارس و . . .
لوليم آن ورد من ٥١ ، وتبريري شرح من ٥١ - حذيفة ر
وراجع L. ١٠٠٠٠ of I. ١٠٠٠٠ - L. ١٠٠٠٠ .
الأدب البغدادي - حذيفة - ١٢٥ . وراجع شعرة دارس سلام ورجح
I. ١٠٠٠٠ 1840, v. 501-502

— هانتذا يا عنتره ! أما آن لك أن تريح إبلتك من هذا الأثوار المشتعل .
 — إملك تعلم يا أخى حنبل أن شداداً وامرأةً سُمّية ، لا يقصدان إلا تعذيبى ،
 وامتهانى ، ولو رحت إليهما الآن بالإبل لأوسعننى شداد ضرباً بالعصا ، وسلقتننى .
 سُمّية شتاً وقذفاً ، ولحرّ البيد هذا أهون علىّ مما ألاقى منهما .
 وما بالك مشغولاً مهمومَ البال ؟ هل ثمة ما يثير شجنتك غير ما تلاقيه من
 شداد و سُمّية ؟

— ليس هذا بالأمر الهين ، ولست أدري متى يرعوى شداد فلا يعاملنى
 معاملة العبد ، ومتى يلحقنى بنسبه ، فلا أطأطأ الرأس أمام بنى قومي ، وهم دونى
 شجاعة ، وبأساً ، وإصابة رَمِيّة .

— صبراً يا عنتره ، وسيعلم قومك عما قريب مكاتتك ، ويرون أنفسهم
 فى أمس الحاجة إليك ، وإلى حُسامك البتار ، وسهمك الصائب ، وساعدك
 المفتول ، وضربتك الشديدة . ولقد أفدت لعمري من وحدتك هذه فصرت
 أصوبَ الناس سهماً ، وأقواهم ساعداً ، لتمرسك بالرماية وأعمال الفروسية .

— والله لقد عيل صبرى ، وإن فى قلبى سيراً رهيباً أخشى أن أروح به
 لأحد ، وهو الذى يقض مضجعى ، ويطير الكرى من جفنى ، ويعتصر قلبى
 هما وكداً .

— ويك يا عنتره ! وما مرّك هذا ؟ مُخّ إلىّ به ، ولك عهدى بالألا
 ديم . ذات تعلم أنّك أملّ إخوتك المرجو ، وأنهم إن اعترفوا بك والحقوك
 ... فى ... لا اعترف به ، وإن لم يكن أشقاءك . يح لى بسرّك
 ... يحزنك تحزنك ، أو يحذلك فى أمرك هذا مخزناً

إني عاشق يا حنبل ، ولست أعرف لى حيلة أو وسيلة فى الوصول إلى قلب
من أحبها ، وإنى لأراها ، وأنا على ما فيه من امتهان ومثلة ، لا تملى إلا رعى
الإبل لشداد وشمية ، أعلى من السما كين منالا .

— وىك يا عنتره ! إن هذا الأمر جلل ، وإنك لتعرف هو ان منزلك
فى قومك ، وإنى أعرفك راجع العقل ، حصيف التفكير كريم النفس ، وما كنت
أظن أنك تحمل أمرك . وتطمح فى أن تعشق . ولكن خبرنى من التى يمت
عنتره ، وملكت عليه لُبّه ، وأرقت حفيه ؟

— ذاك هو السرىا حنبل ؟

— يا ابن أمى لقد أخبرتك أنى حريص عليك ، مؤمن فىك ، وذا
لم تبع بسرك لى فمن عساه يؤتمن عيه :

— سىس دى : فى مرنى حتى أقدم بين يدى محبوبتى من . هر لاهر
وكريمه نخلص ما يحجب عنها سواد لور ، وضعة شتى ، وحينئذ يردى حدا
شعب ، ويعرف الناس من أمره وأمرى ما ذا حريص على إخفاءه يوم .

— أخبرنى باسمها لى أعيك فى أمرك ، ولا تخش دس .

— إيه شيلة ست معاوية .

— يا لله ! أو طمح فى أن تحب شعبة ، برنوه معاوية عن ما تعرف من
صف وكبرياء . وتيه وحيداً . يعسا له رفيع من . وكبر . وغيره
ابن ذى يزن مثله ، وكيف السبيل إلى عده . وعمره حيرة برنوه . برنوه
ولا يناديك إلا يا بن لأمة لسود ، ولا تمت تر . ولا . برنوه . برنوه

صدأ ، وشداد يمين في إيدائك وتحريك ، وشمية لا تنفك عن شتمك وتسييرك .
لقد أوقعك فؤادك في مأزق حرج يا عنتره ، وكنت أظن أن الأمر أهون من
هذا ؛ فهل إلى العدول عن هذا الحب الذي لا جدوى منه ، ولا خير فيه
من سبيل ؟

— والله يا ابن أمي ، لقد غالبته مراراً فغابني ، وطردته فاستعصى عليّ ،
ولقد فكرت في أمرى هذا طويلاً ، ولا سبيل إلى عبلة إلا أن أرتفع بسؤددى
وعظم فعالى إلى مرتبة السيادة والشرف ، وإن أيام عبس لكثيرة ، وسيعرف
القوم من عنتره حين يَخْزُبُهُمُ الضر ، ويغشاهم اليأس ، ويتلمسون الساعد القويّ ،
والفتى الأبى ، والعقل الذكى ، واللسان الصارم ، والحسام القاطع فلا يحذونه
إلا لدى عنتره ، فصبراً صبراً ، وإياك أن تتم على ، أو تشي بي ، فتفسد من
الأمر ما دبرت ، وتنقض عليّ ما قدرت وأحكمت .

— لك على عهد الله يا عنتره أن أحفظ سرك في مكنون فؤادى ، حتى تنال
أمنيتك ، وتحقق طلبتك ، وإن كنت في يأس من أمرك ، ولا أجد له
مُنْفَرَجاً ، والآن أتركك للتفكير في عبلة ، وعسى أن يأتى الله بالفرج أو أمر
من عنده .

وقضى عنتره يومه هذا في تفكير وتدير ، وليس له من أمل إلا فى ساعده
القوى ، وفؤاده الأتى ، وحلاله الكريمة ، وما أن أتى المساء حتى ساق إبله إلى
مخيم شداد ، وما رآته سمية داذته :

— حالت إبلان يا عنتره ؟

— يا رب . وسأحلم لأن فلان يلبى الأوعية .

— لك تميم مكان الأوعية . فما زدت على أن جعلتني

لك خادماً ، يا ابن زبيبة ، يا مشقوق المشقرين ، يا راعي الإبل ، تالله لأخبرن شداداً بأمرك ، وإن لم يؤدبك فلن أقيم معه في بيت يأويك .

وجاء شدادٌ وهى تنهال على عنقته سباً ، وتبرق وتوعد ، وتهدد وتتوعد ، وما أن رآته حتى هَوَّت له فى عصيان عنقته لأوامرها ، وأنه أبى أن يخاب الإبل ، فتناول شدادٌ عصاً غليظة ، وأخذ يضرب عنقته بكل ما أوتى من قوة ، وهو مستلٌ للضربة ولما أمعن فى إيذائه وهو صابرٌ لا يتكلم أو يتوهم ، ارتمت سمية على عنقته تحميه من ضربات شداد ، وتشفت له ، وأخذته من يديه وهى تبكى لما أصابه فأنفلت وهو يقول :

أمنُ سُمِيَّةٍ دمعُ العينِ مذكُوفُ لو أن ذا فيك قبلَ اليومِ معروفُ
تخلتني إذا أهوى العصا قبلى كأنها صنمٌ يُغْتَدُّ معكُوفُ
العبدُ عبدُك وبذلُ مكُ ...

ومنى عندك رية ، يربك ما به ، وحته ندى لا مـ
فيه ، وبنى نرب حتى يـ نربون ، ويـ نربون نرب ، ويـ نربون نرب ،
نرب نرب نرب نرب نرب ، ونرب نرب نرب نرب نرب ، وهو
لايتك من خضام نرب نرب ، نرب نرب نرب نرب نرب ، ونرب نرب نرب نرب نرب ،
نرب نرب نرب نرب نرب نرب ، نرب نرب نرب نرب نرب ، ونرب نرب نرب نرب نرب ،
عنه ، وهو إن احتمل سمية وتـ نرب نرب ، وهى نرب نرب ، نرب نرب
حرمته ومهنته .

وبعد أيام قضاه عنقته فى غمٍ وهمٍ ، يـ نرب نرب ، ويـ نرب نرب ،
ليلاً ، لا يكلم أحداً ، ولا يحيى سمية ، ولا يطلب منها طعم ، سمى نرب نرب

يستعدون للفارة على طيء أخذاً شارقديماً ، فأخذ يشحذ سيفه ، ويريش سهامه
ويعد رحله ، وقال : قد جاءتك الفرصة يا عترة وسيلو القوم بلاءك ، ويعرفون
مضاءك .

وما هي إلا ساعة حتى تداعى القوم ، وخرجوا وخرج شداد ودعا عترة
ليكون بجانبه وقت الفارة ، وفرح عترة حين دعاه شداد وركب القوم ،
وتسابقوا نحو العدو ، وصادفوا منه غرة ، وكانت المعركة عظيمة أبلى فيها عترة
بلاء عظيماً ، فلم يقف في سبيله فارس إلا حمله بضربة واحدة ، وإذا فر
منه فوق إليه سهماً مريشاً محكماً فأصماه نحر صريعاً يتشحط في دمه ، وانتهت
المعركة سريعاً بعد أن غم بنو عبس مغنم كثيرة .

ولما وصلوا إلى ديارهم أرادوا أن يقتسموا ما غنموه ، وأراد عترة أن يأخذ
نصيبه كأحدهم ، وهو من خبروا وعابوا نحدة ، وقوة وقوة ، ولكن القوم
ردوا عليه في صلف بالغ ، وعُجبية وغلطية : ليس لك مثل نصيب أحدا ،
لأنك عبد ، فأرض بالنصف إن تثت . قار الدم في وجه عترة ، وطلاه العصب
واعترلهم ، ورفض أن يأخذ من العيمة قليلاً ، وتصاحك القوم حين تركهم
عترة محقاً مغيطاً ، وقال عمرو ابن عمه وعترة يسمع قائله : تنأ لهذا العبد ! ،
الذى يعرف صفة أمره ، وهو انشأه ، ولا يرعوى عن أنفه الكاديه ، وتعفقه
لمصضع ، بطروا إليه كيف يمسي حريان كسيماً ، ومهموماً أسيماً ، سقطع نفسه
حسرب على العيمة التي صدف عنها ، ونظر القريم إلى عترة وهو مصرف
ع ، سيرة أتمتة رسد ونياعسرون ويصاحكون .

لكن أسي

على كرامة ممتهة ، وسكرانٍ وقع للجحيل ، وفسر آية طموح لآلحد من
يقدرها قدرها ؛ بيد أن اليأس لم يملك أرملة مؤاده ، وراح يتثنى نفسه ، بن
قومه عما قريب سيستحدون به وهم في أمس الحاجة إلى سحر يياه ، وحرأة
حياه ، وحرّ مِيَاه ، وأنه سيرعمهم صاغرين على الاسترق به قبل أن يقضم
من محالب الموت أو العار أو الهزيمة .

وانصرف عترة إلى إله يرعاه في الصحراء ، غير محاط بقومه ، أو أحد
فما يأخذون فيه من لهو ومتعة ، عاكفاً على نفسه في وحدانية . وصحت مضيق
كأنه معد يمحث في محراب الطبيعة ، وأشدّ حريح يسترد عافيته ، ويتعير
القتام حراره ، ولم يكن يغشاه ، ويقطع عليه وحده إلا أخوه حسن ، يقى
له بالطعام كل يوم ، ويحادثه في تشوق قومه ويسيه ويعريه ويؤتميه . وصرى
الحذر عالماً بالاربعاء وسر وحسنة
على حسنه لصنع ويجفف من

وهو يصل رومن اخترة في طيء ، كوكو يقيمون على وثر مدس عمر
عيسى العيسى ، وقد حو ، ثر هسه وعدو به عته ، ووسرو في حو
عديدة .

وہم کتبہ حجۃ الوداع

(١) الأوصال : المعامل أو مجتمع من جمع وصلة ، - واصل
طويل الذيل وأصلها رطل

(٢) شبه الخيل اصنامة لهمام ، مسددة : سد ، سد

وأغاروا على بني عيس ذات صباح والقوم بعد نيام ، فأخذوهم على غرة
وأمنوا فيهم قتلا قبل أن يفيقوا من هول المفاجأة ، واستاقوا نعيمهم وإبلهم .
وأسرعوا عائدين إلى ديارهم ، واجتمع شباب عيس ورجالها ، وفرسانها ، وصريح
النساء يصم الأذان ، ويستحث القوم على استنقاذ أموالهم ، والأخذ بثأرهم ،
ودماء أبنائهم ، وتهيا الفرسان للحاق بالعدو ومطاردته ، وركب عنتره فيمن
ركب مليياً دعوة شداد والده ، ولكنه أبرم في نفسه أسراً ، وعزم عزماً ألا
يستमित في القتال ، ويستنقذ الأموال إلا إذا اعترف به شداد وحطم عنه
غُلَّ العبودية .

وسرعان ما لحق بنو عيس بالغزاة الموقرين بالغنائم ، والسائرين بسرعة
الإبل ، والتفت لهم بنو طيء يدفعونهم عن أسلابهم ، والتحم الفريقان ،
وعنتره لا يقاتل إلا مدافعاً ، وكادت الهزيمة تحيق بالعيسيين ، ورأى شداد من
عنتره فكوصاً عن القتال ، وحذراً في المدافعة ، وأنه لا يصول ويجول كمعاداته
فصاح به :

— كُرَّ يا عنتره !

— العبد لا يحسن الكر ، وإنما يحسن الحلاب والصَّر .

— كر يا عنتره ! ، كُرَّ وأنت حر :

وهنا امتلأت نفس عنتره زهواً ، وعاد إليها نشاطها المفقود ، وأملها
الضائع ، وومض أمام عينيه بريق المستقبل الباسم ، وتمثلت له عبلةً بشبابها
الريان ، وجمالها الفتان . وكثرت تنديه أن يغسل عن قومه العار والشنار ،
بأن يرد عشيته لشعرين لميعش في أسن ودعة . فتجمعت كل هذه الآمال في

نفسه واضطربت في حنايا صدره ، فأرغى وأزبد ، ورأى أن كل حياته معقودة
في ظُبة حسامه وسنان رمح ، فكرَّ نحو العدو كَرَّةَ الأسد الرُّبَّال يحس عرينه ،
وخاض غمار المعركة أشد بني قومه بأساً ، وأفظعهم بطشاً ، فتحاماه الفرسان ،
وتجافوا عن طريقه ، وهو يمعن فيهم قتلاً كأنه البركان الثَّور ، أو القضاء
النازل ، لا يصيب إلا أصبى ، ولا يضرب إلا أسرع ، يعد إلى الكى المدجج
بالسلاح ، الذى كره الأبطال نزاله فيرديه ، وإلى الفتى الجلد الصبور على القتال
فيصميه وهو يقول :

ومدجج كَرَّة الكبة نزله لا تُمعن هربة ، ولا مُستنم
جادت يداى له بعاجل طعنة بمثقف صدور الكعوب مقوم
فشككت بالرمح الأصم ثيابه ليس انكريم على تعد حرم
فتركته جَزَرَ السبع يُنشأ من نحر رأسه ويهجم
ورأت عيني به ندم من جن يندت بهم فتكاً ذريعاً ،
ولا يدون منه شيئاً ، أو أنهم ندم حين يشرى حتى كل يعتر سله ،
ويهد صفوفهم هداً ، وأنهم يُنوثون إليه سهامهم حتى ذمه أنهم تصبوا
تلب فرسه ، أو التوى تحتها ، ونزل عنها متجسبات سمه ، ثم يله
رأيت من دشب عينى رين فأنحست لشمه قد من يود يشرى
ورأوا أنهم من سمار عدثم ، وادو في ندر سبب شهم
وقدوا الغنم ، فتركوه لاهور وبنته و من غنم تيعت لريح
الذى تحمس قومه حين رؤى سبب سبب ، فاست عهده
لا قبل لم اليوم بينى عيسى : لأن في لأمر يسر لا مدر كره

ووقف بنو عبس ينظرون إلى العدو الهارب ، بقلوب قرحة راضية ،
والتفوا حول عنزة يثنون على شجاعته وبأسه ، ويهنتون شداداً ببلاء عنزة ،
فهو حامى الذمار ، والمدافع عن العشيرة ، وصمت شداد هنيئاً وتمثل له عنزة
في المعركة ، وكيف دافع عن قومه ، ورأى أن عنزة نخر القبيلة ، ودرثوها ، وسيد
فتيانها بأساً ونحمة ، وأنه لا غناء لها عنه ، ولا عز لها إلا به ، وهى كثيرة المدة ،
عرضة فى كل آونة للغزاة ، وأن الاعتراف به يزيد كليهما نفراً وشرفاً ، فرفع
رأسه ، وقال أشهدكم يا بنى عبس أن عنزة هو ابنى ، وأنه منذ اليوم حر ،
وأنه ابن شداد بن عمرو بن قُراد ، وأقبل على عنزة يقبله ، وتزاحم الفتيان على
عنزة يقبلونه ويهنتونه إلا ابن عمه عمرأ ، فقد أنف من أن يعترف به أو يثنى
عليه ، وأكل الحسد شراسيف قلبه ، فأشاح بوجهه عنه ، حتى لا يرى الفخر
والشرف والسؤدد يتوج بها عنزة جميعاً .

وأحرز عنزة بهذا أول انتصار له فى الشرف ، وخطا أول خطوة
فى طريق حبه المكتوم ، ولكن عمرأ ، آه من عمرو أخى عبلة ، لماذا يتنفس عليه
حريته وشجاعته ؟ . ولماذا لا يصفاه كما صافاه شباب عبس ؟ إنه كلما رآه
أعرض عنه ، ولكنه لم يعد يؤذيه كسابق عهده ببذى كلامه ، وجارح سببه ،
فقد اكتسب عنزة هبة فى النفوس ، ورفعة فى العيون . ما أحوجه إلى
مصافاة عمرو ، ايعبد له طريق عبلة ، وهى نية روحه ، وأمل قواده ، وزهرة
حياته ، ولكن كيف السبيل إليه ، وهو وعز الخلق ، شديد الصلف ، تياه
على الدس ؟ .

وهو يكن عمرز وحده هو الذى يحسد عنزة على ما أصاب من مكائبة ،

جبل قبل كثير من أشراف عبس مكانة عنتره على مفض لحاجتهم إليه ، وكانت نظراتهم إليه مزيجاً من الحسد ، والازدراء لسواد لونه ، وعدم خلوص نسبه ، ولكنه كان يقابل كل ذلك منهم بسعة صدر ، وحلم وأناة ، ولم يزد انتصاره إلا تواضعاً لهم ، وحنواً عليهم .

وكان في كل مرة يلتحم قومه في معركة يزدادون به إعجاباً ، وله إجلالاً ؛ لأنه كان دائماً الفارس المُبجَّل ، والبطل الصنديد ، وأنه عماد القوم الذي يلتفون حوله فيحرز لهم النصر ، أو يدفع عنهم الغارة الشعواء ، وإذا انقضت المعركة ترفع عن الغنيمة ، وتركها لهم ، كأنما كانت القروسية والبلاء في القتال مقصده وهدفه ، وكان قومه يتعجبون من أمره ، وقسوته على نفسه ، فلا يلهو كما يلهو الفتيان ، ولا ينظر إلى النساء نظرة فاحشة ، وإن بدت جارته غض طرفه عفة منه ، وكرم خلق .

وفي كل يوم يكسب عنتره قوباً جديدة تلتف حوله ، وتعجب به ، وعلى الرغم من سواد لونه ، وعدم خلوص نسبه ، فقد اشتته كثيرات من فتيات الأشراف ، وإذا مر بهن تهاشن ، وتغامزن ، ونظرن إليه نظرة إعجاب ، وقد لا تملك إحداهن نفسها فتقول لصويحباتها :

— يا زين عنتره ، إنه لقسوره ، فما أشد خطره ، وما أجل مسطره !! .

فترد إحداهن :

— عجباً له ! أما تهفو نفسه إلى حبيبة . أو تروده على خبيبة .

— خل عنكن ، فإنى سمعت أنه عتق .

ومن الحليمة المدنطرة ؟ .

— إنه يحب عبلة ابنة عمه .

— أوتعرف عبلة أمر هذا الحب ؟ .

— إنها متيمة ، ولكنها تخشى أخاها وأباها ، فتمروا أخوها لا يطيق منظره .

— والله ما علمنا على عترة من سوء ، وإنه ليعم الفتى ، سماحة خلق ، وترفعاً عن الدنيا ، ولطف معشر . أو ما سمعنا بتعففه عن العنائم والأسلاب غيب المارك ، وهو الذى أبقى فيها بلاءه ، وأظهر لهم مضاه ؟ أو ما ترين كيف يأوى إليه كل ليلة البائس والفقير ، وأنه يطعم الجائع ويغيث الملهوف ، ويحمل الكل ، ويفك العاني ، وينفق ماله ذات اليمين وذات اليسار في المكرمات ؟ .

وقضى التسوة ساعة في الحديث عن عترة ، كل تشيد يفصله ، وتعز به ؛ لأنه يحميهم ، ويسكل بالعدو المغير ، ويشعرون بأمن وطمأنينة لوجوده ، كأنه الحصن الركين ، والجيش المتين .

وسمع عترة ذات يوم من عترة بأنه على شجاعته ونأسه ، لا يتحلى ، لا يتحلى به العرس من فصاحة وكسن . وأنه لا يقول الشعر إلا بيتين أو ثلاثة ، وأنه لا يعرف الحب ولوعته . له متاعر جامدة ، وقلب صلد ، وليس ذلك من تيمه الديار ، وأصرى عترة إطراره طويلة قبل أن يرفع رأسه وهو يعمم ، يسده ، ثم طوى كاسيس المديريشد معلفته المشهورة ، يفصح فيها عن حبه ، أى سر حبيبته سويد ، فزده . ويشرح فيها موقعه مع مومه ، وبعثهم ربه ، مع سماحة حقه ، وتعففه ، وكرم يده ، ويسد

فيها بفروسيته ، ومدافعتهم ، في لفظ رقيق ، ومعنى دقيق ، وحسن مرهف ، وعفة لسان ، وسحر بيان .

يا دار عبلة بالجواء تكلمى وعى صباحاً دار عبلة واسلى
ولقد ذكرتكم والرمح بواهل مى ويص الهد تقطر من دمي
هودت تقبيل السيوف لأها لمعت ككبارق ثفرك المتسم
وأخذ الفتيان يرددون في كل مكان معلقة عترة ، حتى لهج بها كل
لسان ، ووعاها كل إنسان ، و رهن لهم عترة على أنه في القصاحة يتسم الذروة ،
وأنه شاعر عسر غير مدافع ، كما أنه فارسها غير مازع ، ووعى الفتيان قوله :
أتنى على بما علمت فابى سئل محالتي إذا لم أظلم
بإذا ظلمت فإن ظلمى باسل سر مذاقه كطعم العلقم^(١)
ولقد شربت من المدامة بعدما ركد الهواجر ناستوف للمعلم^(٢)
بزجاجة صفراء دات سرقة قرت برهز في الشمال مقدم^(٣)
فإذا شرت فابى مستهلك مالى وعصى وادى لي يكتم
وإذا صحت فما أقصر عن مدى وكما علمت سمائي وتكرمي
وعلموا أن عترة لن يرصى بعد اليوم بالإساءة ، وأنه يمكن لعنه وسيادته
من صر صر ، واسن الدرب ، وعرفو سر إحكامه عن النساء ، وتعفه
عن الصغار ، فإنه حب عمية لبي ملك تنعاف قسه ، ولكن هو يرصى
معاوية أوهها ، أو عمرو أحوها بعدرة صر ، وهما من أشد القوم حسداً على

(١) باسل : كربه . (٢) لشوب : يقصد به الدبر الخلو ، أو القذح الموشى

(٣) الأهر : الإريق ، والمعنى : المعز . وقى السهم : قصد أنه ورد بريح الشمال .

ما أصابه من نعمة وشرف ؟ لقد تعلق عنتره في نظرم بأمر عزيز المنال ،
ويا ليت لم يفعل ، فليس بالهين عليهم أن تخرج عزته بعد اليوم .
وسمع معاوية وعمره ما قاله عنتره في عبلة ، وغضبا أشد الغضب ، وتوعداه
وتهدداه ، وعزما على أن يزوجاها سريعا ، حتى لا تلوك الألسنة سيرتها ،
وتأمر معهم على ذلك أشراف بنى عبس من مثل قيس بن زهير ، والريبع
بن زياد حسداً لعنتره وضناً بعبلة الجميلة الشريفة أن تأوى إلى بيت هذا العبد
الغليظ للشقيرين .

وسرعان ما تقدم لعبلة من خطبها من أشراف قومها ، فزفت إليه وهي
تسح الدمع سحاً ، لأنها كانت تهوى عنتره وتعزه ، ولكن زواج عبلة لم يغير
من حب عنتره لها والتنويه بها في كل قصيدة ، ولم يزهّد بعد ذلك في النساء
زهده الأول ، ولكنه لم يكن كسائر الفرسان ، فإذا سبي امرأة دفع إليها
مهرها وتزوجها ، وأبى أن يسترقها ، كما يسترق سواه السبايا الحرار ، لأنه ذاق
طعم العبودية ، وذل الرّق ، ولم تله أي امرأة عن عبلة وحبها وفي ذلك يقول :
وكتيبةٌ كَبَّتْهُنَّ بِكْتِيَةٍ شهباء باسلةٌ يُخَافُ رداها
ورجت محموداً برأس عظيمها وتركها جزراً لما ناواها
ما ستمتُ أنى نفسها ، في موطن حتى أوفى مهرها بولاها
أغشى فتاةً الحى عند حليها وإذا غزا في الجيش لا أغشاها
وأغض طرفي إن بدت لي جارتى حتى يوارى جارتى ماواها
إني مرؤٌ سمح الخليقة ماجدٌ لا أتبع النفس اللجوجَ هواها
ولئن سألتَ بذاك عبدةً خفرت أن لا أريد من النساء سراها

وَأَجِيبُوا إِيَّاهُ دَعَتْ لِعَظِيمَةٍ وَأَعْيَنَهَا وَأَكْفَتْ عَاصَاهُ
وَكَانَ هَذَا الْخَلْقُ الرَّفِيعُ ، وَالشَّمْسُ وَالشَّجَاعَةُ ، تَغِيْظُ كَثِيْرًا مِنْ أَشْرَافِ عَبَسَ ،
وَتَزِيْدُ قُلُوبَهُمْ حَقًّا وَمَوْجِدَةً عَلَيْهِ ، وَيُودُونَ أَلَا يَحْتَاجُوا إِلَيْهِ فِي رَدٍّ عَادِيَةٍ ، أَوْ
كَشَفِ عَدُوِّ ، وَلَكِنْ أَنَّى لَمْ أَنْ يَسْتَغْنَوْا عَنْ سَاعِدِهِ الْقَوَى ، وَسَيْفِهِ الْبَتَارِ ،
وَمِنْ أَحْلَاسِ حُرُوبٍ ، وَقَدْ طَالَ مَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ بَنِي ذِيَّانٍ مِنْ قِتَالٍ أَرْبَعِينَ عَامًا ،
جَلَوْا فِيهَا عَنْ دِيَارِهِمْ ، وَنَزَلُوا بِشَتَّى الْقِبَائِلِ ، فَضَاقُوا بِهِمْ ذَرْعًا ، وَاشْتَبَكُوا مَعَهُمْ
فِي مَعَارِكٍ حَامِيَةٍ ، حَتَّى لَمْ يَبْدُ لَمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَأْوُونَ إِلَيْهِ إِلَّا ظُهُورُ خِيُولِهِمْ ، وَأَمْسَنَتْ
رِمَاحُهُمْ ، وَظَلَّتْ سِيُوفُهُمْ ؟؟

وَسَرَّعَانَ مَا بَرَهْنَ عُنْتَرَةً مَرَّةً أُخْرَى عَلَى أَنَّهَا دَرَعُ الْقَوْمِ السَّابِقَةِ ، وَحَصْنُهَا
لِلْمَتَنِ ، وَالْفَائِدَةُ عَنْهَا فِي الْمَلْعَاتِ ، حِينَ يَشْتَدُّ بِهِمُ الْكَرْبُ ، وَتَذْلُمُ الْحَرْبُ .

فَقَدْ كَانُوا فِي مَعْرَكَةٍ عَنِيْفَةٍ مَعَ بَنِي تَمِيمٍ ، بَعْدَ أَنْ ضَعُضَتْهُمْ حُرُوبُهُمْ مَعَ ذِيَّانٍ
مِنْ جَرَاءِ سَبَايَ دَاخِسٍ وَالْفُجَرَاءِ ، وَصَمَدُوا لِبَنِي تَمِيمٍ سَاعَاتٍ ، وَجَالَ الْقَوْمُ جَوْلَاتِ
صَادِقَاتٍ ، وَلَكِنْ لَمْ يَطُقْ عَبَسٌ عَلَى الْقِتَالِ صَبْرًا ، فَوَلَّتِ الْأَدْبَارُ ، وَاتَّبَعْتَهُمْ
بَنُو تَمِيمٍ يَرِيدُونَ أَنْ يَتَخَطَفُوهُمْ مِنْ خَلْفِهِمْ ، وَيَحْلُونَهُمْ هَزِيْءَةً مَاحِقَةً ، فَوَقَفَ
عُنْتَرَةُ الْقَوَارِسِ وَحْدَهُ أَمْلَمَ جُوعُ بَنِي تَمِيمٍ ، تَتَكَسَّرُ عَلَى شِبَابَةِ رِمَحِهِ ، وَظُبَّةُ سَيْفِهِ
، مَوْجُ هِجْمَاتِهِمْ ، وَهُوَ صَمَدٌ كَالْجَبَلِ الْأَشْمِ ، تَطِيرُ الرُّعُوسُ مَاءَ ضَرْهِهِ ، فَصَاصًا ،
وَتَجْمَعُ حَوْلَهُ عَصْبَةٌ مِنْ قَتِيْنِ عَبَسٍ حَتَّى رَحِلَ قَوْمُهُ لَمْ يُصَبِّ مِنْهُمْ مَدْبَرٌ إِلَّا أَنْ
تَوَارَوْا جَمِيعًا عَنِ الْأَنْظَارِ .

وَبَلَغَ الْفَيْظُ مِنْ قَيْسِ بْنِ زَهْرٍ سَيْدِ عَبَسٍ وَصَاحِبِ حَرْبِهِمْ مَبَاقِيَهُ ، حِينَ
رَأَى أَنَّ عُنْتَرَةَ وَحْدَهُ هُوَ الَّذِي نَحَى قَوْمَهُ ، فَدَهَرَ نُورَهُ تَائِفَةً ، وَقَالَ : وَاللَّهِ

ما حى القوم إلا ابن السوداء ، فلم يصمت عنقرة كسابق عهده ، وردّ عليه ردّاً قوياً ، معيراً إياه بأنه أكل من همّ ، وأنه حيرّ منه بأساً ، ويدانيه نسباً وأنه حرد . قومه ومثوام وذلك حيث يقول :

لانى امرؤ من خير عسٍ مَنصِباً	تطرى ، وأحى سائرى بالمُنصلِ (١)
بكرت تخوفنى الختوف كأننى	أصبحتُ عن غَرَضٍ الختوف بمَعزَلِ .
فأجبتها إن اللية منهل	لأنّ أن أُنقى بكأس النهل
فأقنى حياءك لا أبالك واعلى	أنى امرؤ سأموتُ إن لم أقتل
إن للنية لو تمثّل مُثَلَّتْ	مثل إذا زلوا بضكت المنزل
والحيلُ تعلمُ والقوارسُ أبى	فرتت جمعهم بضربة فيصل
لما سمعتُ دعاء مُرَّةً ، إذ دعا	ودعاء عس ، فى الوغى ومحلل
ناديت عبساً فاستجابوا بالقفا	وبكلّ أبيض صارمٍ لم يَنَحَلِ
إن يُلَاحِظُوا كَرَزَ وإن يُسْتَلَحَمُوا	اتدد ، وإن يَأْفَوْا بضكت أرل
ولقد أبيتُ على الطوى وأطله	حتى أنال به كريم المأكَلِ (٢)
وإذا حلت على الكريهة لم أقل	بمد الكريمة ليتنى لم أفعل

فاستحذى قيس بن رهير ومن كان يحسد عنقرة بمد سماعهم هذه القصيدة ،

(١) أى أن شطره من جهة أبيه من حير عبس ، ويحصى شطره الثانى من جهة أمه سيبه .

(٢) يعرض بهذا البيت والذى بعده قيس بن رهير لأنه كان أكلوا ، وكان يقدم على حروب العرب . ويعتبر من الحرب على دمه لأنه لا يحى شجاعته حتى لف قيس الرأى ، والاشد لاني عبس . هذه البيت ذرة ١٠ وصف ل أعراى قط ، فأجبت أن أراه إلا عنه . واحد من ١٥١ .

سواء زاد في عيون سائر قومه رفعةً ومكانةً . وجاءه أخوه حنبل بعد أن وصل إلى هذه المنزلة السامية ، يلح عليه في أن يعمل على أن يعترف قومه بأخوته لأمه ، كما اعترفوا به وقد أصبح سيداً من أعز أشرافهم ، وما أن عرض عنترة على قومه هذا الرأي حتى لبوا مسرعين إكراماً لعترة وتحيّة له .

وهكذا حقق عنترة ما كان يصبو إليه إلا أمراً واحداً خلف في نفسه الحسرة والألم ، ألا وهو عدم نيته عبلة ، ولبث ما بقي من حياته يتغنى بحبه الذي لا أمل فيه ، حتى صار مثلاً في الحب والوفاء ، كما كان مثلاً في الشجاعة والبأس والمضاء .

هلال (٥)

— ها قد أقبل هلالٌ يابله ، تالله إن الأمير سيسر بمقدمه سروراً لا يعدله
نزول الحيا شيبٌ جذب ، وإن نفوسنا المنيطة المحنقة الموتورة لتعطش إلى
القصاص من ذلك العبد الجبار الذي صرع كل فتیان المدينة وتطامنّت تحت قبضة
يده الروس العريزة ، وريعت منه القلوب الأبية الجريئة . كان خالد المازني يقول
هذا لرفيقه ووجهه يتهاى بشراً ، ويفصح عن نفس حزّ بها الهم وأمضها الحزن
فأصابته فرحاً ومسرة على حين غفلة ، ثم انفلت خالد من رفيقه مهرولاً وهو
يصيح خافه :

— إلى أين أنت ذاهب ؟

— إلى الأمير .

قال هذا وهو يُجدُّ في ركضه فاتمهّل حتى دخل على أمير المدينة المنورة
وهو في مجلسه وحوله وجوه أهلها وأشراف العرب ، فلما رآه الأمير يلهث بادره
سائلاً :

— مابك يا خالد ؟

— أصلح الله الأمير ! عدى خبرٌ يسرك ، فقد قدم هلال بن الأسعر
المدنية يؤس له تحمل عروضا لبعض تجارها ، ولعل الأمير قد سمع ببطشه وقوته .
إن كنت لعبد قد آدانا وطعن كرامتنا ، وصرع خيرة شبابنا ، وذوى الأيد منا ،

(٥) لأعرس ج ٣ ص ٦٠ ، وهلال بن الأسعر شاعر فارس اشتهر في العصر الأموي
وكان مشهوراً بالشجاعة والشعر ، ومات نحو ١٣٠ هـ

فلو سمح الأمير — حفظه الله — لهلال بمصارعة هذا العبد حتى يغسل عنا العار ، ويأخذ الثأر ، ويُنمّس النفوس المستخذية فأبانا لانثام على وثر وقد أمكننا الله منه .

ومن هلال هذا ؟ إلى لم أسمع به من قبل ، وما إخاله قادراً على هذا العبد العملاق ، وما أظنه إلا كهؤلاء الذين اشتهروا بالفتوة والقوة من شباب المدينة وماجاورها ، حتى إذا رأوا العبد الرومي دبّ في قلوبهم الرعب وأخذتهم الرجفة ، وكانوا في يده كخُذروف^(١) في يد صبي يطوحهم يمناً ويُسرةً ويلقيهم تحت قدميه منفضاً عليهم من شدة الإعياء والألم .

— أعز الله الأمير ! إن هلالاً قتي لا كالفتيان ، إذا رأيته هالك مضطرب ، فاشتت من جسم فارغ كأنه رجل على صهوة جواد ، ومن جثة مكنزة ، وعسق ضخم ، وهامة كبيرة ، وكنفين عريضين ، وساعدين كذراعى البكر أو أسد ، وقبضة يد كالحديد وقد ملأ جده من كل أقطارها وبواحيها ، فهو يموج في يده قوة وعافية ، وإلى أعينه فارساً شجاعاً شديد الأس والبطش ، أكثر الأس أكلاً ، وأعظمهم في حرب غناء ، وإليه كيرد مع الإبل على أهلها في كل مـ وخذ ثم يرجع إليها ولا يتزود طعاماً ولا شرباً حتى يرجع يوم ورودها . ولا يدور فيما بين ذلك شيئاً .

— وكيف هو في الصرع ؟ فإني رُبّني وبكأن يخنع عبيد هذا العدمرة أخرى أثواب الحزى والتماته ، لحسبنا ما لآتيه آتياً .

(١) الخدوف : الحلة التي يلعب بها الصبيان .

— هل لي أن أقص على الأمير — لا زال مؤيداً — بعض حوادثه حتى يستوثق مما أقول ؟ .

— امض في حديثك .

— لقد خرجت وهلالا ذات يوم تشد إبلانا ، حتى دُفَعنا إلى قوم من بكر بن وائل ، وقد أخذ منا اللقوب والكلال كل مأخذ ، فإذا نحن بفتية شباب عند بئر لهم ، وقد وردت إبلهم فلما رأوا هلالا استعظموا خلقه ، وقام إليه رجلان ودعاه أحدهما للصراع ، فاعتذر هلال بحاجته إلى ما يطفىء ظمأه من لبن وماء ، فأبى عليه ذلك حتى يستجيب له . فاعتذر ثانية بأنه ضيفٌ والضيف لا يصارع وب منزل ، ولكن يعمد إلى أشد فخل في إبلهم وأهبيه صولة ، وإلى أشد رجل منهم ذراعاً ، وأنه سيقبض على هام البعير وعلى يد الرجل فلا يمتنع الرجل ولا البعير حتى يدخل هذا في فم ذاك ، وإن لم يفعل فقد صرعوه .

فمجبوا من مقاتله وأومأوا إلى فخل من إبلهم هائج صائل ، فأناه هلال وضغط بيده على هامته ضغطة جَرَجَر^(١) لها الفحل واستخذى ورغا ، وقال : ليعطى من أحببتم يده أوجها في فم هذا الفحل . فامتنعوا وهم يتمجبون .

حسبك يا خالد ! ولا ريب عدى في صدق حديثك ، ولقد هجعت شوقي إلى رؤية هلال ، فإن ماد كرت ينبيء عن قوة جبارة ، وفتوة خارقة . فعلى به .

وأرسل الأمير بعض رجاله مع خالد ليحضروا هلالا ، فجاءوه وهو يضع

(١) حَرَّحَ البعير : نَكى

عن إبله ، وأخذوا بيده قائلين : أجب الأمير .

— ويلكم ؟ إبلى وأحمالى ؟

لا بأس على إبلك وأحمالك .

— ما حاجة الأمير إلتى ، وليس لى غرماء ، ولا أحدثت حَدَثًا ، ولقد

قدمت الساعة من رحلة مضية ؟

ثم التفت إلى خالد المازنى وقال :

— ويحك يا خالد ! ألا تخبرنى بجزية هذا الأسر ؟ أو من حق الأخوة أن

تسعى بى مع حرس الأمير دون أن توضح لى ما أنا مقبل عليه ؟

— هدىء روعك يا هلال ! فهناك كل خير إن شاء الله .

ثم انطلقوا به حتى دخلوا على الأمير فسلم عليه هلال وقال :

— جُعلت فداك إبلى وأمانتى .

— نحن ضامسون لإبلك وأمانتك حتى نؤديتها إليك .

— فما حاجة الأمير إلتى ، جلى الله فداه ؟

حينئذ أخذ الأمير يتأمل هلالاً من قبة رأسه إلى أخمص قدميه ، فرأى رجلاً

عُمَلاقاً . متينَ البناء يبطق كل عضو من جسده بحياةٍ متدفقة ، وصلابة عارمة

ومع كامل . كان فى العقد الرابع من عمره ، ترتسم على وجهه سمات السذاجة

والرحمة على الرغم مما أوتى من قوة وبأس ، عند ذلك أشار الأمير على رجل أصفر

بجانبه وقال :

— إن هذا العبد الذى ترى ، لا والله ما ترك مالمدينة عربياً يصارع إلا صرعه

وبلغنى عنك قوة ، فأردت أن يجرى الله صرع هذا العبد على يديك فتدرك
ماعنده من أوتار العرب .

طلق هلال يتأمل هذا العبد الجبار فرأى خلقة هائلة ، ومسحة غريبة ، وجسم
ضخماً ، لم يدر أطوله أكثر أم عرضه وعضلاته مفتولة بارزة ، وعنقاً غليظاً ويداً
جامية خشنة صلبة ثم أطرق برهة وقال :

— جعلنى الله فداء الأمير ، إني أنبئ نصيباً جاثع ، فإن رأى الأمير ، أن
يدعنى حتى أضع عن إبلى وأودى أمانتى وأريح يومى هذا وأحييه غداً فليفعل .
— رأى الأمير فى قول هلال ما ينبئ عن نفس هادئة مطمئنة ، وما يدل
على عقل ناضج وقلب جرىء فأجابه إلى طلبته وقال لكبير أعوانه :

انطلقوا معه فأعينوه على الوضع عن إبلى وأداء أمانته ، وانطلقوا به إلى المطبخ
فأشبعوه ، ثم التفت إلى جلسائه وحاشيته وقال : لم أر رجلين قد تكافأ
فى الخلقة والجسم ، ولعل هلالاً يحقق ظننا فيه ، وإن غدا لناظره قريب .

ذهب هلال مع أعوان الأمير فأراح إبلى وأدى أمانته ، وانصرف معهم
إلى المطبخ فقدموا إليه طعاماً شهيماً كثيراً ، فأتى على كل ما قدم إليه ، وبدأ
عليه كأنه لم يأكل ، فجهزوا له طعاماً جديداً يكفى خمسة رجال جياع فأكل
حتى شبع . ثم ظل بقية يومه على أحسن حال ، وبات ليلته شبعاً هادئاً مرتاحاً
معنيّاً به :

وأخذ خالد الناري منذ سمع هلالاً يقبل مصارعة العبد الرومى يشيع الخبر
فى المدينة ، ولبث الدس لياتهم ثلاث يفيضون فى حديث هلال والمصارعة ،
وسمعه من يروى عن هلال أخباراً عجيبة وبنوادر فى القوة والفتوة ، وأخذ

هؤلاء الذين صرّعوا على يد العبد يهلون في شأنه ، ويعظمون من قوته ، ويبالغون في صلابته ودُرْبته بالصراع ، ويشككون الناس في أمر هلال ؛ اعتذاراً لأنفسهم من الهزيمة المنكرة ، وكان كلامهم هذا يزيد الناس تشوقاً إلى رؤية الصراع وباتت نفوس أهل المدينة يساورها القلق ، وكأن كرامة العرب وضعت في كفة ميزان ، وتواعد سراة المدينة وأثريائها فيما بينهم إن صرع هلال العبد ، وغسل بقوته العار الذي لحقهم ، ورهن على أن في العرب رجالاً قد كملت رجولتهم واشتدت شكيمتهم ، وعظم بأسهم ، أن يحزّلوا له الصلات ويكرموه . بقدر ما كرمهم وأخذ بثأرهم .

كل هذا وهلال لا يدري من أمر الناس ولعظمهم واهتمامهم شيئاً ، إذ كان يغط في نومه بعد ما حل به من الأتْن والكلال طوال يومه ، وبعد ما امتلأت معدته طعاماً شهياً ، غِبَّ جوع طويل وظمّاً قتال ، وبعد ما أخذت هذه المعدة الضخمة تهضم ما استوعبت وتمتله ، وتوزعه على هذا الجسم الهائل .

ونهض في غده قبل أن تنفض الدنيا الكرى عن أجفائها ، والطيور لا تزال بعد في وُكُنَّاتها ، وضوء الفجر يشق أستار الظلام ، ونسيم الصحراء يترقرق صفاء ولينا ؛ فادى فريضة ربه ، وتفقد إبله . وسار بعيداً في الوادي كأنه يستقبل موكب شمس ، وقد ضفقت طلائمه تطل على الدي الغافية ، قهپ من سديها ، وتذب فيها الحياة والحركة . ثم عاد من رياسته موفور النشاط رخيّ البال . متهلل الوجه ، تدب العافية وانصحت في آهله قوة وعفون .

ويمم مجلس الأمير في الصبح وءيه حبة صرّف برّت^(١) وليس عليه زار .

(١) البت : الطليسان ونحوه ، وهو ثوب يشبه ثيابه الكمام ، وهو من ثياب الأعاجم

موقد شدد بعمامته وسطه ، فكان بصورته تلك يمثل الصحراء بنحشوتها وامتدادها ووعورة مسالكها . ولما طالع بيت الإمارة رأى جموعا زاخرة تحيط به ، فتقدم في سذاجة دون أن يسيرها التفاتاً ، وما أن أشرف عليهم حتى امتدت إليه العيون واشترأت الأعناق وفتحت الأفواه عجباً ورهبة ، ثم ارتفعت الأصوات بخلايط من الإعجاب والتحية والتهليل والتكبير والدعاء . وأخذ هلال يتصفح تلك الوجوه بدهشة واضطراب وحياء جم وتواضع كثير ، فلما دلف إلى مجلس الأمير ، وأقبل يسعى بين يديه — وقد فرش له في ناحية من فناء رحب يتصل ببيته ، يحيط به أشراف المدينة وندماؤه وأعوانه ازداد ما بهلال من حياء ، وحياء في أدب مفرط ، فردوا عليه تحيته وملأوا أعينهم منه ، فدخلت في أفئدتهم الروعة والإعجاب ، ووجه إليه الأمير الخطاب قائلاً : —

— لا أريد أن أزودك بنصح ، فخايلك وأسارير وجهك تنم عن فرط قوة وثقة ، إن كرامة العرب رهن يمينك فأحرص عليها وأخرجها من الصراع موفورة مصونة .

ثم قال للأصفر :

قم إليه ، فقد أرى لك أذاك بما يخزيك .

فهض العبد كالبناء المتطاوول ، وكان يلبس ثياباً^(١) وجرعاً^(٢) غليظاً من الصوف ، ونظر إلى هلال وقال : إن تزرياً أعرابى .

فأخذ هلال بئنه وأتزر به على جبهته فقال العبد : هيهات ! هذا لا يثبت ، إذا قبضت عليه جا في يدي .

(١) السناد : السراويل القصيرة (شررت) . (٢) الجرع : الفميص .

فقال هلال : والله مالى من إزار ا فدعا الأمير بملحفة ما رأى هلال ولا علا جلده مثلها ، فشد بها على حَقْوِه^(١) وخلع جُبَّتَه . ثم تقابل الخَصمان ، وأخذت الجموعُ الحاشدة تتطامع فى لفقة وشوق إلى صراع عجيب بين جبارين عاتيين كأنهما شيطانان قد تركا الجحيم لساعتهما .

جعل العبد يدور حول هلال ، ويدب إليه فى عنف وبطء كأنه الذئب يريد خَتْلَه ، وبدا على هلال كأنه منه وَجِلٌ ، وارتسمت على وجهه الحيرة . كأنه لا يدرى ما ذا يصنع به ، وهو يتقهقر أمامه خطوة خطوة . ثم دنا العبد منه دنوة فنقذ جبهته بظفروه نقذة شخب منها وجه دماً ، وتراجع العبد على إثرها وهو يسخر من هلال ، ويضحك ملء شديه ، وكأن ذلك غاظ هلالاً فتَجَهَّم وجهه واربد ، وتطير الشرر من عينيه ، فجعل يتأمل العبد فى حنق وسخط كأنه يبحث عن جزء من جسمه يقبضه منه ويعصره بين يديه ، ولكن هيهات ! فإن الرومى كان قطعاً خبيراً بالصراع ، فردّه بضربة خاطفة على فكّه الأسفل ترنح لها هلال وفقد توازنه وانغرورت عيناه ، وسال الدم من فمه ، وعتت الضجة من الجميع ، وطرقت أصوات التحميس أذنَى هلال ، وكات الضربة قد آلمته وأوجعته فاشتتاط غضباً ، ولكه ضبط أعصابه ، وأخذ يدور حول العبد فى سرعة وحذر ، ثم اقصر على رأسه فجذبها بين يديه 'فاحتثتين' ، ووضع إبهاميه فى صدغيه وأصابعه الأخرى فى أصل أذنيه ثم غمره عمرة تنديدة ، وهو يُصِرُّ على أسنانه فصاح العبد : قتلى ! قتلى ! فقال الأمير لهلال اغمس رأس العبد فى الزراب .

— ذلك لك على —

وغس رأسه في التراب وما تركه حتى خر مضطجاً عليه .
فتجاوب الفضاء العريض بصيحات القرح والإعجاب والانتصار والتهنئة
وتدقت الجموع تحيط بهلال وهو يتأمل غريمه الملقى على الأرض ، وكأنه يقول
لنفسه : كيف صرعت كل هذه القوة والدربة والعضلات ؟ وهو في ذهول عمن
حول له ثم أفانق من إطراقته فرأى الدم قد لوث ثيابه ، وجىء له بماء بضح به على
وجهه ومسحه في جبهته . فتقدم إليه الأمير ضاحكاً ملء شذقه وأخذ يربت على
ظهره ، وأمر له بمحاضرة وصلة وكسوة .
وأخذ سراً المدينة وأعيانها يتسابقون في دعوة هلال لبيوتهم كي يكرموه ،
فاعتذر في أدب جم بأنه مزعم الرحلة في أصيل يومه ، فقدموا إليه جوائزهم
وهداياهم وترك مجلس الأمير بين الهمتاف والإعجاب والتكرمة ، وقد تنى غليل
النفوس المواترة وثأر للفتوة العربية .

جحدُر (*)

شأ جحدُر بن ربيعة باليامة ، واحتضنته الصحراء منذ حيا ، فشارك الغزلان سرعة عدوها ، والذئاب شراسة خلقها ، وضراوة طبعها ، والنسور والعقبان هويَّها واقضاضها ، والصخور وعورتها وصرامتها وصلابتها ، والأسود تددة فتكها وجرأتها :

كان بحيفاً مديد القامة قد لوَّحَ حرُّ اليد وحمه تخف عارضاه ، واسمرت بشرته ، له عيان كالجرة للتهبة إذا غضب ، وكالنجم للتألق إذا رضى عن نفسه ، يدها معروقتان وساعدها مفتولان ، وأبرز سجايها الحذر فما يُخدع أو يختل ، له لسان عَضْبٌ ، وجنان ثَبَتٌ ، وبصيرة نافذة ، وبديهة خاطفة ، وحيلة واسعة ، وذكاء عجيب .

تمرَّس جحدُر باليامة منذ حداثة يبحث عن المكروه ، فيردُّها بنفس رَضِيَّة ، وشهوة قوية ، فاستند أيديه وقويت مسته ، وتمت تحاربه ، فالتف حوله الصعاليك والفتاك ، قد اتخذوه لهم إماماً وقائداً ، يدبر أمورهم ويحيك شباكهم ، ويفذ كيدهم . وهم له أطوع من سانه وأقرب من طله ، يخلوه ويرهبوه ، كما تحشى الشياطين إبليس أو أتمد خشية .

عظمت وطأة جحدُر على عرب اليامة : يغير على أحييهم حياراً ، ميهب ويفتك بمن تعرض له ويبطش برعاتهم ، ويسوق أعمهم إلى مكبه ، ونوين

(*) المستطرف ص ٢٢٤ - ١ ، والمحاسن والمساوي ص ٧٧ ، وقصص العرب

لمن تحده نفسه في قص أثره أو مطاردته ؛ لأنه كان أصوب الناس سهماً ،
وأعداهم جواداً ، وأقطعهم سيفاً ، وأجراهم قواداً ، تحيط به شُرذمة فاتكة من
لصوص العرب وشطارهم ، لا يبالون في النضال أى ميتة تهيأت لهم . قد نعموا
في صحبته بالعيش الرغد ، والمال الوفير فأحبوه وقدموا نفوسهم فدى له .

كان ذلك في أيام الوليد بن عبد الملك ، والحجاج واليه على العراق
والبادية ، فبلغ الحجاج أمر جحدر وأنه عات في الأرض فساداً ، وملاً الصحراء
شراً ، واستبد بمسالكها ودروبها ، وأباد خلقاً عديداً ، فأهم ذلك الحجاج وحز
في نفسه التي تعودت تذليل الصعاب وتيسير العسير أن يكون في حواشي ولايته
مثل ذلك العاهر الفاتك ، فأرسل إلى عامله باليمامة يوسعه ذمّاً وتأنيباً ؛ لمعجزة عن
الضرب على يدي ذلك السفاح وأمره أن يوقع به أو يحمله إليه أسيراً ، وإلا فله
الويل والثبور .

لم يكن العامل على حهل يأمر جحدر ، فظالماً جأر إليه الناس بالشكوى
وظالماً استمع لقصاص كيدهم ، وعنف غاراته ، وعظيم فتكه ونادر حراته .
في أسف وهم ، وقد أرسل في أثره الثلاثة من الفرسان تلو الثلاثة لأشهر عديدة ،
وفي كل مرة يمى بهزيمة سكراء فيقتلون ويشردون ، ولا ينجو منهم إلا
من تعلق بأذيال الهرب وبها بنفسه . وفي كل مرة يروى القارون كيف أوقع
هم جحدر ، وبكل شجاعتهم ، وأضلهم في فجاج الصحراء ودروبها ، فكم
صعد سم الحبال وأهبطهم الوديان ، وكلما أحكموا أمرهم وظلوا أنه قد أحيط به ،
وأن لا مسحة له ولا مرب . إذا هر يفر من بين أيديهم كالسهم ، يصحك
في وحرهم ويستمرى به ، حتى إذا أخذ منهم اللعوب والإعياء كل واحد .

ودارت رموسهم من الأين والكلال حمل عليهم ورجاله ، فأذا قوم مَرَّ المذاب ،
وأوردوم حياض الموت إلا من لاذا بالقرار .

ولما أيس العامل من أخذ جحدر بالعنف لجأ إلى الحيلة ، فأوطأ جماعة
من فتية بى حنظلة كلهم فارس شجاع ، اشترى بالفتك والصِّلَكة ، ووعدهم
الجمال العظيمة ، إن هُم آتوه بجحدر مغلولاً أو مقتولاً .

وعلم هؤلاء أن لا قبل لهم بجحدر وقبيله إن هم صارحوه العداء ، وأنه
لا سبيل لهم إلا الخديعة والمكر ، فأرسلوا إليه يقولون : لاسهم يتوقون إلى
السير تحت بوائه والانتطاع إليه والخضوع لأمره ، لما بلغهم عنه من عظيم الهمة .
وطول الباع في الغارة والحرب . فأخذ جحدر إلى قولهم وأدخلهم في محبته ،
ليزيد من قوته ، لأنه كان يستقل خطرم ، فلم يطن بهم سوءاً فأخذوا ينهون
معه ، وهم يترصون به الدوائر طمعاً في حماثل الأمير ، وحسداً لجحدر على ما
سلطوته ، وعظيم نفوذه ، وسعة رزقه وقد حى الصحراء فلا ينهب ولا يفتك
إلا من يمشى في ركابه .

ظل فتیان بى حنظلة في صحبة جحدر رَدَحاً من الزمان ، وعينه الحذرة
ترقبه عن كثب ، فلا يظهر منهم إلا طاعة عمياء وإخلاص في التتال وحسن
صرف في سارى ، فوقق بهم وأمن لهم ، بيد أنهم لم يفعلوا عن هدهم . وهو
أسر جحدر وقتله . وأرسلوا قد ضل إليهم فرموا أمرهم بينهم ، إلى أن
صادفوا منه غيرة فسدو وثاة ، وهو تلى عن حشد وأعوانه . وعلم جحدر
أنه علب على أمره ، فم تنوس ، أو يحدو السدة ، من كعم عطه وتقبل
الحجة بما عهد فيه من قوة وامتنال ورست - يدهم بطوى اليد طيا ، حتى

قدموا به إلى عامل اليمامة ، فكان فرحه بأسر جحدر عظيما وخشى أن يحتال على الخلاص أو يبصره رجاله ، فوجهه مع أسريه إلى الحجاج قبل أن يطمئن بهم المقام .
تسمع الناس في البصرة بأسر جحدر ، فاحتشدوا في طرقاتها يرتقبون مقدمه ، حتى يمتنعوا أنظارهم بمراى ذلك الذى جعل من بادية اليمامة جحيا والذى فتك بمئات من الخلق ، وأعيا شأنه أولى الأمر سنين ، فلما أقبل الركب لم يروا إلا رجلا نحيفا مشدود الوثائق مُنكَّس الرأس ، ، وقد توهموا أن جحدر عملاق ضخم الجثة ، كبير الهامة ، غليظ العنق ، عريض المنكبين فزاد إعجابهم به ولم كبارهم له وخوفهم منه ، فعلاصراخهم وتهديدهم .

فلما مثلوا بين يدى الحجاج ألقوه على الأرض تحت قدميه فأخذ الحجاج يتأمله ويصوب فيه بصره . ثم سأل : —

— أنت جحدر ؟

— نعم !

— ما جرأك على ما بلغتك ؟

— جور الزمان وجُرأة الجبان !

— ما مبلغ حرأتك ؟

— لو ألقى الأمير ، وجعلنى مع الفرسان لرأى منى ما يعجبه .

— إلى قاذف بك إلى حظيرة بها سبع نمرس فإن قتلك كفانا مؤونتك

وإن قتته عفونا عت لشجاعتك .

— أصبح يا أمير ، لقد قرب العرج ! !

— أمر الحجاج به بمل إلى السجن ، وأوصى أن تُحكم أغلاله ويزيد

حراسه ؛ حتى لا يفلت أو يبطش بهم ، بعد ماسمع من استهنازه بالأسد ، وأن
الفرج سيواتيه عما قريب بعد أن يصصره . ثم كتب الحجاج إلى عامله باليامة
أن يرتاد له سُبُعًا عَتِيًّا ، ويحمله إليه ، وكان صيد السبع أخف على نفس
العامل من أسر جحدر ، فارتاد له أسداً خبيثاً ، كربه للمظر قد أفى جميع
ما باليامة من حيوان ، ووضعه في قفص حديد وأغذه إلى الحجاج ، رأى الحجاج
الأسد فراحه منظره ، وأيقن أن جحدر هالك لا محالة ، وأنه لا قبل لأدمى
بمصارعة هذا الوحش البَشِيع ومع ذلك فقد أمر الحجاج بأن يلقي السبع في
حفيرة ، ولا يطعم شيئاً ثلاثة أيام ليزداد ضراوة وشراسة .

فلما انقضى الأجل للمصروب أقبل الناس زرافات ووحدانا على مكان
الحفيرة وهم يتحرقون شوقاً لرؤية هذا الصراع الموعود ، وأخذوا يتبأون بالعاقبة
ويتجادلون في مصير جحدر بحدة وعنف ، فهذا يدعى بأن جحدر سيصلح
قواده حين يرى الأسد الجائع ، وأنه سيقطعه بمخالبه ويمزقه بتيابه ويطحنه
بأضراسه ثم يلتهمه التهاماً ، وأن جحدر المسكين الذي طاب روع الآسين ،
وانتهك الحرمات وأراى للماء البريئة وادعى السطوة والبطس وحرّد من
الرحمة والعطف ، سيلقى حتفه بين يدي وحش قتي ، قد ستبد كذلك طويلاً
بملك البيداء . ومن الدس من تحمس لجحدر وآمن باقوذه لأساية ، والحيلة
والشجاعة وأن الأسد مهما كان صورياً جائعاً كئيباً الضعف ، فسجد في جحدر
يداً يفوقه أيذا وصبراً ، ودساً وحرّة ، وأن الصرع سيكون عيلاً رهيباً ،
ولكن جحدر لسائق حركته وترسه شدة ودّ وصلابة عوده سيفجج ويردى
الأسد هلكاً .

وبينا الناس في هذا الجدل إذ طلع عليهم الحجاج فخشت الأصوات .
إلا هم ، ثم استوى على مقعد مشرف على الحفيرة ، وأمر الحرس بإخراج
جحدر ، فأتى به يتعثر في قيوده ، وعليه أمارات الواثق بمنته وقوته ، الطمئن
لمصيره وعاقبته ، المدلل بمهارته وشجاعته ، ثم حط الحراس أغلاله ، وأعطوه .
سيفاً صارماً ، أخذ يفحصه ويهزه ، والتفت إلى الأمير قائلاً : —

— هل الأمير أصلحه الله عد وعده ؟

— أجل فامض إلى الحفيرة فإن الأسد ينتظرك .

فمضى جحدر لطيفته صوب الحفيرة فما أن رآه الأسد مقبلاً عليه حتى هض
وزأر زئيراً رَجَّ الجبال ، وأراع الحاضرين فأشد جحدر : —

ليثٌ وليثٌ في مجالِ ضَنِّكَ كلاهما ذو قوةٍ وسَفْكَ
وصولةٍ وبَطْشَةٍ وفَتَكِ إن يكشف اللهُ قناعَ الشكِّ
فأنتَ لي في قبضتي ومِلْكِي

ثم وقف على الحفيرة وأخذ ينظر إلى الوجوه المتطلعة إليه هُبيةً ، ويتأمل
ماحوله كأنه يتملى من الدنيا قبل أن يودعها هالكا ولكن وقفته لم تطل ،
فسرعانَ ما أدلى به إلى الحفيرة فصرخ الأسدُ عند رؤيته صرخة عظيمة ، فأحابه
هو بأعظم منها . وأقصر عليه الأسد منقضا كالصاعقة وعيناه تقدحان بالنسر ،
وأياه تدمط على الفريسة ، ومحاله مسحوزة كأنها رُسُل الموت ، ووقف
جحدر وسيفه مُصَنَّت في يده وقفة لأشوس الطلل ، الذي يوقن أن حياته
رهنُ يمينه ، وحس الناسُ "أسمه" ، وكادت حَذَقَاتُ أعيهم تنب مر .

محاجيرها ، وقد ساد الفرع وتمسكتهم الرعدة لهذا المنظر الرهيب .
ولما أصبح الأسد في متناول سيف جحدر ضربه ضربةً فلقت هامته وزأر
لها زأرة المنكسر الملوغ ، وترجَّحَ يَمْنَةً ويسرة ثم خرَّ كأنه بناء مشمخر قد
زُلزِل من قواعده وكبر الناس وعلا ضجيجهم .

وخرج جحدر يتهادى في مشيته مقبلاً على الحجاج فقال له : « الله درك
ما أخذك إليك أهل الكرامة والعفو » وأقبل وجوه القوم يهثونه ويدون
إعجابهم به . ثم خيره الحجاج بين أن يقيم عنده مكرماً ، في عز ورغد من العيش ،
أو يلحق ببيلاده على ألا يؤذى أحداً ، ولا يُحدث حدثاً ، وكان جحدر مسم
حياة الصلابة والمخاطرة ، فروى قليلاً كأنه يعقد موازنة بين ذلك الملك الشاسع
في البيداء ، وتلك السطوة الغالبة والحرية الطليقة مع ما يصحبها من حنق الأمير
وسخط الناس ، والتعرض لنضب الله جل وعز لإيذائه الأرياء ، وبين مقامه
عند الأمير في أمن ودعة وطمأنينة ، وأخيراً قال — بلى أقيم معك أيها الأمير لازل
مرفوع اللواء ميمون النقية .

تغيرت بجحدر سُبُل العيش ولكن ذكاءه الفطري ، وذهنه الثاقب ،
مكناؤه من التأدب سريعاً بأدب جلساء الأمير وحاشيته ، فزاد إعجاب الحجاج
به ، وحطى عنده ، وأصبح من خواصه ، وبعد ذلك بزمان غير طويل ولاه اليمامة
مرتع طفولته ومدرج تشبهه ، فرجع إليها أميراً مطاع الكلمة باخق بعد أن خفف
أميراً مطاع الكلمة بالرهبة والباطل .

١ - المراجع العربية

- ١ - الدكتور ابراهيم سلامة الخطابة لأرسطو
- ٢ - ابن أبي الفضائل النهج السديد ، والدر الفريد
- ٣ - ابن الأثير الكامل في التاريخ
- ٤ - ابن بطوطة تحفة الأنظار (رحلة ابن بطوطة)
- ٥ - ابن تتردى بردى (أبو المحاسن) النجوم الزاهرة
- ٦ - ابن تيمية رسائل ابن تيمية
- ٧ - ابن جبير رحلة ابن جبير
- ٨ - ابن خلدون العبر وديوان المبتدأ والخبر
- ٩ - ابن سعد الطبقات
- ١٠ - ابن سلام طبقات الشعراء
- ١١ - ابن طباطبا الفخرى
- ١٢ - ابن عبدربه العقد القريد
- ١٣ - ابن عربى ديوان ترجمان الأشواق (ترجمة يكلسون)؛
- ٢ - الفتوحات المكية
- ١٥ - ابن النوطى البغدادى الحوادث الجامعة
- ١٦ - ابن القرات تاريخ ابن القرات
- ١٧ - ابن فضل الله العمرى مسالك الأنصار
- ١٨ - ابن قتيبة ١ - الميسر والقتداح

٢ - عيون الأخبار

٣ - الشعر والشعراء

- | | |
|---------------------------------|------------------------------|
| القروسية | ٢١ - ابن القيم |
| البداية والنهاية | ٢٢ - ابن كثير |
| الأصنام | ٢٣ - ابن الكلبي |
| لسان العرب | ٢٤ - ابن منظور |
| شرح العيون | ٢٥ - ابن نباته |
| السيرة النبوية | ٢٦ - ابن هشام |
| الحجاسة | ٢٧ - أبو تمام |
| الأخبار الطوال | ٢٨ - أبو حنيفة الدينوري |
| الجمهر في تعريف الجواهر | ٢٩ - أبو الريحان البيروني |
| كتاب الروضتين في أخبار الدولتين | ٣٠ - أبو شامة |
| الأمالى ، وذيل الأمالى | ٣١ - أبو علي القالى |
| الملازمة والصوفية وأهل الفتوة | ٣٢ - الدكتور أبو العلا عفيفي |
| المختصر في أخبار البشر | ٣٣ - أبو الفداء |
| ١ - أيام العرب في الإسلام | ٣٤ - أبو الفضل إبراهيم |
| ٢ - أيام العرب في الجاهلية | |
| ٣ - قصص العرب أربعة أجراء | |
| الخراج | ٣٧ - أبو يوسف |
| المسطر في كل فن مسطر | ٣٨ - الإبيشي |

- | | |
|-----------------------|-----------------------|
| التصوف في نظر الإسلام | ٣٩ — أحمد صبري شويبان |
| فتوح الشام | ٤٠ — الأزدي |
| الاعتبار | ٤١ — أسامة بن منقذ |
| الأغاني | ٤٢ — الأصفهاني |
| بلوغ الأرب | ٤٣ — الألوسي |
| بحث عن المروءة | ٤٤ — الدكتور بشر فارس |
| خزائن الأدب | ٤٥ — البغدادي |
| فتوح البلدان | ٤٦ — البلاذري |
| الحاسن والمساوي | ٤٧ — البيهقي |
| شرح القصائد العشر | ٤٨ — التبريزي |
| كشف اصطلاحات العلوم | ٤٩ — التهانوي |
| الحاسن والأضداد | ٥٠ — الجاحظ |
| تاريخ التمدن الإسلامي | ٥١ — جورجى زيدان |
| كيف الظنون | ٥٢ — حاحى خليفة |
| الأغذية | ٥٣ — حسن عبد السلام |
| الطواسين | ٥٤ — الحلاج |
| دول الإسلام (مخطوط) | ٥٥ — الذهبي |
| الروض الأنف | ٥٦ — السهيلي |
| تاريخ غزوات العرب | ٥٧ — شكيب أرسلان |
| المفصليات | ٥٨ — "اسمى" |

- ٥٩ — الطبرى تاريخ الأمم والملوك
٦٠ — الدكتور على إبراهيم حسن المماليك البحرية
٦١ — على البجاوى ١ — أيام العرب فى الإسلام
٢ — أيام العرب فى الجاهلية
٣ — قصص العرب
٦٤ — عمر الدسوقي النابغة الذبياني
٦٥ — الغزالي ١ — إحياء علوم الدين
٢ — المقذ من الضلال
٦٧ — فيليب حقى ١ — مقدمة كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ
٢ — تاريخ العرب (ترجمة فيليب حقى)
٦٨ — القشبرى^٤ الرسالة القشيرية
٧٠ — كسناجم أدب الديق
٧١ — لويس شيخو شعراء الصراية
٧٢ — الماوردى الأحكام السلطانية
٧٣ — المبرد الكامل
٧٤ — محمد بن مسكى الأحكام السلطانية (مخطوط)
٧٥ — محمد الحضرى بك ١ — تاريخ الأمم الإسلامية
٢ — مهذب الأغاني
٣ — نور اليفين
٧٨ — محمد كامل علوى الرماضة عند العرب

الفتوة والفتيان قديماً — مجلة لغة العرب

أبريل سنة ١٩٣٠

نقح الطيب

١ — الخطط

٣ — السلوك

مجمع الأمثال

السيرة الحلبية

العقد الثمين

معجم البلدان

٧٩ — مصطفى جواد

٨٠ — المقرئ

٨١ — المقرئ

٨٣ — الميداني

٨٤ — نور الدين الحاربي

٨٥ — ولیم آل ورد

٨٦ — ياقوت الحموي

٢ - المراجع الأجنبية

- 1 — Aristotle, Nicomachean Ethics.
- 2 — Arnold - Sir. T. W. The Preaching of Islam.
- 3 — Alfred de Vigay, Servitude et Grandeur militaire.
- 4 — Ampère. J. J. Mélange d'Histoire Littéraire et de Littérature.
- 5 — Atiya. A. S. The Crusade in the Later Middle Ages.
- 6 — Barthélemy. Saint—Hilaire, Mohamet et le Coran.
- 7 — Beaumont - de, A Recherches sur L'origine de blason.
- 8 — Chateaubriand, 1. Etude Historiques, étude Sixième :Moeurs de Barbare.
2. Analyse Raisonnée de L'Histoire de France.
- 9 — Corneille, le Menteur.
- 10—Daumas (Génral), Les Chevaux du Sahara.
- 11—Delard. l'Art équestre.
- 12—Dozy, Histoire de Musulman d'Espagne.
- 13— Edourd Monetet, la Propagande Chrétienne et ses adversaires Musulmans.
- 14— Fauriel, Histoire de La poesie Provençal.
- 15— Florian, Précis Historique sur Maures.
- 16— Gautier, La Chevalerie.
- 17— Gibb: The Legacy of Islam.
- 18—Goldziher, 1. Muruwa und Din.
2. Vorlesungen über der Islam.
- 19— Guizot, Histoire de La Civilisation en Europe.

- 20— Guys, Mémoire de l'Academie des Science, Belle -
Lettres, Art de Marseille.
- 21 — Hammer - Purgstall. J. Asiatique.
- 22 — Herder. Idées sur la Philosophie de l'Histoire de
l'Humanité.
- 23 — Hérodote, Histoire.
- 24 — Huart, Histoire des Arabes.
- 25 — Lacurn de Saint - Palaye, Mémoires sur L'ancienne
Chevalerie.
- 26 — Le Bon, (G), Civilisation des Arabes.
- 27 — Laviss et Rambaud, Histoire Générale.
- 28 — Lefray (Dr. G. A.) Mankind and Church.
- 29 — Leon Caetani. Annali dell Islam.
- 30 — Maekail. Lectures on Poetry.
- 31 — Mairn, Histoire de Saladin Sulthan d'Egypte.
- 32 — Marett, Anthropology.
- 33 — Mignet, Mémoire de l'Academie de Science morales et
politiques.
- 34 — Michael, (The Elder), Chronique.
- 35 — Morgan, Mahometism explained.
- 36 — Noeldeke. Veterum Carmimum Arabicorum.
- 37 — de Perceval, Essai sur l'Histoire des Arabes.
- 38 — Pierre Damien, Chronique du Turpin.
- 39 — Prutz, Kulturgeschichte der Kreuzzuge.
- 40 — Qutremér Hist, de Sultans Mamloukes, par Makrizi.
- 41 — Raymaund, Dictionaire de Langue de Traubadours.
- 42 — Reinaud, Invasion des Sarrazins en France, en Savoye . etc

- 43 — Ritter, Der Islam.
- 44 — Roger Hoveden, Chronica Magistri.
- 45 — Schlumberger (Gustave), Récits de Bysance et de Croisade.
- 46 — Shafik Ghorbal, The Begining of The Egyptian Qustion and the Rise of Moh. Ali.
- 47 — Sismondi, de la Littérature du Midi de la France.
- 48 — Sidgwick, History of Ethics.
- 49 — Sprenger, Das Leben und die Lehere des Mohammed.
- 50 — Stanley - lane - Pool. Saladin and the fall of the Kingdom of Jerusalem.
- 51 — Tacite, Moeure de Germains.
- 52 — Thierry (Augstin) Lettre sur l'histoire de France.
- 53 — Thorning, Beitrage Zur Kenntnis Islamichen
- 54 — Taylor (E. B.) Anthrcpology.
- 55 — Viardot, Histoire des Arabes.
- 56 — Viollet, - le - Duc. Dictionnaire du Mobilier.
- 57 — Wazyf Ghali. Tradition Chevaleresque des Arabes.

كشاف الأعلام

(١)

أبو حمزة المنصور ٣١٥
 أبو الحسن بن الشاربان ٢٤٣
 أبو الحسن البجار ٢٤٢
 أبو حفص الحداد ٢٢٤
 أبو حفص الميسابوري ٢٢٤
 أبو حيفة ٢٨
 أبو رواع الإشكري ٢١٥
 أبو سفيان بن حرب ٣٨ . ١٥٠ . ١٥١
 ١٥٦ . ١٦٠ . ٢٠٧
 أبو عبيد بن مسعود ١٩٣
 أبو عبيدة بن الجراح ٢١٠ . ٢٩٩ . ٣٠٠
 أبو عثمان الهندي ٢١٦
 أبو القزويني ٢٤١
 أبو عزيز بن عمير ٣١٧
 أبو علي الصوفي ٢٤٥
 أبو الملا عيسى ٢٢١ . ٢٢٧ .
 أبو الفصل بن الترهان ٢٤٢
 أبو قيس بن الأسلت ٣٤
 أبو كبة الهدلي ٢٤ . ٣٦٣ . ٣٦٤ . ٣٦٥
 ٣٦٩ . ٣٧٠
 أبو محمد الثقفي ٢٠٩
 أبو مسلم الخراساني ٢٤١
 أبو نواس ٢٣٨
 أبو هريرة ١٤٩
 الأطل ٣١٥
 أحمد بن شهاب ٥٢
 أرسطو ٦٢ . ١٠٢ . ٢٠٢
 أسامة بن زيد ٢٣٨ . ٢٤٧ . ٢٠٦

إبراهيم بن كفيف النبهاني ١١٤
 ابن الأثير ١٦٧ . ١٧٤
 ابن أذينة الثقفي ١٠٠
 ابن أهدان القفسي ١٣
 ابن بطوطة ٢٣١
 ابن بيمية ٢٢٩
 ابن جبير ٢٣٠ . ٢٤٠
 ابن خلدون ١٦٧ . ١٧٤
 ابن عربي ١٩ . ٢٢٣ . ٢٢٤
 ابن عراده ٢١٢
 ابن عمر ١٤٥ . ١٤٦ . ١٤٩
 ابن العارضي ٢٢٣
 ابن قتيبة ٨٧
 ابن القيم ١٤٥ . ١٤٧
 ابن كلال ٨٨
 ابن الكلبي ١١٠
 ابن فاشرة ١٤
 ابن هرمة ١٥
 أن بن خلف ١٤٨
 أبو مكر الحبيش ٢٤٣
 أبو مكر الصديق ١٣٥ . ١٣٦ . ١٦٦
 ١٦٧ . ١٧٩ . ١٨٢
 ١٨٦ . ١٨٨ . ١٩٢
 ١٩٦ . ١٩٧ . ٢٠٣
 ٢٢٥ . ٣٠
 أبو الفراء ١٩
 أبو تمام ١

خبيب بن عدي ٢٠٧

خداش بن زهير ٥٢

خديجة بنت خويلد ١٤٣

خليل بن قلاوون ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٦٣

الخنساء ١٨ ، ٣٣ ، ١٢٨ ، ١٣٠

(د)

دريد بن الصمة ١٨ ، ٣٣ ، ٣٩ ، ٩٨

٣٤٢ ، ٣٤٤ ، ٣٤٦ ، ٣٤٩

دلارد ٤٣

جوماس (الجنرال) ٤١

سيدجوك ٦٢

(ذ)

ذو الإصبع العدواني ٢٠ ، ٧٤

(ر)

الريم بن زياد ١٢٦

رييمة بن مكرم ٩٨ ، ١٢٩ ، ٣٤٩

ركانة بن عبد يزيد ١٤٤

روزبة الفارسي ٢٤١

روبرت أوف سانت أليانس ٢٧٨

ربشارد قلب الأسد ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨١

٣١٥ ، ٣١٨

(ز)

الزبرقان بن بدر ١٢٢

الزبير بن العوام ١٧٩

زرعة بن عمرو ٨٣

زهير بن أبي سلمى ٦٨ ، ١٢٤ ، ١٢٨ ، ١٢٩

٢٣٤ ، ٢٣٩ ، ٢٤١

زهير بن خديجة ٥٧ ، ٣٥١

زهير بن عروة المازني ٦٨

زيد الخيل ٣٣ ، ٣٩ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦

٤٧ ، ٢٧٥

الحارث بن ظالم المري ٥٧ ، ٩٨ ، ٣٥٢

٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٣٥٧

الحارث بن ظبيان ١٩٨

الحارث بن عباد ١١٨

الحارث بن عوف ٤٠٣ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥

الحارث بن وعل ٩٧

الحارث المحاسبي ١٢

الحافظ الكندي ٢٤١

الحجاج ٤٤٧ ، ٤٥٠

حذيفة بن بدر ٥٦

حذيفة بن اليمان ٢٤٠

حسان بن ثابت ٦٣

حسان بن ربيعة ٢٤١

الحسن البصري ٢٢٠ ، ٢٤١

حسبل بن سبيع الضبي ٤٧

الحسين بن علي ٣١٠

الحسين بن الحمام ٥٤

الخطبة ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٩١

١٢٢ ، ١٢٧

الحلاج ٢٢٣

حمدون القصار ٢٢٦

حمزة بن عبد المطلب ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٧

حمل بن بدر ٥٦

حنظلة بن أبي عفرة ١١٩ ، ٣٢٣

(خ)

خارجة بن ستان ٤٠١

خالد بن جعفر السكلابي ٣٥١ ، ٣٥٣

٣٥٧ ، ٣٥٩

خالد بن الوليد ١٦٦ ، ١٨٠ ، ١٨١

١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٤

١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧

١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩١

١٩٧ ، ٢٤٠

سقوان بن أمية ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٤ ، ٢٤٠

(ض)

ضبة العيسى ٤١ ، ٤٣

(ط)

طارق بن زياد ٢٩٥

الطبري ١٦٣ ، ١٦٧ ، ١٧١ ، ١٧٤

طرفة بن العبد ١٤ ، ١٥ ، ٦٦ ، ٨١

طلحة بن عبيد الله ١٧٩

طرب بن عيم ٥٣

(ع)

عائشة أم المؤمنين ٢٠٦

عامر بن الطفيل ١٢٣ ، ٢٠٨

العباس بن مرداس ٥٦

عبد الجبار بن صالح ٢٤٣

عبد الرحمن بن حسان ١٣

عبد الرحمن بن الحسين الصوي ٢٥٥

عبد الرحمن الثالث ٢٧٤

عبد الشارق الجبني ٥٧

عبد القيس بن خفاف البرجي ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨

عبد الله بن أبي ١٧١

عبد الله بن أبي الحساء ١٦٠

عبد الله بن جدهان ٨١ ، ٨٢

عبد الله بن جعفر ٣١١

عبد الله بن رواحة ١٧٠ ، ١٨١ ، ٢٠٩

عبد الله بن سعد بن أبي السرح ١٥٣

عبد الله بن سعد الطائي ٣٧٢

عبد الله الشرماسي ٢٤٨

عبد الله بن العباس ٣٨ ، ١٥١

عبد الله بن مروان ٣٣٩

زيد بن حارثة ١٧٠ ، ١٨١ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩

زيد بن الخطاب ٢٠٩

زيد بن العدة ٢٠٧

(س)

سالم بن نصر الله الجوي ٢٤٤

سليم الأزدي ٤١٢

سعد بن أبي وقاص ١٧١ ، ٢٠٠

٢٩٠ ، ٣٠٩

سعد بن معاذ ١٧٩ ، ٢٠٥ ، ٢٠٩

سعيد بن جودي ٢٨٩

سعيد بن العاص ٣١١

سلطان الفارسي ٢٤٠

سلمى بن ربيعة ٩٠

سلعة بن الأكوع ١٤٦

سويل بن عمرو ١٥٠ ، ١٥٥

سويد بن أبي كاهل اليشكري ٢٧ ، ٤٧

السيد القميطار ٣٠٦ ، ٣١٨

(ش)

شاذان بريان ٥١ ، ٢٨٤

شارلمان ٣١٢

شداد بن عمرو ٤٢٣ ، ٤٢٤

شرف الدين الشراقي ٢٤٩

الشماع بن خمرار ٩١

الشميد الحارثي ٥٠

الشغري ٤٩

الشريف أبو العز ٢٤١

الشريف المراضي ٢٦٩

شريك بن عمرو ٣٢٦

(ص)

صلاح الدين الأيوبي ٢٤٧ ، ٢٥٠ ، ٢٥٨

٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨١ ، ٣١٥

عمرو بن الإطابة ٩٨٠٥٧ ، ٩٣٠ ، ٣٧٥

عمرو بن الأهم ٦٣

عمرو بن بركة ٣٥ ، ١٠٣

عمرو بن الجوح ١٠٩

عمرو بن العاص ١٢٧ ، ١٨٠ ، ٢١٠ ،

٢٠٥ ، ٢١١

عمرو بن عدود ١٧٨

عمرو بن عنبة ١٤٧

عمرو بن كلثوم ٥٤ ، ١٠٢ ، ١٢٩

عمرو بن معد يكرب ٤٨ ، ٥٠ ، ٣٣٢ ،

٣٣٦

عمرو بن هند ١٠٢

عمير بن الحمام ١٧٠

عمير بن وهب الجمحي ١٥٤

عنزة ٣٤ ، ٤٤ ، ٤٩ ، ٨٨ ، ٨٩ ،

١٠٢ ، ١٣٠ ، ٤٢١ ، ٤٢٢ ،

٤٢٣ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥ ، ٤٣٠ ،

٤٣١

عوف بن عطية بن الضرع ٥٢

عيسى بن مارك ٢١١

(غ)

الغوى ٨٧

غنية بنت عفيف ٦١ ، ٣٧٤

(ف)

فاطمة بنت الحضر ١٢٦

فخر الدين أبو طالب الدامغاني ٢٤٨

فضالة من كلدة ١٨

الفضل ٢٤٢

الفضل من زياد المارسي ٢٤٢

الفضيل ١٢

فلك الدين بن سمة ٢٤٨

عبد الله بن سمود ١٧٩

عبد الملك بن مروان ٨٤

عبد الله الحجام ٢٢٤

عبيد بن الأبرس ٣٧٣

عبيدة بن ربيعة التيمي ٤٢

عتبة بن أسيد الثقفي ١٦١

عثمان بن أبي طلحة ١٨٠

عثمان بن عفان ١٥٣ ، ٢٢٥ ، ٢٤٣ ، ٢٤٥

عدي بن ربيعة ١١٨

عدي بن زيد ١٢٤

عراجه بن أوس ٩٣ ، ٤١١

العرفدس ٨٦

عروة بن الورد ٨٣ ، ٨٤

عقبة بن نافع ٣١١

عكرمة بن أبي جهل ١٥٣

علي بن أبي بكر الأهوازي ٢٢١

علي بن أبي طالب ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٤٩ ،

١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ،

٢٢٥ ، ٢٢٨ ، ٢٦٩

علي بن الجعد ٢١٦

علي بن دغيم ٢٤٣

عمر بن الخطاب ٥٠ ، ١٢٠ ، ١٨٧ ،

١٩١ ، ١٩٣ ، ١٩٥ ،

١٩٧ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ،

٢٠٤ ، ٢٠٩ ، ٢١٦ ،

٢١٧ ، ٢٢٥ ، ٢٥٣ ،

٣٠٠ ، ٣٠٥

عمر بن عبد المر ٨٥ ، ٥٥

عمر الزهاني ٢٤٣

عمران بن حطان ٢١١

التند الزماني ١١
فيليب أوجست ٢٧٨

(ق)

كتادة بن النعمان ١٤٨
قنينة بن مسلم ٢١٤
قراد بن أجدع ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨
القشيري ١٢ ، ٢٢١ ، ٢٢٧
القشع بن عمرو ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ،
١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ،
٢٠٣ ، ٢٠٤

قطبة بن أوس ١١٧
قطري بن المجاعة ٢١٢ ، ٢١٣
قطز ٢٥٥

قلاوون ٢٧٦
قيس بن الخطيم ٦٤
قيس بن زهير ٥٦ ، ٤٣٥
قيس بن طاحم ٣١٧

(ك)

كأرمير ٢٥٣
كعب بن زهير ١٥٤
كعب بن مامة ١٦ ، ٨٤ ، ٨٥
كباب وائل ١٢٣
كبرة المقرية ٣٩
كورني ١١٥

(ل)

لاكورن دي سانت بلاي ١٤٠
لابيد بن ربيعة ٨٦
لحي بن حارثة بن عامر ١٠٠
لبيط بن يعمر لإنادي ٣٠

(م)

ماريت ٤٠ ، ٦٠
مالك بن دينار ٢٢١
مالك بن قيس ١٨٥
مالك بن كعب ٤٨
ماوية بنت عبد الله ٢٧٥ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ،
٣٧٨ ، ٣٧٩

المثلس ٣١
متمم بن نويرة ٨٥ ، ٨٧
مقي بن يونس ٣١٥
المتنبي ٢٥٤
المنقب العبدي ١٧٤
المنقب بن حارثة ١٣٥ ، ١٣٧ ، ١٩١ ،
١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ،
١٩٥ ، ١٩٦ ، ٢٠٤ ،
٣١٣

محمد الباقر ٢٣٥
محمد بن أحمد الحسائي ٢٥٤
محمد عليه السلام ٣٨ ، ١٣٤ ، ١٤٣ ،
١٤٨ ، ١٥١ ، ١٥٦ ،
١٥٩ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ،
١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٧ ،
١٧٩ ، ٢٠٨ ، ٢٢٥

محمد بن عبد الله بن عامر ٢٣١ ، ٢٣٢

محمد بن القاسم ٢١٥
مروة بن محكان أسعدي ٧٥
مرداس بن أدية ٢١٢
مستعصم ٢٥٢

مستقيم ردد ٢٦٩

مستصر ٢٥٢

مسعود بن أبي ساء ٧٤

مسعود بن عبد الملك ٢١٥

النضر بن الحارث ١٥٦
النضر سلطان ٢٤٢
نعمان ٢٤٣
النعمان بن شريك ١٣٥
النعمان بن مقرن ٢٠٣ ، ٢٠٢
النعمان بن المنذر ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ ،
٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ،
٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ ،
٣٥٣ ، ٣٥٢

نعم بن مقرن ٢٠٣
النمرى ٧٧
نور الدين ٢٧٩

(هـ)

هاشم بن عتبة ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠١ ، ٢١٠ ،
هان بن قبيصة ١٣٥ ، ١٣٧ ،
هار بن الأسود ١٥٣
هذيل بن مشجعة ٨٢
هردر ٢٦٦
هرقل ٢٥٦ ، ١٦٠ ، ٣٠٠
هرم بن سنان ٦٨ ، ٤٠٩
هرمز ١٨٣
هلال السهاني ٢٤١
هلال بن الأسعر ٤٣٨
هند بنت أبي سفيان ٣٨ ، ١٣١ ، ١٧٧

(و)

وداك المارقي ١٢٧
واصف عار ٧١ ، ١٠٤ ، ٢٩٧

(ي)

يزيد بن أبي سفيان ١٥١ ، ٢١٠
يزيد بن حنظلة ١٢٩
يزيد بن عبد المذان ١٨
يزيد بن مريد الشامي ١٨

مصعب بن عمير ١٤٨ ، ١٧٨ ، ٢٠٧
مضر بن الربيع ٧٨
معاوية بن أبي سفيان ٣٨ ، ٩٣ ، ١٥١ ،
٣١٠

معن بن أوس ٩٣ ، ٩٤
مفروق بن عمرو ١٣٥ ، ١٣٧
المقداد بن الأسود ٢١١
المقداد بن عمرو ٢٠٥ ، ٢٤٠
المنعم الكندي ٧٣

الملا ميراوي ٢٤٢
المهاجر بن عبد الله ٤١٢
المهلب بن أبي صبرة ٢١١ ، ٢١٢ ،
٢١٤ ، ٢١٣

المهمل ٤٦ ، ٩٦ ، ١١٨
مهي الهوى ٢٤٢
المنذر بن وهب ١٣٠
المصور بن أبي عامر ٣٠٧
موسى بن عقبة ١٤٥
موسى بن نصير ٢١٥
موشيل اليعقوبي ٢٩٨

(ن)

الناسة الحمدي ٧٢
الناسة الديلمي ٣٥ ، ٤٨ ، ٥٠ ، ٥٢ ،
٨٥ ، ١٠٤ ، ١١٢ ،
٢٣٧ ، ٣٧٣

نابليون ٢٥٧
ناصر الدين الله ٢٢٨ ، ٢٣٤ ، ٢٤٠ ،
٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ،
٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ،
٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٧٠ ،
٢٧٨

ناصر الدين بن أبي صبرة ٢٤٢
ناصر (المطاني) ٢٥٦ ، ٢٥١

الفهرس

ص

المقدمة ... ٣

معنى الفتوة ... ١١ - ٢٠

الفتوة فى اللغة ١١ - الفتوة فى الأدب ١٣ - الفرق بين الفتوة
والمروءة ١٥ - معانى الفتوة ٢٠ ...

الفتوة عند العرب ... ٢١ - ١٣٢

نشأة الفتوة ٢١ - أثر الطبيعة فى الحواس ٢٢ - الشجاعة

٢٦ - أثر الصحراء فى الجسم ٢٧ - معنى الشجاعة ٢٩ -

التأثر ٣٥ - فضل الأمهات فى الشجاعة ٣٧ - الرأى العام

والشجاعة ٤٠ - الحيل ٤١ - السلاح ٤٦ - الرمح ٤٧ -

الدرع ٤٨ - السهام ٤٩ - السيف ٥٠ - ملابسهم

فى الحرب ٥٤ - معاملتهم للأعداء ٥٥ - الكرم ٥٩ -

معانيه ٥٩ - كرم اليد ٥٩ - نواغثه ٦٠ - عنايتهم

بالضيف ٧٠ - أفصل الكرم ٧٢ - مظاهر الكرم ٧٦ -

الشائه ٧٦ - السحر ٧٧ - حب لصيفار ٧٨ -

الكريم ٧٨ - السكب ٧٩ - التعرض للصوف فى الطرقات

٨١ - حجاب الكرماء ٨١ - الايتار ٨٣ - ليسر ٨٥ -

الكرم والشجاعة متلازمان ٨٧ — كرم القلب ٩٢ —
معناه ٩٢ — مواطن الحلم ٩٥ — كرم العقل ١٠٤ — أثر
الصحراء في كرم عقولهم ١٠٥ — أثر المجتمع العربي في كرم
عقولهم ١٠٧ — أثر ديانة العرب في كرم عقولهم ١٠٨ —
الجن والنول ١١١ — الوفاء بالوعد ١١٥ — أثر الصحراء
في الوفاء ١١٦ — الحرب والوفاء ١١٦ — المجتمع والوفاء
١١٧ — حماية الضعيف ١٢٠ — حماية الجار ١٢١ — النجدة
١٢٧ — فك العاني ١٢٨ — الدفاع عن المرأة ١٢٩ .

الفتوة في الإسلام ١٣٣ ١٤٢

الإسلام دين الفطرة ١٣٣ — الإسلام وأخلاق الجاهلية ١٣٤
— توجيه الإسلام للعرب ١٣٩ — الفرق بين رشد العقل الجاهلي
يرشد العقل الإسلامي ١٤٠ — الإسلام وصفات الفتوة ١٤٠

سيد الفتيان ١٤٣ - ١٦٥

استعمال القوة في الإسلام وأسبابها ١٤٣ — مصارعة النبي
١١٤ — مسامحته لسواه ١٤٥ — مسابقته بين الخيل ١٤٥ —
لفضال فارسي ١٤٦ — تنجاسته عليه السلام ١٤٩ — كرمه
١٥١ — كرمه ١٥٢ — كرم عقله ١٥٥ — وفاؤه ١٦٠
حبيته لضعيف ١٦١ .

فتيان المسلمين ١٦٦ - ٢١٩

- قوة الصعابة في الحروب ١٦٦ - أدبهم ١٦٧ - الشجاعة
١٦٨ - بواعثها الإسلامية ١٦٩ - يوم مؤتة ١٧٠ -
حمزة بن عبد المطلب ١٧٥ - علي بن أبي طالب ١٧٨ -
خالد بن الوليد ١٨٠ - المثني بن حارثة ١٩٢ - القمقاع
ابن عمرو ١٩٦ - سعد بن معاذ ٢٠٤ - مصعب بن عمير
٢٠٧ - خبيب بن عدي ٢٠٧ - زيد بن الدثينة ٢٠٧ -
أبو محجن الثقفي ٢٠٩ - هاشم بن عتبة ٢١٠ - الخوارج
٢١١ - المهلب بن أبي صفرة ٢١٢ - قطري بن الفجاءة
٢١٣ - قتيبة بن مسلم ٢١٤ - محمد بن القاسم ٢١٥ -
موسى بن نصير ٢١٥ - تعاليم عمرو بن الخطاب في القروسية
٢١٦ - كرم فتيان المسلمين ٢١٨

الفتوة الصوفية ٢٢٠ - ٢٣٣

- اتصوف يأخذ من الفتوة ٢٢١ - معاني الفتوة عند المنصوفة
٢٢٣ - أهل الملامة ٢٢٤ - متصوفة بيسابور ٢٢٥ -
العيارون والشاطار ٢٢٦ - رأى ابن تيمية في الفتوة "الصوفية"
٢٢٨ - ابن حبير يتكلم عن الفتوة والفنيان ٢٣٠ -
ابن بطوطة والفتيان ٢٣١

٢٥٨-٢٣٤ فتوة المترفين

الصيد ٢٣٤ — الطرد في الجاهلية ٢٣٤ — أسامة بن منقذ
والصيد ٢٣٩ — الناصر لدين الله ٢٤٠ — سلسلة القتبان
٢٤٠ — أنظمة الفتوة ٢٤٣ — رمى البندق ٢٤٥ — كأس
الفتوة ٢٤٦ — شجاعة أسامة بن منقذ ٢٤٧ — الفتوة بعد
الخليفة الناصر لدين الله ٢٤٨ — صلاح الدين الأيوبي وفتوة
الناصر ٢٥٠ — الممالك ٢٥٢ — نظم الفتوة لديهم ٢٥٣ —
الممالك والحروب الصليبية ٢٥٥ — السلطان الناصر ٢٥٧ —

٣١٩-٢٣٥ بين فتوة العرب وفروسية الغرب

تعريف الفروسية الغربية ٢٦٠ — أطوارها ٢٦٠ — الطور
الإقطاعي ٢٦١ — الطور المسيحي ٢٦٢ — طور الحب
٢٦٣ — روافد الفروسية الغربية ٢٦٤ — الألمان ٢٦٥ —
أثر العرب في الفروسية الغربية ٢٦٧ — أثر الأندلس
٢٦٩ — لغة البروفنس ٢٧١ — الروايات والقصص ٢٧٣ —
الشعر ٢٧٤ — نماذج من أخلاق العرب بأسبانيا ٢٧٥ —
الحروب الصليبية وأثرها في فروسية الغرب ٢٨٦ — صلاح الدين
الأيوبي ٢٧٨ — أثر الممالك ٢٨٢ — أثر العرب في احترام المرأة
٢٨٤ — التروبادور ٢٨٧ — موازنة بين فروسية الغرب
وفتوة العرب ٢٩٤ — تعليم الدين ٢٩٤ — السامح ٣٠٠ —

الديمقراطية العربية ٣٠٣ — الأصول الدينوية للفروسية
 القرية والموازنة بينها وبين الأصول العربية ٣٠٥ — القتال
 ٣٠٦ — الكرم ٣٠٨ — التعصب الدينى ٣١٣ — كرم
 القلب ٣١٥ — تعاليم العرب فى القتال ٣١٨ — الوفاء بالوعد ٣١٨

صور من الفتوة العربية ٣٢٠-٣٥٣

٤١٢	السخى العدا	٣٢١	مروء ووفاء
٤٢١	عنزة القوارس	٣٣١	فارس الشهباء
٤٣٨	هلال	٣٤٢	حامى الطعينة
٤٤٧	جحدرد	٣٥١	نار
٤٥٤	المراجع العربية	٣٦١	تأبط شراً
٤٥٩	المراجع الأجنبية	٣٨٢	قى كريم
٤٦٢	كشاف الأعلام	٣٨٩	لا حر بوادى عوف
٤٦٩	الفهرس	٣٨٩	هبة

To: www.al-mostafa.com